

صانع السيوف

روبرت بار

ترجمة رشا صلاح الدخايني



صانع السيوف

تأليف
روبرت بار

ترجمة
رشا صلاح الدخاخي

مراجعة
مصطفى محمد فؤاد



The Sword Maker

Robert Barr

صانع السيوف

روبرت بار

الناشر مؤسسة هنداوي

المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شيتت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة

تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +

البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org

الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبرُ الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ليلي يسري

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٢٤٣٦ ٧

صدر الكتاب الأصلي باللغة الإنجليزية عام ١٩١٠.

صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢١.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب، وتصميم الغلاف، والترجمة العربية لنص

هذا الكتاب مُرَحَّصة بموجب رخصة المشاع الإبداعي: نَسْبُ المُنْصَف، الإصدار ٤.٠. جميع

حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي خاضعة للملكية العامة.

المحتويات

٧	١- عرض لفتح النهر
٢٣	٢- إبرام الصفقة
٤٣	٣- انقسام في صفوف عصابة الحدادين
٦١	٤- الرحلة المضنية للأب أمبروز
٧٩	٥- كونتيسة فون ساين ورئيس أساقفة كولونيا
٨٥	٦- السر المخفي عن الكونتيسة
٩٥	٧- تمرّد في البريّة
١١٣	٨- القائد المتغيب والأموال المفقودة
١٢٩	٩- عرض زواج رسمي
١٤٣	١٠- اجتماع كارثي
١٦٥	١١- مال وفيرٌ بأجنحةٍ يطير!
١٨١	١٢- مارجريف فورستنبرج الأحمر الضاحك
١٩٩	١٣- «قد صدر الحكم: هيا، فلتستعدّا!»
٢٠٩	١٤- سجين إيرنفيلس
٢٢٥	١٥- التقاء الحبيين
٢٣٣	١٦- السيدة النبيلة تشقُّ صفوف القراصنة وتفتن رئيسهم
٢٥٣	١٧- «للإمبراطورة، لا للإمبراطورية»
٢٦٣	١٨- صانع السيوف في ورطة
٢٧٧	١٩- تبادل الوعد بالزواج في الحديقة

صانع السيوف

٢٨٥ - لغز الغابة
٢٩٥ - زواج سري
٣٠٧ - ٢٢- فليحيَ جلالة الإمبراطور والإمبراطورة!

الفصل الأول

عرض لفتح النهر

إذا أخذ المرء وضِع مدينة فرانكفورت الإمبراطورية بعين الاعتبار، لم يكن ليتوقَّع حشدًا مُتجمِّعًا كهذا الذي كان في قبو القيصر داخل حانة راينجولد. أما خارجها، فقد امتلأت الشوارع بالشغب والفوضى؛ إذ أرهقت حالة احتياج سادت بين جموع الشعب جهودَ سلطات المدينة لإحكام قبضة السيطرة عليهم ومنع تطوُّر أعمال الشغب التي قد يترتب عليها تدميرُ جزئيٍّ على الأقل لهذه المدينة التي كانت عامرةً بالازدهار فيما مضى. وبالطبع، كان بإمكان سكان فرانكفورت التذرُّع ببعض الأعدار التي تُبرِّر صخبهم. وعلى أيِّ حال، توقَّفت جميع الأعمال التجارية تمامًا بصفة مؤقتة. لقد توقَّف العمال المهرة عن العمل منذ فترة طويلة، كما كان ينضمُّ الآن إلى صفوف العاطلين من حينٍ لآخر رجالُ الدين وأشباههم، والمُحاسبون الخبراء، والباعة المُقنَّعون، وأصحاب المتاجر الصغيرة؛ نظرًا لأنه لم يكن أحد يملك المال اللازم لشراء ما يتخطَّى ضروريات الحياة. ومع ذلك، كانت مَخازن فرانكفورت مُمثلة عن آخرها، بجميع أنواع الأشياء التي قد تفي باحتياجات الشعب، وبالنسبة إلى الشخص الجاهل، بدا أنه من المُجحف أن يتضوَّر جوعًا هو وأسرته بينما تتكدَّس في الشوَن المحاصيل الزراعية لمنطقة الجنوب، وقد امتلأت مُستودعات ضخمة بكميات قماش من فرانكفورت والمناطق المحيطة تكفي لكسوة عشرة أضعاف عدد الصعاليك الذين كانوا يجوبون الشوارع.

تركَّز غضب الناس على شخصٍ واحد، ورغم أنه صاحب أعلى منصبٍ في البلاد، فيجب إلقاء اللوم عليه بالطبع ولكن بصفة ثانوية؛ إلا أنه ليس الوحيد المسئول بصورة أساسية عن هذه الأوضاع المتردية. لقد هَرَمَ الإمبراطور الذي اتَّسم حكمه دومًا بالضعف منذ أن اعتلى العرش، وأصبح بدينًا وفظًا، ولم يُعد يهتمُ بشيء سوى إبريق نبيذه الذي يكون باستمرار عند مرفقه. هكذا أسفر ضعفُ الحكم، من البداية، عن جعل اليد العليا في البلاد

للنبلاء، والآن سيفرض إخضاعهم مرةً أخرى خوض حرب أهلية. إن هؤلاء النبلاء الجالسين بأريحية في قلاعهم ولديهم كمية وفيرة من النبيذ في أقبيتهم والذرة في صناديقهم لم يكونوا عابثين بمشاكل المدينة. وفي تلك الفترة الطويلة من الحكم، فرض أولئك الذين يعيشون على جانبي ضفة نهر الراين ويُرَاقبون من قلاعهم المرتفعة الطريق الرئيسي للتجارة بين فرانكفورت وكولونيا — الذي يُعدُّ سوقها الرئيسية — ضرائب باهظة على التجار الذين ينقلون البضائع على طول مجرى النهر. وخلال الخمس سنوات الأخيرة، أصبح ابتزازهم شديدًا لدرجة أنهم قتلوا في النهاية الإوزة التي تَضَع البيض الذهبي؛ ومن ثَمَّ، خلا نهر الراين الآن من القوارب، وخلت فرانكفورت من المشترين.

لفترة طويلة جدًا من الوقت تطلَّعت فرانكفورت إلى الإمبراطور الذي تمتلكت مُهمَّته الحفاظ على النظام في نطاق إمبراطوريته، وعندما اجتمع التجار في النهاية ليُعِينُوا أنفسهم وبذلوا قُصارى جهدهم نحو الحصول على الحرية، كان الأوان قد فات. لقد أسفر تجمعهم عن تأسيس أسطول صغير مكوَّن من مائة قارب تقريبًا، اجتمعت عند فرانكفورت وماينتس وشقَّت طريقها معًا خلال النهر، يُرافقها أسطول به رجال مُسلَّحون، وظنُّوا أنهم سيتمكّنون من الوصول إلى كولونيا والتصرّف هناك في بضائعهم. إلا أن البارونات للصوص اجتمعوا أيضًا ونصبوا سلاسل عبر النهر عند صخور لورلاي، عند أضيق جزء منها، وما إن أدركوا أن بإمكان هذا الأسطول هزيمة أي واحد منهم، تعاونوا لأول مرة في حياتهم، وهاجموا القوارب حين اصطدمت بالسلاسل مما أسفرَ عن تشنُّتها.

كان النبلاء ولصوصهم جميعهم مُحاربين مُخضرمين، في حين أن الرجال المسلحين الذين استعان بهم التجار كانوا مجرد مُرتزقة؛ لذا فرُّوا وهم في حالة من الذعر؛ وأما أولئك الذين لم يقطعهم غرماؤهم الهمجيُّون إربًا فصاروا لصوصًا على نطاق صغير، مُنتشرين في ربوع البلاد؛ نظرًا لأنه لا طائل من عودتهم إلى العاصمة؛ حيث يُعاني قطاع كبير من السكان بالفعل من أحلك الظروف.

لم تصل إلى كولونيا بالة واحدة من البضائع؛ نظرًا لأن السارقين قَسَمُوا كُلَّ شيء فيما بينهم، بقليل من المشاجرات الفظيعة، وبعدها أغرقوا القوارب في أعماق جزء من النهر كرسالة تحذيرية، لكيلا يظنَّ تجار فرانكفورت وماينتس أن نهر الراين ملكٌ لهم. وفي هذه الأثناء، توقَّف التجار عن القتال بما أن جميع توَسُّلاتهم إلى الإمبراطور كانت تذهب أدراج الرياح. كانوا أهل تجارة، لا أهل حرب. وصرفوا خَدَمهم وتابعيهم من خدمتهم، وتدرّجًا خيَّمت المجاعة على ربوع المدينة المنكوبة.

وبعد وقوع الكارثة البحرية على نهر الراين، قام بعض التجار بمُحاولةٍ غير مُجدية لإصلاح الأوضاع، دَفَع قَادَتُهُمْ ثَمَنَهَا غَالِيًا. لقد لَجَّئُوا، بعدما رَأَوْا أَنَّهُ لَا طَائِلَ مِنْ وَرَاءِ تَوَسُّلاتِهِمْ إِلَى الْإِمْبَرَاطُورِ، إِلَى الْأُمَرَاءِ النَّاخِبِينَ السَّبْعَةِ، الَّذِينَ كَانَ مِنْ بَيْنِهِمْ رُؤَسَاءُ الْأَسَاقِفَةِ الْمُؤَلَّعِينَ بِالْحَرْبِ، الْخَاصِّينَ بِكُولُونِيَا وَتْرِيفِيسَ وَمَاينتَسَ، مُطَالِبِينَ إِيَاهُمْ بِعِزْلِ الْإِمْبَرَاطُورِ، وَقَدْ كَانَتْ لَدَيْهِمْ السُّلْطَةُ لِلْقِيَامِ بِذَلِكَ، وَانْتَخَبَ ابْنُهُ بَدْلًا مِنْهُ. وَلَكِنْهُمْ أَغْفَلُوا حَقِيقَةَ أَنَّ أَغْلَبِيَّةَ الْأُمَرَاءِ النَّاخِبِينَ أَنْفُسَهُمْ، وَعَلَى الْأَرْجَحِ رُؤَسَاءُ الْأَسَاقِفَةِ أَيْضًا، يَسْتَفِيدُونَ بِطَرِيقَةٍ مُبَاشِرَةٍ أَوْ غَيْرِ مُبَاشِرَةٍ مِنْ عَمَلِيَّاتِ الْقَرَصَنَةِ الَّتِي تَنَمُّ عَلَى نَهْرِ الرَّايْنِ. تَمَثَّلَتِ الِاسْتِجَابَةُ لِهَذَا الطَّلَبِ فِي الْإِعْدَامِ الْفَوْرِيِّ لِثَلَاثَةِ مِنْ كِبَارِ التَّجَارِ، وَحُبْسِ عَدَدٍ مِنْهُمْ، وَتَحْذِيرِ الْبَاقِيَةِ بِأَنْ يَلْزِمَ كُلُّ مَنْهُمْ حُدُودَ اخْتِصَاصِهِ، تَارِكِينَ السِّيَاسَةَ الْعُلْيَا لِمَنْ هُمْ حُكَّامُ الْبَطْرِطَةِ. أَدَّى هَذَا الْجُهْدُ الْخَاطِئُ إِلَى قَبْضِ رُؤَسَاءِ الْأَسَاقِفَةِ الثَّلَاثَةِ عَلَى الْأَمِيرِ رُولَانْدِ، الْابْنِ الْوَحِيدِ لِلْإِمْبَرَاطُورِ، وَحَبْسِهِمْ إِيَّاهُ فِي قَلْعَةٍ إِيرِنْفِيلِسَ، وَهِيَ قَلْعَةٌ حَصِينَةٌ تُطُلُّ عَلَى نَهْرِ الرَّايْنِ يَمْتَلِكُهَا رَئِيسُ أُسَاقِفَةِ مَاينتَسَ، الَّذِي أَصْبَحَ بِهَذَا وَصِيًّا عَلَى الشَّابِّ، وَمَسْئُولًا أَمَامَ أَخُوَيْهِ رَئِيسِ أُسَاقِفَةِ كُولُونِيَا وَرَئِيسِ أُسَاقِفَةِ تْرِيفِيسَ عَنِ الْحِفَافِ عَلَى سَلَامَةِ الْأَمِيرِ. وَيُقَالُ إِنَّ الْأَسَاقِفَةَ كَانُوا رَاضِينَ تَمَامًا عَنِ الْإِدَارَةِ الضَّعِيفَةِ الَّتِي كَانَتْ مَوْجُودَةً آنَازْكَ فِي فِرَانْكَفُورْتِ بَحِثْ لَا يَرِغِبُونَ فِي التَّغْيِيرِ؛ وَلِذَا أُخْرِجَ الْفَتَى مِنَ الْعَاصِمَةِ، حَتَّى لَا يَخْضَعُ مَوَاطِنُو فِرَانْكَفُورْتِ لِإِغْرَاءِ تَنْصِيْبِهِ حَاكِمًا لَهُمْ، وَيَحَاوِلُوا قَلْبَ الْأَوَاضَاعِ الرَّاهِنَةِ رَأْسًا عَلَى عَقْبِ.

وَنَظَرًا لِأَنَّ هَذَا كَانَ هُوَ الْوَضْعُ الْعَامُّ فِي فِرَانْكَفُورْتِ، فَضْلًا عَنْ مُعَانَاةِ الْجَمِيعِ الْكَابَةِ وَالْيَاسِ، وَتَضُّورِ الْغَالِبِيَّةِ الْعَظْمَى جَوْعًا، لَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُسْتَغْرَبِ أَنْ يَكُونَ الْقَبُو الرَّئِيسِي فِي حَانَةِ رَايْنَجُولْدِ فَارِعًا، رَغْمَ أَنَّهُ فِي أَوْقَاتِ الرِّخَاءِ كَانَ مِنَ الصَّعْبِ أَنْ تَجِدَ مَقْعَدًا هُنَاكَ بَعْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ. أَمَا فِي قَبُو الْقِيَصَرِ الْأَصْغَرِ، عَلَى جَانِبِي الطَّائِلَةِ الطَّوِيلَةِ الْوَحِيدَةِ، فَقَدْ كَانَ يَجْلِسُ مَجْمُوعَةٌ مِنَ الشَّبَابِ يَصِلُ عَدْدُهُمْ لِلْعِشْرِينَ، يَأْكُلُونَ الْخُبْزَ الْأَسْمَرَ وَيَحْتَسُونَ نَبِيذَ الرَّايْنِ، وَيَقْضُونَ الْوَقْتَ مَا بَيْنَ الدَّنْدَنَاتِ الصَّاخِبَةِ وَسَرْدِ الْحِكَايَاتِ. لَقَدْ كُونُوا حَلَقَةً مُغْلَقَةً، وَكَانُوا لَا يَسْمَحُونَ بِدُخُولِ شَخْصٍ غَرِيبٍ إِلَى دَائِرَتِهِمْ إِذَا ارْتَفَعَ صَوْتُ وَاحِدٍ مُعَارِضٍ عَلَى دُخُولِهِ؛ وَلَكِنْ رَغْمَ هَذِهِ الْخُصُوصِيَّةِ لَمْ يَكُنْ وَسْطَ هَذِهِ الصَّحْبَةِ قَطْرَةٌ دَمٍ وَاحِدَةٍ مِنَ الدَّمَاءِ النَّبِيلَةِ. وَرَغْمَ ذَلِكَ، كَانُوا يَنْتَمُونَ إِلَى صَفْوَةِ الْحَرْفِيِّينَ؛ الَّذِينَ كَانَ أَغْلَبُهُمْ مِنْ صُنَاعِ الْأَدَوَاتِ الْمَعْدَنِيَّةِ، الَّذِينَ كَانَ مِنْهُمْ بَارِعُونَ فِي صِنَاعَةِ الْأَدَوَاتِ الْحَدِيدِيَّةِ، وَطَارِقُونَ لِلنَّحَاسِ، وَمُصَمِّمُونَ لِحَلِيِّ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ. كَانُوا يُطْلَقُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ «الْحَدَادُونَ الْعِظْمَاءُ»، أَمَا الْآنَ، فَقَدْ كَانُوا مِثْلَهُمْ مِثْلَ غَيْرِهِمْ، لَا عَمَلَ لَدَيْهِمْ. وَرَغْمَ تَنْشِئَتِهِمْ فِي الْمَدِينَةِ، فَقَدْ كَانُوا

جميعاً شباباً أقوياء البنيان وشجعاناً؛ وبالتأكيد يُعدُّ تَارْجُحَ المطارق تدريباً جيداً لعَضَلات الذراعَيْن، وفي تلك الأوقات العصيبة، الشاب الذي يعجز عن الاعتناء بنفسه بعصاه وقبضتيه من المُحتمَل أن يواجه المخاطر إذا غامرَ بالخروج بعد حلول الظلام.

كان هذا بالطبع هو السبب الرئيسي لتأسيس عُصبتهم، وإذا جرت مهاجمة واحد من مجموعتهم، تأتي الصيحة السريّة للعُصبة بالمساعدة الفورية من جانب أيٍّ من الأعضاء الموجودين في نطاق السَّمْع. ونظراً لعدم انتمائهم إلى الجيش أو الطبقة الأرستقراطية، فلم يكن يُسَمَح لهم بحمل السيوف، ونيل هذا الامتياز كان أحد أهداف عُصبتهم. بالتأكيد، كل فرد من أفراد العصابة كان يَمْتَلِك سِراً سلاحاً على أعلى مستوى، رغم أنه يُخاطر برقبته إذا حمله معه جهراً. ومن بين مجموعتهم، كان هناك ثلاثة من أمهر صنّاع السيوف في جميع أنحاء ألمانيا.

لعب هؤلاء الصنّاع الثلاثة دوراً مهماً في تقديم الرجل الذي صار الآن قائد جماعتهم. جاء هذا الشاب إلى واحد منهم بأفكار تخصّ الصناعة السليمة للسيف، وموازنته، بحيث يتدبّل بسهولة من اليد كما لو كان جزءاً من الساعد. عادةً ما ينفد صبر الخبير مع نظريات الهاوي؛ إلا أنّ هذا الشاب، الذي كان كل طموحه هو صنع سيف، كان يتمتّع بمعرفة وثيقة بهذا السلاح كما هو مُستخدَم، ليس فقط في ألمانيا، وإنما في فرنسا وإيطاليا أيضاً، بحيث قدّمه صنّاع السيوف إلى زملائهم الحرفيّين في الحوانيت الأخرى، وعلموه كيف يصنع سيفاً. سمح خبراء العصابة هؤلاء — الذين كانوا يعرفون أن رولاند رغم أنه كان محظوراً عليه حملُ السيوف، كما قال مستهزئاً، فإن بإمكانه أن يستخدمه ببراعة وبدقّة أقل ما تُوصف به هو الرُّوعة — لهذا الغريب أن يحلّ ضيفاً على أحد اجتماعاتهم الأسبوعية في قبو القيصر، حيث استعرض مهارته الرائعة.

لم يَصُمِد أيٌّ منهم، ولا جميعهم معاً، أثناء مواجهته. ومن ثم، طلبوا منه أن يُعلّمهم، عارضين مبلغاً جيداً مُقابل الدروس، مُعتقدين أنهم إذا اكتسبوا ولو جزءاً ضئيلاً من براعته في استخدام السيوف، فلعلّهم يجرون على حمله ليلاً، مُعتمدين على مهارتهم لكي تُنقذهم من الاعتقال. ولكن الشاب رفض أموالهم، ورفض بمسحة عجرفة دور معلّم فنون المبارزة بالسيوف؛ ومن ثمّ انتخبوه بالإجماع ليكون عضواً في العصابة، ليتخلّوا بذلك في هذه المناسبة الوحيدة عن القاعدة التي تحظر اختيار أيّ شخص إلا أن يكون حدّاداً. وعندما قُبِلَ الغريب نتيجة التصويت، قيل له إن مُهمة كل عضو أن يأتي لمساعدة أخيه عند الضرورة؛ ومن ثم طلبوا منه أن يُعلّمهم فنون المبارزة بالسيوف. انصاع رولاند لرغبة

الجميع، ضاحكًا بعدما رأى كيف جرى حصاره، إن جاز التعبير، بموافقته، وقبل أن يمرَّ العام صار رفاقه العشرون على الأرجح من أفضل المَبارِزين في مدينة فرانكفورت.

وبعد فترة وجيزة من الكارثة التي أُلحِقَتْ بأسطول التجار عند صخور لورلاي، اختفى رولاند دون كلمة وداع واحدة لأولئك الذين كانوا يُعلِّقون عليه الكثير من الآمال. كان شديد التحفُّظ بخصوص مهنته، إن كان لديه واحدة من الأساس، ولا أحد يعرف أين مسكنه. كان يُخشى أن تكون السلطات قد أَلْقَت القبض عليه وفي حوزته السيف؛ نظرًا لأنه أصبح أكثر تهوُّرًا من غيره في حمل السلاح. ولكنه في إحدى الليالي، ظهر مرة أخرى واتخذ مقعده على رأس الطاولة وكأن شيئًا لم يحدث. ومن الواضح أنه قطع مسافة طويلة سيرًا على الأقدام؛ نظرًا لأن ملابسه كانت مغبرة وفي حالة رثَّة. ورفض أن يُدليَ بأيِّ شيء عما جرى له؛ ولكنه أقر بأنه يَشْعُر بالجوع والعطش وبأنه بحاجة إلى أموال.

وسرعان ما أشبع جوعه وروى عطشه؛ إلا أنَّ مسألة ندرة المال لم تُعالج بسهولة. كانت المجموعة بأكملها عاطلة عن العمل، باستثناء صنَّاع السيوف الثلاثة، الذين ازدهرت أوضاعهم المهنية بسبب عدم الأمان السائد في تلك الفترة بدلًا من أن تتدهور. ومن أجل رفع معنويات رولاند، وهو شابُّ ذو طبيعة ودودة متَّقدة، انتخبوه ليشغل المنصب الشاغر كزعيم لهم، بعدما انتهت فترة ولاية كورزبولد.

في ذلك الوقت، كانت العصابة تَجْتَمِع كل ليلة، بدلًا من مرة واحدة في الأسبوع، وربما يُخَمِّن المرء على نحو صحيح أن الوجبة الخفيفة المتكونة من الخبز الأسمر والنقانق تمثل الوجبة الوحيدة في اليوم بالنسبة للكثير منهم. ورغم ذلك، لم ينتقص هذا شيئًا من مرحهم، وكانت العوارض الخشبية تهتزُّ مع صخب الأغاني والضحكات، وتردَّدت اللعنات أيضًا على الحكومة المُتكَاسِلة، وعلى أمراء نهر الراين الجَشَّعين. إلا أن نعمة الخبز الأسمر والنبيد الرخيص ما كان لها أن تدوم إلى أجلٍ غير مُسمًى. لقد كانوا مَدِينين لصاحب الحانة بفاتورة ذات قيمة كبيرة، ورغم أنه أثبت صبره عليهم، مُمنِّيًا نفسه دومًا بأوقات الرخاء، فإنه تمنَّى مبلغًا على الأقل تحت الحساب. فلقد تخلَّى عنه جميع زبائنه الآخرين، وإن كانوا يُعاقرون الخمر من الأساس، فإنهم كانوا يَخْتارون مكانًا يكون الخمر فيه خفيفًا ورخيصًا. صمد صاحب الحانة بجسارة لمدة ثلاثة أشهر بعد انتخاب رولاند رئيسًا، ثم أبلغ العصابة، وهو مُتَحَسِّر على قدره، بأنه مُجَبِّر على إغلاق حانة راينجولد.

صاح رولاند، وهو يقوم من مكانه على رأس الطاولة، قائلاً: «أمهلني أسبوعًا! وسأبذل قصارى جهدي للحصول على مبلغ كافٍ لدفع الفاتورة على الأقل، ولعله يكون هناك فائض لكلِّ شخصٍ منَّا.»

أثار هذا الوعد استحساناً بالغاً وقرقعة أباريق الخمر على الطاولة، والتي كانت فارغة جداً حتى شرع صاحب الحانة المُفعم بالأمل دائماً في ملئها.

قال رولاند، بينما كانوا يشربون في نخبه الخمر الذي أتى به، عرضة: «هناك شرط واحد.» وأضاف: «لكي أحصل على هذا المال لا بد أن أفعل شيئاً في المقابل. لديّ خطة في ذهني، ولكن الكشف عنها سيكون سابقاً لأوانه. فإذا نجحت، فلن يُضطر أحد منا أن يَحني ظهره أبداً على منضدة العمل، أو يطرق المعادن إلا لمتعتنا الشخصية. ولكن أنا عديم الحيلة إذا تصرّفتُ بمفردتي؛ ولذا لا بد أن تُعدوني بأنكم ستلتزمون بأي تعهد أقوم به بالنيابة عنكم، وستتبعونني في أيّ مخاطرة أختار أن أقودكم فيها.»

كانت هناك ضجة كبيرة بالمكان وعلت الأصوات الصاخبة بالموافقة.

«إذن، موعدنا بعد أسبوع من اليوم!» هكذا قال رولاند، وهو يثبت السيف في جانبه، ويلقي بالعباءة على كتفيه بحيث يُخفي تماماً السلاح الممنوع، ثم لوّح بيده إلى رفاقه المبتهجين، وخرج في ظلمة الليل.

وبمجرد أن صعد الشاب درجات القبو، وقف في الشارع الضيق كما لو أنه مُتردّد بخصوص ما يفعله. جاءه على نحوٍ خافت صوت أغنية آتية من القبو الذي خرج منه تواء، فابتسم ابتسامة واهنة وهو يستمع إلى الجوقة الحماسية التي يعرفها جيداً. ومن اتجاه القصر، تردّد صدّى أكثر شؤماً في أجواء الليل؛ الدويّ الواضح للغضب والألم والذعر والضجة التي يُحدثها الغوغاء حين يطاردهم الجنود ويضربونهم. من الواضح أن الجماهير انخرطت في مهمّتهم الخائبة والخطيرة المتمثلة في التظاهر، مُعلنين عن معاناتهم من الجوع، والسلطات تُفرّق جمعهم؛ وتجعلهم في حراك دائم.

كان الوقت لا يزال مُبكراً، لم تكن الساعة دقّت العاشرة بعد؛ كان ضوء البدر يسطع فوق المدينة، رغم ظلّمتها. أحكم رولاند عباءته عليه، وسار بسرعة في الاتجاه المعاكس الذي انطلق منه صوت الحشد المضطرب، إلى أن وصل إلى شارع فارغ العريض، وهو شارع يمتد إلى الشمال والجنوب، وينتهي طرفه الجنوبي عند الجسر القديم. وعلى طول هذا الشارع، كان يعيش أغنى تجار فرانكفورت.

استدار رولاند وتوجّه ببطء نحو النهر، فاحصاً بنظرة ثابتة المباني الطويلة الرائعة على كلا الجانبين، متدبراً سؤالاً: أيّ منها الأفضل في الوفاء بغرضه؟ فجميعها يبدو منفراً بالدرجة الكافية؛ فنوافذها مُظلمة، وأغلبها موصدٌ بإحكام؛ وبالطبع، بدا الشارع وكأنه شارع الأموات، ولقد ساهم ضوء القمر الأبيض المُنعكس على أرضيته المرصوفة بالحجر في تعزيز مظهره المهجور، بدلاً من التخفيف من وطأة ذلك.

وبالقرب من الجسر، اكتشف باباً مَتِيناً مُوَارِباً، ومن ورائه ظهر الوهج الأصفر لمصباح. تَوَقَّفَ لبرهة وفحص بدقَّةَ واجهة المنزل، الذي بدا بِجَماله المعماري الهادئ والوقور أنه دارٌّ لأحد الأغنياء. ورغم أن مصارع النوافذ موصَّدة، أظهر فحصه عن كثب أشعةً رقيقة من الضوء تتسلَّل من الشقوق؛ ومن ثم استنتج أن ثمة اجتماعاً من نوع ما قيد الانعقاد، على الأرجح اجتماعٌ سرِّيٌّ، دخل أعضاؤه دون سابق إنذار وتركوا الباب موارباً لاستقبال الوافد القادم.

فكَّرَ للحظة أن يُغامر بالدخول؛ إلا أنه عندما تذكَّرَ أن مهمَّته تتطلب إقناع رجل واحد بدلاً من إقناع مجموعة كاملة، تراجع وتذرَّع بالصبر، ولكنه حفظ في ذهنه موقع المنزل واسم صاحبه، عاقداً العزم على اختيار هذا المبنى كمسرح لمحاولته الأولى، والعودة إليه في الصباح التالي. فمن شأنه أن يخدم غرضه، شأنه شأن أيِّ مكانٍ مُماثل.

فجأةً تحوَّل انتباه رولاند إلى موقعه، حيث كان يقف في ضوء القمر الساطع؛ إذ من شارع النهر إلى شارع فارجاسه، تهادت مجموعة صغيرة وصامته في مشيتها وكأنها تسير بخطوة رجل واحد. كان ضوء القمر يسطع على نحوٍ شبه مُباشر بطول الشارع، إلا أن المنازل الموجودة ناحية الغرب كانت تقف في بريقه؛ بينما المنازل الموجودة ناحية الشرق كانت لا تزال تقف في الظلام. التصق رولاند بظهره في الحائط المُعتم على يساره، بالقرب من الباب المفتوح جزئياً؛ بينه وبين النهر. اقترب الموكب الصامت نحو الباب الموارب؛ حيث وقفوا هناك برهةً ليصطفوا في صفين، مُكوِّنين بذلك ممراً لرجل مُلتجٍ طويل القامة وحسن المظهر، والذي سار حتى عتبة الباب ثم استدار ورفع قَبَّعته مؤدياً التحية.

ثم قال: «أصدقائي، هذا لُطف منكم، ورغم أنني التزمت الصمت، فصدقوني حين أقول لكم إنني أُقدِّر بشدة موكبكم الترحيبي. والآن، ادخلوا معي لنشرب معاً كأساً من النبيذ، نخبُ «ليحفظ الله مدينتنا المنكوبة!»»

«لا، لا، سيد جوبل. الليلة ليلة مقدَّسة. لقد رافقناك بأمانٍ حتى وصلت إلى أسرتك المنتظرة، وفي ذلك اللقاء العائلي ينبغي ألا يكون هناك أيُّ دخلاء. ولكن مساء غداً، إذا استقبلتنا، فسنشرب نخب المدينة ونخبك، سيد جوبل!»

لاقى هذا الرأي استحسان الجميع، وانحنى التاجر، بعدما رأى أنهم لن يقبلوا دعوته الحالية، مُدعياً لهم وودَّعهم. وحين أغلق الباب انفضَّ الوفد في مجموعات صغيرة، وذهب كلُّ منهم في طريقه. خرج رولاند من الظلام وبادر بالحديث مع آخر رجل.

قال: «عفوًا، يا سيدي، ولكن هلا تسمح لي أن أسألك عن الاحتفال الذي شاركت فيه تَوًّا؟»

نظر الرجل إلى سائله بشيء من الانزعاج، إلا أن ضوء القمر أفسح عن وجهه لطيف وساحر على نحو استثنائي، ورغم حداثة سنّه فإنه يوحى بثقة نقية. كانت نبرة صوته أيضًا مُقْنَعَةً جدًّا وبدتْ خالية حتى من الفضول.

قال الرجل: «لم يكن احتفالًا، وإنما فقط عودة صديقنا، السيد جوبل، إلى بيته.»
«هل كان إذن في رحلة؟»

«سيدي، أنت حديث السنّ جدًّا، وعلى الأرجح لستَ مُلمًّا بمجريات الأمور في فرانكفورت.»

قال رولاند: «أنا أعيش هنا طوال حياتي.» وتابع: «أنا من سكان فرانكفورت الأصليين.»

رد عليه الرجل قائلاً: «في هذه الحالة، أنت تُظهر نفسك جاهلاً بهومها على نحو مذهل؛ وإلا لعرفتَ أن السيد جوبل هو أحد أبرز تجار المدينة؛ فهو رجل شريف ومستنير ومجتهد — قدوة لنا جميعًا، ويحظى باحترام النبلاء والبسطاء على حدٍّ سواء. نحن نُكرم أنفسنا بتكريمنا إيَّاه.»

«لا بد أن السيد جوبل فخور بمثل هذا المديح، يا سيدي، الذي يأتي — في رأيي — من شخص قد تنطبق عليه نفس الكلمات التي تستخدمها.»
انحنى التاجر برزانة على هذا الإطراء ولكنه لم يُعلّق عليه.

أردف الشاب قائلاً: «اعذرني على فضولي الزائد، ولكن من أين عاد السيد جوبل؟»
قال الآخر: «عاد من السجن.» وتابع: «لقد أخطأ في الاعتقاد بأنَّ أميرنا الشاب سيكون حاكمًا أفضلَ من والده الإمبراطور، وأن رؤساء الأساقفة كانوا يَخْشون وقوع أحداث شغب إذا ما تعدّوا حدودهم، والسيد جوبل خاض مجازفة كبيرة بفقد حياته، لا حريته فقط.»
«ما تقوله يُهمني كثيرًا، يا سيدي، وأشكرك على لطفك. وإليك عُذري لاستجوابك. أنا تُحرّكني الرغبة في العمل مع رجل مثل السيد جوبل، وأنوي أن أزوره غدًا، إن كنتَ تظنُّ أنه سيكون كريمًا بالقدر الكافي ليستقبلني.»

أجاب الرجل قائلاً: «سيستقبلُك بلا شك؛ ولكنني واثق تمامًا من أن مهمتك ستفشل. في الوقت الراهن، لا أحد منا يُشغَلُ أفرادًا، حتى وإن كانوا أكفء. ورغم جهلك بالشئون المدنية، يجب أن تكون على دراية بأن جميع الأعمال التجارية متوقّفة في فرانكفورت. وعلى

الرغم من أن السيد جوبل لم يُقل شيئاً عن هذا، فإنني علمت من مصدر موثوق فيه أنه بقي جميع موظفيه السابقين شرّ المجاعة؛ ولذا أنا متأكد من أنه لن يتحمّل أي التزامات إضافية نحو شخص غريب.»

«سيدي، أنا على دراية تامة بالأوضاع الراهنة، ولكن المقصد من رغبتني في التحدّث مع السيد جوبل يتلخّص في اقتراح حل. وأنا لا أحظى بشرف معرفة أي تاجر من تجار هذه المدينة، وأحد أهداف مُبادرتي بالحديث معك هو التعرّف، إن أمكن، على إمكانية تقديمي إلى التاجر بحيث أضمن استقباله لي، وقبوله بالاستماع إليّ بمجرد أن أدخل بيته.»

إذا كان رولاند يتوقّع من هذا الغريب أن يتطوّع بتقديمه، فإنه يستخفّ تمامًا بالخطر الذي يتخذه تاجر فرانكفورت.

«كما قلتُ لك من قبل، لن تواجه أيّ صعوبات في مقابلته ما دام أنه مسموح بدخول المنزل. هل لي أن أعتبرك تُعرف فن الكتابة؟»

أجاب رولاند قائلًا: «أوه، أجل.»

«إذن، اكتب خطابَ التقديم الخاص بك. وقل فيه إنك وضعتَ خطةً لإصلاح فرانكفورت، وسيستقبلُك السيد جوبل بلا تردّد. وسيُصغي إليك بصبر، ويعطيك قرارًا محددًا بخصوص جدوى مشروعك. والآن، يا سيدي، طريقي في اتجاه اليسار. أتمنّى لك النجاح، عِمَتَ مساءً.»

ترك الغريب رولاند واقفًا عند تقاطع شارعين، أحدهما يقود إلى قصر سالهوف. كانا يقتربان من رومبرج، أو السوق، قلب فرانكفورت، حين توقّف التاجر فجأة عن الحديث وتنحّى جانبًا. تذكّر رولاند أنه لا يُسمح بأن تطأ قدم يهوديّ رومبرج، حينئذٍ تكهّن بالجماعة العرقية التي ينتمي إليها رفيقه الأخير. تقدّم الشاب وحده عبر رومبرج، وتوجّه مباشرة نحو النهر، حتى وصل إلى الموضع حيث يواجه قصر سالهوف الضخم مجرى النهر. رأى رولاند أن مجموعات الحرس الثلاثية تُحيط بقصر الإمبراطور. لقد تفرّق الحشد؛ ولكن لم يكن مسموحًا لأحد أن يتسكّع في محيطه؛ لذا أمر الشاب بفضاظة أن يبتعد ويذهب إلى مكانٍ آخر، ففعل ذلك على الفور، وسار في طريقه إلى شارع سالجاسه، ومرّ على الكاتدرائية، حتى دخل مرة أخرى إلى شارع فارجاسه، ومن هناك مضى قُدّمًا، وتوقّف برهةً ليلقي نظرة أخرى على منزل جوبل، حتى وصل إلى الجسر، حيث وقف مُسنّدًا ذراعيه على الحاجز، مُفكّرًا في صياغة ما سيقوله إلى السيد جوبل في الصباح.

على طول الجانب المقابل من النهر وقفت مجموعة صغيرة من مراكب نقل البضائع، والتي بدت قبيحة وكئيبة وسوداء في ضوء القمر، وكأنها شهود صامتة على خراب فرانكفورت. حدّق الشاب في هذا التكدّس الباعث على الكآبة للمراكب العديمة الفائدة الطافية على سطح الماء، وشعر بارتياح حين اعتقد أنّ الشخص الذي بإمكانه أن يُحرّك هذه المراكب مرةً أخرى سيُنبت، مؤقتاً على الأقل، أنه مُنقذ المدينة.

وعندما بدأت الأجراس تُعلن دقات الساعة الحادية عشرة، تحرّك رولاند، وسار عبر الجسر إلى حي زاكسينهاوزن، ومنه إلى مسكنه الحقيق، مُواسياً نفسه بوجه التشابه الذي جعل الملك شارلمان العظيم يتخذ من هذا المكان مكان إقامته الخاصة. وقبل أن يأوي إلى الفراش، كتب الخطاب الذي يتعيّن عليه إرساله غداً إلى السيد جوبل، صائغاً إياه بحرص بحيث يثير الفضول دون أن يشبعه.

وفي الساعة العاشرة والنصف من صباح اليوم التالي، كان رولاند يقف عند باب التاجر القيادي في شارع فارجاسه، وأرسل إلى سيادته رسالته المُصاغة بترؤ. ظلّ ينتظر في الرواق وقتاً أطول مما كان يتوقّعه، ولكن في النهاية ظهر البواب المهيب، وقال إن السيد جوبل سيَسعد باستقباله. اقتيد ليصعد السلم إلى الطابق الأول، ثم إلى غرفة استقبال بدت كأنها مكتبة في جزء منها، والجزء الآخر كأنه مكتب لإدارة الأعمال. هناك جلس إلى طاولة متينة، وتعرّف على التاجر الوقور الذي شهد موكب عودته إلى المنزل في الليلة السابقة.

بدت عينا التاجر الثاقبتان تخترقان أعماق أفكاره، وقد اندهش رولاند من ظهور خيبة الأمل فيهما؛ لأنه على الأرجح لم يتوقّع أن يكون زائرُه حديث السن جداً.

قال مُضيفه: «هلا تجلس، يا سيدي؟» وقبل رولاند الدعوة بإيماءة من رأسه، واستطرّد الرجل الأكبر سنّاً قائلاً: «وقتي مشغول تماماً اليوم؛ إذ على الرغم من أن الأعمال التجارية محدودة في فرانكفورت، فإن شئوني الخاصة قد أهُمّلت مؤخراً، وأنا أحاول تدارك ذلك.» قال رولاند: «أعرف ذلك.» وتابع: «كنتُ أقف على بابك ليلة أمس حين عدتُ إلى المنزل.» «هل فعلت ذلك؟ هل لي أن أسألك عن السبب؟»

«لم يكن هناك سبب محدّد. صادف أنني كنتُ أسير في شارع فارجاسه، محاولاً أن أحسم أمري بخصوص مَنْ ينبغي عليّ زيارته اليوم.» «ولماذا فضّلتنِي أنا على الآخرين؟»

«ربما، يا سيدي، سيكون من الأدق أن نقول إنّ منزلك هو الذي حظي بالترتيب، إذًا جاز لنا التعبير. أدّهشني مظهره الخارجي الذي ينمُّ عن المتانة والثراء، ونظراً لأنه كان

مختلفاً عن بقية المنازل بسبب بابه الموارب؛ فقد تباطأت أمامه الليلة الماضية ولدِّي بعض الميل للدخول. ثم جاء الموكب الذي كان يصاحبك. وسمعت خُطبتك إلى أصدقائك، وتساءلت في نفسي عما تدور حوله هذه الرسميات. وبعد أن أغلق الباب، بادرت بالحديث مع أحد الأشخاص الذين كانوا يرافقونك، وعرفتُ اسمك ومهنتك وسمعتك.»

«لا بد أنك غريب في فرانكفورت ما دمتَ احتججتَ إلى طرح هذه الأسئلة.»
«هذا تقريباً نفسُ ما قاله لي الشخص الذي تحدّثُ إليه ليلة أمس، وبدت عليه الدهشة حين أجبتُه بأنني مولود في فرانكفورت، وعشتُ حياتي كلها هنا.»
«أها، أظنُّ أنه لا يوجد رجل عليم جداً بكل الأمور كما يظنُّ نفسه؛ إلا أنني أغامر بالتأكيد على أنك لستَ مُنحرفاً في الشئون العامة هنا.»

«أنت مُحق، يا سيدي. أخشى أن أقول إنني حتى الآن أعيش حياة لا جدوى منها بعض الشيء.»

«ربما تعيش على أموالٍ يكتسبها شخص آخر.»
«لقد أصبتُ كبد الحقيقة مرةً أخرى، سيد جوبل. أنا أعيش على الجانب الآخر من النهر، وأتي إلى هنا كلَّ يوم، وتزعجني رؤية هذه المراكب العديمة الفائدة؛ ولذا وضعتُ خطة لتحريكها مرةً أخرى.»

«أخشى أن أقول لك يا سيدي إن أشخاصاً أرجح منك عقلاً تدبّروا هذا المشروع بلا جدوى.»

«سيسرُني أكثر، سيد جوبل، لو قلت «أكبر منك سنّاً.»»
لاح شبح ابتسامة عابرة للحظة وجيزة على الشفتين الحازمتين الصارمتين للتاجر.
ثم قال: «سيدي الشاب، تأنيك اللطيف في محله. أنا لا أعرف شيئاً عن حكمتك؛ ومن ثمَّ كنت أشير إلى سنك، لا قُدراتك العقلية. يبدو لي، عندما أتفرّس ملامحك عن قرب أكثر، أنني التقيتُ بك من قبل. يبدو وجهك مألوفاً.»
«أظنُّ أنه مجرد تشابه في الملامح. فحتى وقت قريب جداً، كنت مُستغرقاً في دراستي، ونادراً ما كنتُ أترك منزل أبي.»

«لا شك أنني مُخطئ. ولكن دعنا نعد إلى موضوعنا. بما أنك تجهل اسمي ومكانتي في هذه المدينة، فأنت على الأرجح غافل عن الجهود المبذولة بالفعل للتخلص من المأزق الذي يواجهنا على نهر الراين.»

«في هذا الصدد، أنت مخطئ، سيد جوبل. أعرف أن حملة حمقاء قد أُطلقت بتكلفة مهولة، وأن المراكب الفارغة، التي عدّها يقترب من المائة، تقف الآن في أعرق جزء من نهر الراين.»

«لماذا تُطلق عليها حملة حمقاء؟»

«بالتأكيد، النتيجة تُظهر أنها كذلك.»

«ربما تنتهي أي خطة بكارثة، حتى عند اتخاذ جميع الاحتياطات. لقد قمنا بأفضل ما في وسعنا، ولولا أن الرجال الذين استأجرناهم لحماية الأسطول تركوا مواقعهم، بجبن خسيس، لكانت هذه المراكب قد وصلت إلى كولونيا.»

«مطلقاً! كان المدافعون الذين قمتم باختيارهم من حثالة القوم، وقد اختيروا من عند أحقر أحياء فرانكفورت، ولقد افترضتم أن هؤلاء الحثالة، الهمج وغير المدربين، من شأنهم أن يتصدوا للمقاتلين الشجعان التابعين للبارونات، المتبحرين، المتمرسين في حمل السيوف والرماح. ما الذي كان متوقعاً منهم غير ذلك؟ لم تكن البضاعة تخصّصهم؛ إنما تخصّصكم أنتم. لقد حصلوا على أجورهم؛ ومن ثمّ أبعدوا أنفسهم بسرعة عن الخطر.»

«لقد نسيّت، يا سيدي، أو لعلك لا تعرف، أن عدة مئات منهم قُطعوا إرباً.»

«أعرف ذلك أيضاً، ولكن المعرفة لا تدحض نقطة خلافي على الإطلاق. أنا أحاول أن أبين لك أن مَنْ كنت تتحدّث عنهم قبل دقيقة هم مجرد أشخاص أكبر سنّاً مني، ولكن ليسوا بالضرورة أكثر حكمة منّي. سيكون من المستحيل بالنسبة إليّ إعداد حملة حمقاء كهذه.»

«وماذا كان ينبغي علينا القيام به؟»

«كان ينبغي عليكم الذهاب بأنفسكم، والدفاع عن بالاتكم.»

بدأت على التاجر علامات واضحة على الغضب المتصاعد ببطء داخله، ولو أن عقل الشاب كان يتمتّع بالحكمة التي بدا أنه يدعيها، لعرف أن ملاحظاته تفتقر إلى اللباقة، وأنه لا يُحرز أيّ تقدّم؛ وإنما العكس تماماً. قال التاجر: «أنت تتحدّث كشابّ طائش وساذج. كيف يتسنّى لنا أن ندافع عن بالاتنا، في حين أنه لا يُسمح لأيّ تاجر بحمل السيوف؟»

وقف رولاند ووضع يديه على طوق عباءته.

«أنا لا يُسمح لي بحمل السيوف؛ وبعد أن قال هذا، فتح عباءته بأسلوب درامي، مستعرضاً السلاح المحظور الذي كان يتدلّى من حزامه. جلس التاجر في كرسيه، وقد بدا عليه الاندهاش الشديد.

قال: «يبدو أنك تثقُ في ثقةٍ كبيرة.» وتابع: «ماذا لو أبلغتُ السلطات؟»
ابتسم الشاب.

وقال: «سيد جوبل، يبدو أنك نسيْتَ أنني عرفت الكثير عنك من صديقك ليلة أمس.
أشعر بالأمان تمامًا في منزلك.»

أسدل العباءة مرةً أخرى على السلاح، وجلس ثانيةً.

سأله التاجر: «ما مهنتك، يا سيدي؟»

«أنا مُعلِّم فنون المبارزة بالسيف. وأمارس فن المبارزة.»

«إذن، زبائنك من الطبقة الأرستقراطية؟»

«ليس الأمر كذلك. الطبقة التي أتعامل معها الآن تتكوَّن من عشرين حُرْفياً في نفس
عمرى تقريباً.»

«إذا كانوا لا ينتمون إلى الطبقة الأرستقراطية، فلا بد أن تعليمك سرِّي؛ لأنه مخالف
للقانون.»

«إنه سرِّي ومُخالف للقانون على حدٍّ سواء، ولكن على الرغم من هذين الأمرين، تلاميذي
العشرون هم أفضل مبارزين بالسيف في فرانكفورت، وسأكون على استعداد لتحريضهم
ضد عشرين رجلاً من النبلاء أعرفهم.»

صاح التاجر قائلاً: «حسنًا!» وأردف: «أنت تعرف عشرين نبيلًا، أليس كذلك؟»
أوضح الشاب، وقد تورَّد وجهه قليلاً، قائلاً: «حسنًا، كما تلاحظ، هؤلاء الحدادون
الذين أدربهم لا يستطيعون تحمُّل تكلفة دروسهم؛ نظرًا لكونهم عاطلين عن العمل،
وبطبيعة الحال، كما أشرت، يجب أن يبحث مُعلِّم المبارزة بالسيف عن النبلاء من أجل
لقمة عيشه. لقد استخدمت كلمة «أعرف» على نحوٍ غير دقيق. أنا أعرف النبلاء بنفس
الطريقة التي ربما يقول بها موظَّف في تجارة الصوف إنه يَعرف عددًا من التجار، ولكنه
لم يتحدَّث أبدًا مع واحد منهم.»

«أتفهم ذلك. ولكن هل أفهم أن نجاح مشروعك لفتح نهر الراين مُتوقَّف على هؤلاء
الحدادين العشرين، الذين يَعرفون تمامًا كيف يتعاملون مع سيوفهم على نحوٍ غير
قانوني؟»

«أجل.»

«أخبرني ما خطتك.»

«لا أرغب في الإفصاح عن خطتي، حتى إليك.»

«ظننتُ أنكِ جئتِ هنا على أمل قيامي بتأييد مشروعك، وربما تمويله أيضًا. هل أنا مُخطئٌ في هذا التخمين؟»

«سيدي، أنتَ لستَ مخطئًا. الشرط الأول أن تدفع لي على هذه الطاولة ألف تالر ذهبي.»

لاحت الابتسامة مرةً أخرى على شفَتَي التاجر.

سأله: «أي شيء آخر؟»

«أجل. ستختار واحدةً من كبرى بالاتك، وتملؤها بأي فئة من السلع التي تتاجر فيها.»

«ألا تعرف أي فئة من البضائع أتاخر فيها؟»

«نعم! لا أعرف.»

اتسعت ابتسامة جوبل. إن مجيء ذلك الشاب الذي كان جاهلاً بكل شيء مُتعلّق بالتجارة في فرانكفورت، بهذه الجرأة وطلبه ألف تالر ذهبي من رجلٍ لا يعرف مهنته، بدا بالنسبة إلى التاجر واحدة من كُبرى الوقاحات التي واجهها في تعاملاته الطويلة مع البشر. قال: «على أيِّ حال، تجارتي لا تهتمُّ بطريقة أو بأخرى حين أتعامل مع عميلٍ مثلك. ماذا أيضًا؟»

«بعد ذلك ستُخصّص سعرًا لحمولة السفينة؛ سعرًا من شأنك أن تقبله إذا وصلت السفينة إلى كولونيا سليمة. وأوافق على دفع ذلك المبلغ لك، بالإضافة إلى الألف تالر، حين أعود إلى فرانكفورت.»

«ومتى سيكون ذلك، سيدي الشاب؟»

«أنت أفضل منِّي في تقدير طول الفترة الزمنية. أنا لا أعرف، مثلًا، المدة التي يستغرقها المركب في رحلته من فرانكفورت إلى كولونيا.»

«بالوضع في الاعتبار الطقس المعتدل، الذي ربما نتوقعه في فصل يوليو، وبافتراض عدم حدوث أي مقاطعات، لنقل أسبوعًا.»

«هل سيصل رجلٌ يسافر برًّا على ظهر حصان من كولونيا إلى فرانكفورت إلى هنا أسرع من القارب؟»

«نظرًا لأن السفينة بحاجة إلى شقِّ الطريق عكس اتجاه تيّار قوي، فيجب أن أقول إن الفارس سيُنجز الرحلة في ثلث الوقت.»

«جيد جدًّا. تحسبًا لجميع الحالات الطارئة، أعدك بأن أردّ المال بعد شهر من تركنا رصيف الميناء بفرانكفورت.»

«هذا من شأنه أن يكون مُرضياً إلى حدٍّ كبير.»
«نسيت أن أذكر أنني أتوقَّع منك، بما أنك تعرف الملاحه أفضل مِنِّي، تزويدنا بقبطان جدير بالثقة وطاقم كفء على المركب. أريد رجالاً يفهمون تيارات النهر، والذين إذا استجوبهم البارونات، لن يردوا على الأرجح بأكثر مما هو مطلوب.»
«يُمكنني أن أوفِّر بكل سهولة هذه المجموعة من البحَّارة.»
«جيد جدًّا، سيد جوبل. هذه هي طلباتي. هل تُوافق على توفيرها لي؟»
«بكل سرور، صديقي الشاب المُتحمِّس، بشرط أن تلتزم بواحدة من أكثر القواعد التجارية شيوعاً.»

«وما هي، يا سيدي؟»
«قبل أن ترحل، ستترك لي الضمان الكافي بحيث إذا لم أركَ ثانيةً مُطلقاً، فقيمة البضائع، بالإضافة إلى الألف تالر، ستردُّ إليَّ عندما يمر الشهر.»
قال الشاب: «أها! أنت تُفرض شرطاً مستحيلاً.»
«إذن، أعطني سنِّداً، موقَّعاً من ثلاثة تجار جديرين بالثقة.»
«سيدي، بما أنني لا أعرف أيَّ تاجر في هذه المدينة باستثناءك أنت، فكيف يتسنَّى لي الحصول على توقيع شخص واحد جدير بالثقة حتى؟»
«إذن، كيف تتوقَّع أن تحصِّل على موافقتي على مشروعٍ لا أرى إمكانية نجاحه، بينما أحمِّل أنا المخاطر كلها؟»
«عذراً، سيد جوبل. أنا ورفاقي سنُخاطر بحياتنا. بينما أنت ستخاطر بأموالك وبضاعتك فقط.»

«إذن، أنت عازم على شقِّ طريقك عبر نهر الراين؟»
«بالتأكيد. هل ثمة طريقة أخرى؟»
«بصحبة عشرين رجلاً فقط؟»
«أجل.»

«وتأمِّل أن تنجح فيما فشل فيه ألف رجل من رجالنا؟»
«أجل، كما قلتُ لك كانوا مرتزقة. برجالي العشرين، يُمكنني أن أجعلهم جميعاً يفرُّون. وبعيداً عن هذا، أودُّ أن أشير لك إلى أن تجار فرانكفورت شكَّلوا اتحادهم في اجتماعات عامة، وقد جمعهم عمدة المدينة. لم تكن مُداولاتهم سرية. إن جميع البارونات اللصوص على طول نهر الراين كانوا يعرفون أنكم كنتم ستُحاولون المرور، وكانوا مستعدِّين لمجيئكم.

أعترزم أن تترك مركبكم فرانكفورت في منتصف الليل. ستتقدّم مجموعتي عبر البلاد وتنضمُّ إليه عند نقطةٍ متَّفَقٍ عليها، على الأرجح بعد بينجن.»

«أنفهم ذلك. حسنًا، صديقي الشاب، لقد قدمت لي عرضًا مُثيرًا جدًّا للاهتمام، ولكنني رجل أعمال، ولست مُغامرًا. وما لم يكن بوسعك أن تقدّم لي سندَ ضمان، أرفض تقديم تالر واحد، فضلًا عن ألف.»

هَبَّ الشاب واقفًا على قدميه، وبدا أنَّ التاجر، الذي تنفّس الصعداء، قد سعد بانتهاء اللقاء.

«سيد جوبل، لقد خيبتَ ظنِّي بشدة.»

«يؤسفني ذلك، ويؤسفني أن أخسر رأيك الشديد، ولكن بالرغم من تلك الخسارة يجب أن أصرَّ على عنادي.»

«لا أعجب من أن هذه المدينة الجميلة يَستفجِل بها الفقر إذا كان ازدهارها متوقَّفًا على تجّارها، وإذا كنتَ أنتَ قائدًا عليهم؛ ومع ذلك، لا يُمكنني أن أنسى أنك خاطرت بحياتك وحرّيتك بالنيابة عني، رغم أنك الآن لن تخاطر بألف تالر بائسة بكلمة شرف مني.»

«بالنيابة «عنك»؟ ماذا تقصد؟»

«أقصد، سيد جوبل، أنني الأمير رولاند، الابن الوحيد للإمبراطور، وأنتَ خاطرتَ بحياتك لأرتقي أنا إلى العرش.»

الفصل الثاني

إبرام الصفقة

يبدو أن لكلِّ حقبة عبارة قصيرة تحتوي على، إذا جاز لنا التعبير، خلاصةِ حكمة العصر، ويؤمن بها الناس عمومًا. على سبيل المثال، زادت شعبية الحكمة القائلة: «اعرف نفسك» حين تحوّلت العقول المثقفة نحو العلوم. وفي الفترة التي تنتمي إليها هذه المقولة لأقت الحكمة القائلة «العرق دسّاس» قبولاً عامًّا. وفي الواقع، حازت عبارة «الملك لا يُمكن أن يُخطئ» الخاطئة على رواج واسع. ومنها أيضًا جاء القول المأثور لعصور الفروسية، «للنبالة مُقتضياتها».

وفي عصرنا هذا، الحكمة القصيرة الرائجة هي «للمال نفوذه»، وإذا تعمّق الباحثون الدءوبون في بحث هذه المسألة، فسيجدون أن تطلعات الناس تتوافق دومًا بدقة معقولة مع معنى الحكمة محل النظر. على سبيل المثال، لا شيء يُمثّل الحكمة القائلة «للمال نفوذه» بامتياز أكثر مما تُمثّله دولتان تجاريتان مثل أمريكا وإنجلترا. ففي تلك العبارة الوجيزة يجتمع جوهر العديد من الأقوال المأثورة الأخرى التي تنسّم بالحكمة والفعالية، مثل «الذئب يأكل الطارفة من الغنم»؛ إذ بالطبع لو كان للمال نفوذه، فمن يفتقر إليه يلتزم الصمت، ويأت موقعه في ذيل الركب، حيث يجُول الشيطان خلسةً كفارس قوزاقي في مؤخرة جيش نابليون.

في ظل المواجهة فيما بينهما في ذلك المنزل العتيق بشارع فارجاسه، نشهد تجسيدًا للحكمتين، القديمة والحديثة؛ العرق يُمثّله الشابُّ الواقف، والمال يُجسّده التاجر الجالس. قال الشاب: «أنا الأمير رولاند، الابن الوحيد للإمبراطور.» وحين رأى على الفور التعبير الذي علا وجهه مُضيفه، تأكّد أنه لو استطاع أن يُقنعه بحقيقة الادّعاء لحصل على الألف تالر التي طلبها على الفور.

ولدة دقيقة كاملة، ظنَّ رولاند أنه نجح، ولكن حين تلاشت الدهشة من على ملامح التاجر، حلَّ محلُّها ذلك القناع من الحذر الذي كان له علاقة كبيرة ببناء ثروته. وأثناء اجتماعهما، عصرَ السيد جوبل ذهنه، في محاولةٍ منه أن يتذكَّر أين رأى هذا الشاب من قبل، ولكن ذاكرته تجوَّلت بين الموظفين والباعة والأشخاص الكادحين من تلك النوعية التي لا يُمكن بأيِّ نحو أن ينتمي إليها هذا الشاب. وعندما باغته رولاند فجأةً بالعبارة المذهلة بأنه فرد من الأسرة الإمبراطورية، تحوَّلت ذاكرة التاجر حينها إلى المواقب التي رآها، والتي ربما لعب هذا الشاب الغريب دورًا في أحدها بجدارة. إن العرق بدأ يكشف الأمور.

ولكن الآن الحُنكة أسعفتِ التاجر. ففي الروايات فقط، يهيم الأمراء أصحاب الدماء الملكية على وجوههم مثل الشعراء الغنائيين المتجولين. وحتى أفراد الطبقة الأقل نبلاً لا يأتون لزيارة بيت أحد التجار مُتخفين. صحيح أنه لطالما أرادت الطبقة الأرستقراطية المال، «ولكن ما يظنون أنه ربما يلزمهم، يذهبون ويأخذونه»، كما برهن على ذلك البارونات اللصوص قراصنة نهر الراين، الذين تسبَّب ابتزازهم في مُعانة مدينة فرانكفورت العظيمة. ثم فجأةً تذكَّر بقوة أنهم عندما تقدَّموا للأمراء الناهخين بالتماسهم لتنصيب الأمير الشاب بدلاً من أبيه، ألقى الأساقفة الثلاثة القبض على صاحب السمو الإمبراطوري، ووضَّع، على الرغم من توسُّلات الإمبراطورة (نظرًا لأن الإمبراطور كان ثِملاً وغير مبالٍ)، في عهدة رئيس الأساقفة الأقرب إلى مدينة فرانكفورت، رئيس أساقفة ماينتس المحارب، الذي حبسه في الحصن المنيع لقلعة إيرنفيلس، حيث لا يستطيع أحد الهروب نظرًا لأنها محصَّنة ومعزولة بموقعها على صخرة مُعلَّقة فوق نهر الراين.

قال التاجر: «هلا تتفضل بالجلوس مرةً أخرى، يا سيدي؟» ولو كان قد تحدَّث قبل فترة قصيرة، لوضَّع عبارة «سمو الأمير» بدلاً من «سيدي».

بعد لحظة من التردُّد، جلس رولاند. رأى أن مسعاه باء بالفشل؛ نظرًا لأنه عجز عن دعمه بالأدلة. كان تصرُّفه الدرامي أشبه بهجوم مفاجئٍ عبقرى من سلاح الفرسان، الذي حقَّق نجاحًا بعض الوقت، إلا أنه ذهب أدراج الرياح نظرًا لأنه لا يوجد سلاح مشاة قوي يُحوِّل الارتباك المؤقت للعدو إلى هزيمة كاملة. وبعد أن أدرك أنه لا بد من خوض المعركة مرةً أخرى، جلس الأمير بتنهيده تنمُّ عن خيبة الأمل، ومِسحة من الاستياء على وجهه الوسيم.

وواصل التاجر حديثه قائلاً: «أجد نفسي في ورطة.» وتابع: «إذا كنتَ بالفعل ابن الإمبراطور، فلا مجال لاستجوابك من قِبَل شخص مثلي.»

«سلني أي أسئلة تريدها، يا سيدي. وسأجيب عليها دون توان.»
 «إذا طلبت منك أن تُقدِّم دليلاً على ما قلته، فعلى الأرجح ستُجيب بأنك لا تجرؤ على دخول قصر والدك، ولن تستطيع أن تُقدِّم لي دليلاً مؤكداً.»
 «سيدي، أنت عبّرت عن المسألة بلغة أفضل مما كان يُمكنني استخدامها. ولو فعلت، لكنتُ سأعبّر عنها بكلمات أقل بلاغة من كلماتك.»
 «متى كانت آخر مرة كنت فيها بالقصر؟»

«في نفس التوقيت تقريباً الذي دخلت أنت فيه السجن، يا سيدي.»
 «أها، أجل؛ ستكون إجابتك هكذا بطبيعة الحال. والآن، صديقي الشاب، لقد أظهرت أنك لا تعرف شيئاً عن الممارسات التجارية؛ ومن ثمّ ربما سيثير اهتمامك إذا شرحت لك بعض أساليبنا.»

«سيد جوبل، يمكنك أن تُوفّر على نفسك عناء ذلك. هذا الكلام لن يثير اهتمامي وحسب؛ بل سيُشعّرني بالملل الشديد أيضاً. أنا لا أهتم مطلقاً بإجراءاتك التجارية، ولكي أكون واضحاً معك، أنا أكره مهنتك وأواجه بعض الصعوبة في كبح التعبير عن ازدرائي لمن يمارسونها.»

رد جوبل برباطة جأش: «إذا ذهبَ مُوفدٌ من عندي إلى عميل أو زبون بهدف الحصول على خدمة منه، ولم يستخدم أسلوباً لبقاً كما تفعل أنت، فلسوف أطرده من العمل.»
 «وأنا لا أطلب منك أيّ خدمات.»

«أنت تريد أن أعطيك ألف تالر، وإلا لماذا جئت إلى هنا؟»
 «أرغب أن أمنحك أعظم هدية؛ ألا وهي فتح نهر الراين، وأن أعيد سبل الرخاء لمدينة فرانكفورت، التي سمحتم، أنتم التجار الحُمقى الجبناء، أن تتسرّب من بين أصابعكم، مُلقين باللوم تارة على البارونات، وتارة على الإمبراطور، وتارة على الأمراء الناهخين، مُدينين الجميع، في واقع الأمر، باستثناء الجناة الحقيقيين ... أنتم أنفسكم. أنت تتحدّث عن المال باعتباره منّة وخدمة، وإنما هو مجرد سُلقة لبضعة أسابيع، وسوف يعود إليك؛ ونظراً لأنني أرغب أن أمنح هذه الهدية التي لا تُقدّر بثمن لك ولمدينتك، فأنت تتوقّع مني أن أتذلّل إليك وأتملّكك، كما لو أنني فرد في جوقة المملّقين الخاصة بك. وأنا أرفض أن أقوم بأيّ شيء من هذا القبيل، ومع ذلك، أقسم بالله أنني سأحصل على هذا المال!»

ضحك التاجر من كل قلبه، لأول مرة أثناء لقاءهما. ومن ثم، اتّقد وجه الشاب بالغضب، لكن أفنعت كلماته اللاذعة السيد جوبل بأنه ينتمي إلى الطبقة الأرستقراطية

أكثر مما لو تحدّث بأكبر قدرٍ من التواضع. بات جوبل مقتنعاً بأنه ليس الأمير؛ وإنما شابٌّ نبيلٌ مقرَّب من الأسرة الإمبراطورية، ونظراً لأنه كان يعرف أن ابن الإمبراطور بعيد عن الأنظار، ظن أنه من السهل انتحال اسمه، ليجد غرضه على أفضل نحو، بصرف النظر عن ماهية هذا الغرض الحقيقية. ولم يُصدّق لحظةً أن الغرض هو فتح نهر الراين، كما أنه لم يستطع أن يصدّق أنه سيرى أمواله مرةً أخرى إذا خرج بها.

«رغم المجازفة بجعلك تشعُر بالملل، سأواصل ما كنتُ بصدد قوله. نحن، معشرَ التجار، بهدف حماية أنفسنا، نُساهم بأموالٍ قد تُحوّل للمراء الحصول على خدمات عميل سرّي. وهذه الأموال تُمكننا من الحصول على معلومات خاصة ربما تكون قيّمة لأعمالنا. ومن بين الأشياء الأخرى التي نحتاج إلى معرفتها التفاصيل الدقيقة لنوايا حُكامنا وتصرفاتهم؛ لأنه بصرف النظر عن ماهية أوجه قُصورنا، تصرّفات مَنْ هم فوقنا تؤثر على أعمالنا بطريقة أو أخرى. هلا أقرأ لك تقريراً قصيراً جاء بينما كنتُ أقضي فترة عقوبتي بالسجن؟»

قال رولاند بلا اكتراث وهو يُلقي برأسه إلى الوراء ويغلق عينيه بعض الشيء، بنبرة ملل: «أوه، اقرأ ما تحب..»

أخرج التاجر ملفاً به أوراق وتصفّح محتوياته بعناية، واختار من بينها وثيقة، وسحبها، ثم تنحنح وقرأ بصوتٍ عالٍ:

«بعد مُنتصف الليل بساعة، في عيد القديس ستينسلوس، اقتحم ثلاثة نبلاء: الأول يُمثّل رئيس أساقفة ماينتس، والثاني يمثّل رئيس أساقفة تريفيس، والثالث يمثّل رئيس أساقفة كولونيا؛ مسلّحين بسلطة هؤلاء الأمراء الناجين الثلاثة وأمراء الكنيسة، قسّر ساهوف من الجانب المُواجه للنهر، وقبضوا على الأمير الشاب رولاند في مضجعه. وأكدوا للإمبراطورة، التي اعترضت حينئذٍ، أن الأمير سيُلقى رعاية جيدة، ونظراً لأنه كان يُخشى وقوع عصيان مسلّح في مدينة فرانكفورت، فإنه من الأكثر أماناً أن يؤخذ الشخص، الذي يعتزّمون رفعه على العرش في حالة وفاة الإمبراطور، بعيداً عن طريق الأذى، وأن يُوضع تحت الرعاية المباشرة لرئيس أساقفة ماينتس. وأخطروا الإمبراطورة بأن الأساقفة لن يُخرجوا الأمير من القصر دون موافقة الإمبراطورة نفسها أو الإمبراطور، ولكن إذا لم يُمنح هذا الإذن، سيُعقد اجتماع للأمراء الناجين على الفور، وسيجري اختيار شخص آخر ليُخلف الحاكم الحالي.

كان لهذا الاعتبار تأثير كبير على الإمبراطورة، التي نصحت ابنها بالإذعان. اقتيد الشاب إلى المركب الذي كان ينتظر آنذاك في النهر على بُعد خطوات من القصر؛ ومن ثم نُقل على طول رافد ماين وصولاً إلى نهر الراين، الذي وصلوا إليه بعد الفجر مباشرة. واصلت المجموعة مسيرتها على طول نهر الراين دون توقف، مع محاولة الالتزام بالسير وسط النهر بقدر الإمكان، مروراً ببلدة بينجن، ووصولاً إلى سفح الصخرة التي تقف عليها قلعة إيرنفيلس. جرى نقل الأمير إلى القلعة، حيث يُقيم هناك الآن.

خُصص له رؤساء الأساقفة من دخلهم سبعمائة تالر شهرياً، بالإضافة إلى رعايته. ويستحيل عليه الهروب من هذا الحصن دون مساعدة، ونظرًا لأن الإمبراطور غير مهتم بالأمر، بينما منحهم الإمبراطورة موافقتها، من المقرر أن يظل رهن الاعتقال في إيرنفيلس برضا رؤساء الأساقفة الذين لن ينتخبوه بلا شك ليرتقي العرش خلفاً لوالده ما لم يُثبت إذعانه لرغباتهم. والأمير شابٌ ليس له شخصية محدّدة قوية» (هنا توقف التاجر عن قراءته برهته، وتطلّع إلى وجه الجالس قبالة، لكن بدا أن الأخير نعسان، لكنه أكمل): «وعلى الأرجح سيخضع لرؤساء الأساقفة؛ ومن ثم يُنصح التجار بالألا يُعلّقوا الآمال على تحسّن الأوضاع، حتى لو خلف الابن الأب. وعلى الرغم من الاحتياطات المتخذة؛ القبض على الأمير واعتقاله، وحتى مكان اعتقاله، صارت معروفة بوجه عام في مدينة فرانكفورت، إلا أن الأخبار تُتناقل على هيئة إشاعات فقط، وتثير القليل من الاهتمام عبر المدينة.»

«ما تعليقك على هذا، سيد رولاند؟»

ردّ رولاند قائلاً: «أوه، لا تعليق يُذكر.» وأضاف: «ربما ذكر التقرير أنه كان على متن المركب خمسة مُجذّفين، كانوا يعملون بكدّ حتى وصلنا إلى نهر الراين، وحين كانت الرياح مواتية، رُفع الشراع، وبتيار مساعد للرياح، وصلنا في توقيت ممتاز إلى إيرنفيلس. أرى أن عميلك السريّ يُطلّعك على نحوٍ جيد جدّاً بالأمور؛ ومن ثمّ أسحب الألفاظ القاسية التي قلّتها بخصوص غياب التجار.»

قال جوبل وهو يضع الوثيقة مع مثيلاتها: «شكراً جزيلاً على تعديل رأيك.» وأضاف: «والآن، باعتباري رجلاً صريحاً وعملياً، ما يدهشني هو الآتي: أنه يجب عليك العودة إلى إيرنفيلس والمكوث بها شهرين؛ ونظرًا لأنه لا حاجة لك إلى المال في تلك القلعة، حيث إن رعايتك مضمونة، مع سبعمائة تالر مخصّصة لك، يُمكنك الحصول على مبلغ يزيد بأربعمائة تالر عن المبلغ الذي تطلبه مني؛ ومن ثمّ تنفيذ مشروعك بلا أيّ التزامات تجاه أي تاجر حقير.»

«هذا صحيح، سيد جوبل، ولكن هل يُمكنك أن تتوقَّع ما سيحدث في مدينة فرانكفورت قبل مرور شهرين؟ عرفتُ من تلك الوثيقة أن رؤساء الأساقفة ذوي الرؤية الثاقبة يتوقَّعون حدوث عصيان مسلَّح، ولا شك أنهم يأْمرون القوات الموجودة في المتناول بسحقه، ولكن في خضمِّ هذا النزاع، الذي يبدو أنك لا تُعيره اهتمامًا كبيرًا، هل خطر على بالك أبدًا أن قصور التجار على طول شارع فارجاسه قد تتعرَّض للنهب والحرق؟»

علَّق التاجر قائلاً: «بالطبع، هذا مُمكن.»

«لا، إنه أمر أكيد. الحرب الأهلية تُعني الدمار، للمُذنب والبريء على حدٍّ سواء.»

«أنت مُحق. والآن، هل ستُخبرني كيف هربتَ من قلعة إيرنفيلس؟»

«أجل؛ إذا وافقت على شروطي دون المزيد من المساومات.»

«سأوافقُ على شروطك إذا صدَّقتُ قصتك.»

«يبدو أنه من المستحيل إلزامك بأيِّ صفقة محدَّدة، يا سيدي. هل هذه هي الطريقة التي تُبأشِر بها أعمالك؟»

«أجل، ما لم أكن متأكَّدًا من حسن نية عميلي. لقد عرضتُ عليك شروط عمل عادية حين طلبتُ منك ضمانًا، أو توقيع ثلاثة تجار مُحترمين على صكِّ تأمين. ولهذا أنا أساوم، كما تُسمِّيها، لأنني تاجر، ولستُ مُضاربًا.»

«ممتاز، إذن، سأُخبرك كيف هربت، ولكنِّي سأبدأ قصتي على نحوٍ يائس جدًّا؛ لأنك تتركُ لنفسك دومًا ثغرة للهروب. إذا صدَّقتُ قصتي، فستوافق على طلبي، وإذا كان بإمكانني أن أنسج قصة مُغامرات عن تمزيق ملاءتي إلى أجزاء وربطها معًا على هيئة حبل، ونزولي عليها وسط الظلام من الشُّرفة إلى الطابَق السُّفلي، وقرع جرس الإنذار، واشتعال المشاعل، وغوصي في نهر الراين، والسباحة تحت الماء حتى أكاد أخنق، والطفو فوق منحدرات النهر، والسهام التي تُسدَّد من حولي في ظلمة الليل، وتسلُّ الشاطئ البعيد وأنا أقطر الماء، بعيدًا عن أنظار قلعة إيرنفيلس، فلا شك أنك ستُصدِّق ذلك. ولكن كانت قصة هروبي عادية على نحوٍ مُمل، قائمة على جشع رجل واحد. السبيل لهروبي كان هو الشيء الذي وضعه رؤساء الأساقفة بأنفسهم بين يديَّ. روايتك تقول إن القلعة تحت حراسة جيدة. هي كذلك، ولكن حين يحتاج رئيس الأساقفة إلى تعزيز قوَّته، يسحب رجاله من إيرنفيلس إلى ماينتس، باعتبار محبسي أقرب ممتلكاته إلى عاصمته؛ ومن ثمَّ أحيانًا تكون القلعة خالية من جميع الحراس باستثناء البواب وأسرته. وتصادفُ أن ابنه شابٌّ من نفس سنِّي، ويُشبهنني من حيث المظهر الخارجي. لم يرني أحد من الحراس،

باستثناء البواب، ويجب أن تعرف أنه كان سَجَانًا مُتساهلاً جدًّا؛ لأنه يعرف جيدًا أن شُروق كل يوم قد يجلب معه أخبارًا بأنني صرت إمبراطور بلاده؛ ولذا حرص على التواصل معي، ليعرف بطريقته القروية البسيطة ما سلوك الحاكم الذي ربما أصبح عليه؛ ومن ثم استغللتُ صحبته كثيرًا نظرًا لأنَّه لم يكن هناك شخص آخر لأتحدث إليه.

وكثيرًا ما ترك لديَّ الانطباع بأنَّ مُهمَّته كسَجَان هي مهمَّة مُزعجة بشدة بالنسبة إليه؛ ولكن الفقر يُرغمه عليها. وأقسم بأنه سيفعل أي شيء في سُلطته ليُخَفِّف عني وطأة الحبس، وهذا ما فعله في واقع الأمر، وحين صارت القلعة خالية قدَّمتُ له عرضًا. الآن تذكَّر، سيدي التاجر، أن ما أقوله لك هو سر، وإذا خُنَّتِ العهد، فسوف أشنقك إذا أصبحتُ الإمبراطور، أو أقطع عنقك بسيقي إن لم أصر كذلك.»

«واصل حديثك. لن أخبر أحدًا.»

«قلتُ لسَجَانِي: «لا يوجد في هذا العالم ستَّة أشخاص يَعرفونني برؤية العين، والأمراء الناهيون ليسوا من بين هؤلاء الستة. وخارج القصر في فرانكفورت، أعرف صانع سيوف أو اثنين، ومجموعة من الرِّفاق الصالحين الذين يُصادقونهما، ولكني بالنسبة إليهم مجرد مُعلِّم لفنون المبارزة بالسيف. الآن، يصلني كل شهر سبعمائة تالر بيديك الأمينتين، وسيستمر الأمر على هذه الوتيرة. يبدو ابنك صَمُوتًا أكثر منك، وهو شابُّ أشك أنه يعرف الفارق بين التالر وزرَّ معطفه. إذا فعلتُ ما أتمناه، فسيكون هناك قدر ضئيل من المخاطرة، ولكن فكَّر في المكافأة المباشرة والمستقبلية! على الفور ستحصل على دخل شهريٍّ بمبلغ سبعمائة تالر. وإذا جرى انتخابي في منصب الإمبراطور، فسأمنحك درجة النبالة، وسأقدِّم لك أفضل منصب في البلاد. وإذا لم تفعل ما أتمناه، فسأقطع رأسك كأوَّل قرار لي في أول يوم أتولى فيه السلطة.»

سأله التاجر بابتسامة قائلاً: «ألم تُهدِّده بقطع رقبته بسييفك، إذا لم يرتقِ لتوقعاتك؟»

«كلا. كان في مأمنٍ تمامًا من انتقامي، ما لم أرتقِ العرش.»

«في هذه الحالة، ينبغي أن أقول إنَّ الحارس لا يتعيَّن عليه الخوف من المستقبل. ولكن واصل حكايتك من فضلك.»

«اقترحتُ أن أستبدل أنا وابنه الملابس؛ باختصار، كان على الشاب أن يحلَّ محليَّ، ليشغل جناح الغرف المخصَّص لي في القصر. وأخبرتُ والده بأنه ليس هناك أدنى خوف من الاكتشاف؛ لأنه إذا أرسل رئيس أساقفة ماينتس أحدًا ليتأكد من أن الأمير بأمان، أو حتى إذا جاء بنفسه، فكل ما سيحتاج إليه الشاب هو أن يحذو حذوي ويلتزم الصمت؛

حيث إنني لم أنبس ببنت شفة منذ أن اقتدت من غرفتي في قصر سالهوف حتى وصلت إلى قلعة إيرنفيلس. ووعده، إذا أطلق سراحى، أن أبقى في حدود فرانكفورت، ومع ظهور أولى الشائعات عن وقوع أي أزمة، يُمكنني العودة على الفور إلى قلعة إيرنفيلس.

الحارس رجل بطيء التفكير، رغم أنه لم يتقاعس عن الوصول إلى اتفاق مثلما تفعل أنت. استغرق أسيوغا لِيُقَلِّب الأمر في ذهنه، ثم أخذ المخاطرة. صار الآن سَجَانًا لابنه، وهذا الفلاح الشابُ يعيش بأسلوب لم يكن يُحلم به من قبل. ورؤساء الأساقفة يشعرون بالرضا؛ لأنهم يَعْتَقِدُونَ أنني لا أَسْتَطِيع الهروب من القلعة — فهم، مثلما تعتقد أنت نفسك، ليس لديهم سوى رأي سلبي في قدراتي؛ ونبلاؤهم التابعون المُخْلِصُونَ لهم يعرفون أن خارج الحصن لا يوجد شخص، ولا حتى والدتي، يتمنى خروجي. وَضَعْتُ في محفظتي خمسمائة تالر، وارتحلت مثل الفلاح الذي أنتحل شخصيته، على طول نهر الراين، تارةً على هذه الضفة، ثم تارةً على الأخرى، حتى وصلت إلى مدينة كاسترا بونينسيا القديمة التابعة للرومان، التي يسميها سَكَّانها الآن اختصارًا باسم بون. هناك وجدت رئيس الأساقفة في قصر الضيافة، وليس في كولونيا، كما كنتُ أفترض. ونظرًا لأن المدينة مُحْتَشِدَةٌ بالجنود والأشخاص الفضوليين التابعين لبلاط كولونيا، عدتُ مرةً أخرى إلى نهر الراين، مُتَذَكِّرًا أنني بَعُدْتُ مسافة طويلة جدًا، ورغم أنك ربما لا تصدق، زرتُ صديقي العجوز سَجَانَ قلعة إيرنفيلس وتناولت معه وجبة رائعة، شاربًا بعض النبيذ المُغْري الذي يأتي من على نفس الجانب من النهر على بُعدِ فرسخ تقريبًا شمال قلعة إيرنفيلس. قال التاجر: «أظن أنني أَسْتَطِيع تحديد سبب هذه الزيارة المتهورة في ظاهرها إلى قلعة إيرنفيلس. كنتُ في حاجة إلى المال، بعد أن أنفقت الخمسمائة تالر.»

«سيدي، أنت مُحَقٌّ تمامًا، وقد حصلتُ عليه أيضًا، دون تتضيع الكثير من الوقت تقريبًا في الحديث مثلما أنا مُضْطَرٌّ الآن في هذه المناسبة.»

«ماذا كان هدفك من السير على طول النهر بدلًا من التوجُّه إلى مدينة فرانكفورت؟»
«صرتُ مُهْتَمًّا بسجني، ودرستُ الطرق التي يُمكن مهاجمته بها بنجاح. عرفتُ أن والدي سمح لبارونات نهر الراين بتجاهلي، وكنتُ أَسْأَل ما إذا كانت حكمته أكبر مما كنتُ أعتقد. على الأرجح، قلتُ في نفسي، إنه يعرف أن قصورهم محصنة، ولكن، من مُنْطَلَق فضول الشباب، كنتُ أرغب في تكوين رأيي الخاص. ومن ثَمَّ نزلتُ في كل قصر استطعت الدخول إليه كعابر سبيل، وتصادقتُ مع بعض التابعين، وفي إحدى المرات، حصلتُ على مضجع في الإسطبل، رغم أنني كثيرًا ما كنتُ أبيت داخل القصر نفسه. ومن ثَمَّ، توصلتُ

إلى اعتقادٍ — طرحته عليك — بأنني يُمكنني، بمساعدة عشرين رجلاً جسورًا، الاستيلاء على أي قلعة على نهر الراين باستثناء ثلاث قلاع. والآن، سيد جوبل، لقد قلتُ كلَّ ما أنوي قوله. هل ترفضُ تصديق قصتي؟»

حدَّق التاجر فيه متأملًا لبعض الوقت دون أن يصدر عنه أي إجابة، ثم قال:

«هل تعتقد أنني أصدِّقك؟»

«بصراحة، لا أعتقد ذلك.»

«إذا كنتُ غير قادر على إعطائك المال، فعلى الأقل، يُمكنني أن أسدي إليك نصيحة جيدة. ابدأ كشاعر، السيد رولاند البارع، وأسعدنا بنسج القصص عن نهر الراين. أرى أن خيالك، إذا لاقى التشجيع، فسيمنحك مكانة عالية جدًا بين شعراء الرومانسية في عصرنا هذا.»

أجاب رولاند بصبر لم يتوقَّعه السيد جوبل، قائلاً:

«يُحزنني أن أعود خالي الوفاض إلى أصدقائي العشرين، الذين ودَّعوني الليلة الماضية وداعًا ينمُّ عن ثقة شديدة.»

«أجل، سيَشْعُرُون بخيبة الأمل، وأشكُّ على نحوٍ فطِن أن الألف تالر الخاصة بي لن تُنفِّق على تنفيذ الحملة التي استعرضتها، وإنما على الولائم والخمر.»

«أنت مُحقٌّ مرةً أخرى، يا سيدي. من المؤسف أنني كثيرًا ما أضطُرُّ إلى التأكيد على عباراتك، حين يتحوَّل كل الذكاء الذي وصفت به ذهني إلى مُهمة إثبات أنك شخص أحمق يتفأخَر بأمواله، ومُعتدُّ بنفسه إلى حد الغرور، ويعاني قِصر النظر كبُومة تقف تحت أشعة شمس الصيف. ورغم ذلك، دعنا نلتزم بسياقنا الخاص. إذا كان ما قلته لك صحيحًا، رغم أنك بالطبع تُعرف أنه ليس كذلك، فأنت رغم ذلك لديك من الحس السليم ما يكفي لتُدرك أنني سأتردَّد على نحوٍ مُبرَّر في زيارة قصر والدي. فهو يمتلئ بجواسيس رئيس الأساقفة، ورغم أنني — كما قلت — لستُ معروفًا جدًّا؛ فإن هناك احتمالًا بأنه ربما يتعرَّف عليَّ شخص أو اثنان، وحينئذٍ وعلى الفور تقريبًا، سيقطع رجل على ظهر حصانٍ سريع طريقه إلى ماينتس. وإذا عرفتُ أن أمري اكتُشف، فسوف أشق طريقي على الفور إلى إيرنفيلس، وأصل إلى هناك قبل إجراء أي تحريات. ولكن رفاقي العشرون سينتظرونني بلا جدوى. ورغم ذلك، لعلني أغامر بالذهاب إلى قصر سالهوف عصر هذا اليوم، وأتيك بخطابٍ مكتوب من والدتي يؤكِّد أنني ابنها. هل سيقنعك هذا؟»

«أجل؛ لو تأكدتُ من أن التوقيع أصلي.»

«ها أنت تفعلُها مُجدِّدًا! دائمًا هناك ثغرة للهروب!»
تحدّث الشاب بنبرة تعكس يأسًا حقيقيًا لدرجة أن مُضيفه تأثّر رغم تشكيكه في مصداقيته.

علّق التاجر قائلاً: «اسمع!» وأردف: «بالطبع، ثمة احتمال واحد من عشرة آلاف بأنك كما تقول عن نفسك. لم أرَ مُطلقًا توقيع الإمبراطورة، ومثل هذه الرسالة الخطية يُمكن تزويرها بكل سهولة على يد شخص مُتعلّم، وأنا أعتبرك كذلك. إذن، إذا كنت ترغب في إقناعي، فسأضعك في اختبار سيكون لصالحك تمامًا، وسأقبله دون أيّ ثغرة للهروب.»
«بحق السماء، دعني أسمع ما هو.»
«ثمة شيء لا يُمكنك تزويره: ختم الإمبراطورية العظيم، المُرفَق بكل الوثائق التي يوقّع عليها الإمبراطور.»

صاح الشاب قائلاً: «أنا ليس لي تعاملات مع والدي منذ سنوات.» وتابع: «بل لم أره حتى قبل عدة أشهر. أستطيع الحصول على توقيع والدتي على أيّ شيء يروق لي كتابته، لكن لا أستطيع الحصول على توقيع والدي.»

قال التاجر رافعًا يده: «مهلاً، مهلاً!» وأضاف: «معروف أن الإمبراطورة تَسْتَطِيع إخضاع الإمبراطور لرغبتها إذا اختارت بذلَ الجهد لذلك. وعلى الرغم من كل ذلك، تلاحظ أنني أعتبر كونك الأمير أمرًا مفروغًا منه تمامًا، وإلا لا طائل من تضييع الوقت في هذا الحوار. أنت تَسْتَعرِض ثقة الشباب في الحديث عن البطولات المزمعة من جانبك، وبالطبع من دواعي سرور رجل في مُنتصف العمر مثلي أن يُقابل شخصًا واثقًا جدًّا في أي شيء في تلك الأيام التي تبعث على التشاؤم. ولكن هل فُكِّرْتَ فيما سيحدث إذا وقع خطأ ما أثناء إحدى مغامراتك هذه؟»

«ليس هناك مجال للخطأ. أنا لا أخشى مما ذكرته توًّا.»
«لقد فُكِّرْتَ كثيرًا. جيد جدًّا، سأُخبرك بالخطأ الذي قد يحدث. ربما يُوقّع أحد البارونات بك وبمجموعتك، وعلى الفور يَشْنَقُكم جميعًا في أبراجه المحصّنة. ومن ثمّ من المنطقي أن تمنع مثل هذه النهاية، إذا كان ذلك مُمكنًا. ومن ثم، اذهب إلى الإمبراطورة. أخبرها بأنك ورفاقك العشرين بصدد تنفيذ مغامرة تعود بفائدة كبيرة على البلاد. قل إنك ستذهب مُتَنَكِّرًا، وحتى في حالة إذا ما فشلت، فإنك لن تُشوّه سُمعة أسرتك الإمبراطورية. ولكن نوّه إلى الخطر الذي حذرتك منه. اطلب منها توقيع الإمبراطور على خطاب عبور آمن مَمهور بالختم العظيم؛ وإذا كان البارون الذي أوقع بك لا يستطيع القراءة، فإنه

ما زال بإمكانه التعرف على الختم، ونظرًا لأنه لا يوجد ثغرة في قبولي لهذا الإثبات، سأكتب خطابًا للمرور الآمن، من أجلك وبغرض حمايتي أيضًا، على مخطوطة تُشبه ما يجرى التوقيع عليه في القصر.»

وما إن قال السيد جوبل هذا حتى قام وذهب إلى مكتبه في زاوية الغرفة، حيث كتب الخطاب الذي أوضحه، وبعد أن نثر عليه الرمال، قدّمه إلى رولاند، الذي قرأه: «فليعلم مَنْ يُقدِّم له هذه المخطوطة أن حاملها رولاند هو ابني، وأن ما فعله فعَلَه بمُوافقتي؛ ومن ثم، لا يجب المساس به هو ورفاقه العشرين بأي سوء، إلا بالاحتكام إليّ في مدينتي فرانكفورت العاصمة. ومن يَعِص ما جاء بهذه الوثيقة يَخسر حياته، وحياة أسرته وحاشيته، وستُصادر الدولة ممتلكاته.»

قطَّب رولاند جبينه. سأله جوبل، وقد عادت شكوكه: «ألا يُسعدُك هذا؟» «حسنًا، يبدو بالنسبة لي تصرفًا مبتذلًا، الهجوم على قلعة رجل، وبعد ذلك إذا جرى القبض عليّ، أتحامى وراء تهديدٍ خطير كهذا.» هز التاجر كتفيه.

«هذا اعتراض عاطفي، ولكن بالطبع لست بحاجة إلى الاستعانة بالوثيقة إلا إذا رغبت في ذلك، رغم ظني بأنك إذا رأيت واحدًا وعشرين حبلًا مشنقة معلقًا في الهواء، فإن تردُّدك سيتلاشى على الفور.» وصاح حين رأى علامة اعتراض من جانب زائره: «أوه، ليس هذا من أجلك أنت؛ وإنما من أجل هؤلاء الرِّفاق العشرين الذين لا شكَّ يَنْتظرون تناول النبيذ معك.»

قال رولاند مُتَنهِّدًا: «هذا صحيح»، وهو يطوي المخطوطة المُتَيَّسة، ويفتح عباءته ويضعها تحت حزامه ويقف أثناء ذلك.

«أحضِر لي هذه المخطوطة وعليها توقيع الإمبراطور والختم العظيم، وستجد النقود الذهبية في انتظارك.»

«ممتاز! في أيّ وقت من هذا المساء يسرُّك أن تسمح لي بالدخول؟» «سيأتيني أصدقاء لي الليلة؛ ولكن ليس من المرجَّح أن يَمُكثوا طويلًا؛ فقط سنُتبادل التحيات ونُتناول بضع كئوس من الخمر. سأكون مُستعدًّا لاستقبالك حين تدقُّ ساعة الكاتدرائية العاشرة.»

ومع انتهاء هذا الاجتماع المطول، قاد الخادم المسن رولاند عبر الرّدهة إلى شارع فارجاسه.

وبينما كان الشاب يتقدّم عبر ويكمركت إلى شارع سالجاسه، تَمَمَّ في سرّه قائلاً: «الوغد العجوز البخيل! لِيَحْفَظْنِي الرب من التعامل مع أمثاله في المستقبل! حتى آخر دقيقة، يشكُّ أنّني مزور، وكتب هذا بخطّ يده، ولا شكَّ أنه ملأه بعلامات سرية. ورغم ذلك، ربما من الأفضل أن يكون هناك مثل هذا الضمان. هذه هي ثغرتي للخروج من المغامرة القادمة، أخشى أن نكون جميعاً جُبْناء، نبلاء وتجار على حدٍّ سواء.»

سار ببطء عبر المدينة أمام القصر، مُتَأَمِّلاً بعض طرق الدخول دون الكشف عن هويته، ولكن سرعان ما وَجَدَ أنّ حتى هذا التفحّص الدقيق والعابر جعله عرضة للشُّبهات. لم يكن باستطاعته أن يُخاطر بأن يُجرِّي اعتراضه؛ لأنّه إذا أخذ إلى غُرْفَةِ الحراسة وجرى استجوابه — وربما تفتّيشه وعُثِرَ على السيف معه — فسَتَنْشَأُ تعقيدات تزيد على نحوٍ ملموس من الصعوبات الموجودة في طريقه بالفعل. وما إن أسرع من خطواته حتى مر عبر شارع فاهرتور، ومنه إلى ضفة النهر، حيث لاحظ أن جانب قصر سالهوف المواجه لنهر الراين يَحْرُسُهُ فقط حارس أو حارسان؛ نظراً لأنّ الرّعاع لا يُمكنهم الاحتشاد عند سطح المياه، كما يَجْتَمِعُونَ على شارعي سالجاسه وفاهرتور المرصوفين بالحجارة.

متتبّعاً خطواته، سار الأمير بسرعة حتى وصل إلى الجسر، واقترب من الصليب الحديدي الذي يُخَلِّد ذكرى التضحية بالديك قرباناً للشيطان، باعتباره أول كائن حي يُوجَد على ذلك المبنى العتيق. هناك انحنى على الحاجز، وحدّق في النهر قبالة القصر، وأخذ يتأمّل ورطته. كانت هناك ثلاثة سلالم تُؤدّي من الشرفة إلى المياه؛ سلّم عريض في المنتصف يُستخدم في المناسبات الرسمية، وآخران ضيّقان عن يمينه ويساره؛ السلّم الغربي كان للاستخدام المعتاد، والسلّم الشرقي كان يستخدمه الخَدَم الذين يحملون دلاء الماء من النهر إلى المطبخ.

قال في نفسه: «السلّم الأقرب يُقدّم الفرصة الأنسب. سأجرّبه.»

قام بعدد أمواله؛ لأنّ ثمة احتمالاً على الأرجح للرشوة. وَجَدَ أربعاً وعشرين عملة ذهبية، وبعض العُمَلات الفُضِيّة. أعاد العملات إلى محفظته، وسار إلى اليايسة، وواصل سيره إلى النهر حتى وصل إلى رصيفٍ يَسمح بدخول المراكب الشراعية الصغيرة. أجرّ أحد هذه المراكب ثمّ صعد على متنه بعد أن رَفَضَ خدمات المراكبي لقيادة المركب، وانجرف مع التيار. خلع السيف وجرابه من حزامه، وخلع عباءته ولفّ السلاح بها، ووضع الثوب

المطوي بعيداً عن الأنظار تحت الغطاء في مقدمة المركب. وبمجدافه جعل المركب قريباً من الضفة اليمنى، مُكتشفاً مكاناً ممتازاً للاختباء تحت القنطرة الداعمة لدرجات السلم، والتي من خلالها يتدفق الماء. انتظر إلى جانب درجات السلم بضع دقائق حتى خرج مُساعد الطباخ في ثوب جبردين طويل وغمس دلوه في تيار المياه السريع.

بادره رولاند بالحديث قائلاً: «مرحى، أيها الصديق الرائع، هل تُريد الحصول على قطعتين ذهبيتين؟» وعرض العملتين الصفراوين في راحة يده.

لمعت عينا الخادم، وألقى نظرة سريعة من فوق كتفه.

رد في لهفة قائلاً: «أجل..»

«إذن، اترك دلوكَ حيثما هو، واركب هذا المركب..»

فعل الخادم ما أُمِر به، وهو يتلَقَّت حوله في حذر مرةً أخرى.

«الآن، اخلع هذا الثوب الخارجي، وأعطني إياه..»

ارتداه رولاند فوق ملابسه، ووضع قلنسوته بجوار العباءة والسيف؛ نظراً لأن الخادم

كان حاسر الرأس.

«انزل أسفل تلك القنطرة، وابقَ بعيداً عن الأنظار حتى تسمَعَنِي أُطلق صفارة..»

وبعد أن أخذ الدلو، صعد رولاند درجات السلم وسار سريعاً بعيداً عن أشعة الشمس المشرقة إلى الرواق المعتم المؤدي إلى المطبخ. كان قد قضى ساعتين مع التاجر، وقد حان الآن موعد وجبة مُنتَصَف النهار. كان الجميع يُسارعون جيئةً وذهاباً، ولم يكن هناك مُتَسَّع من الوقت للاهتمام بأي شيء ليس له علاقة بالمهمة محل النظر لديهم الآن، وما إن وضع الدخيل الدلو في كوة معتمة، حتى خلع الثوب الجبردين ووضعه بجوار الدلو، وأخذ يبحث حتى وجد درجاً خلفياً صعبه.

وبمجرد أن وصل إلى الأجزاء العلوية، كان يَعرف طريقه، وتوجَّه مباشرة إلى غرفة والدته، مُتأكِّداً من أنه سيجدها بالداخل في هذه الساعة. وعند دخوله المفاجئ، صاحت الإمبراطورة في تعجُّب ينمُّ عن الفزع أكثر من الفرحة، ولكنها اندفعت لمُقابلته ومعانقته.

صاحت قائلة: «أوه، رولاند! ماذا تفعل هنا؟ كيف جئتَ إلى القصر؟»

«عن طريق النهر. قاربي أسفل قنطرة سُلَّم الخدم، وليس أمامي دقيقة لأخسرها..»

«كيف هربتَ من قلعة إيرنفيلس، ولماذا جئتَ إلى هنا؟ أنت بالتأكيد تعرف أن القصر

هو أول مكان سيجري تفتيشُه بحثاً عنك؟»

«لن يكون هناك تفتيش، يا أمي. خُذي كلامي على محمَل الجد لأنه لا أحد يُدرك

غيابي من إيرنفيلس باستثناء الحارس، وهو لا يَجُرُّو على التفوه بكلمة لأسباب وجيهة.

لا تَنزعجِي، أُوَسِّلْ إليكِ. أنا طليق بإذنه، وسأعود إلى القلعة قبل أن يَحْتَاجَنِي. بالتأكيد، يا أُمِّي، أنا هنا للحفاظ على سلامتي، لا لتعريضها للخطر.»

أَخْرَجَ من تحت حزامه، مخطوطة السيد جوبل، وسَلَّمَهَا إياها. وقال: «في حالة إذا ما خطر على بال رئيس الأساقفة الفاضل، أو أحد النبلاء الآخرين، أن يَشَنَّقَنِي، أظن أنه من الأفضل أن أحصل على هذا التصريح موقَّعًا من الإمبراطور وممهورًا بختم الإمبراطورية العظيم. وإذا ما كان هناك أيُّ مُحاولات للتخلُّص من حياتي، وكذلك النَّيل من حُرِّيَّتي، فلعلَّنِي أقْدُم هذا المرسوم الإمبراطوري وأعرض قضيتي في مدينة فرانكفورت.»

صاحت السيدة المرتبكة ويدها ترتجفان وهي تُمسك الوثيقة وتحاول قراءتها: «بالتأكيد، بالتأكيد! أَسْتَطِيع الحصول على توقيع والدك، ولكن الختم العظيم يجب أن يضعه حاجب البلاط.»

«جيد جدًّا، يا أُمِّي. حاجب البلاط سَيَفْعَل ما يأمره به صاحب الجلالة. إن الختم أهم من التوقيع، إذا وصل الأمر إلى ذلك، وأنا مُتأكِّد أن حاجب البلاط لن يَعْتَرِض حين تتعلَّق الوثيقة بالحفاظ على حياة ابنك. ليس من الضروري أن تَذْكُرِي أنني موجود هنا، أو أن لي أيُّ صلة بالأمر. ولكن لا تُضَيِّعِي لحظة، وأَعْطِي الأوامر بألا يدخل أحد هذه الغرفة.» خرجت الإمبراطورة سريعًا بالوثيقة، بينما أخذ الشاب يقطع الغرفة جَيئةً وذهابًا بفارغ الصبر. بدا وكأن ساعات مرت على عودتها، ولكنها عادت في النهاية وقد أنجزت الوثيقة على أكمل وجه. دَسَّها رولاند تحت حزامه مرة أخرى، وطمأن والدته التي أخذت تبكي على كتفه، وحاولَ أن يُغادر المكان. ولكن الإمبراطورة أبقتة حتى فتحت دُرَجًا في الخزانة بيدها المرتعشة وأخرجت منه صرَّةً أصدرت خشخشة معدنية حين ضغطت عليها وهي تُعْطِيها لابنها.

قال: «لا يجب أن آخذها.» وأضاف: «أنا أحصل على مبلغ كافٍ. رؤساء الأساقفة الكرام يَمْنَحُونَنِي سبعمائة تالر شهريًّا، والتي يَجْرِي دفعُها على نحوٍ مُنْتَظَم بشدة.»

ردت الإمبراطورة قائلة: «يوجد هنا خمسمائة تالر فقط.» وتابعت: «كنتُ أتمنَّى لو كان هناك المزيد، ولكن يَجِب عليك أن تقبلها؛ لأنني سَأَشْعُرُ في قرارة نفسي براحة أكبر حين أعلم أنك تَمْلِك هذا المبلغ. هل يُسيئون معاملتك في إيرنفيلس، يا بُنَي؟»

«أوه، لا، لا، لا! أنا أَعِيش كعمدة المدينة. لا داعي للخوف عليَّ، يا أُمِّي. إيرنفيلس مكان مُبهج، مع وجود بلدة بينجن القديمة على الجانب الآخر من المياه. أنا أحبها أكثر

مما أحببت فرانكفورت، برعاها الغوغاء، وسأكون سعيدًا جدًا إذا خرجتُ من المدينة مرةً أخرى.»

ثم، بعد وداعٍ مُتَعَجِّلٍ، ترك المرأةُ المُنتَجِبَةَ، ونزل من الدَّرج الخلفي، آخذًا الثوبَ الجَبردين الذي تركه، وارتداه، ووصل إلى حافةِ المياه، ودخل في حَيِّزٍ قاربه مرةً أخرى. أعاد الأغراض إلى صاحبها، واستعاد السيف والعباءة مرةً أخرى، وشق طريقه إلى إحدى الحانات؛ حيث طلب وجبة جيدة.

وفي المساء، عاد إلى راينجولد، والتقى بمالك الحانة في القَبو العام الكبير والخالي، وسأل ذلك الشخص الفاضل ما إذا كان أصدقائه قد اجتمعوا بعد، وأُخبر بأن الجميع موجودون في قبو القيصر.

صاح قائلاً: «جيداً» وتابع: «لقد قلتُ إنني سأغيب لأسبوع، ولكن ها أنا ذا هنا في غضون يوم. إذا كان هذا لا يُثبت كلمة الرجل، أودُّ أن أعرف ماذا يُثبتها. والآن، أيها المالك، أحضر أفضل وجبة يُمكنك تقديمها، مع كمية مُضاعَفة من النبيذ.»

«لك، يا سيدي؟»

«لنا جميعاً، يا سيدي. ماذا أيضاً؟ أكاد أجزم أن الفتیان لم يتناولوا العشاء.»

«تناقَلَتِ الأيدي لقيمات الخبز الأسمر.»

«كل هذا أدعى لكي تُحضِر لنا فطيرة لحم كبيرة، ساخنة، أو اثنتين أو ثلاثاً منها، إذا كان ضرورياً. وأفضل نبيذ لديك، يا سيدي. ذلك القادم من راينجاو.»

ولكن صاحب الحانة اعترض.

وقال: «وجبُّكَ، يا سيدي، باعتبارك القائد، يُمكنني تحمُّلها؛ ولكن إطعام عشرين من الجياع هو أمر مختلف. تذكر، يا سيدي، أنني لم أرَ لمعة عملاتهم الفضية منذ وقت طويل، ومنذ أن بدأت تلك الأوقات العصيبة، وأنا رجل فقير.»

«الفضة الدنيئة؟ اللعنة على الفضة! ما لم تكن بعض الأسماك الفضية الآتية من النهر، طازجة ومُكتنزة؛ وهذه فكرة جيدة. سنبدأ بالسّمك بينما تُعدُّ أنت اللحم. سأتعامل بالذهب الليلة، وأغلبه سيذهب إلى محفظتك. ضع يدك هنا واستمتع بالإثارة.» وفتح رولاند فَوْهَةً الصرة التي تحتوي على كنزه.

صاح صاحب الحانة، وقد توهَّج وجهه قائلاً: «أها!» وأردف: «لن تُوزَّع وجبة في مدينة فرانكفورت كالوجبة التي ستُوضَّع أمامك.»

كان هناك صياح كبير حين دَخَلَ رولاند قبو القيصر، وعلا هتافُ ترحيب.
صاح أحدهم قائلاً: «ها هو ذا المنشق!» وأضاف: «هل تملّصتَ من مُهمتك سريعاً جداً؟»

وأضاف: «جبان، جبان، رعيدي!» ثم أردف: «أرى على صفحة وجهه الفشل. لا تأبه بهم، يا رولاند. مقعدك على رأس الطاولة في انتظارك. هناك لُقمة خبز أسمر متبقية، وعلى الرغم من أن النبيذ خفيف القوام، فإنه يروي العطش.»

خلع رولاند عباءته، وعَلَّقها هي والسيف على مشجب، واتخذ مقعده على رأس الطاولة. وأزاح الأباريق التي وُضعت بالقرب منه، وأخرج الصرة الجلدية من حزامه، وسكب العملات الصفراء اللامعة على الطاولة، وعند رؤيتها انطلقت صيحةٌ لدرجة أن العوارض المتينة من فوقهم بدت كأنها تهتز.

طالبهم رولاند حين هدأ الضجيج قائلاً: «اعتذروا!» وتابع: «والرجل الذي يرفض الاعتذار، ويحتج، فليأخذ سيفه من على المشجب ويُصَفِّي حسابه معي!»

كان الرد عبارة عن صيحة اعتذار.

صاح الرجل الذي وصفه بالرعيدي قائلاً: «نحن نتذللُ عند قدمي سُموك!»
«لقد سمحتُ لنفسي أن أطلب سمكاً ولحمًا لوجبة العشاء، بالإضافة إلى كمية مُضاعفة من نبيذ رودسهايمر. مرةً أخرى، أبدي استعدادي لقتال أيِّ رجل يعترض على هذا التجاوز من جانبي.»

صاح أحدهم قائلاً: «يُمكِنني أن أبارزك ويدي مُوثَّقة خلف ظهري، ولكنِّي ذو طبيعة مُتسامحة، وسأنتظر بدلاً من ذلك لحم الطير المشوي.»

استطرد رولاند في هدوء: «أظنُّ أن أغلب هذه الأموال ستذهب إلى صاحب الحانة، كتقديرٍ بسيطٍ لكرمه السابق، ولكني وُعدت هذا المساء بمزيد من المال الذي سيُوَزَّع بالتساوي بيننا. ومن ثمَّ أطلب منكم، الاقتصاد في النبيذ.» اضطرَّ هنا إلى التوقُّف لبعض اللحظات، واستمع إلى الآهات والصيحات والصرافات، وقرع الأقداح الفارغة على الطاولة المتينة.

قاطع هذه الضجَّة دخولُ صاحب الحانة، الذي أحضر معه نبيذ الراين الموعود؛ وحين سمع الضجَّة، ظن أن هذا يعبرُّ عن نفاد صبر المجموعة على التأخير، وهو خطأ لا أحد يظنُّ أنه يستحق التصحيح. ووعد بتقديم السمك بعد بضع دقائق، وخرج ليتأكد من تنفيذ وعده.

سأل سكير، الذي شرب إبريقه قبل أن يطرح السؤال: «لماذا ينبغي علينا أن نقتصد في شرب النبيذ؟» وأضاف: «مع وجود كل هذه الأموال على الطاولة يبدو لي هذا شرطاً معيياً.»

أجاب رولاند قائلاً: «هذا ليس بأمر على الإطلاق، ولكنه مجرد اقتراح. أنا أتحدث من منطلق اللعب بقواعد مُنصفة. لقد حَدَدْتُ موعداً بحلول الساعة العاشرة هذا المساء، وأتمنى أن أحافظ على وَعدي وأبقى بعيداً عن تأثير الخمر.»

سأله السكير قائلاً: «ما اسمها، يا رولاند؟»

«كنت على وشك إفشاء السر حين قاطعتني. الاسم هو السيد جوبل.»

«ماذا! تاجر القماش المقيم في شارع فارجاسه؟»

«هل يُتاجر في القماش؟ لم أكن أعرف تفاصيل مهنته باستثناء حقيقة أنه تاجر ويعيش في شارع فارجاسه. لقد شرفتُ هذا الصباح بعرض خطةٍ مشتركةٍ مُفيدة على السيد جوبل ستوفّر لنا جميعاً فرصة عمل.»

قال كورزبولد: «أوه، هل سيكون جوبل ربّ عملنا؟ أنا حدّاد سيوف، ولا أعمل لدى تاجر قماش تافه.»

واصل رولاند حديثه غير مُلتفت إليه قائلاً: «هذا الموعد في الساعة العاشرة، وأتوقع أن أعود إلى هنا قبل العاشرة والنصف؛ ومن ثمّ ...»

«ومن ثمّ علينا ألا نشرب النبيذ كله.»

«بالضبط.»

جلس قائدهم حين دخل صاحب الحانة، متبوعاً بمُساعدِهِ، يحمل أدوات الطعام للوجبة العامرة، وتقدّم ليُحضِر المائدة.

حين انتهت الوجبة المُمتعة، جلستِ الصحبة لمدة نصف ساعة أخرى لتناول الخمر، ثم قام رولاند وثبّت سيفه ووضع عباءته فوق كتفيه.

«رولاند، أتمنى ألا تكون قد بعثت رُوحك مقابل هذا الذهب؟»

«كلا؛ ولكني رهنْتُ أجسادكم، وجسدي أيضاً. جريسِل، هلاً تقوم بدور السكرتير وأمين الخزانة! تفحص فاتورة صاحب الحانة بعين السخاء، وسدّد له المبلغ الذي ندين به له. وإذا تبقى أي شيء، فسنوزّعه علينا بالتساوي»، وما إن قال هذا حتى لوّح لهم بيده، وغادر وسط جولة من الهتافات؛ نظراً لأن الشباب النشطين كانوا قد سئموا البطالة.

الالتزام بالمواعيد من شيم الحُكام، ومع إعلان أجراس فرانكفورت الساعة العاشرة مساءً، كان رولاند يطرق باب منزل التاجر في شارع فارجاسه. وعلى الفور، فتحه الباب

العَجوز، الذي قاد الشاب بعد أن أغلق الباب مرة أخرى للصعود إلى السلم المتين المؤدي إلى غرفة المكتب في الطابق الأول.

وما إن دخل الأمير حتى وجد التاجر يجلس على كرسيه المعتاد، كما لو أنه لم يبرح المكان أبدًا حيثما تركه رولاند في ظهيرة ذلك اليوم. أُلقت ستُّ شموع بسطوعها الرقيق على الطاولة، وعند أحد أركانها، بالقرب من مرفق السيد جوبل الأيمن، رأى الزائر صرةً جلدية مُمثلة عن آخرها، والتي ظنَّ أنها ربما تحتوي على الألف تالر.

قال الشاب وهو يخلع قلنسوته: «مساء الخير، سيد جوبل.» ثم أضاف: «أتمنى ألا أكون قد جئتُ قبل موعدي، ومن ثمَّ أخذُك من احتفالاتك قبل الأوان، وأثق بأن أكثر ما تَسْتَمِيعُ به هو استنشاق هواء الحرية مرةً أخرى.»

«كان الاجتماع جدّيًّا، يا سيدي، لا احتفاليًّا؛ فعلى الرغم من أنني سعيد برؤية أصدقائي القدامى مرةً أخرى، وأعتقد أنهم سعدوا برؤيتي، فإن أوضاع المدينة تزداد سوءًا بسرعة لدرجة أن التجار لا يُمكنهم أن يَفرحوا حين يَجتمعون معًا.»

«أها، حسنًا، سيد جوبل، سنُصلح كل هذا قريبًا. كم ستَسْتَغْرِقُ من الوقت لتملأ قاربك بالبضاعة وتختار طاقمك؟»

«كل شيء يُمكن أن يكون جاهزًا بحلول مساء بعد الغد.»

«ستختار واحدة من أكبر مراكبك. تذكر أنها لا بدَّ أن تُؤوي واحدًا وعشرين رجلًا على متنها بالإضافة إلى الطاقم والبضائع.»

«أجل، سأؤكد من أن الترتيبات الكاملة قد تَمَّت لأجل راحتك.»

«شكرًا لك. ولكن لا تُقدِّم قدرًا كبيرًا من الرفاهية. هذا ربما يثير شكوك البارونات الذين يُفَتِّشون المركب.»

«ولكن البارونات سيرونك أنت ورجالك في المركب.»

«لا أظن ذلك. على الأقل، نحن لا نعتزم أن يرانا أحد. سأزورك مرةً أخرى غدًا في العاشرة مساءً. هلا تطلَّب بكلِّ لُطفٍ من قبطانك أن يلتقي بي هنا؟ أتمنى أن تعطيه الأوامر في حضوري بأن يفعل أيَّ شيء أطلبه منه. سننضم إلى المركب على نهر الراين بين إيرنفيلس وأسمانسهاوزن. مُره أن ينتظرنا في المنتصف بين المكانين، على الضفة اليُمنى. والآن، الأموال، إذا سمحت.»

قال التاجر، وهو يَنتصب في جلسته على كرسيه بمزيد من التيبُّس ويُرَبَّت على الصرة الممتلئة عن آخرها: «ها هو ذا المال.» ثم أضاف: «المال هنا إذا كنت قد أحضرت الوثيقة التي تُحوِّل لك الحصول عليه.»

«لقد أحضرْتُها معي، يا سيدي.»

قال له التاجر أمرًا: «إذن، أرني إياها»، وهو يضبط نظارته بنبرة شخص لن يسمح لنفسه أن يُخَدَع.

رد الشاب، وهو يقف أمامه، قائلاً: «بكل سرور.» فكَّ عباءته، وتركها تسقط عند قدميه، ثم أخرج سيفه ووجَّه حده إلى رقبة التاجر. فجأةً أدرك جوبل، الذي تلمَّس نظارته، خطورتَه، وانكمش إلى الوراء بقدر ما يسمح كرسيُّه، ولكن تبعه حد السيف.

قال لاهتًا: «ماذا تقصد بذلك؟»

«أقصد أن أثبت لك أن الحديد في هذه اللعبة يتفوق على الذهب. ورقنْتُ على الطاولة، تُمثِّلها هذه الصرة. أما ورقتي فهي لا تزال في يدي، لم أَلعبها بعد، ولكنها تتطلب الحيلة، على ما أظن. أتمنَّى أن ترى أن المقاومة عديمة الفائدة. ولا يُمكنك حتى الصراخ؛ لأنه مع المحاولة الأولى طعنة واحدة من هذا النصل سيَقطع أحبال الصوت. سيكون من السهل عليَّ الهروب لأنني سأخرج بهدوء ومعِي الصرة تحت عباءتي، لأُخبر البواب بأنك لا ترغب في أن يُزَعَجَ أحد.»

قال السيد جوبل: «أنت أمير اللصوص إذن.»

«سيُتضح ذلك. مرَّر صُرة الذهب هذه عبر الطاولة بيدك اليمنى، وتوسَّل إليَّ لأقبلها.» فعل التاجر على الفور ما أمر به.

أعاد الشاب السيف إلى موضعه مرَّةً أخرى، ضاحكًا في ابتهاج، ولكن لم يأتِ الرد بابتسامة على وجه السيد جوبل. كما قال، الأوضاع في مدينة فرانكفورت، لا سيما في تلك الغرفة، لا تَبعث على المرح. سحب رولاند كرسيًّا، دون أن يدعوه أحد لذلك، وجلس على الجهة المقابلة من الطاولة.

وحذَّره قائلاً: «من فضلك، لا تحاول الاندفاع نحو الباب؛ لأنني أستطيع بكل سهولة أن أعترض طريقك؛ نظرًا لأنني أقرب إليه منك، وأكثر نشاطًا منك. استعن بالحكمة وتقبَّل كلَّ ما يحدث بهدوء. أوكد لك أن هذه هي الطريقة المثلى، والطريقة الوحيدة.»

فكَّ الحبل وسكب العملات الذهبية على الطاولة. راقبه التاجر في ذهول. فجميع اللصوص يَعرفون أن الباب ربما يُفتح في أيِّ لحظة، ولكنه واصل عد العملات في عدم اكتراث وكأنه يجلس في مكتب خزينة بورصة الذرة. وحين وصل إلى عدِّ نصف العملات الموجودة في الصرة، سكب حفنات من العملات في المحفظة التي تحتوي على إسهام والدته، ودفع الصرة ناحية التاجر، والتي تبقي فيها خمسمائة تالر.

ثم قال وهو يبتسم ويعتدل في جلسته المنحنية إلى الأمام: «لتعرف أنني حين زُرت والدتي بعد ظهيرة اليوم، أعطتني على نحو غير متوقَّع خمسمائة تالر. ولذا سأقبل منك فقط نصف المبلغ الذي طلبته اليوم.»

صاح التاجر: «والدتك!» وتابع: «مَن تكون والدتك؟»
«الإمبراطورة، كما قلتُ لك. أوه، في النهاية، أنفهم عدم ارتياحك. كنتَ ترغب في رؤية تلك الوثيقة! لماذا لم تطلبها؟ لقد طلبتُ منك المال بكل بساطة. حسنًا، ها هي ذه. تفحص الختم والتوقيع.»

تفحص التاجر الختم العظيم والتوقيع فوقه بكل دقة.
تلعنم السيد جوبل في النهاية وهو يُحدِّق عبر الطاولة وارتسمت على وجهه الحيرة قائلاً: «لا أعرف ماذا أقول الآن.»
«قل كم أنا حظي سعيد! قبل لحظات، كنتَ تظنُّ أنك فقدتَ ألف تالر. والآن لقد استثمرت خمسمائة تالر فقط، وأصبحت شريكًا مع العائلة الإمبراطورية.»

الفصل الثالث

انقسام في صفوف عصابة الحدادين

لطالما عاش الأمير رولاند حياة هائلة دون مسئوليات تُثقل كاهله، قبل تلك الليلة التي أُيقظَ فيها في مُنتصف الليل. وعلى الرغم من تلقيه التعليم الأساسي الذي يُفترض أن يليق بشاب في مكانته، فقد اقتصر شغفه على دراسة أمرين أساسيين، ورغم أن كلاً منهما كان يتعارض مع الآخر، إن جاز التعبير، فإن ذلك كان لصالحه تمامًا. كان رولاند فتًى شديد الهدوء، ولأمه الفضل الأكبر في ذلك، في ظل عدم اكتراث والده المخمور دائماً. وهي أيضاً من وجّهته للاهتمام بأدب بلاده، فأصبح قارئاً نهماً لمخطوطات الرهبان القديمة التي كان يعجُّ بها القصر. ولكنه انشغل بوجه خاص بقصص وأساطير نهر الراين. وأصبح مفتوناً بمزيج التاريخ والخيال والخرافات الذي يراه منسوجاً بين سطور هذه الأوراق المنمقة بعناية والمزخرفة بأحرف أولى ذهبية وقرمزية وزرقاء اللون، وامتلاً شوقاً لرؤية تلك القلاع العاتية الواقعة على منحدرات الجبال على جانبي النهر، ما دفعه لاحقاً للارتحال إلى بون من إيرنفيلس، بعدما حرّرت براعته وجشع حارسه من العبودية الهيّنة جداً التي فرضها عليه رئيس أساقفة ماينتس.

ولو استحوذت قراءة تلك المجلّدات على اهتمامه بالكامل، لأصبح فقط قارئاً نهماً حالمًا، عقله متشبعًا بالتصوّف الرومانسي والعاطفي الذي ظلّ مُسيطرًا على ألمانيا حتى يومنا هذا، ونظرًا لأنه لم يُبدِ اهتمامًا بأيّ من أنشطة الصّبا، ربما كان سيُعاني جسده أثناء تطوّر عقله.

ولكن لحسن حظ، لم يحدث أيّ من هذا؛ فقد تولّى رينالدو تعليمه، وهو أمهر مُعلّم سيف أنجبته الأرض حتى هذه الفترة. كان رينالدو إيطاليًا من ميلانو، أغرته الأموال بأن

يَعْبُرُ جبال الألب آتياً إلى فرانكفورت لتوَّليَّ مُهمّة تعليم نجل الإمبراطور. كان رجلاً فاضلاً ومهذباً وأحبّه رولاند منذ الوهلة الأولى، وأظهر براعة في فنون المبارزة بالسيف مما دفع الإيطالي للافتخار به ليس فقط لما أثمر عنه المجهود الذي بذله في تعليمه ولكنه أحب الشاب كابنه أيضاً.

عبر الإيطالي عن ازدرائه البالغ لصناعة السيوف في ألمانيا. وقال إنّ الأسلحة الرديئة التي يصنعها الحدّادون في فرانكفورت افتقرت إلى القوة وليس المهارة في استخدامها. فالفارق بين الصناعة الإيطالية والألمانية أشبه بالفارق بين اصطياد أسماك السلمون بصنارة رقيقة وحشرة دقيقة وضرب الأسماك بالهراوات حتى الموت كما يفعل البحّارة في منطقة اصطياد الأسماك المُسمّاة واج على نهر الراين بالقرب من سانت جوار.

أنصت رولاند لحديثه باهتمام بالغ ولم يُهاجم الهجاء اللاذع الذي نال من أسلحة بلاده واستخدام أهلها الأخرق لها، ولكن صمته لم يكن تعبيراً عن موافقته لهذا الرأي؛ فقد شكّل آراءه الخاصة، مُعتقداً أنّ قوة السيف لها بعض المزايا التي تجاهلها الإيطالي؛ لذا، عندما اهتم بدراسة هذا الشأن استطاع أن يصنع سيفاً بنفسه، وتميّز هذا السيف بالمتانة رغم افتقاره إلى صلابة السلاح الألماني، وكان سهل الاستخدام كالسيف الإيطالي، ولكنه ليس ضعيفاً مثله.

وهكذا حدث أن رحل الشاب رولاند من القصر وتعرّف على صانعي السيوف. وقد سمحت له ممارسة المبارزة بتدريب كل عضلة في جسده، وجعلته حلقات التدريب المستمرة مع رينالدو متمرساً في استخدام السلاح، وتميّزت ذراعه اليمنى واليسرى بالقوة ذاتها؛ فأصبح رياضياً من الطراز الأول وأتسم بالقوة والرشاقة، وتطوّرت قدراته الجسدية عموماً، وليس في اتجاه واحد.

ولكن للأسف في هذه الأثناء ظلّ رولاند جاهلاً بشئون البلاد، وهو الموضوع الذي لا تعلّم والدته عنه شيئاً. أما الإمبراطور فقد انشغل تماماً بشرب الخمر بدلاً من تأدية واجبه المتمثّل في أن يصبح معلّماً لولده، تاركاً الأمور تتخذ منحى كارثياً، ومُرخباً قبضته على السُلطة، وأصبحت الدّفة في أيدي رجال أقوىاء ولكنهم ليسوا أهلاً للثقة. وتعلّم رولاند القليل عن أمور السياسة خلال رحلاته السريّة إلى المدينة للحديث مع صانعي السيوف؛ فقد ركّزت محادثاته مع هؤلاء الحرفيين على أعمال الحدادة. وصادف رولاند بين الحين والآخر تمرّد الغوغاء، لكنه لم يعلم سبباً لهذا التمرد، وبطبيعة الحال لم يكتثر كثيراً بالأمر، ولم يدرك إلا كرهه المتزايد للمدينة واشمئزازه من سكانها. وقال لنفسه إنه ذات

يوم حين يَمتلك زمام أمره سيتقاعَد في قلعة ريفية يمتلكها والده، وهناك سيُكرّس حياته للعمل الذي يُوافق رغباته.

لكنه كان على وشك أن يتلقّى درسًا قاسيًا مفاده أنه مهما بلغت مكانة المرء فليس بوسعه الانفصال عمّن حوله. إنه لم يكن مدرّكًا للجَلَبَة التي دارت حول اسمه، ولا المصير القاتم الذي انتهى بشنق القادة الذين اختاروه ليُصبح قائدهم الأعلى. وعندما كان نائمًا وغائبًا عن الوعي، أُيقظ في منتصف الليل ليرى ثلاثة رجال مسلّحين ملتفين حول سريره، وأيقظته الصدمة أكثر مما أيقظته قبضة الأيدي الغريبة التي أطبقت على كتفه. وفي جولة القارب تلك الليلة لم يتفوّه بكلمة وظلّ غارقًا في أفكاره. لقد سمع والدته تتوسّل من أجله ولكن رحلته لم تؤجّل ولو دقيقة. كان جليًا أنها لا حيلة لها. وحينها كانت هناك قوة تفوق قوة العرش. وسمعت أمه كلمات هذات من مخاوفها؛ إذ سمحت له أخيرًا بالذهاب دون المزيد من الاعتراض، لكنها بكت قليلًا واحتضنته بشدة. ولم يُعامله أولئك الذين اصطحبوه عبر رافد ماين وصولًا إلى نهر الراين وانتهاءً بإيرنفيلس محطتهم الأخيرة، بخُشونة أو وقاحة، بل عاملوه بكل لطف واحترام، إلا أن ذلك لم يُخرج رولاند عن صمته على مدار الرحلة الطويلة؛ فقد أزعجته تلك السلطة الجديدة غير المرئية التي لا يمكن مقاومتها والتي كانت لديها القدرة على فعل ما تشاء معه.

وفي قلعة إيرنفيلس لم يجد أيّ سجنٍ مُشدّد في انتظاره. كانوا يُعاملونه كضيف مُرحّب به لمضيف خفي. وكان لحادثاته مع حارسه الثرثار، الذي كان مُتابعًا جيدًا للأحداث التي تدور، الفضل في الإيقاظ التدريجي لوعي الأمير الشاب وامتلاكه بعض الدراية بشئون البلاد. فهو الآن على علمٍ بالحالة المزرية التي أصبحت عليها العاصمة، بسبب تصاعد عمليات الابتزاز التي يُديرها البارونات للصوص على طول نهر الراين. سأل رولاند مُرشده عن السبب الذي جعل التجار لا يُرسلون بضائعهم عبر طريقٍ آخر، وهو تساؤل بديهي جدًّا، لكنه أخبره بعدم وجود طريق آخر. فهناك غابة ضخمة تمتد أغلب الطريق بين فرانكفورت وكولونيا، ولا تتوافر أيّ طرقٍ برية هناك، وحتى الطرق التي شيّدها الرومان اندثرت ونبتت فيها الأشجار العالية؛ فالطبيعة تُدمّر صنيع الإنسان حين يُهمله، وتستعيد للغابة نفوذها.

تابع الحارس حديثه قائلاً: «في واقع الأمر، خلال السنوات العشر الماضية، أصبحت الأمور كارثية، لعدم وجود قبضة قوية للسيطرة على العاصمة. يحتاج النبلاء والخارجون

عن القانون على حدٍّ سواء إلى قبضة قوية. نُريد فريديريك بربروسا آخر؛ فربما تكون الشُّعلة وحبل المشنقة في يد الجلاء، حال استخدامهما بحكمة، هما السبيل لإنقاذ البلاد.» كانت إيرنفيلس تقع تحت سيطرة رئيس الأساقفة، ولم تكن وكراً للقراصنة؛ لذا كان بإمكان الحارس أن يتحدث بهذا الأسلوب كما يحلو له، ولو أنه أفصح عن هذه المشاعر على نقطة أبعد على نهر الراين، لجرب بنفسه حبل المشنقة. قال رولاند وكان قد تعرّف بحلول ذلك الوقت على مَنْ يحبسه:

«لماذا لا يضع رؤساء الأساقفة الثلاثة حدًا لذلك؟ فهم يَمْتَلِكُون السلطة.»
هزَّ السجان العجوز كتفيه.

ثم قال: «رئيس أساقفة ماينتس العظيم كان سيفعل ذلك فورًا لو كان بمفرده، ولكن لطالما كان رؤساء أساقفة تريفيس لصوصًا، وكولونيا وضعها أفضل قليلًا؛ لذا يبقى الحال على ما هو عليه. لن يَسمح أيُّ اثنين منهم للثالث بفعل أي شيء خوفًا من أن ينفرد بالسلطة وتختلُّ بذلك توازنات القوى، وهو ما أؤكد لجلالتك أنه تغيّر بنحو كبير. فكل واحد من هؤلاء الثلاثة يتظاهر بالولاء لأحد البارونات، وعلى الرغم من أن رؤساء الأساقفة لا يفرضون بأنفسهم ضرائب مباشرة على التجار الناقلين بضائعهم عبر نهر الراين، فإن أنصارهم الطائشين هم مَنْ يفعلون ذلك، مما يجعلنا نصلُ إلى طريق مسدود.»

وهكذا تعلّم رولاند ما لم يكن ليتعلّمه في القصر، ودفعه مجرد سؤال عارض إلى التفكير كثيرًا والوصول لاستنتاجات معينة. وتوصّل إلى فكرة طموحة لفتح نهر الراين وقضى وقته في جمع المعلومات ووضع الخطط.

وبعد مضيِّ اثنتي عشرة ساعة على تسلُّم الخمسمائة تالر من التاجر، أتى مرة أخرى إلى الباب الذي بات مألوفًا له الآن في شارع فارجاسه. وفي الغرفة الموجودة بالطابق الأول وجد السيد جوبل وبصحبته رجلٌ قصير بدين، كثيف اللحية، مسفوع، والذي كان واقفًا وبيده قُبعة، وكان التاجر يعطيه التعليمات النهائية.

صاح السيد جوبل بابتهاج قائلاً: «صباح الخير سيد رولاند.» ولم يُبدِ أيَّ استياء من معاملته ليلة أمس، ويبدو أن ضوء النهار تجددت معه الثقة بأن الشاب ربما ينجح في مهمته. كان التاجر واثقًا ويقظًا وعازمًا، وبدا أن شعوره بانعدام الثقة قد تلاشى تمامًا. ثم قال: «هذا هو القبطان بلومنفيلس، الذي عيّنته مسئولًا عن السفينة، والذي جمع رجال طاقمه الذين يُمكنه الاعتماد عليهم، ولكن بالطبع، يجب ألا تتوقّع منهم القتال.»

أجاب رولاند قائلاً: «بالطبع لا، سأتولّى أنا أمر هذا الجزء من المهمة.»
تابع السيد جوبل توجيه حديثه إلى القبطان بلومنفيلس قائلاً: «والآن، هذا الشاب الذي أمامك هو القائد. عليك أن تطيعه في أي أمرٍ تماماً كما تطيعني.»
وأما القبطان برأسه دون أن يتفوه بكلمة.
وتابع التاجر قائلاً: «حسناً أيها القبطان، لن أبقيك أكثر من ذلك؛ فلا بد أنك متشوّق لرؤية البالات وهي تصطف على سفينتك كما تحب.»
هنا انصرف القبطان، وأدرك رولاند أنه أحب هذا البحار الفظّ الكفء لأداء هذا العمل؛ فمن الواضح أنه رجل أفعال لا أقوال.
وبعدها استدار السيد جوبل نحو رولاند.
وحديثه قائلاً: «لقد طلبتُ بالات من القماش تتجاوز قيمتها أربعة آلاف تالر لوضعها في السفينة.» وأردف: «جميعها مرقّمة، وأعطيتُ القبطان بياناً بأسعار كلٍّ منها. افترض أنك تحقّر تجارتنا، وبالطبع لم أفكّر في مطالبة شخص في مثل مكانتك ببيع بضائعي؛ لذلك سيُشرف بلومنفيلس على البيع عندما تصلون كولونيا؛ أعني إذا تمكّنتم من الوصول إلى هذه النقطة.»
«معذرة سيد جوبل، ولكن لديّ خططي بشأن ترويج بضائعك. فأنا أنوي بيعها قبل الوصول إلى كولونيا بكثير. وبالطبع إذا نجحتُ فسيُتجه قاربك جنوباً استعداداً لرحلة العودة قبل كوبلنتز بقليل.»
نظر إليه التاجر بدهشة.
ثم قال: «خطتك مستحيلة. كوبلنتز هي أقرب مكان يُمكننا بيع القماش فيه. ما تقوله يشير إلى أنك على عدم دراية بالنهر.»
«لقد قطعت جانبي النهر بين إيرنفيلس وبون سيراً على الأقدام. وهناك العديد من القلاع الثرية قبل كوبلنتز.»
«صحيح يا سيدي، ولكن هل تعلم كيف أصبحوا أثرياء؟ ببساطة عن طريق سرقة التجار. ألا تعلم أن قطّاع الطريق من النبلاء هم من يسكنون هذه القلاع؟ أنت بالتأكيد لا تتوقّع مني بيع أقمشتي إلى البارونات؟»
«ولم لا؟ تذكّر آخر مرة أبحرت فيها سفينة محملة بالأقمشة في نهر الراين. تأمل قليلاً الحياة الشاقة التي يعيشها هؤلاء البارونات وهم يصطادون الخنازير والدببة والغزلان، ويدمرون بتهور الغابة والأراضي التي تُغطيها النباتات. ولا بد أن هؤلاء النبلاء

يَرْتَدُّونَ الْآنَ مَلَابِسَ مَمْرَقَةٍ أَوْ جُلُودِ الْحَيَوَانَاتِ الَّتِي يَصْرَعُونَهَا! وَسَيَسْعُدُونَ بِرُؤْيَا قِطْعَةٍ قِمَاشٍ مَنْسُوجَةٍ جَيِّدًا مَرَّةً أُخْرَى.»

لِدَقِيقَةٍ كَامِلَةٍ شَعَرَ التَّاجِرُ بِالذَّهْوِلِ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ غَيْرِ الْمُنْطَقِيِّ الَّذِي عَبَّرَ عَنْهُ الشَّابُّ بِجَدِيَّةٍ، ثُمَّ ابْتَسَمَ.

وَقَالَ: «حَسَنًا أَيُّهَا الْأَمِيرُ رُولَانْدُ، لَقَدْ بَدَأْتُ أَفْهَمُكَ الْآنَ. إِنَّهُ الْمَقْلَبُ النَّاجِحُ ذَاتَهُ الَّذِي فَعَلْتَهُ بِي لَيْلَةَ أَمَسَ. بِالطَّبَعِ، إِنَّكَ تَعْلَمُ مِثْلِي تَمَامًا أَنَّ الْبَارُونَاتِ لَنْ يَشْتَرُوا شَيْئًا. إِنَّهُمْ سَيَنْهَبُونَ تِلْكَ الْبِضَاعَةَ مَتَى سَنَحَتَ لَهُمُ الْفُرْصَةَ. مَا تَقُولُهُ لَا يَعْنِي سِوَى قَوْلِكَ لِي بِأَنَّ بَيْعَ الْبِضَائِعِ لَيْسَ مِنْ شَأْنِي مَا دُمْتَ سَتُعْطِينِي أَرْبَعَةَ آلَافٍ تَالِرَ.»

«مَعْدَرَةٌ، إِنَّهَا أَرْبَعَةُ آلَافٍ وَخَمْسَمِائَةُ تَالِرَ.»

«يَكْفِينِي الْأَرْبَعَةُ آلَافُ فَقَطْ، أَمَّا الْخَمْسَمِائَةُ الْإِضَافِيَّةُ فَإِنَّهَا مُقَابِلُ الْخِدْمَاتِ الْمَقْدَّمَةِ. وَالْآنَ، هَلْ بُوَسْعِي فَعَلَ أَيُّ شَيْءٍ آخَرَ لِمُسَاعَدَتِكَ؟»

«نَعَمْ. أَتَمَنَّى أَنْ تُرْسَلَ رَجُلًا عَلَى ظَهْرِ أَحَدِ الْخِيُولِ إِلَى لُورْشَ لِيَكُونَ هُنَاكَ فِي انْتِظَارِ السَّفِينَةِ. وَاخْتَرِ رَجُلًا تَتَّقُ بِهِ تَمَامًا وَيَكُونَ قَلِيلَ الْحَدِيثِ كَالْقَبْطَانِ؛ لِأَنِّي أَمَلُ أَنْ أُرْسَلَ مَعَهُ الْأَرْبَعَةَ آلَافَ وَخَمْسَمِائَةَ تَالِرَ، بِالإِضَافَةِ إِلَى بَعْضِ الذَّهَبِ الَّذِي أَرْجُو مِنْكَ الْإِحْتِفَازَ بِهِ مِنْ أَجْلِ لَحِينِ عَوْدَتِي.»

«لَكِنْ يَا أَمِيرَ رُولَانْدِ أَنَا لَا أُنْتَظِرُ ذَهَبًا فِي لُورْشَ.»

«أُرْسَلَ رَجُلًا تَأْتِمْنُهُ فِي حَالٍ إِذَا تَلَقَّيْتَ الْأَمْوَالَ. سَوْفَ تَكُونُ مَتَشَوِّقًا لِمَعْرِفَةِ إِلَى أَيِّ مَدَى حَقَقْنَا نَجَاحًا، وَسَيُمْكِنُنِي عَلَى الْأَقْلَ تَزْوِيدُهُ بِالْأَخْبَارِ كُلِّهَا.»

«وَلَكِنْ فِي حَالِ وَجُودِ ذَهَبٍ، فَلَنْ يُمَكِّنَهُ الْعَوْدَةُ بِهِ بِأَمَانٍ إِلَى فِرَانْكَفُورْتِ.»

«أَوْه، بَلَى يُمْكِنُهُ، إِذَا اسْتَمَرَّ عَلَى الضَّفَةِ الشَّرْقِيَّةِ لِنَهْرِ الرَّايْنِ. لَا وَجُودَ لِقْلَاعٍ بَيْنَ لُورْشَ وَفِرَانْكَفُورْتِ إِلَّا فِي إِيرِنْفِيلِسَ، وَبِمَا أَنَّهَا دَاخِلُ نِطَاقِ سُلْطَةِ رَئِيسِ الْأَسَاقِفَةِ فَيُمْكِنُهُ إِذْنُ الْعُبُورِ بِأَمَانٍ.»

«جَيِّدٌ جَدًّا. سَيَكُونُ الرَّجُلُ بَانْتِظَارِكَ فِي لُورْشَ. اسْأَلْ عَنِ السَّيِّدِ كِرُوجَرِ فِي حَانَةِ مِيرْجِلِرَ.»

فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ، فِي قَبْوِ الْقَيْصَرِ، حَظِيَ أَعْضَاءُ عَصَبَةِ الْحَدَادِينَ بِعِشَاءٍ فَخْرٍ آخَرَ. وَكَانَ الْأَمْرُ مَبْهَجًا تَمَامًا مِثْلَمَا حَدَثَ فِي مَادِبَةِ اللَّيْلَةِ السَّابِقَةِ؛ وَرَبْمَا أَكْثَرَ، فَالآنَ الشَّبَابُ الرِّيَاضِيُّونَ، لِأَوَّلِ مَرَّةٍ مِّنْذَ شُهُورٍ، يَشْعُرُونَ بِالشُّبْعِ وَكَانَ كُلُّ مِنْهُمْ مَعَهُ أَمْوَالٌ فِي مَحْفَظَتِهِ.

وكلُّ منهم ارتدى ملابس جديدة. ولم تكن هناك محاولة لتوحيد الزي، لكن كان هناك فقط يوم واحد لإعادة ملء خزانة الثياب، والذي تضمَّن الحصول على قطع ثياب جاهزة. ولكن لم يكن هناك أي مشكلة في ذلك، فلكلُّ فرع من فروع الحداثيين ملابسه المُتعارَف عليها، والتي كانت مُتوفِّرة بجميع المقاسات لدى العديد من التجار لتلبية احتياجات الحَرَفِيِّين، ابتداءً من المتدربين وحتى مُحترفي هذه المهنة. والرائع في الأمر أن الملابس كانت تُصنع بنحو يلائم الغرض الذي صُنعت لأجله. لم تكن فيها أي بهرجة زائدة، ولأنها مصمَّمة لتكون فضفاضة أتاحَت للأطراف القوية أن تتحرك بحرية. وللتعامل مع المعادن كان مُرتدو هذه الثياب بحاجة إلى أقمشة منسوجة بإحكام، يُشبه ملمسها الجلد قدر الإمكان، وكانت رحلة قُطاع الطريق القاسية لا يُناسبها أقل من درع من زرد، فإن لم يكن كذلك، فمن الجلد نفسه.

خرج رولاند وهو يرتدي زي صانع السيوف المكوَّن من سروال وصدريّة، وهتف رفاقه بصوت عالٍ عندما خلع عباءته وبدأ للمرة الأولى وكأنه واحدٌ منهم بالفعل. فقبل هذه اللحظة كان هناك ما يُميِّز ثيابه عن بقية رفاقه، أما الآن فلا يوجد ما يميِّزه بصفته قائداً لهذه الفرقة، وهذا ما أسعد الحداثيين الأحرار.

في الليلة الماضية، بعد تصفية فاتورة مالك الحانة بسخاء، حصل كل فرد على ما يَزِيد عن ثلاثين تالراً. ثم روى لهم رولاند مغامرته مع التاجر، ونتيجة مناورته بالسيف بالقرب من رقبة السيد جوبل. كان لروولاند مهارتان جعلتا محبباً لدى رفاقه؛ الأولى، قدرته على غناء أغنية جيدة، والثانية موهبته في سرد حكاية مثيرة، سواء كانت إحدى مغامراته التي خاضَهَا بنفسه أو إحدى أساطير نهر الراين، أو إحدى قصص الأَقزام الخرافيين الذين، كما يعلم الجميع، يطوفون الغابات المُوحِشة في المناطق الجبلية. أثارت روايته للأُمسية التي قضاها برفقة السيد جوبل الكثير من الضحك والتصفيق، وزادت فرحتهم عندما جرى توزيع الأموال التي جرى الحصول عليها نتيجة للقاء على أفراد العصابة.

وفي تلك الأُمسية عزم على الإفصاح عن أمرٍ أكثر أهمية؛ لذا، بمجرد انتهائهم من تناول الطعام، وانصراف مالك الحانة بعد إعادة ملء كنُوسهم، نهض صانع السيوف الحديث العهد الجالس على رأس الطاولة من مكانه واقفاً.

«أعيروني انتباهكم بضع دقائق. على الرغم من امتناعي عن الإفصاح عن خططي للسيد جوبل، فإنني أظن أنه من واجبي أن أُطلعكم على ما ينتظرنا بالتحديد، وإذا

تحدّثت ببعض الجدية، فهذا لأنني أدرك أننا ربما لن نجتمع مجددًا حول هذه الطاولة. إننا سنُغادر فرانكفورت غدًا في مهمة محفوفة بالمخاطرة، ومن المُحتمل ألا يعود بعضنا.» احتجّ كونراد كورزبولد على ذلك بقوله: «أوه، مهلاً يا رولاند، لا تفسد هذه الأمسية المرحّة بذكر المآسي. إنه فعل قبيح، كما تعلم.»

كان كورزبولد أحد صانعي السيوف الفعليين الثلاثة، وكان رئيسًا للعصابة حتى حل رولاند محلّه. كان الأكبر سنًا بين رفاقه، وكان رجلًا طموحًا ومُتحدّثًا فصيحًا وله تأثير كبير على رفاقه، وكان من الطبيعي أن يُصبح قائدهم. وما قاله بوجه عام كان يُمثّل رأي الجميع.

ولكن رولاند أصرّ أن يتابع حديثه قائلاً: «سامحني هذه المرة يا كورزبولد.» وأردف: «فلا بد في هذه الفرصة، الأخيرة، أن أفصح لكم عما أنوي فعله بالضبط. أنا شديد الحرص على عدم تهوين المخاطر. ولا أودُّ أن يتبعني أي شخص وهو معصوب العينين؛ لذلك أتحدّث في بداية الأمسية، حتى لا يتحمّس أحدكم ويتخذ قرارًا تحت تأثير النبذ. أتمنّى أن يكون كل فرد منكم قادرًا على تقدير المخاطر ويتخذ قراره قبل أن نفترق الليلة، ويُخبرني بقراره بالمشاركة في المهمة من عدمه.

إليكم الاتفاق الذي توصّلت إليه أنا والسيد جوبل: لقد وعدته أنني، بمساعدة رفاقي، سأحاول فتح نهر الراين أمام حركة البضائع التجارية. وعلى أساس هذا الوعد أعطاني الأموال.»

علّت جولة من التصفيق الهائل عقب هذا الإعلان، ومع صوت قرع كنّوس النبذ الموجودة على الطاولة، وصيحات الجميع، لم يكن بالإمكان سماع أي صوت سوى هذه الجلبة. كان هؤلاء الفتيان عاجزين عن تصوّر المخاطر التي سيواجهونها؛ وحده رولاند ظل هادئًا وأصبح أكثر جدية مع استمرار الضجة. وعندما عاد الهدوء أخيرًا تابع حديثه بجدية بالغة تُناقض حالة المرح التي سيطرت على الحضور، وقال:

«يملاً السيد جوبل أكبر سفينة لديه ببالات القماش، وقد عيّن طاقمًا كُفئًا وقبطانًا ماهرًا سيتولّى أمر الملاحة. وستُغادر السفينة ليلة الغد عبر رافد ماين وتبحر مغادرةً فرانكفورت، دون جلبة قدّر الإمكان، بينما نحن سنقطع البلاد سيرًا إلى أسمانسهاوزن، وسنلحق هناك بهذه السفينة. ومن الضروري ألا تنتشر أيُّ أحاديث في فرانكفورت المحبة للقليل والقال عما ننوي فعله، وبهذا سيستطيع القبطان بلومنفيلس الإبحار بقراره خارج

المدينة دون أن ترصده الأعين وقبل أن يعلو القمر في كبد السماء، أريد منكم أن تُغادروا غداً فرادى من بوابات مُتفرّقة، وسنلتقي في هوكست على بُعد ما يزيد عن فرسخين على طول النهر. وأنا واثق أنكم جميعاً تعرفون قصر الأمير النახب الذي يُعد برجه الجميل علامة مميزة في جميع أنحاء البلاد.»

احتجّ كورزبولد قائلاً: «أعترض على مكان هذا اللقاء.» وأضاف: «اجعله في حانة ناسور هوف، يا رولاند. فسنكون جميعاً عطشى بعد مسيرة فرسخين.»

أجابه رولاند بقوله: «أرجو ألا يحدث ذلك في هذا الوقت من الصباح؛ لأنني سأنتظركم الساعة التاسعة في ظل البرج. يُمكن السماح للرجال بالشرب حتى الثمالة طوال الليل؛ لأنني أنوي قيادة مجموعة يقظة من هوكست في الغد.»

صاح جون جينسبين قائلاً: «أوه، إنك مُتفائل يا رولاند.» وأردف: «امنحنأ مهلة حتى الثانية عشرة حتى تهدأ رءوسنا.»

كرّر رولاند كلامه قائلاً: «اشرب كلّ ما تتمنّاه هذا المساء، ولكن غداً سنبدأ عملنا، وأمامنا مسيرة يوم طويل؛ لذا فإن التاسعة وقت مناسب جداً للانطلاق من هوكست.»

هَبَّ كونراد كورزبولد واقفاً، وصاح قائلاً: «يكفي نبذ اليوم هذا اليوم فقط.» وتابع: «النبذ، هذا الشراب الميمون، لا يُعكّر صفوه سوى أمر واحد، وهو أنه لا يمكن أن يدوم حتى اليوم التالي، ولا يبقى منه سوى ألم الرأس وجفاف الفم. فما نفع أن تعرض علينا أن نشرب ما يحلو لنا الليلة إن كان ذلك لن يستمر أثره في صباح الغد؟ بالنسبة لي، فأنا أعلمك يا رولاند أنني سأتوجّه مباشرةً إلى ناسور هوف، أو إلى شون أوسيشث، فلديهم أفضل أنواع النبيذ.»

تجاهل رولاند هذا الكلام، ولم يردّ عليه وواصل شرح خطته.

«سنلحق بالسفينة شمال أسمانسهاوزن، كما قلت، ربما في الليل، وسنعبّر النهر على الفور. القلعة الأولى التي أنوي اقتحامها هي مأوى اللصوص الشهير، راينستين، الممتدة على ارتفاع مائتين وستين قدماً فوق الماء. وعند نزول العصبة على بُعد فرسخ من راينستين، سنتحفّي جيّداً قبل الفجر في الغابة على مقربة من بوابات القلعة. وعندما تعلو الشمس في الأفق، سيبحر القبطان بلومنفيلس بقاربه في النهر، وحين يقترب من راينستين، ربما نحظى بمتعة رؤية بوابات القلعة مفتوحة على مصراعيها، مع نزول الرفاق من القلعة سريعاً إلى الماء. سنغتني فرصة نهبهم للسفينة وسننهب نحن القلعة، وسنواجه من يقف في طريقنا، وفي مقابل القماش الذي سيسرقونه سنسرق ما نجده في

الخزانة من ذهب أو فضة. ثم سنسجنهم جميعاً داخل القلعة، حتى لا يستطيعوا تحذير مَنْ بعدهم. وإذا أصرعنا يُمكننا حبسهم داخل الأقبية أو داخل الزنازين، وبعدها سنغادر القلعة ومعنا الغنائم، لكنِّي لا أنوي النزول إلى النهر حتى نجتاز فرسخاً أو أكثر من الغابة الجبلية، حيث يُمكننا الاختباء حتى تظهر السفينة، وحينها سنلحق بها مرة أخرى. القلعة الثانية هي قلعة فالكينبرج، والثالثة زونيك، وتقع كلتاها على ضفة النهر ذاتها التي تقع عليها راينستين، وعلى مسافة قصيرة من قلعتها، والخطة التي سنتبعها في كل قلعة منهما ستكون مُماثلة لما أوضحناه بالفعل؛ فلا داعي لتكرار ما قلته.»

صاح العديد منهم: «تدبير ممتاز»، ولكن جون جينسبين تحدّث بلهجة ناقدة. وتساءل قائلاً: «ألن يكون هناك قتال؟» وتابع: «توقعتُ أن تقول إننا بعدما سنحصل على الذهب، سننقضُّ على اللصوص ونسد لهم الضربات.»

أجابه رولاند قائلاً: «من المُحتمل أن ينشب القتال الذي تتمناه؛ فمسار مخططنا قد ينحرف في أي لحظة. أنا لا أنوي الهجوم، ولكنِّي أتوقَّع منكم أن تُقاتلوا قتال الأبطال إذا اضطررنا إلى الدفاع عن أنفسنا.»

وهنا نهض كونراد كورزبولد وصاح قائلاً: «أنا أتفق مع السيد رولاند.» وتابع: «إن كنا نسعى لإكمال مسيرتنا إلى كولونيا فعلياً أن نتجنَّب البحث عن المتاعب؛ لأننا سنجد ما يكفي منها في انتظارنا في أي وقت. ولكن رولاند قطع حديثه عند أهم منعطف للأحداث. فما هي وجهة الذهب الذي سنستولي عليه من القلاع؟»

«سيكون علينا أولاً دفع أربعة آلاف وخمسمائة تالر إلى السيد جوبل.» صاح كونراد قائلاً: «أوه، اللعنة على هذا التاجر!» وأضاف: «إننا نُخاطر بحياتنا، ولا أفهم لماذا يجب أن يشاركنا الغنيمة. يكفي ما سيجنيه من وراء جهودنا إذا فتحنا نهر الراين.»

«صحيح؛ لكن تلك هي الصفقة التي أبرمتها معه. صحيح أننا نُخاطر بحياتنا، كما تقول، لكنه أيضاً يُخاطر ببضائعه، إلى جانب أنه وفَّر لنا السفينة والقبطان والطاقم. كما منحنا الخمسمائة تالر التي أصبحت في جيوبنا الآن. وعلينا أن نتعامل بنزاهة مع الرجل الذي دعمنا منذ البداية.»

صاح كورزبولد في غضب: «أوه، رائع للغاية، لتفعل ما تراه مناسباً؛ رغم أنني أرى أن التجار عليهم أن يُغدقوا علينا الأموال إذا نجحنا مكافأةً لنا على ما بذلناه. ولن أعارضك رغم استيائي الشديد. إلا أنني أودُّ التحدُّث إلى قائدنا بشأن أمرٍ واحد بدا أنه ليس من

اللائق ذكره بالأمس. لقد عرض عليه التاجر ألف تالر من الذهب، ولكنه أعاد نصفها إلى السيد جوبل، وهذا كرم بالغ منك، ولكنه جاء على حسابنا نحن. أعترف أنني أنفقتُ كل الأموال التي تلقيتها، وأصبحت الآن خالي الوفاض. وكنت سأسعد كثيراً إن تسنى لي الحصول على هذا المبلغ (وعندما أتحدّث فإنني أتحدّث بالنيابة عن الجميع)، لو لم يكن إسراف قائدنا في غير محله، الذي على الرغم من أن المال كان بحوزته، لم يفكر في رفاقه، وأرجع الخمسمائة تالر لرجلٍ لم يرفض دفعها.»

أجابه رولاند ببعض الحدة: «سيد كورزبولد، تشهد هذه الغرفة على الليالي العديدة التي مرّت علينا ونحن مُفلسون. وإن كنت أكثر خبرة مني في تدبير الأموال، فلم لم تفعل ذلك؟ أنا لا يسعني انتقاد رجل وضع ٣٠ تالراً تحت تصرّفي، دون أيّ جهد مني.»

هنا ثارت ضجة كبيرة، وثار الجميع دفاعاً عن قائدهم، باستثناء كورزبولد الذي ظل واقفاً بعناد في مكانه، وجينسبين الذي كان جالساً إلى جواره.

علا صوت إبرهارد فوق الضجيج، وصاح قائلاً: «أُيعقل أن تُنفق المال ثم تتذمر؟»

صاح كورزبولد: «أنا أتحدّث لمصلحتنا جميعاً.» وأضاف: «ولمصلحة قائدنا، فشأنه من شأننا»، لكن تعالت أصوات الآخرين مجدداً ومنعوه من الحديث.

رفع رولاند يده اليُمْنى تعبيراً عن مطالبتهم بالصمت، وصمتوا بالفعل.

ثم قال: «يُسعدني إثارة هذا الجدل؛ لأننا لا نزال نمتلك الوقت الكافي لتعديل خططنا. موعد تحميل سفينة السيد جوبل بالبضائع لا يزال ليلة الغد، وبوسعنا إلغاء المهمة. لن أطلب بالخمسمائة تالر التي تخصّني، ولكن الخمسمائة تالر التي قدّمها السيد جوبل لا بد أن تعود إليه إذا أجمعنا على ذلك.»

عند ذكر هذا الاقتراح، جلس كورزبولد في مكانه وبدأ عليه بعض التفاجؤ.

تابع رولاند حديثه: «لقد غادرتُ هذه الغرفة على وعدٍ مني بتدبير الأموال في غضون أسبوع واحد، ولكنني أخبرتكم بأن لديّ شرطاً واحداً وهو الحصول على دعمكم. لقد تعهّدتهم لي بأن تبذل جماعتنا أقصى ما بوسعها وتكون على قلب رجل واحد. وإن لم تُحافظوا على هذا العهد قولاً وفعلًا، فسأتنحى عن منصبِي الحالي، ويُمكّنكم انتخاب كونراد كورزبولد، أو جون جينسبين، أو أي شخص آخر تَرْضونه بدلاً مني. ولكن اسمحوا لي أولاً أن أعيد أموال السيد جوبل كاملة، وبعدها كما أوضحتُ يُمكن لكونراد كورزبولد التواصّل معه وعقد اتفاق أفضل من ذلك الذي توصلت إليه معه.»

تعالَت صِيحَات تَهْتَف: «هُراء! هُراء»، «لا يمكنك التعامل مع معارضة بسيطة بهذا الأسلوب، يا رولاند»، «إننا جميعاً رفاق ولا يوجد تحفُّظ في حديثنا، كما تعلم»، «أنت قائلُنا ويجب أن تظَلَّ كذلك».

هَبَّ كورزبولد واقفاً للمرة الثالثة.

وقال: «لقد وضعتني في موقف محرج يا صديقي رولاند، حقيقة ومجازاً؛ فجيوبِي فارغة، ويستحيل أن أُرَدَّ ما حصلت عليه. والحقيقة أنني أظن أننا جميعاً على الحال نفسه تقريباً؛ لأننا كنا بحاجة لشراء المعدات وغيرها من الأمور.»

قال أحدهم: «ونبيذ هوخهايم أيضاً»، مما أثار ضحك الجميع؛ فهم يعلمون عشق كورزبولد للنبيذ الفاخر. حتى هذه اللحظة كان رولاند يحظى بتأييد الجمع، لكنه الآن سيتفوّه بعبارة غير محسوبة ستغيّر على الفور رأي جميع من بالغرفة.

فقال: «يُدهشني اعتراضكم على معاملتي للسيد جوبل بنزاهة؛ فجميعكم تنتمون لطبقة التجار، ومن المفترض أن تنصروه لأنه واحد منكم.»

لم يستطع إكمال حديثه. وظلَّ واقفاً في مكانه، شاحباً ومُصمِّماً، وببساطة في حالة غضب شديد. إنَّ جهله بالأمور، وهو ما نبّهه إليه التاجر نفسه أكثر من مرة، دفعه إلى جرح كبرياء مُستمعيه دون وعي منه. كان جون جينسبين هو مَنْ بدأ بالحديث معبراً عن مشاعر الغضب التي سيطرت على الحشد.

بدأ حديثه قائلاً: «أودُّ أن أعرف إلى أيّ طبقة تنتمي أنت؟ هل تدّعي أنك تنتمي لطبقة التجار؟ إن كنت كذلك، فأنت لست بقائلنا. دعني أخبرك يا سيدي بأننا حرفيُّون مهرة، ونمتلك صنعةً تُمكننا من إنتاج أعمال رائعة، بينما التجار مجرد بائعين لمنتجاتنا. مَنْ إذن يحظى بمكانة أعلى في المجتمع، ويستحقُّها عن جدارة، مَنْ يمتلك حسّاً فنياً ويستغلُّ عقله ويده لإنتاج أدوات جميلة ومفيدة في آنٍ واحد، أم البائع الذي يقف خلف منضدة البيع ويسعى للحصول على أعلى مُقابل مادي نظير بيعه الإبداعات التي نصنعها بأيدينا؟»

كان رولاند بنظرته الأرستقراطية يظنُّ أن أولئك الذين لا تسري في عروقهم دماء نبيلة يقفون على قدم المساواة، وأصابته الدهشة حين رأى شخصاً عادياً يدّعي أفضليته على غيره. وهو نفسه شعر بأنه أرفع مكانة بكثير من الحاضرين، وبأن هناك فجوة بينه وبينهم لا يستطيع سَر غورها، وأنه ربما ينزل إلى مستواهم استجابةً لرغبة لديه، ولكن عندما تتلاشى تلك الرغبة؛ فهو يعلم جيداً أنهم سيكونون أول مَنْ يعترف بهذا الفارق فور علمهم بمكانته الحقيقية.

مرّت عليه لحظات أوشك فيها على كشف هويته، والإطاحة بهم جميعاً معلناً عن أحقيته بالعرش، ولكنه أدرك مدى تصميمه وعناده، وعزم على استجماع قوّته والثبات على موقفه.

فقال حينما هدأت الأصوات واستطاع أن يُعيد الانتباه إليه: «أراجع عما قلته». وأضاف: «بل وأعتذر لكم عن الحماقة التي دفعتني لقول ما قلته. لقد كان طيشاً مني، وأتمنّى أن يسعني كرمكم وتنسوا هذا الكلام وكأنه لم يكن.»

مرة أخرى عاد ثمانية عشر رجلاً إلى صفّه من أصل عشرين رجلاً. ووجّه رولاند اهتمامه إلى كونراد كورزبولد، مُتجاهلاً جون جينسين، الذي جلس متورداً بعد خطابه، مُندهشاً من قابلية تغيّر مشاعر العديد من الحاضرين وكأنهم أمام كوريولانوس.

قال رولاند لكورزبولد بصرامة: «سيد كورزبولد، هل لديك أي ملاحظة نقدية أخرى؟»

فأجابه: «لا؛ ولكني مُتمسّك بما قلته للتو.»

«حسنًا، أشكرك على تعبيرك الصادق عن تمسّكك برأيك، ولكنّي أود أن أعلن أنه لن

يمكنك أن تصبحنا في مهمتنا تلك.»

ومن جديد فقد رولاند ثقةً من حوله، وسرعان ما جعلوه يدرك حقيقة الأمر.

وهنا تحدّث إبرهارد قائلاً: «هذا استبداد.» وتابع: «إن لم يستطع المرء البوح بما يجول في خاطره دون الخوف من استبعاده، فلا معنى لرفقتنا، وأنا أرى أن حسن الرفقة هي الضلع الأساسي الذي ترتكز عليه جماعتنا. ولا أذكر أننا منحنّا من قبل أيّ رئيس لجماعتنا السلطة التي تُحوّله أن يستبعد أحد رفاقنا بمجرد كلمة منه. وأود أن أخبرك أيضًا يا رولاند بأنك تحمل أفكارًا غريبة عن المكانة والنفوذ. لقد كنّت أحد أفراد هذه العصابة لفترة أطول منك، وربما يكون لديّ فهمٌ أفضل للغرض منها. إننا لا نختار قائدًا يحكم مجموعة من الأتباع. في واقع الأمر، العكس هو الصحيح، وأصدقائي يُمكن أن يُصحّحوا ما أقول إن أخطأت. فقائدنا هو خادمنا، ولا بد أن يتصرف وفقًا لمطالبنا. وليس له أن يضع لنا قوانين حاكمة، بل تحكمنا القوانين التي تُقرها العصابة وتتفق عليها غالبيتها، أيًا كانت هذه القوانين، والحمد لله أننا لا نملك الكثير منها.»

هتف الحشد بالإجماع: «هذا صحيح! هذا صحيح!» وعندما جلس إبرهارد جلس الجميع باستثناء رولاند، الذي ظلّ واقفًا عند طرف الطاولة بوجهٍ شاحب وشفّتين مزمومتين.

وقال: «إننا على وشك مواجهة بارونات نهر الراين القابعين داخل قلاعهم الحصينة. وحتى الآن نجح هؤلاء الرجال بالكامل في تحدّي الحكومة والعوام على حدّ سواء. وكنتُ أمل أن نَعكس هذا الوضع. والآن، ليذكر لي الأخ إبرهارد باروناً واحداً، على طول نهر الراين بأكملها، يَسمح لواحد من رجاله بالنقاش معه حول أيّ موضوع أيّ كان.»

أجاب إبرهارد: «أرجو ألا نَتخذ سلوك هؤلاء اللصوص قدوةً لنا.»
«أود أن أُوَضِّح لك يا إبرهارد أن هؤلاء اللصوص ناجحون. والنجاح هو ما نسعى إليه، وكذلك نسعى وراء جزء من هذا الذهب الذي أعلنَ السيد كورزبولد على نحوٍ مُثير للشفقة حاجته إليه.»

«إذن هل يعني هذا أنك تنظر إلينا بصفتنا جنوداً مثل جنود بارونات نهر الراين؟»
«بالتأكيد.»

«هل تدّعي امتلاكك حق استبعاد مَنْ تشاء؟»
«نعم؛ أزعم أنني أمتلك حق شنق أيّ منكم إن وجدت أن الأمر يقتضي ذلك.»
صاح إبرهارد وهو يجلس وقد هاله ما سمع: «أوه، يا إلهي!» وقال وهو يحدّق في الجالسين: «أترك الأمر بين أيديكم، أيها السادة.»
وجاءت تعبيرات الجمع مُعبّرة عن موافقتهم لإبرهارد.

قال رولاند: «أيها السادة، أصرُّ على أن يعتذر لي كونراد كورزبولد عما قاله، وأن يعدني بعدم الإساءة على نحوٍ مماثل مجدداً.»
أكد كورزبولد بحزم مماثل: «لن أفعل شيئاً من هذا القبيل.»

صاح رولاند قائلاً: «في هذه الحالة، سأعلن التنحي عن منصبي، وأطلب منكم تخويلي بإعادة المال الذي حصلتُ عليه من السيد جوبل. أنا أستقيل من منصب القيادة المزعومة.»
حينئذٍ أخرج الجميع محافظهم ووضعوها على الطاولة، ولكن بدا أنها لا تحوي الكثير. وجلس غالبيتهم في صمت وانتبهوا للأزمة التي حلّت عليهم دون سابق إنذار. وهنا انتفض جوزيف جريسيل بعد أن لاحظ أن أحداً لم يفعل شيئاً، وبدأ يتحدث ببطء. فلطالما كان رجلاً قليل الكلام ويسمع أكثر مما يتحدث، ويثق رولاند فيه بشدة، ثقة بأنه الشخص الذي سينصره في وقت الأزمة، وكان عازماً على تعيينه مساعداً له وقت تنفيذ المهمة التي فشلت قبل أن تبدأ.

قال جريسيل بحزن: «أصدقائي، لقد وصلنا إلى طريق مسدود، ولا يسعني الحديث، ولكنني لم أرَ أيّ شخص آخر يُبادر لتقديم اقتراح. لا أدعي أنني غير متحيّز في هذه

المسألة. لقد نشأت هذه الأزمة بلا داعي بسبب ما أُؤكد على أنه هجوم دنيء للغاية من جانب كورنراد كورزبولد.»

تعالّت الصيحات المعارضة، لكن جريسيل واصل حديثه بثبات دون الالتفات لهم. «لا أحد ينكر أن كورزبولد تلقى المال من رولاند ليلة أمس وأنفقه اليوم، وها هو ذا الآن أصبح مُفلسًا وعاجزًا تمامًا عن رد الأموال بعد الوضع الذي آلت إليه الأمور نتيجة ملاحظاته الجائرة. فهو أشبه بالرجل الذي يراهن رغم علمه بأنه لا يملك مالا لدفعه حال خسارته للرهان. إذا تنحّى رولاند عن قيادة هذه العصابة، فسأتنحى أنا أيضًا، خجلًا من أن أظلّ برفقة رجال يُؤيدون خدعة حاكها مقامر مُفلس.»

صاح إبرهارد وهو ينهض ضاحكًا: «عزيزي جوزيف، لقد أخطئوا في تسميتك صغيرًا. كان يجب أن تحمل اسم هيرودس حتى تُبرّر قتلنا نحن الأبرياء.» أجابه جريسيل: «أنا أقف إلى جانب الرئيس، الأصغر سنًا والأكثر كفاءة بيننا؛ مَنْ جلب لنا المال بينما لم نفعل نحن شيئًا سوى الثروة.»

خاطبه إبرهارد وهو لا يزال يحاول تخفيف حدة الموقف بابتسامة قائلاً: «جوزيف، أنت لم تتحدّث قط قبل الآن، وما تقوله ليس فقط بالغ القسوة وإنما هو كلام قائم على أسس خاطئة كما سأبين لك. إننا لم، ولا، نوّيد كورنراد كورزبولد فيما قاله في البداية. والآن أنت ترانا وكأننا لسنا أفضل حالًا من اللصوص. ودعوتنا بالمقامرين المخادعين، والله وحده يعلم ماذا هنالك أكثر من ذلك، وبعدها تهدّد بالانسحاب. دعني أصارحك بأن خطبتك اللاذعة ليست في محلها تمامًا. إننا جميعًا ندين كورزبولد لانتقاده الكرم الذي أظهره رولاند في تعامله مع التاجر، وجميعنا دعمنا رولاند في تصرّفه هذا وعبرنا عن ذلك بوضوح تام. لكن ما نستنكره حقًا هو أن ينسب رولاند لنفسه سلطة ليست له، فلا يحقّ له استبعاد أي فرد يخالفه الرأي. وبالتأكيد أنت لا يمكنك تأييده في هذا الأمر مثلنا تمامًا.»

استأنف جريسيل حديثه قائلاً: «لنناقش الأمور واحدًا تلو الآخر، ودعونا لا نغفل نقطة بدء هذه المناوشات. أنا أعني تمامًا الموقف الذي نحن فيه الآن. لذا أُلقي باللوم على كورنراد كورزبولد بسبب هجومه غير المبرّر على رئيسنا فيما يتعلق بالاتفاق الذي عقده مع السيد جوبل.»

أجابه إبرهارد قائلاً: «وأنا أوّيد ذلك بسرور بالغ.»

تابع جريسيل حديثه قائلاً: «والآن بما أننا لا نستطيع أن نطلب من قائدنا طرح هذا الاقتراح، فاسمحوا لي أن أقدمه بنفسِي.» وأضاف: «أنا أقترح على مَنْ يتفق معي فيما قلته بشأن مَنْ يستحق اللوم على الموقف السابق أن يتفَضَّل بالوقوف.»
وهنا نهض الجميع باستثناء رولاند وجينسبين وكورزبولد.
«حسنًا، بذلك نكون قد أزلنا العقبة التي تُعيق فهمنا الجيد للمسألة، وقبل أن أعلن رسميًا إلقاء اللوم على السيد كورزبولد، أود منه إعادة النظر في موقفه وتصرفه بذكر حديث لا طائل منه.»
وإن كان رولاند يزعم أنه يمتلك سلطة استبعاد مَنْ يشاء من هذه العصابة، فأنا لن أدعّمه.»

صاح الكثيرون: «إنه كذلك! إنه كذلك!»
تابع جريسيل حديثه قائلاً: «معذرة يا رفاق، اسمحوا لي بالحديث.» وأضاف: «أنا لا أحاول إلقاء خطبة، وإنما أحاول فضّ الاشتباك الذي وقعنا فيه. وأتمنى ألا أسمع أي تصفيق أو همهمات حتى أنتهي من حل هذا الأمر. إنكم تقولون إن هذا هو الوضع. وأنا أقول إنه ليس كذلك. فقد منح رولاند للسيد كورزبولد الخيار إما أن يعتذر وإما أن يُعيد المال حتى يستطيع ردّه للتاجر. ومن فهمي للموقف، أرى أن رئيسنا لم يُصرّ على تنحية كورزبولد من العصابة؛ بل أعلن فقط عن تنحيّه هو عن رئاستها. لقد منحتم كورزبولد الفرصة بأن يدفعكم لموضع تكونون مُجبرين فيه على الاختيار بينه وبين رولاند. وإن كنتم عقلاء فلا يُمكنكم إلقاء اللوم على كورزبولد وستختارونه بعدها بدلاً من رولاند. لهذا أدعوكم لتجديد الثقة في رئيسنا؛ ذلك الرجل الذي جلب لنا المال، ألف تالر كاملة، نصفها كانت له، لكنه وزّعها بيننا بالتساوي، بعد أن دفع الفاتورة لملك الحانة ولم يحجب تالراً واحداً، ولم يكن مُتعجباً لينسب — أعتقد أن تلك هي الكلمة التي استخدمتها عزيزي إبرهارد — لنفسه قدرًا أكبر من المال. فقد قدّم رولاند لنا نموذجًا رائعًا للصدقة الحقيقية بينما اكتفى كورزبولد بالثرثرة فقط، وأرى أنه يستحق منّا جزيل الشكر والدعم التام. لذا دعوني أعرض عليكم الاقتراح الآتي: أرى أنه يجب أن يتقدّم هذا الجمع بجزيل الشكر للرئيس تقديرًا لجهوده الأخيرة باسم العصابة، ونرجوه أن يبذل قصارى جهده لمساعدتنا في تنفيذ المهمة التي تنتظرنا الليلة.»

نهض إبرهارد وهو يضحك ضحكته المعتادة وقال: «جوزيف، إنك رجل حاد الذكاء، رغم محاولتك المتكررة لإخفاء ذلك. أود أن أعبر عن إعجابي بحديثك، وعليه فأنا أؤيد اقتراحك.»

قال جريسيل: «والآن أودُّ أن أطرح عليكم الاقتراح الذي سمعتموه جميعاً، وأطلب ممن يؤيدونه أن يتفضلوا بالوقوف.»

وقف الجميع على الفور باستثناء المتمردين الاثنين، اللذين بدا أحدهما، وكان جون جينسبين، متردداً ومُرتبكا. وكاد أن يقف ولكنه جلس مرةً أخرى، ثم استقام واقفاً بعد أن حثَّه الرجل الذي بجانبه على ما يبدو، وقد بدا في حيرة من أمره. وحينئذٍ وجد كورزبولد نفسه وحيداً فضحك ونهض ليُصبح التصويت بالإجماع. وعندما جلس الرفاق تحوّل جريسيل إلى الرئيس مخاطباً إياه:

«سيدي، يقال إن الأمور بخواتيمها. يُسعدني أن أعلن لك أن تصويتنا بالإجماع يعبر عن ثقة عصبة الحداثيين وشكرهم لجهودك، وقبل أن أدعوك لتقديم أي رد إن كنت ترغب في ذلك، فأنا أود أن أطلب من كونراد كورزبولد أن يلقي بضع كلمات، وأنا واثق بأننا جميعاً سنسعد بسماع كلمته.»

نهض كورزبولد بشجاعة بالغة، على الرغم من أن دبلوماسية جوزيف جريسيل أحدثت شقاقاً كاملاً بينه وبين الآخرين.

بدأ الحديث بنبرة غير مبالية قائلاً: «أود أن أقول إنني عندما ذكرتُ المال للمرة الأولى لم يكن ذلك إلا مزاحاً. ولكن صديقي رولاند أخذ ملاحظاتي على محمل الجد، ولم يجدر بي بالطبع إبداء استيائي، ولا داعي لإعادة سرد ما تلا ذلك من أحداث. ولكن بالنظر إلى أن كلامي جاء مسيئاً وهو ما لم أقصده، فلا يسعني سوى الاعتذار عما قلته، والتراجع عن الأحكام السيئة التي أصدرتها. فلا أحد هنا يشعر بالامتنان تجاه رئيسنا مثلي، وأمل أن يقبل اعتذاري بنفس السماحة التي قدمتُ بها هذا الاعتذار.»

وهنا بدأ جريسيل بالحديث قائلاً: «الآن حان دور رئيس العصبة»، وذهبت الكلمة مرة أخرى لروولاند.

فقال: «لا يسعني سوى التوجُّه إليكم بالشكر. الخصوم الذين نأمل لقاءهم هم رجال شجعان وحازمون ولا يرحمون. وإن كان منكم من يحمل لي ضغينة، فليُوجَّهها إلى هؤلاء البارونات، ويُعاقبني بعد انتهاء مهمتنا. دعونا نتغاضى عن أي خلافات عند مواجهتنا للخصم.»

أخذ الشاب عباءته وسيفه من على المشجب الذي علّقاً عليه، واتجه ناحية الطاولة ومد يداً مُصافحاً كورزبولد، الذي صافحه بحرارة. وعند وصول رولاند إلى باب الغرفة استدار.

وقال: «أتمنى لكم ليلة سعيدة، أنا ذاهب للقاء القبطان بلومنفيلس، وسأعطيهِ التعليمات الأخيرة بشأن لقائنا عند نهر الراين. أُمَلُّ أن ألتقي بكم جميعًا في ظل برج الأمير النახب في هوكست في التاسعة من صباح الغد»، وهكذا غادر الرئيس، ونظرًا لخبرته المحدودة، فهو لم يكن يعلم أن الكلمات المعسولة لا تكفي لإزاحة الغضب، وأن التمرد نادرًا ما تَقْمَعُهُ المصافحة.

الفصل الرابع

الرحلة المضنية للأب أمبروز

كانت شمس المَغيّب الصيفية تعلو الجانب الغربي من قلعة ساين، عاكسةً ظلّ هذا الصرح، الذي يعود تاريخ تشييده للقرن العاشر، على المرج الموجود في الوادي العلوي. وحينما أطلّت فتاة جميلة في الثمانية عشرة من عمرها من شُرفتها البارزة من الجانب الشرقي لقلعة ساين وكأنّها طائر سنونو يُطلّ من عُشّه، كانت تنظر مُتأملّة مُستندة بذراعَيْها على سور الشُّرفة، الذي خَفّف من قسوة سطحه الحجريّ الملمّس الناعم للرداء المُزخرف الذي كانت ترتديه والذي انساب فوقه. مثّل هذا الرداء الفضفاض — الذي أحضره من الشرق أحد أسلاف هذه الفتاة ممّن شاركوا في الحملات الصليبية — رُقعة زاهية تجمع بين اللونين القرمزي والذهبي في مقابل الجانب الكئيب من القلعة.

تابعت الكونتيسة الشابة هيلديجوندي فون ساين تتأقّل خطى الراهب القادم باتجاه القلعة والتعب البادي على وجهه وهو يُجاهد صاعداً جانب التلّ في ظلّ القلعة وكأنّ ظلّها البارد يُظهر له امتنانه. ولم يحرم الأب المبجل، الذي ينتمي إلى طائفة البندكت العملية جدّاً والتي تنصّ عقيدتها على أن العمل جزء من العبادة، نفسه من التمتع بهذا الملاذ المؤقّت بعد أن لفحّته أشعة الشمس التي غمرته طوال اليوم.

نظر إلى الأعلى وهو يقترّب من القلعة ورأى الفتاة وهي تُمنّي نفسها بالمهمة الطائشة التي ستقترحها، فلوّح لها بيده وردّت عليه بلطف بلَفّة مُماثلة.

في الحقيقة، على الرغم من احتمالية مُعارضة الراهب الشديدة للقرار الذي توصّلت إليه السيدة الشابة؛ فقد كان هناك الكثير من الأمور المؤيدة له. فقد تلقّت تعليمًا جيّدًا وربما كانت أغنى وريثة في ألمانيا، وكانت فائقة الجمال وهي الحقيقة التي أيقنتها راهبات

دير نونينويرث الصالحات، ولكنهن حرصن على إخفائها عنها، وعلى الرغم من أن وادي ساينباخ كان ملاذًا آمنًا باعثًا على الطمأنينة، فإن ذلك لم يمنع تسلُّ الشعور بالوحدة إليها وتشوّقت إلى معرفة شيء عما يدور في الحياة والبلاط الملكي في فرانكفورت، وهو ما كانت تستحقّه بالتأكيد بالنظر إلى مكانتها العالية.

صحيح أنها وصلت إليها إشاعات مُزعجة بشأن وُضع العاصمة إلا أنها عازمت على التأكُّد من صحة هذه الأقاويل من مصدر موثوق؛ لهذا اختارت الأب أمبروز المعارض لهذه الفكرة ليسافر جنوبًا ليتحقّق لها مما إذا كانت إقامتها المؤقتة في فرانكفورت ستكون آمنة أم لا.

لقد تجاوز الأب أمبروز الستين من عمره، ولو كان ينتمي إلى الدنيا، لا إلى الدين، لحصل على اسم هنري فون ساين. وكان انتماءه لطائفة البندكت تجسيدًا لحقيقة أن المال لا يُمكنه تحقيق كل شيء. كان سلفه الشهير — أو بالأحرى السيئ السمعة — كونت فون ساين هنري الثالث الذي تُوِّفِّي عام ١٢٤٦ لصًا وقاتلًا، أثار رعبًا حقيقيًا على طول نهر الراين. ونظرًا لوجود حصنه بعيدًا عن الأنظار في وادي ساين، على بُعد نصف فرسخ من النهر العظيم؛ فقد كان في وُضع يُؤهله للنهب. لقد ملأ مَخازنه بالبضائع التي سلبها من السفن التي تعبر النهر، وبالذهب الذي استولى عليه من التجار التّعساء وهم في طريقهم إلى هنا. وكان تركيزه موجّهًا للسرقة أكثر من قطع الرقاب وبعد أن مضت السنون وصار فاحش الثراء حينها فقط استيقظ ضميره الذي ظن الجميع أنه قد مات. ولإراحة ضميره شيّد دير ساين ومنحه لرهبان ذلك المكان. ولكن عندما حان أجله راودته المخاوف بشأن المصير الذي ينتظره بعد موته وهي مخاوف مُبرّرة؛ لذا حاول تطهير ثروته التي لم تُعد لها فائدة بأن وهبها للكنيسة، وبإتمامه تلك الصفقة ضمن لنفسه أن يرقد جسده بسلام في القبر الذي أعدّه لنفسه داخل جدران الدير.

دُفِنَ جثمانه بعد مراسم جنائزية مهيبة، وبذلَ الرهبان ما بوسعهم للوفاء بجانبهم من الاتفاق الذي وهبهم ثروته على أساسه. بُني قبره بحجارة ثقيلة للغاية حتى لا يستطيع أي شبح عادي أن يتسلّل من بينها، ولكن زيادة في الاطمئنان وضعوا جذع شجرة ضخماً فوقه وثبّتوه جيدًا بأربطة حديدية خفية، وحتى لا يَنكشِف الغرض من استخدام هذا الجزع نحته الرهبان ليُشبه ملامح هنري ذاته حتى بدا وكأنه تمثال راقد للكونت الوغد الراحل.

إلا أن حُطَّتْهم بآت بالفشل رغم كل هذه الاعتبارات؛ ففي زيارتهم التالية لقبره وجدوا التمثال راقدًا على الأرض ووجهه مواجهٌ للأرض، وكأنَّ قوة هائلة خفية طرحته فوق البلاطات الحجرية للأرضية. ولم يُجد استبدال التمثال وحراسة القبر نفعًا. فكان الحراس يغالبهم النعاس دومًا وحين يُفَيِّقون يجدون وجه التمثال الخشبي الكبير على أرضية الدير محدقًا لأسفل في الاتجاه العكسي، بعد أن كان محدقًا قبالة السقف قبل قليل في آخر لحظات يقظتهم، وهو ما اعتبره الرهبان على نحو ما دلالة على مصير مشئوم.

كان كونت فون ساين الجديد ووريث لقب الراحل هنري الثالث وضيعة رجلًا تقيًا جادًا يَخْتَلِفُ تمامًا عن سلفه الطائش. وكان بطبيعة الحال مُتَحَيِّرًا بشدة بشأن سلوك التمثال الخشبي. في البداية لم يؤمن بالظواهر التي تحدث رغم تأكيدات الرهبان له، وبعدها أعرب الرهبان البسطاء عن أسفهم العميق لذكر أي ظواهر. وتولَّى الكونت الجديد مهمة مراقبة القبر بنفسه، وأخذ يسير طوال الليل أمام قبر هنري الثالث. لم يكن بالرجل الذي ينام في أثناء تأديته لمهمة مهيبه كتلك، وكانت نتائج مراقبته مذهلة جدًا لدرجة أنه في الصباح جمع الرهبان معًا في القاعة الكبرى بالدير ليروي تجربته لهم.

لقد انقلب التمثال الخشبي وسقط على الأرض كالمُعْتَاد، ولكنه هذه المرة تأوَّه عند سقوطه. أثار هذا الصوت الحزين الرعب في قلب المُرَاقِبِ الوحيد الذي اعترف الآن بأسفهِ لرفض عرض الرهبان مشاركته نوبة مُراقَبة منتصف الليل. ومع ذلك فإن الشجاعة تُعَدُّ إحدى السمات المعروفة لدى كونتات ساين وهي صفة يمتلكها الحامل الجديد للقب الكونت، إلى جانب تقواه؛ إذ على الرغم من اعترافه بأنه راودته أحيانًا فكرة الهروب وطلب المساعدة من الرهبان، الذين كانوا على أتم استعداد لذلك؛ فقد ظل ثابتًا في مكانه وبصوت مرتجف سأل عما يُمكنه فعله إرضاءً لقريبه المتوفى.

أجابه التمثال ووجهه لا يزال مواجهًا للأرضية الحجرية بأنه يَسْتَحِيلُ أن يرقد الكونت الملعون الراحل بسلام ما لم يتحمَّل وريث ألقابه وأراضيه مسئولية الخطايا التي ارتكبها هنري خلال حياته، بينما يجب أن يُصبح أحد أفراد أسرته الأصغر سنًا راهبًا ينتمي لطائفة البندكت ليتشفَّع له يوميًا حتى تستريح روحه.

تابع النيبيل المتدين كلامه قائلًا: «بتردُّد بالغ، أبديت موافقتي على هذا الاقتراح البغيض شرط أن ينال قبول رئيس الدير والإخوة في دير ساين أملًا أن تكون حياة الاستقامة الدائمة التي أعيشها، إلى حدٍّ ما على الأقل، شفيعًا كافيًا لغفران خطايا هنري الثالث، وأنا واثق بأنكم إذا أعطيتُموني هذه الموافقة المقدَّسة التي أطلبها منكم الآن فإن هذا سيزيل أي شكوك حول صحة الوعد الذي قطعته.»

عندئذٍ انحنى الكونت أمام رئيس الرهبان المتوّج، وباكتراث أقل، للإخوة المجتمعين. نهض رئيس الرهبان وبكلمات قليلة موزونة شكر النبيل على تضحيته وتنبأ بأن يساهم ذلك بشدة في سعادته الروحية. أما هو فلم يتردد في إعطاء الموافقة المطلوبة، لكن بالنظر إلى أن الكونت اشترط موافقة الإخوة فقد طلب الآن موافقتهم.

جرى ذلك بإجماع صامت وعندها تحدّث كونت فون ساين، متنهدًا بعمق وكأنه يقبل حمل عبء ثقيل لا يقدر عليه، بنبرة حزن في صوته.

فقال: «أنا لا أجروُ على التشكيك في حكمتكم أو التراجع عن المهمة التي أخذتها على عاتقي. فما أنا إلا إنسان في النهاية، وحتى هذه اللحظة كنت أتمنى، عبثًا للأسف، أن يكون في مكاني مَنْ هو أجدر مني. وما يُقلقني حقًا هو الجزء الأخطر من المهمة الذي ذكره التمثال الخشبي في كلماته الأخيرة. سيَحِين الوقت الذي تصبح فيه صلوات أصغر فرد في عائلتي الذي سيصبح راهبًا، قادرةً على أن تَمحوَ الخطايا التي ارتكبها سلفي، ولكن الذهب المكتنز يحمل معه لعنة مستمرة لن يمحوها سوى جعل كل عملة تعود بالفائدة على التجار الذين تعرّضوا للنهب. لذا يجب عليّ أن أتحمّل الدنس الذي لحق بهذه النقود لأنه يزيد من معاناة سلفي الذي، دون أن يدرك ما كان يفعل، ورث هذا الإرث الخبيث للدير الذي أسّسه. أنا مُطالب بإقراضها في فرانكفورت، بأمان تام وفائدة مناسبة، بحيث يُمكننا تشجيع وتحسين التجارة هناك، تمامًا مثل كومة من السماد التي رائحتها كريهة وتدنّس يد مَنْ يلمسها ولكنها حينما تُنثر في الحقول تنتج الزهور والثمار والطعام، وتنشر السعادة والبهجة في أجسادنا البشرية.»

انحنى الكونت للمرة الثالثة أمام الحضور، وغادرَ بخطوات حزينة ووجه بائس، عندئذٍ رأى الإخوة أنهم قد جَرّدوا من الثروة التي كانوا يطمحون للتمتّع بها، وفاقّت تأوهاتهم بلا شك التأوه المنبعث من التمثال المنحوت الذي يُمكن رؤيته اليوم في متحف قلعة ساين الحديثة لمن يهتم بدفع خمسين فنيكًا رسم الدخول.

حدث كل هذا منذ أجيالٍ مضت قبل أن تتولّى الكونتيسة هيلديجوندي شئون قلعة ساين، أما الأب أمبروز فكان حلقة الوصل مع هذا الماضي؛ إذ كان سليل ساين الحالي الذي بصفته أحد المُنتميين لطائفة البندكت كان يحرص على أداء الصلوات يوميًا ترحُّمًا على روح هنري الثالث الملعون. ولكن الذهب الذي نجح الخليفة التالي مباشرة لهنري أن يحصل عليه ببراعة من أيدي الرهبان بدا أنه مباركًا وليس ملعونًا؛ لأنه تضاعف أضعافًا

هائلة بين يدي هذا المدير الماكر في فرانكفورت، وأكَّد مُرَوِّجو الإشاعات أنه بجانب أموال الربا التي تلقّاها الكونت النقيّ فقد استغل السفن المحمّلة بالكنوز التي يُسيّرُها التجار في نهر الراين بنجاح مُماثل لنجاح هنري الدنس؛ بل فاقه. وبهذا أصبح بيت ساين من أغنى بيوت ألمانيا.

كان الراهب المسن والكونتييسة الشابة تجمعهما صلة قرابة بعيدة، لكنه اعتبرها ابنته وكانت تشعر بالفعل أنه أبوها، بخلاف المعنى الروحي.

عمل أمبروز البندكتي في شبابه بالبلاط الملكي في فرانكفورت نظرًا لبلاغته في الحديث وأيضًا لمكانته الأرستقراطية. وأصبح لاحقًا مُستشارًا روحياً ودينوياً للأسقف الكبير، رئيس أساقفة كولونيا، وبصفة رئيس الأساقفة وصياً على كونتييسة فون ساين فقد أرسل الأب أمبروز إلى قلعة سلفه ليتولّى رعاية شئون ساين، على الصعيدين الديني والدنيوي. وزادت ثروات بيت ساين تحت حكمه الرصين ورغم أنه سبّب هذا الرخاء، فإنه لم يكن له نصيب فيه؛ إذ كان كما كتب عن المنتمين لطائفة البندكت:

«لقد نالوا مكانتهم المرموقة على مرّ التاريخ بصفاتهم راعين للبشرية من خلال كونهم معلّمي الزراعة الحديثة ومجفّفي الأحواض والمستنقعات ومُزيلي الغابات ومُمهّدي الطرق وحرّاث الأراضي المُستصلحة والمهندسين المعماريين القائمين على بناء المباني العتيقة والفخمة، ومقدمي نوع واضح من الإدارة المنظمة، ومرسّخي فكرة أن السلام يفوق الحرب باعتبار ذلك الوضع الطبيعي في الحياة، وطلاباً في المكتبة التي أقرّها الحُكّام في كل دير، ومعلمين لا يستقبلون طلابهم المرشّحين للرهبنة فقط ولكن أبناء العائلات العلمانية أيضاً.»

حين أتى إليها الأب أمبروز أخيراً، صاحبت الفتاة قائلة: «أوه، أيها الأب أمبروز، كنت أراقبك وأنت قادم من بعيد. كنت تمشي بخطوات مُتثاقلة وقد زاد انحناء كتفك. إنك تُرهق نفسك في سبيل خدمتي وهو ما لا يُمكنني السماح به. لقد عُدت مُتعباً هذه الليلة.»

أجاب الراهب بابتسامة: «التعب ليس جسدياً.» وتابع: «فرأسي يَنحني بسبب التأمل والصلاة وليس الإرهاق. في واقع الأمر، الآخرون هم من يؤدون العمل اليدوي الشاق بينما أنا أكتفي بالتوجيه والإرشاد. حتى إنني أفكر في بعض الأحيان بأنني عبء ثقيل في حقل الكروم، وأنني كسول أستخدم عقلي بدلاً من يدي.»

صاحت الفتاة: «هذا هراء! — لولاك لأصبح حقل الكروم أرضًا قاحلة؛ وهذا الحديث يُذْكَرُني بأنَّني ملأتُ بيدي تلك كأسًا من أعتق وأفخم أنواع النبيذ في أقبيتنا، ولا أسمح لسواك أن يَنعم بمذاقه. أرجوك اجلس واشرب.»

ابتسم العجوز الحكيم مُتَسَائِلًا: أَيُّ فحٍّ حسن النية ينتظره؟ وأخذ بكأس النبيذ ورفعها إلى شفثيه وبالكاد أخذ رشفة واحدة. وجلس بعدها ونظر إلى الفتاة وهو لا يزال يبتسم. وواصلت الفتاة حديثها سريعًا وبدا تورُّدٌ خفيف على خديها الجميلين.

«أيها الأب، إنك أكثر أهل الزراعة صبرًا، ولا تعرف الكلل، ولا تدَّخر أنت ومن معك جهدًا، ولكن من الخطر أن تُصبح ريفيًّا مُنْقَطِعًا عن الشئون العظيمة التي تدور في هذا العالم.»

«وهل هناك أعظم يا صغيرتي من زيادة إنتاجية الأرض وتدريب الرجال على توفير كل احتياجاتهم من الأرض الخصبة؟»

صدَّقت الفتاة على كلامه وقالت بعينين متلهفتين: «ولكن الاستمرار في العمل سيرهقك بشدة في نهاية المطاف حتى وإن كان في فعل الخيرات. وإذا كان الأجير يستحقُّ أجرته التي يَتقاضاها نظير عمله، فلا شك أن سيده يستحق المثل. إذن، لا بد أن تستريح، وبما أنني أعلم ولَعَك بالسفر فقد خططتُ لك القيام برحلة.»

تناول العجوز رشفة أخرى من النبيذ.

وسألها: «إلى أين؟»

«أوه، رحلة يسيرة؛ فقط إلى مدينة فرانكفورت الإمبراطورية، للتجول بين ذكريات صباك، ولتخصيص بعض الوقت لتمارس الأنشطة التي يمارسها رفاقك. لقد قضيت وقتًا طويلًا مع مَنْ هم أدنى منك فكرًا وثقافةً، وأنا واثقة أن لقاءك أمثالك سيُعِيد تنشيط ذهنك كما يفعل النبيذ المعتقُّ هذا بالجسد، فقط لو طاوعتني وشربته، رغم شكِّي بأنك ستُقابل مَنْ هم مثلك حتى في فرانكفورت.»

أومأ الأب أمبروز برأسه بهدوء.

وقال: «ما سمعته عن فرانكفورت يقول بأنها بعيدة تمام البُعد عن كونها مدينة ملهمة. في شبابي كانت بالفعل رمزًا للبهجة والعلم والازدهار، لكنها باتت الآن مدينة الخراب.»

«أيها الأب، أنت تعلم أن الشائعات التي تصل إلى مسامعنا ربما يكون مبالغًا فيها، وحتى إن كانت المدينة نفسها كئيبةً، وهو ما أشكُّ في صحته، فأنا واثقة أن أروقة البلاط الملكي وقصور النبلاء ستكون مليئة بالبهجة والمرح.»

«وما شأني أنا بالبلاط أو القصور؟ فواجبي يكمن هنا!»
صاحت الفتاة بمكر: «ربما يكون هذا جزءاً أيضاً من واجبك. إن كانت فرانكفورت بالفعل في وضع سيئ، فربما تكون مشورتك الحكيمة ذات نفع هائل. فيبدو أن الخير يجري بين يديك كما أنك كنتَ أحد رجال الدين بالبلاط الملكي ذات يوم، ولا شك أنك لم تفقد اهتمامك بمهمتك السابقة بالكامل، أليس كذلك؟»
مرة أخرى أضاعت ابتسامة هادئة جذابة وجه الراهب بملامحه المنهكة، ثم سألها صراحةً هذا النوع من الأسئلة التي تجعل من توجّه إليه يشعر بالحرج في بعض الأحيان، فقال:

«ابنتي هيلديجوندي، ماذا تريدِينَ؟»
أجابته الفتاة وهي تعتدل في جلستها: «حسناً أعترف أنني أشعر بالوحدة. إن رتبة العيش بين جدران هذه القلعة تفوق طاقتي وهذا الضجر المستمر الذي يُحيط بي هنا يجعلني أشعر بأنني أشيخ قبل الأوان. أتمنى أن أستمتع بقضاء شهر أو اثنين في فرانكفورت، ولا شك أنك خمنت أنني أرسلك أولاً كرسول لي لاستطلاع أحوال البلاد.»
«في هذه الحالة، يا ابنتي، سيتعين عليك تقديم التماس إلى الأسقف الكبير هذا، رئيس أساقفة كولونيا؛ فهو وصيُّك.»

صاحت الفتاة مؤكّدة: «كلّا، كلّا، كلّا، كلّا! أنت بذلك تَخِلُط الأمور بعضها ببعض. فقبل أن أزعج معالي رئيس الأساقفة بطلبي لا بدّ أن أعرف أولاً ما إذا كان ذلك ممكناً أم لا. وإن كانت المدينة بالفعل في حالة اضطراب فبالطبع لن أفكر بالذهاب إلى هناك. هذا كلُّ ما أردتُ معرفته، ولكن إن كنت خائفاً فما باليد حيلة.» وهزّت كتفَيها وبسطت يديها.
وهنا ضحك الراهب العجوز، كما لم يضحك من قبل.

«هيلديجوندي، يا لك من مأكرة، ولكن هذا ليس ضرورياً. فلا داعي لأن تدفعيني لفعل ما تريدِينَ بالتشكيك في مدى شجاعتي وهي الصفة التي يُشتهر بها عِرْقنا. سأذهب أينما ووقتما تأمرينني وسأنقل لك بصدق كلَّ ما أراه أو أسمع. وإن بدا الوقت مُناسباً لزيارتك لفرانكفورت، وإن وافق وصيُّك فلن أبدي أيّ اعتراض.»
«اعذّرني أيها الأب العزيز؛ فأنا لا أقصد أن يبدو هذا أمراً عليك طاعته.»

«لا عليك؛ فقط اطلّبي ما تشائين. سأنطلق صباح الغد.»
سألته الفتاة بلهفة شديدة: «عبر الراين؟» ولمعت عينا الرجل العجوز اندهاشاً من سرعة قبولها لعرضه.

وقال: «أعتقد أن الرحلة برًّا فوق التلال ستكون أكثر أمانًا. لقد ظلّ لصوص نهر الراين عطشى لأيّ فريسة تقع بين أيديهم وربما ينسون أنني لستُ سوى الأب أمبروز؛ ذلك الراهب الفقير، وربما ينظرون إليّ بصفتي هنري سليل بيت ساين الثري، وربما يحتجزونني للحصول على فدية. فلن أكون سببًا للصراع طوعًا؛ لذلك سأذهب عن طريق ليمبورج على رافد لان، وهناك أزور صديقي العزيز الأسقف، وأستمع مرة أخرى بمشهد الكاتدرائية القديمة الواقعة على الجرف بجوار النهر.»

عندما استيقظت الكونتيسة الشابة في صباح اليوم التالي واستعدت الأحداث التي دارت البارحة، تذكّرت إحجام الأب أمبروز عن القيام بالمهمة التي خطّطت لها دون موافقة رئيس الأساقفة واجتاحها شعور بالندم. ووبّخت نفسها على أنانيتها وقرّرت أنها سترسل التماسًا إلى وصيّها رئيس الأساقفة وأنها ستتمتّل لقراره.

وعندما أنهت إفطارها طلبت من خادمتها أن تستدعي لها الأب أمبروز، ولكن انتهت أخبار مزعجة بدلًا من الراهب.

«يقول كبير خدّمه إن الأب أمبروز غادر القلعة فجر اليوم، ولم يأخذ معه سوى بعض المؤن التي تكفيه لرحلة مدتها ثلاثة أيام.»

سألت سيدة ساين: «ذهب في أيّ اتجاه؟»

«ذهب إلى الوادي على ظهر حصان بعد أن سأل عن الطريق إلى ليمبورج على رافد لان.»

قالت الكونتيسة: «أها!» وتابع: «لقد تحدّث بالأمس عن قيامه بهذه الرحلة لكنني لم أعتقد أنه سيُغادر مُبكّرًا هكذا.»

كانت تلك بداية القلق الهائل الذي أصاب سيدة القلعة. لقد أدركت في الحال أن هذا المسعى لا طائل منه؛ فالفجر يبزغ مُبكّرًا في فصل الصيف والأب الصالح شقّ طريقه منذ خمس ساعات مضت بالفعل؛ ذلك الطريق الذي يثق بأنه سيُتوّه فيه عدة مرات قبل أن يجد سبيله إلى العاصمة. لو كان رسولًا عاديًا لشعر بالرهبة، ولكن الأب المتأمل سيذهب حيثما يحمله فرسه وحينما يفيق من تأملاته وصلواته سيسأل عن الطريق ويُكمل مسيرته. بعد مُضيّ يوم أو اثنين جاءت رسالة مفادها أنه نزل في ضيافة أسقف ليمبورج، ولكن بعدها لم تصلها منه أي أخبار.

مرّ أسبوعان تقريبًا حتى تلقت هيلديجوندي أخبارًا من الجانب الآخر، وهو ما زاد من مخاوفها المؤلمة. لقد كانت رسالة من وصيّها في كولونيا يُخبرها بأنه سيلقاها خلال أسبوع بقلعتها في ساين.

واختتم رئيس الأساقفة الرسالة بقوله: «أمر في غاية الأهمية لي ولك تلوح في الأفق. وسأوجه لك دعوة لاجتماع رسمي يضم زميلي كبير أساقفة ماينتس وكبير أساقفة تريفيس في حصن ستولزينفيلس معقل الأخير شمال كولنتر. في اللحظة التي ندخل فيها هذا الحصن، سأتوقف عن أن أكون وصياً عليك، مؤقتاً على الأقل، وسأصبح أحد القادة الثلاثة فقط. لكن على الرغم من احتمالية جلوسي عابساً كأحد الأمراء الناجحين، تأكدي بأنني سأظل دائماً صديقك. أخبري الأب أمبروز أنني أودُّ التشاور معه بمجرد وصولي إلى قلعتك، وأنه لا بدَّ أن يلقاني أولاً وألاً يتغيَّب عن الحضور لأيِّ عذر.»

وهنا تماماً كانت تكمن المشكلة؛ فقد اختفى الأب أمبروز تماماً وكأنما ابتلعته تنانين تونوس. لم يسبق أن انقطعت أخباره عنها في أيِّ من رحلاته السابقة، حتى تلك الرحلات التي كان رئيس الأساقفة على علمٍ بها، ولكن ليس هذا هو الحال هذه المرة التي هي الوحيدة التي على علمٍ بالأمر. لقد راودتها أسوأ الهواجس جراء هذا الصمت الهائل. ولك أن تتخيل إذن مدى الراحة التي ستشعرُ بها إذا رأيته عائداً عبر الوادي، بعد أسبوعين تماماً من مغادرته لقلعة ساين. وكما رأيته آخر مرة، فقد كان يسير على قدميه ساحباً فرسه الذي لم يعد يقوى على السير.

لم تلقِ بالاً لآداب السلوك وهُرعت على الدرج وركضت لترحب بصديقها أشد الترحيب. أدركت بحزن أنه مُنْهَك، والابتسامة التي رسمها على شفثيه لتحيتها كانت فاترة ومثيرة للشفقة.

صاحت قائلة: «أوه، أيها الأب! ما الذي حلَّ بك؟ لقد ملأْتُني الشكوك والخوف حين لم يصلني منك أيُّ خبر منذ رسالتك عندما كنت في ليمبورج.» قال العجوز بهدوء: «لقد كنتُ سجيناً ولم يُسمح لي بالتواصل مع أيِّ شخص خارج زنزانتي. إنها قصة طويلة ومُحزنة، وهي أسوأ من جميع القصص التي تُنذر بالسوء بالنسبة للإمبراطورية. كان من المفترض أن أصل مُبكراً هذا الصباح، ولكن حصاني المسكين الصبور أصيب بالعرج.»

ردت الفتاة بسخط: «نعم! وبالطبع أثرتَه على نفسك!»

وضع الراهب يده اليسرى بحنان على كتفها.

وقال: «كنت ستفعلين الشيء ذاته، يا عزيزتي»، ونظرت إليه بابتسامة عذبة. كانا أقارب؛ لذا فإن انتقادها لأيِّ صفة من صفاته سيكون على نحوٍ ما انتقاداً لنفسها.

أخذ أحد الخدم الفرس الأعرج؛ بينما انتظره الآخر في حُجْرته الصغيرة، التي كانت حجرة بسيطة مثل غرف الدير، ويوجد بها القليل من الأثاث. بعد تفكيرٍ قليلٍ تلقَّى الأب أمبروز أمرًا قاطعًا بالراحة لمدة ثلاث ساعات كاملة، وأخبرته سيدة القلعة أنها لن تستقبله أبدًا قبل انقضاء هذا الوقت. تلقَّى الراهب المُتعب هذا الأمر بالترحيب على الرغم من معرفته بمدى نفاذِ صبر هيلديجوندي لتُعرف ما في جَعْبته من أخبار، ونام بعد أن أعطى تعليمات بإيقاظه في التاسعة.

نزل في ذلك الوقت، وهو وقت العشاء في القلعة، ووجد وجبةً لذيذة تنتظره، وحولها إبريق من هذا النبيذ النادر الذي كان يرتشفه باعتدال.

قال: «نزلت مع إخواني في ديرهم الهادئ الصغير الموجود على الجانب الآخر من رافد ماين جهة فرانكفورت في ضاحية العُمال التي تسمَّى زاكسينهاوزن. وحتى إن لم أرَ بعيني خراب المدينة حيث نَمَّا العُشب الصيفي في العديد من شوارعها، لكان سماع الوصف المؤسف للوضع من جانب إخواني سيكون محزنًا بالقدر الكافي. يبدو أن السلطة تتهاوى. فقد فرَّ النبلاء عائدين إلى أراضيهم؛ لأن الدفاع في المدينة سيكون مُستحيلًا إذا اندلعت أعمال شغب عام؛ فأصحاب الفكر يتوقعون حدوث تمرد عندما ينفذ صبر العامة وينهكهم الجوع. حتى وقتنا هذا قُمعت حالات العصيان المتفرقة بقسوة وسقط الرجال الجائعون وقد مرَّقتهم سيوف الجنود إلى أشلاء؛ ولكن الآن فقد تغلغل الشعور بالسخط بين صفوف الجيش نفسه بسبب نقص المؤن والأجور المؤجلة، وعندما يعلم العامة أن الجيش يميل للانضمام إليهم بدلًا من التصدي لهم سيحلُّ الدمار على فرانكفورت بأكملها. الإمبراطور في معزل تحت تأثير الخمر، ويُقال إنه لن يصمد أكثر من ذلك؛ فقد استمر لفترة طويلة بالفعل؛ بينما الإمبراطورة في عزلتها وكأنها راهبة في دير.»

قاطعته الكونتيسة بسؤالها: «ولكن أين الأمير الشاب؟» ثم أردفت: «ماذا عنه؟ ألا يوجد أيُّ أمل إذا ما اعتلى العرش؟»

صاح الراهب: «آه!» ثم تنهَّد الراهب تنهيدة طويلة وهو يهز رأسه نافيًا. «لكن أيها الأب أمبروز أنتَ عرفتَه صبيًا، تقريبًا وهو شاب. لقد سمعتُك تتحدَّث عن كونه شخصًا واعدًا.»

«لقد أنكر معرفته بي، وأنكر هُويته؛ وهُدِّد بقتلي بسيفه، وأخيرًا زَجَّ بي داخل أحقر زنزانة في جميع أنحاء فرانكفورت!»

فزعت الفتاة لسماعها هذا الكلام. فإذا كان هذا النقد القاسي الموجّه للوريث المنتظر صادرًا عن ناقد لطيف ومُعْتَدِل مثل الأب أمبروز فلا بد أن هذا الشاب أكثر دناءة حتى من والده الهمجي.

قالت الفتاة محدّثة نفسها: «وماذا كنت تتوقعين غير ذلك؟» ثم تمتمت قائلة: «تابع حديثك وقصّ عليّ ما حدث منذ البداية.»

قال: «في إحدى الأمسيات، وأنا أعبر الجسر القديم من فرانكفورت إلى زاكسينهاوزن، رأيت شخصًا يدنو منّي بخطى واثقة، وشعرتُ بأنه مألوف لي، وعندما اقترب أدركت أنه الأمير رولاند، نجل الإمبراطور، على الرغم من أن عباة كانت تغطي الجزء السفلي من وجهه كما لو كان يخشى أن يتعرّف عليه أحد في وقت الغسق.»

صحت في دهشة: «صاحب السمو!» وفورًا استلّ سيفه وسقطت العباة التي كانت تغطي وجهه، وظهرت شفتان تكشفان عن شرٍّ مخيف، وأدركتُ حينئذٍ أنني لم أكن مُخطئًا. وأخذ يتلفّط سريعًا حوله من جانبٍ لآخر، ولكن الجسر الأشبه بالشوارع الصامتة كان مهجورًا. فوقفنا وحدنا إلى جانب الصليب الحديدي، وهناك تحت تمثال المسيح أنكر معرفته بي، ووجّه حدّ سيفه الحاد إلى صدري.

وقال: «كيف تجرؤ على مناداتي بهذا اللقب؟»

«أنت الأمير رولاند نجل الإمبراطور.»

وهنا ضغط بقوة أكبر على حد السيف الموجّه لصدري.

وصاح قائلاً: «أيها الكاذب! ورغم زي الرهبان الذي ترتديه، إذا تفوهت بهذا البهتان مرة أخرى فستدفع حياتك عقابًا لك على الفور. أنا لا أب لي.»

«حسنًا سيدي، هل لي أن أسألك عن هويتك؟»

«يُمكنك أن تسأل، ولكن لا يوجد ما يدعوني لأجيب سؤالك. ولكن لا بأس سأرضي فضولك الوقح وأخبرك أنني حدّاد، صانع سيوف، وإن كنت ترغب في اختبار جودة ما أصنع فما عليك سوى الاستمرار في استجوابك هذا. أنا أقيم في حي العمال في زاكسينهاوزن، وأنا الآن في طريقي إلى فرانكفورت، وبالتأكيد لديّ الحق في الدخول إليها دون أيّ استجواب غير مُصرّح به بموجب القانون.»

فقلت له: «في هذه الحالة أستمحُك عذرًا.» وأضاف: «فإن الشبه بينكما مُذهل للغاية. لقد شرفتُ بالعمل قسيسيًا في البلاط الملكي ذات يوم، وهناك رأيت كثيرًا الأمير الشاب بصحبة والدته الإمبراطورة، تلك السيدة النبيلة بكلّ ما تحمله الكلمة من معنى.»

وراقبتُ الشاب عن كثب وأنا أقول كلماتي تلك، وعلى الرغم من تمالكه لنفسه فقد جفل بنحو ملحوظ، ورأيتُ لحظة تمييز في عينيه. وأعاد سيفه إلى غمده مرةً أخرى، وقال بضحكة خافتة:

«أنا الذي يجب أن أستمحك عذرًا على تسرُّعي وفظاظتي. أؤكد لك أنني أحترم الزي الذي ترتديه، ولم أكن لأعاملك بعنف تلقائيًا. ولكننا جميعًا عرضة للخطأ في بعض الأحيان. أنا أسامحك تمامًا وأثق أنك ستفعل معي المثل.»

قال هذا ورفع قبَّعته تحيةً لي وغادر وتركني واقفًا في مكاني.»
قالت الكونتيسة وهي مهتمة جدًا بالقصة: «أرى بالتأكيد أنه غير مجرى حديثه تمامًا.»

«أجل يا ابنتي؛ هذا الكلام لا يصدر أبدًا عن حدّاد.»

«هل أنت مُقتنع أنه كان الأمير؟»

«لم أشكَّ في هذا ولو لحظة.»

«ولكن لنفترض أن هذا صحيح أيها الأب أمبروز، أليس من حق الشاب أن يسير في شوارع عاصمته وحتى أن يستكشف حي العمال في زاكسينهاوزن إن أثار هذا اهتمامه؟ أليس من حقه أن يحمل سيفه ويذهب حيثما شاء؛ وهل من المشين جدًا رفضه الإجابة عن أسئلة الغرباء؟ فقد باغته على حين غفلة منه.»

أومأ الراهب برأسه، لكنه لم يُضِيع وقته في تبرير فعله.

وتابع حديثه قائلاً: «لقد تبعته عبر شوارع فرانكفورت الضيقة والمتعرجة وكانت مغامرة يسيرة لأن الظلام قد حل، وحتى إن كنا في وضوح النهار كان المسار الذي سلكته آمنًا بالقدر الكافي؛ فهو لم يلتفت وراءه أبدًا، ولم يُبدِ أيًا من سمات الشك التي تتميز بها طبقة العمال هنا.»

قالت الفتاة بإصرار: «أظنُّ أن ما تقوله في صالحه.»

«لقد وصل إلى دَرَج راينجولد، وهو قبوٌ نبيلٌ سيئ السمعة، وعلى الدَّرَج غاب عن الأنظار. استقبلوه بصيحات وضجيج الكؤوس فوق الطاولة؛ فقد بدا أنه اجتمع بعصبته. وأنا واقف بالخارج سمعتُ غناءً وكلامًا بذليًا. من الواضح أن الوريث المنتظر لعرش الإمبراطورية كان شابًا مُستهترًا محبًا للخمر، وأنه صديق ورفيق لأحقر حثالة في فرانكفورت.»

بعد قليل خرج بمُفرده وتبعته مرةً أخرى. وانطلق ببصيرة رجل يَعرف وجهته واتجه إلى فارجاسه، شارع التجار الأثرياء، وطرق أحد الأبواب وسُمح له بالدخول. في

واجهه الطابق الأول كانت هناك ثلاث نوافذ مُضاءة ورأيته يَعْبُرُ أول اثنتين ولكنني لم أستطع معرفة ما يدور بالداخل من مكاني في الشارع. نظرتُ حولي فوجدت عن يميني زقاقًا ضيقًا به سَلَمٌ خارجي. صعدت هذا السَلَمَ ومن أعلى درجاته رأيت الجزء الداخلي للغرفة الكبيرة على الجانب الآخر من الطريق.

بدا لي أنهم كانوا يتوقَّعون مجيء الأمير رولاند؛ لأن الرجل العجوز الجالس على الطاولة والذي كان وجهه الهادئ في مواجهتي، لم يبدِ أيَّ اندهاش حين دخل عليه الأمير. جلس سموه مديراً ظهره لي ولفترة من الوقت بدا أن ما يدور بينهما مجرد نقاش ودي. لكن فجأة نهض الأمير وألقى عباءته واستلَّ سيفه ووجَّه حده إلى رقبة التاجر.

بدا واضحاً من الفزع الذي بدا على ملامح التاجر أن الخطوة التي اتخذها الضيف لم تكن متوقَّعة تماماً، لكن تبَّين هدفها سريعاً. فقد دفع العجوز بيده المرتجفة صرةً مملوءة بالأموال فالتقطها الأمير وفتحها في الحال. وسكب كومة من الذهب الأصفر وبدأ في عد النقود بترَوٍّ هائل يُخالف طبيعة الوضع المحفوف بالمخاطر الذي هو فيه مما يُوحى بأنه مُعتاد الإجرام. وأعاد للتاجر كومةً من الذهب. ووضع الباقي في صرة فارغة، وعلَّقها بحزامه.

لم أنتظر لأرى المزيد، ولكنني نزلت إلى أسفل الدَّرَج لأعرف ما إذا كان رولاند أخذ أمواله إلى رفاهه الفاسقين. لقد خرج وتبعته مرة أخرى وقادني مرة أخرى إلى قبو راينجولد. لكن في هذه المرة سرْتُ خلفه خطوة بخطوة حتى دخلنا غرفة النبيذ الكبيرة أسفل الدرج، حتى لم يُعَدِّ يفصل بيني وبينه سوى أقل من قدم وهو لا يزال يتوهم أنه بمفرده. على الرغم من ثقتي بأنه الأمير فقد عزمت على مجادلته وإقناعه بإعادة الذهب إن أمكن.

لمستُه برفق على كتفه وقلت: «سموك!»

التفت إليَّ على الفور وبدأ بالتلفُّظ بسبابٍ همجي، وقبض على رقبتني بيديه، ودفعني باتجاه حائط القبو.

وصاح بي قائلاً: «لقد تسللتَ لتتجسَّس عليَّ!» وأضاف: «وقد تتبَّعت خطواتي على الرغم من تحذيري لك!»

في اللحظة التي حاولت فيها الرد، اشتدت قبضته على رقبتني ليمنعني من الكلام. وعندئذٍ اقترب منِّي رجل بدين عريض، وبدت علامات الذعر على ملامحه المتوردة وخاطبه الأمير بصفته مالك الحانة وكان هو المالك بلا شك.

وقال رولاند بهدوء شديد: «أيها المالك، هذا الراهب التَّعَس أحرق، ورغم أنه لا يقصد أيَّ ضرر بتدخله؛ فإنه قد يسبَّب كارثة لي ولزملائي. في وقت مبكر من المساء دنا مني على الجسر وتحدَّث إليَّ، ولكنني عفوْتُ عنه على أمل ألا يُريَني وجهه مرة أخرى. يُمكنك أن تُدرِك مدى سوء حالته العقلية عندما أخبرك بأنه يتهمني بأنني نجل الإمبراطور، والله وحده يَعلم ماذا سيقول عن رفاقي حين يراهم.»

حاولت أن أتحدَّث مرتين أو ثلاث، وفي كل مرة تَحُول قبضة أصابعه على رقبتني دون ذلك، وحتى عندما أرخى قبضته قليلاً كنت قادراً بالكاد على التنفس.»

أنصت الكونتيسة باهتمام بالغ، وحدَّقت عيناها البراقتان في الراوي، وكانت عيناها تُشعان جمالاً يعكس أنوثتها ونعومتها، لكنها عكست كذلك الاستياء والغضب الشديد للمعاملة التي تلقَّها قريباها، وشعرت بشرارة الخطر وتلبَّستْها رُوح أسلافها على مرَّ العصور الذين كانوا مُستعدِّين للقتال من أجل كنيسة القيامة في فلسطين أو من أجل الذهب على حدود نهر الراين. وعندما توقَّف عن السرد ليمسح جبينه المجعَّد من العرق الذي أحسَّ به لتذكُّره شعوره بالإهانة التي تعرَّض لها، طغت نظرات الحنان على نظرات الوعيد في عيون الكونتيسة وقالت بلطف:

«أنا واثقة تماماً أيها الأب أن وعداً كهذا لا يُمكن أن يكون الأمير رولاند. لا شك أنه حُرِفِيُّ كما ادعى. فلا يُمكن لرجل نبيل أن يتصرف هكذا.»

استأنف الأب أمبروز حديثه قائلاً: «دعيني أكمل يا طفلي وأنصتي.» وأردف: «لقد التفتَ الأمير إلى المالك وسأله:

«هل هناك غرفة آمنة وخاوية في مَبناك يُمكنني وضع هذا القس المتطفل فيها لعدة

أيام؟»

أجابه المالك قائلاً: «هناك مخزن نبِذ أسفل هذا القبو.»

فسأله رولاند: «هل يدخله أحد سواك؟»

«لا.»

«هل تتولَّى مسؤولية هذا القس لتتأكَّد من أنه لا يتواصل مع أي شخص بالخارج؟»

«بالتأكيد، أيها القائد.»

«جيد. سأدفع لك مقابلاً جيداً وهذا مقدماً.»

قاطعته الكونتيسة بحزم قائلة: «لا يُمكن أبداً أن يكون هذا الهمجي هو الأمير.»

«أتوسَّل إليك أن تُنصتي يا هيلديجوندي وستَقْتَنِعِين عندما أُخْبِرُك بما سيُلي. تابع الأمير قائلاً:

«لا يَكْفِي أن تمنع اتصاله مع الآخرين، بل عليك أنت أيضًا ألا تنصت إليه. سيُحاول إقناعك بأن اسمه الأب أمبروز وأنه راهب يتمتَّع بِسُمتٍ طيبة في طائفة البندكت. وإن وجَدَكَ غير مُكترث بذلك فربما يتظاهر بأنه من أصلٍ نبيل، وأنه هنري فون ساين؛ لذا عليك مُقاومة أيِّ تعاطُف تشعر به تجاه الأرستقراطيِّين. لكنِّي أؤكد لك أنه لا ينتمي إلى بيت ساين مثلما أنني لست بالأمير رولاند.»

أجابه المضيف: «بكل تأكيد، أيها القائد؛ فالأرستقراطيون شأنهم شأن الرهبان لديّ، كلاهما لا يحظون بإعجابي، فاطمئنْ يُمكنك الاعتماد عليَّ بأنني سأُبقيه في مأمن حتى تأمر بإطلاق سراحه.»

الآن، يا عزيزتي هيلديجوندي، يُمكنك إدراك أنني لم أخطئ. أكَّد هذا الشاب أنه لا يعرف شيئاً عنيّ، وأنا واثق بالتأكيد أنه نسيَ فترة خدمتي بالبلاط الملكي رغم استماعه إلى خطباتي في كثير من الأحيان، ولكنه عرفني طوال الوقت، والآن بوقاحة غير مسبوقة لم يُظهر أيَّ تردُّد في إثبات صحة ظني في أنه هو نجل الإمبراطور. ولكن للإنصاف أَعترف أنه أعطى تعليمات للمالك عندما دفع له المال بأن يُعاملني برفق، وأن يحرص على توفير الكثير من الطعام والشراب لي. وكان من المُتَّفَق عليه أن يطلق سراحي بعد ثلاثة أيام.

واختتم الأمير حديثه مع المالك قائلاً: «لن يُمكنه التَسبُّب في أي ضرر بعدها؛ لأنني بحلول هذا الوقت سأكون قد نجحت أو فشلت في مسعائي.»

قادني مالك الحانة إلى دَرَج ضيق مكسور، ودفعني إلى مخزن مظلم ورطب مملوء جزئياً ببراميل النبيذ وبقيت به حتى أطلق سراحي منذ أيام قليلة.

عدتُ على الفور إلى دير طائفة البندكت حيث كنت أقيم سابقاً، مُتوقعاً أن أجد إخواني قلقين بشأني، لكن لم يحدث أيُّ من ذلك. لا أحد يفقد أحداً في هذا العالم، وظنَّ رفاقي أنني دُعيت إلى البلاط، ونسيْتُ أمرهم كما نسوا أمرِي؛ لذا لم أَقُل شيئاً عن مغامرتي لكنني اعتليت فرسي الذي كان ينتظرني وسافرت عائداً إلى قلعة ساين.

ساد الصمت فترةً طويلة بين الاثنين، ثم تحدَّثت الفتاة قائلة:

«هل تنوي اتخاذ أيِّ إجراء بشأن احتجاجك غير المشروع؟»

أجاب الراهب المتسامح قائلاً: «أوه، لا.»

«هل من المؤكَّد أنه سيقع الاختيار على هذا الشاب الماِجِن ليُصبح إمبراطوراً؟»

«هناك احتمال ولكنه ليس مؤكدًا.»

«ألا يكون انتخاب شخص كهذا لتوليّ أكبر منصب في الدولة شرًّا أكبر على البلاد مقارنةً باستمرار النظام الحالي؛ لأن هذا الشاب يتمتع، إلى جانب رذيلة السُّكر الذي يُعاني منها والده، بصفات خبيثة مثل الكذب والقسوة والبذاءة وعدم احترام مكانة النبلاء والكنيسة؟»

«هذا بالفعل رأيي، يا ابنتي.»

«إذن أليس من واجبك أن تُخبر الأساقفة الثلاثة على الفور بما قصصته عليّ، لعلنا يمكننا تجنب كارثة انتخابه؟»

«لقد فكّرتُ مليًّا في هذا الأمر في أثناء رحلتي إلى هنا، وناجيت الرب ليُلهمني الصواب.»
«وما هو الصواب أيها الأب؟»

«ألا أقول شيئًا عما شاهدته في فرانكفورت.»

«لماذا؟»

«لأنه ليس لرجل مُتواضعٍ مثلي يشغل منصبًا لا سُلطة له أن يفهم ما يدور في أذهان رؤساء الأساقفة العظماء هؤلاء. فهم بالفعل مَنْ يَحْكُمون البلاد، وربما يَرَوْنَ أنه من الأفضل لهم أن يَضَعُوا على العرش شخصًا مخمورًا لن يقف عائقًا أمام طموحاتهم بدلًا من انتخاب شابٍّ ذي أخلاق يتجاوزهم بمرور الوقت.»

«أنا واثقة أن ذلك لا يمكن أن يكون دافعًا يُحرِّك رئيس أساقفة كولونيا.»

«فلتعلمي يا صغيرتي أن سلطة رئيس أساقفة كولونيا ليست مُنفصلة عن سلطة رئيسي أساقفة تريفيس وماينتس؛ لذا تأكّدي أنه إذا رغب هذان الاثنان في انتخاب رولاند إمبراطورًا، فلن يُجديّ قولي أي شيء لرئيس أساقفة كولونيا في منع ذلك الخيار.»

«أوه، لقد نسيتُ في خضمّ الحماس الذي انتابني في أثناء سماعي لمغامراتك، ولكن حديثنا عن رئيس أساقفة كولونيا ذكّرني بزيارة جلالته لنا غدًا، وهو يرغب في رؤيتك بنحوٍ خاصٍّ. لك أن تتخيّل مدى قلقي عندما تلقيت رسالته قبل بضعة أيام وأنا لا أعرف شيئًا عن مكانك.»

صاح الأب أمبروز متسائلًا في حيرة: «يرغب في رؤيتي؟» وأضاف: «ما السبب يا ثري؟ هل يمكن أن يكون قد علم شيئًا بشأن زيارتي لفرانكفورت؟»

«كيف ذلك؟»

«يمتلك رؤساء الأساقفة عيونا لهم لا نعلم عنهم شيئًا. فإذا اتهمني بالتغيب عن منصبِي، فلا بد أن أعترف بالحقيقة.»

«بالطبع. سأعترف له أنا فور وصوله؛ فإن رحلتك لم يكن لها باعٌ سوى إصراري.
ولا يوجد مُلام غيري.»

هز العجوز رأسه ببطء.

وقال: «أنا مُذنبٌ مثلكِ تمامًا.» ثم أضاف: «وسأجيب بصدق عن أي سؤال يوجّه إليّ، لكنني لن أتطوّع بالإفشاء عن أيّ معلومات قبلها، وأتمنى أن أكون صائبًا بقراري هذا.» نهضت الفتاة.

وقالت: «لا يُمكنك أن تخطئ أيها الأب وإن حاولت؛ والآن أتمنى لك ليلة طيبة. نم في سكونة ولا تخش شيئًا. فلطالما تمكّنتُ من تهدئة رئيس الأساقفة الكريم في المرات النادرة التي غضبَ فيها مني، ولن أخفق هذه المرة.»

تمنى لها الأب أمبروز ليلة هانئة وغادر الغرفة بخطى ثقيلة لشخص يُعاني شدة التعب. وبينما وقفت الكونتيسة الشابة تُراقب انصرافه واختفائه عن نظرها، أطبقت قبضتها الصغيرة الرقيقة وعقدت حاجبها وعلا وجهها الجميل تعبيرات الحزم التي ميّزت بعض أسلافها الصليبيين الذين زيّنت صورهم جدران القلعة.

وحدّثت نفسها قائلة: «فقط لو يسقط هذا الأمير الهمجي رولاند في قبضتي سأجعله يندم على معاملته تلك للأب أمبروز؛ هذا الرجل الكريم المتسامح.»

الفصل الخامس

كونتييسة فون ساين ورئيس أساقفة كولونيا

كان النهار قد انتصف حين وصل أمير الكنيسة العظيم، رئيس أساقفة كولونيا، إلى قلعة ساين، مع عدد قليل جدًا من الأتباع، مما أوحى فيما يبدو بأنه لم يأتِ لمتابعة أيِّ شأنٍ من شئون الدولة؛ لأنه في مثل هذه المناسبات كان يقود جيشًا صغيرًا. كانت الكونتييسة الشابة الجميلة في انتظاره أعلى درج القلعة، فحيّاها بكياسة تليق بأكثر الرجال تهذيبًا في هذا العالم، وليس بالرصانة التي تليق برجل كنيسة عظيم. بالطبع، بدا بالنسبة إلى إدراك الفتاة السريع بأنه حين رفعَ يدها الجميلة إلى شفّتيه زاد انحناءه إلى أسفل، بمزيد من الإجلال أكثر مما تحتمل مكانتهما المختلفان في الحياة.

ثم صافح الأب أمبروز بأسلوب الصديق الذي يدنو من صديقه المقرب، ولا شيء في تحيته كان يُوحى بأي نوع من الاستياء على خلفية أي أحداث.

ولعلَّ الشعور بعدم الارتياح الذي انتاب كلاً من الأب أمبروز والعجوز والكونتييسة الشابة هيلديجوندي في حضور رئيس الأساقفة جاء من إدراكهم للمؤامرة، مما أسفر عن الرحلة المشؤومة إلى فرانكفورت. ورغم ذلك، ظلَّ الاثنان طوال عصر ذلك اليوم مُثقلين بشبح وقوع خطرٍ وشيك، والحالة المزاجية الجيدة لرئيس الأساقفة بدت بالنسبة إليهما أنها مُنتحلة لهذا الموقف، وبالطبع لم يكونا مُخطئين في هذا الصدد. كان نيافة رئيس أساقفة كولونيا شديد الانشغال باجتماعٍ مهم سيُعقد في اليوم التالي، وحماسٌ رجل جادّ بالأساس في مثل هذه الأزمة عُرضة للمبالغة فيه.

تلقّى الأب أمبروز، الذي كان يعيش وسط الرفاهية والرخاء بزهدي ناسك، ودائمًا ما يتناول وجبته الضئيلة بمفرده في حجرته، دعوةً من رئيس الأساقفة ليحظى بمقعد على المائدة في قاعة الطعام.

قال رئيس الأساقفة: «بما أنك لم تُسدّد لي نظرة لوم على استمتاعي بأشهى مأكولات قصر ساين، وتقديري للنبذ المنقطع النظير الخاص به، فلن أُعلّق على غداك المُكوّن من حبوب البازلاء الجافة وإبريق الماء غير المُبهرج الخاص بك. علاوة على ذلك، أود أن أستشير أمبروز، أمين مكتبة قصر ساين، المسئول عن سجلات هذا القصر، لا أمبروز المشرف على المزارع، أو الأب أمبروز الراهب.»

وخلال وجبة منتصف النهار، أدار رئيس الأساقفة دفّة الحديث، بل واحتكرها أحيانًا.

قال: «بينما كنت تحت رعاية الأخوات الصالحات في دير نونينويرث، يا هيلديجوندي، تحدّث رئيس الدير مرارًا عن براعتك في الدراسات التاريخية. هل سبق لك أن وجّهت انتباهك إلى السجلات الخاصة بقصرِك؟»

«كلا، سيدي الوصي. مما سمعته بالصدفة من أسلافي، سجلُّ أفعالهم لن يكون من نوعية القراءات الموصى بها لفتاة شابة.»

قال رئيس الأساقفة موافقًا رأيها: «أها، هذا صحيح تمامًا، صحيح تمامًا.» وتابع: «عاش بعض كونتات ساين حياةً مضطربة، وكان من الصعب إقناعهم بعدم التعرّض لبضائع جيرانهم والمنقولات الخاصة بهم إلا بالقوة. لقد كانوا شديدي العناد في تلك الأيام الخوالي؛ إلا أن الكثير من النبيلات قد زَيّن قلعة ساين واللاتي تَبَرّز حيواتهن كإلهام يناقض خلفية الأحداث السوداوية لاضطرابات القرون الوسطى. هل سمعت من قبل عن جدّتك، الكونتيسة العطوفة ماتيلدا فون ساين، التي عاشت قبل مئات السنين؟ في واقع الأمر، الخطابات التي كنت أقرؤها والمكتوبة بخط يدها المُنمّق يعود تاريخها إلى منتصف القرن الثالث عشر تقريبًا. لم أستطع التحقق مما إذا كانت أكبر أم أصغر من رئيس أساقفة كولونيا في تلك الحقبة؛ ولذا أتمنّى حشد اهتمام الأب أمبروز للبحث في سجلات ساين عن أي شيء يخصّها. لقد أرسلت الكونتيسة رسائل كثيرة إلى رئيس الأساقفة الذي حفظها بعناية، في حين أن الوثائق الأكثر أهمية بالنسبة إلى الأسقفية قدر لها الضياع.

عكست خطاباتها إخلاصًا شديدًا للكنيسة، وعطفًا بالغًا تجاه أكبر رموزها في ذلك الوقت، رئيس أساقفة كولونيا آنذاك. ومن الواضح أنها كانت أعزّ مُستشاريه، وفي أوقات العسر أبرزت مشورتها رجاحة عقل الرجال؛ هذا بالإضافة إلى الرقة وإحساس العدالة اللائق تمامًا بالنساء. لم أكن أتخيّل مطلقًا أن نجاح هذا الأسقف العظيم في منصبه كان إلى حدّ كبير بسبب المشورة النزيهة لهذه السيدة النبيلة. من الواضح أن الكونتيسة كانت

تُمثل القوة الراشدة وراء نجاحه، وقد راقبت تقدُّمه المستمر بحبٍّ يُشبه ذلك الحب الذي يُغمر به الابن الأثير. ومن حينٍ لآخر، كانت كتاباتها تُظهر عاطفة حانية جدًّا تُشبه عاطفة الأم لدرجة جعلتني أعتقد بأنها أكبر بكثير من رجل الكنيسة العظيم؛ ولكن ثمة حقيقة بأنها عاشت بعده فترةً طويلة؛ ولذا من المُحتمل أن تكون أصغر منه سنًّا.

«هل أنت بصدد نسج قصة رومانسية من أجلنا، يا سيدي؟»

ابتسم رئيس الأساقفة، وظلَّ للحظة واضعًا يده فوق يديها المُستقرّة على المائدة بجواره.

وتابع قائلاً: «ربما قصة رومانسية، بيني وبين الكونتييسة التي من عصور حقيقة؛ إذ إنني حين أقرأ هذه الخطابات أستعين بالكثير من محتوياتها لإرشادي في حياتي، وأجد نصائحها حكيمة اليوم كما كانت في عام ١٢٥٠، وبالنسبة إليّ ... بالنسبة إليّ ...» — تنهَّد رئيس الأساقفة قائلاً — «تبدو أنها عادت إلى الحياة مرة أخرى. أجل، أعترف باحترامي الشديد لها، وإذا كنت تُسمِّين ذلك قصة رومانسية، فهي بالتأكيد ذات طبيعة بريئة للغاية.»

«ولكن ماذا عن رئيس الأساقفة؟ سلفك، صديق ماتيلدا؛ ماذا حلَّ به؟»

«ليس لديّ الكثير من الأدلة بخصوص هذا، يا هيلديجوندي؛ فخطاباته، إن كانت موجودة، مُخبَّأة في مكانٍ ما بسجلات قلعة ساين.»

صاحت الفتاة قائلة: «غداً، سأرتدي أقدم الثياب التي أمتلكها، وأفتش في تلك السجلات المُغطَّاة بالأتربة حتى أعثر على الخطابات الخاصة بهذا الشخص الذي كان رئيس الأساقفة عام ١٢٥٠.»

«لقد أسندتُ تلك المهمة لشخصٍ أقل اندفاعاً. الأب أمبروز سيكون هو الباحث، سأشارك معه حكمة الرعوس المُشتعلة شيباً للتشاور بخصوصها قبل أن نعهد بقراءتها إلى الشابة النبيلة المتهوِّرة، الكونتييسة الحالية لقصر ساين.»

وضعت الشخصية المتهوِّرة المُشار إليها يدها بضربة حاسمة على المائدة، وصاحت بنبرة قاطعة قائلة:

«سيدي رئيس الأساقفة، سأقرأ تلك الخطابات غداً.»

وضع رئيس الأساقفة يده على يديها مرة أخرى، ولكن هذه المرة تشابكت يده بقوة بيدها. كان وجهه خالياً من أيِّ ابتسامة حين قال بنبرة رزينة:

«سيدتي، غداً ستواجهين ثلاثة رؤساء أساقفة على قيد الحياة، والذين ربما يكون

التعامل معهم أصعب من التعامل مع مَنْ صار تراباً.»

صاحت في اندهاش وقد أزعج عينيها الجميلتين بعضُ التوجُّسِ قائلة: «ثلاثة!» رئيساً أساقفة ماينتس، وتريفيس، وسيادتك؟ هل سيأتون إلى هنا؟
«سيُعقد اجتماعٌ سرِّي لرؤساء الأساقفة في قلعة ستولزينفلز، مقرُّ أخي رئيس أساقفة تريفيس على نهر الراين.»
«ما سبب انعقاد هذا الاجتماع؟»

«هذا سيُشرحه لك، يا هيلديجوندي، سموهُ رئيس أساقفة ماينتس. لم أكن أنوي التحدُّث عن هذا حتى وقتٍ لاحق؛ ولذا سأقول فقط لا داعي للخوف. ونظرًا لأنني الوصيُّ عليك، فأنا مُرسَل لمرافقتك إلى ستولزينفلز، ونظرًا لأننا سنُسافر معًا أود أن أطرح عليك بعض الاقتراحات التي ربما تُفيدك أثناء عقد الاجتماع.»
«سأتبع بإخلاص أيَّ نصيحة تُسديها إليَّ، يا سيدي.»

«أنا متأكد من ذلك، يا هيلديجوندي، ويجب أن تتذكَّري أنني أتحدَّث باعتباري وصيًا، لا مُستشارًا للدولة. ستكون ملاحظاتِي اقتراحات لا أوامر. كما تلاحظين، لقد عكسنا أدارنا مع سلفي والكونتييسة ماتيلدا. كانت هي دومًا مَنْ يُقدِّم النصيحة، التي كان يَقبلها هو باستمرار. الآن، يجب أن ألعب دور الناصح؛ ولذا سنُبَدِّل أنا وأنتِ الأدوار التي لعبها رئيس أساقفة كولونيا السابق وكونتييسة فون ساين الراحلة، التي يُؤسفني أن أشير إلى أنك نسيتهَا تمامًا بإعلاني السابق لأوانه بخصوص زيارة رؤساء الأساقفة الثلاثة الأحياء.»

«أوه، كلاً على الإطلاق، كلاً على الإطلاق! ما زلت أفكِّر في هذين الاثنين. هلا تخبرني بكلِّ ما تعرفُهُ عنهما؟»

«أنا لا أعرف الكثير. وعلى الرغم من أنني عجزت عن تكوين صورة كاملة عن صداقتهما بسبب عدم وجود خطابات رئيس الأساقفة، فإنه مع ذلك دوَّن ملاحظات من وقتٍ لآخر عن المراسلات التي تلقَّاها من الكونتييسة. وعلى مدار الخطابات، وُضع صليب بجوار فقرات مُعيَّنة، كما لو أنها علامة لإعادة قراءتها بتمعُّن، وهذه الفقرات مكتوبة بدقة بالغة وعذوبة شديدة. إلا أنني سأتطرق هنا إلى آخر وثيقة مهمة، الوثيقة الوحيدة التي جرى الاحتفاظ بنسخة منها، والمكتوبة بخط يد رئيس الأساقفة بنفسه.

في عام ١٢٥٠، تنازلت له كونتييسة فون ساين عن بلدة لينتس الواقعة على نهر الراين. ويبدو أن بلدة لينتس كانت إقطاعية مُتمرِّدة ومُزعجة، احتفظ بها آل قلعة ساين بقوة السلاح. وعندما أصبحت في حوزة رئيس الأساقفة، انفجر سكان البلدة الحَمْقى،

مُتذكِّرين أن كولونيا تَبُعدُ عنهم بمسافة طويلة على طول النهر مقارنةً برحلة قصيرة أعلى النهر إلى ساين، في ثورة كبيرة. أرسل رئيس الأساقفة جيشه، وكبح هذه الثورة بفعالية كبيرة، مُوقِّعاً عقوبةً شديدة على المتمردين. وعاد من هذه البلدة المهزومة إلى مدينته كولونيا، وأُصيب بمرض، سواء أكان بسبب الحملة القصيرة أم لأسباب أخرى، ثم تُوفي بعد فترة وجيزة.

عُيِّن رئيس الأساقفة الجديد، ومرَّ عامان تقريباً، على حدِّ علمي، قبل أن تُطالب الكونتيسة ماتيلدا بأنه ينبغي إعادة بلدة لينتس إلى دائرة ولايتها مرةً أخرى، مُصرِّحة بأن هذا الاسترداد وعدّها به رئيس الأساقفة الراحل. إلا أن خليفته شكَّ في هذا الطلب. وقال إنَّ لديه سنداً للهبة وتسليم بلدة لينتس إلى سلفه، وهذه الوثيقة كانت محدّدة بالدرجة الكافية، وإذا كانت نية رئيس الأساقفة الراحل إعادة البلدة إلى آل قصر ساين، فلا شك أن الكونتيسة لديها وثيقة بهذا المضمون، وفي هذه الحالة فإنه يود أن يعرف فحواها.

ردّت الكونتيسة بأن ثمة تفاهماً كان بينها وبين رئيس الأساقفة الراحل بخصوص إخضاع بلدة لينتس وإعادتها لها بعد قمع المُتمرّدين. وأضافت أنها لم تشكَّ بأنه كان سيفي بالجزئية الخاصة به من الاتفاقية، لولا وفاته المفاجئة. ورغم ذلك، قالت إنَّ لديها وثيقة، مكتوبة بخط يد الراحل، تُحدّد شروط اتفاقيتهما، وإنها سترسل نسخة منها.

قال رئيس الأساقفة الماكر، دون أن يُبدي الشك في صحة هذه النسخة، إن التصرف بناءً عليها بالطبع ليس قانونياً. يجب أن يحصل على الوثيقة الأصلية. وردّت ماتيلدا، بدهاء شديد، بأنها من جانبها لا يُمكنها التخلي عن حيازة الوثيقة الأصلية؛ لأن حقوق ملكيتها لبلدة لينتس تَسْتندُ عليها. ومع ذلك، ستعرض هذه الوثيقة على أيّ لجنة كنسية ربما يُعيّنها مراسلها، وينبغي أن يكون أعضاء اللجنة المختارة رجالاً على معرفة جيدة بخط رئيس الأساقفة الراحل وتوقيعه. وردّاً عليها، اعتذر رئيس الأساقفة عن عدم قدرته على قبول اقتراحها. واتفق أهل كولونيا، إيماناً منهم بأن حاكمهم حصل على بلدة لينتس عن استحقاق، على الدفاع عن أرضهم من خلال خوض معركة. ومن ثم، يكونون قد اشتروا البلدة بدمائهم، إذا جاز لنا التعبير، وبالتأكيد، هذه تضحية مؤسفة بالحياة، وستكون مغامرة خطيرة أن يتخلّوا عن البلدة ما لم تُقدّم أدلة وثائقية توضّح أن الأسقف الراحل أبرم هذه الصفقة.

ولكن قبل المضيّ قدماً أكثر في هذا الأمر، سأل الكونتيسة ما إذا كانت على استعداد لأداء القسم بأن النسخة المُرسلة إليه هي نسخة كاملة وحقيقية من الأصل. هل كانت تحتوي على كل كلمة كتبها رئيس الأساقفة الراحل في ذلك الخطاب؟

لم تردّ الكونتيسة على هذا، وتخلّت عن أيّ أحقية لها فيما يتعلق ببلدة لينتس.»
صاحت الفتاة بنبرة ساخطة: «أظنّ أنّ جدتي كانت على حق، رافضة بذلك استمرار التواصل مع رجل الكنيسة الدنيء هذا الذي تجرّأ على الطعن في صدقها.»
ابتسم رئيس الأساقفة من اندفاعها.

«لن أحاول الدفاع عن سلفي الماكر. لنفترض أنّ رُوح الطمع سيطرت على جسده الفاني، ولكن ما قولك إذا كانت تلميحاته بخصوص صدق الكونتيسة ماتيلدا لها مبرراتها؟»

«هل تقصد أنّ النسخة التي أرسلتها من خطاب رئيس الأساقفة كانت مُزيّفة؟ لا يُمكنني تصديق ذلك.»

«ليست مزيّفة. بدا أنّ نسختها كانت مثالية الصياغة. رغم أنها تغاضّت عن إضافة جملة أخيرة وأثّرت عدم الإعلان عنها؛ ومن ثمّ التخلي عن حقها في المطالبة بملكية عظيمة. أما بخصوص مراسلات رئيس الأساقفة معها فقد بقيت في سجلاتنا نسخة من هذه الرسالة الأخيرة المكتوبة بخط يده. ولا يُمكنني تخيّل لماذا أضاف هاتين الجملتين الأخيرتين لما بدا أنه إحدى المراسلات المهمة. ربما يكون الهاجس الذي عبّر عنه جعل أفكاره تتطرق لأمر لا صلة لها بهذا العالم، ولكن لا شكّ أنه اعتقد بأنه سيعيش طويلاً بما يكفي لقمع المُتمرّدين في لينتس، وإعادة ملكيتها إلى الكونتيسة. وهذا ما كتبه ورفضت هي نشره:

ماتيلدا، أشعر بأنّ أيامي معدودات، وأنها باتت قليلة جدّاً. بالنسبة إلى العالم أجمعه، تبدو حياتي ناجحة وتتخطّى ما يتمنّاه الإنسان الفاني، ولكنها بالنسبة إليّ كانت فشلاً ذريعاً؛ إذ رحلت عنها كرئيس أساقفة كولونيا الأعزب، وأنتِ كونتيسة فون ساين العانس.»

الفصل السادس

السر المخفي عن الكونتيسة

ثمة أماكن قليلة مُميّزة تشغلها المياه الزرقاء والمروج الخضراء تزداد روعة بشروق الشمس في صباح يوم من أيام فترة مُنتصف الصيف تتفوّق في جمالها على جمال ذلك الجزء من نهر الراين القريب من كوبلنتز، وأثناء خُروج موكبنا الصغير من وادي ساينباخ، أعجب جميع أفراد الموكب بجمال الريف المنبسط عبر نهر الراين، الآخذ في النضوج والتحوّل إلى محصول أصفر مغمورٍ بالأشعة الذهبية للشمس المُشرقة.

حاد طريقُهم إلى اليسار عند سفح التلال الشرقية، ولكنهم لم يصلوا بعدُ على طول حافة النهر العظيم. ولكن بالتدريج أثناء ارتحالهم في اتجاه الجنوب، انعطفت بهم المناطق الجبلية غربًا حتى بقيا في النهاية مساحة ضيقة من الطريق بين الصخور والمياه. كان الظل يُصاحبهم دومًا، وهي ميزة مريحة لرحلة في فترة منتصف الصيف، ولكن سرعان ما فقدوا هذه الميزة حين عبروا نهر الراين بالمعدية إلى مدينة كوبلنتز. كانت المسافة من قلعة ساين إلى قصر ستولزينفلز أقل من أربعة فراسخ بقليل؛ ومن ثم البداية المبكرة للرحلة جعلتها ممتعة.

سار رئيس الأساقفة والكونتيسة بفريسهما جنبًا إلى جنب. تبعهما على بُعد مسافة قصيرة الأب أمبروز، وهو غارقٌ في تأملاته، غير مُنتبه إلى الجواد الذي يمتطيه، الذي هو بالتأكيد حيوان مُخلص، يَعرف الطريق على نحو أفضل من فارسه. وجاء في المؤخرة ستة جنود مُمتطين جيادهم ومسّحين بالحراش، اثنان يتبعهما اثنان، وكان هذا هو الموكب الصغير المرافق لشخص تحت إمرته ألوف مؤلفة من الرجال المسحلين.

قالت الكونتيسة: «كم هو مشهد رائع ويسوده السلام!» وتابعت: «وما أجمل حقول سنابل القمح المتمايلة؛ ولونها يُخففه اللون الأخضر العميق لكروم العنب المتناثرة هنا

وهناك، والمياه الصافية دون أيّ أمواج، وكأنها بحيرة راكدة، لا نهراً عاصفاً! يبدو كأن الغضب والخلاف والنزاع لا يمكن أن يُوجدوا في عالمٍ مبهج كهذا.»

علّق رئيس الأساقفة بنبرة رصينة قائلاً: «يبدو» هذه هي الكلمة التي يجب استخدامها، ولكن الهدوء المتواصل للنهر الذي تُكَنِّن له إعجاباً شديداً ما هو إلا سلام ينمُّ عن الهزيمة. أفضل أن أرى فيضانه وقد عكّر صفوه الزوارق المتحرّكة والحركة المضطربة للتجارة. إنه السلام الذي يعني الجوع والموت لعاصمتنا، وبالتأكيد، وإن كان بدرجة أقل، لمدينتي كولونيا، وكذلك لمدينة كوبلنتز، التي نَقُرت من أبوابها.»

قالت الفتاة بإصرار: «ولكن بالتأكيد الوضع أخذ في التحسُّن؛ إذ أسافر أنا وأنت في حماية حَفنة من الرجال وحسب دون أن يتعرَّض لنا أحد. كان هناك وقت لا يسافر فيه أيُّ رئيس أساقفة عظيم وثري إلى الخارج إلا وفي موكبه ما لا يقل عن ألف رجل.»

ابتسم رئيس الأساقفة.

وقال: «أعتقد أن الأمور تتغيَّر مع تقدُّم المجتمع. عدد أفراد موكبي لا يتحدَّد وفقاً لتواضعي؛ وإنما يُحدِّده مجلس الأساقفة. رئيس أساقفة ماينتس يُسافر عبر نهر الراين، ورئيس أساقفة تريفيس يُسافر عبر نهر موزيل، وكلُّ منهما في رِكابه موكب مماثل.»

«سيدي، أنت مُتشائم في هذا الصباح العليل، ولن تعترف حتى بأن الدنيا جميلة.»

«الأمر كله يَعتمد على وجهة النظر، يا هيلديجوندي. أنا أنظر إلى الدنيا بعيني شخص في أرذل العمر، بينما أنتِ تَنظُرِينَ إليها بعينين وريدتين لفتاة في مُقْتَبَل العمر، وجهتا النظر المُختلفتان تماماً لرجل عجوز وفتاة شابة.»

«هذا هراء، أيها الوصي، أنت لست رجلاً عجوزاً. ورغم ذلك، أنا مُحَبطة جداً تجاه موقفك هذا الصباح. كنتُ أتوقَّع منك أن تمدحني.»

«ألا يُعبِّر سلوكي بأكمله عن المدح؟»

«أها، ولكنِّي أتوقَّع مديحاً معيناً اليوم!»

«ما الذي أغفلته؟»

«لقد أغفلت حقيقة إثارتك اهتمامي الشديد أمس بخصوص الرحلة التي نقطعها معاً الآن، والاجتماع الذي يتبعها. ورغم القلق الشديد لمعرفة ما الذي ينتظرني لم أطرح عليك سؤالاً واحداً، ولم أُلح حتى للموضوع حتى هذه اللحظة. والآن، أظن أنه ينبغي مكافأتي على التزامي الصمت.»

«أجل، أيتها الكونتيسة، أنتِ استثناء بين النساء، أنا فقط أمتنع عن التعبير عن المديح المُستحق عن جدارة حتى يأتي الوقت الذي أستطيع فيه فتح الموضوع الذي يشغل بالك منذ أن تركنا القلعة. ونظرًا لشعوري بالإحراج كرجل، لم أكن أعرف كيف أبدأ الموضوع حتى طرحتِ أنتِ بلُطف الطريقة.»

«ربما، في النهاية، أقوم بادعاء كاذب، لأنني خمنتُ سرَّك؛ ومن ثمَّ من المفترض أن يكون هذا اهتمامي الشديد.»

تساءل رئيس الأساقفة، وقد اعترى وجهه بعض القلق، قائلاً: «خمنتِ؟»

«أجل. قصتكَ عن رئيس الأساقفة السابق والكونتيسة ماتيلدا أوعزت إليَّ بفكرةٍ لحل اللغز. لقد اكتشفت وثيقةً تُثبت ملكيتي لبلدة لينتس الواقعة على نهر الراين.»

أوماً رئيس الأساقفة برأسه، ولكن لم ينبس ببنت شفة.

«إحساسك بالعدالة يحثُّك على تصحيح الأوضاع، ولكن مرور مثل هذه الفترة الطويلة على طلبي تجعله طلباً غير شرعي بلا شك، وأنت لا تعرف تماماً كيفية تنفيذ عملية الاستعادة. أظن أنك تشاورت مع أحد زميليك، رئيس أساقفة ماينتس أو تريفيس، أو ربما كليهما. لقد اعترضاً على كرمك المُقترح، وطرحا الحجة بأنك لست سوى وصيٍّ مؤقتٍ على أسقفية كولونيا؛ وأنه يجب عليك الحفاظ على حقوق خليفتك؛ وهذه الحقيقة البديهية لن يسعها إلا مناشدة حسَّ العدالة الذي يُميزك؛ ومن ثمَّ جرت الدعوة لعقد اجتماع الأساقفة، والغالبية في ذلك المجلس ستقرر ما إذا كانت بلدة لينتس ستعود إليَّ أم لا. وربما، سيُجري تقديم اقتراح بأن أترك الأوضاع كما هي عليه، وفي هذه الحالة سأرفض قبول بلدة لينتس. الآن، أيها الوصيُّ، إلى أي مدى اقتربت من حل اللغز؟»

سارا معاً في صمت، كان رئيس الأساقفة يتفكّر في معضلة تنويرها بمزيد من المعلومات. وفي النهاية قال:

«كولونيا تخضع لحكم رئيس الأساقفة الخاص بها، بحكمة أو بغير ذلك حسبما يقتضيه الحال. ورئيس الأساقفة، بقدر ما يحترم رأي زميليه الكريمين، لن يُعرضهما أبداً لمأزق اتخاذ قرار بشأن مسألة لا تخصهما. ومصير لينتس تحدّد عندما اقتنعتُ بخطاب سَلْفي، أسقف عام ١٢٥٠ ميلادياً، بأن هذه المدينة الواقعة على نهر الراين تخصُّ آل بيت ساين. لقد نُفذت عملية الاستعادة بالفعل بشكلها القانوني، وحين تمر الكونتيسة هيلديجوندي عبر لينتس، فإنها ستمرُّ عبر مدينتها.»

«لن أقبل ذلك مُطلقاً، مُطلقاً، أيها الوصي.»

«إنها ملك الآن، أيتها الكونتيسة. إذا كنت لا ترغبين في الاحتفاظ بالمدينة، استغلّيها كهدية للرجل المحظوظ الذي ستزوّجين منه. والآن، يا هيلديجوندي، يجب أن أُسدي إليك النصيحة المؤجلة التي أودُّ أن ألفت انتباهك إليها؛ نظراً لأننا نقترّب من المعديّة التي ستأخذنا إلى مدينة كوبلنتز، وربما نحظى برفقة في المسافة بين تلك المدينة وقصر ستولزينفلز. فمن رؤساء الأساقفة الثلاثة الذين ستقابلينهم اليوم، هناك واحد فقط يجب أن تُركّزي عليه.»

صاحت الفتاة قائلة: «أوه، أعرف ذلك، إنه نيافة رئيس أساقفة كولونيا!»

ابتسم رئيس الأساقفة، ولكنه استطرد بجديّة قائلاً:

«حين يجتمع رجلان أو ثلاثة معاً، لا بدّ أن يكون أحدهم القائد. في حالتنا، قائد الثلاثي المفترض أن يكونوا سواسية هو سمو رئيس أساقفة ماينتس. أظاهر أنا ورئيس أساقفة تريفييس بأننا لسنا تحت إمرته؛ ولكننا كذلك؛ بمعنى، رئيس أساقفة تريفييس يعتقد أنني تحت إمرته، وأنا أعتقد أن رئيس أساقفة تريفييس تحت إمرته؛ ومن ثمّ حين يتفق أحدنا مع رئيس أساقفة ماينتس، فهذا يعني وجود أغلبية في المجلس، ويكون العضو الثالث مغلوباً على أمره.»

«ولكن لماذا لا تتفق أنت ورئيس أساقفة تريفييس معاً؟»

«لأنّ كلّاً منا يعتقد أن الآخر جبان، ولا شك أننا نحن الاثنين على حق. مربط الفرس هو أن رئيس أساقفة ماينتس هو الرجل الحديدي للمجموعة؛ ولذا أرجوكم أن تحذري منه، كما أوصيك بأن توافقني على العرض الذي سيقدّمه إليك. إنه سيكون ذا فائدة بالغة بالنسبة إليك.»

«في تلك الحالة، يا سيدي، كيف لي أن أرفض؟»

«أتمنى ألا تفعل، يا صغيرتي، ولكن إذا كان ينبغي عليك الاعتراض، اعترض بكلّ ما تملكين من لباقة. والأفضل أن تمتنعي تماماً عن الاعتراض إذا أمكنك، واطلبي وقتاً للتفكير، بحيث يمكننا أنا وأنت أن نتشاور معاً؛ ومن ثمّ تُتيح لي فرصة تقديم حجج ربما تؤثر على قرارك.»

«وصيّ العزيز، أنت تخيفني بطريقة حديثك المقلقة. ما الاختيار المصيري الذي

بانتظار؟»

«لا أريد إخافتك، يا بُنيّتي، وبالتأكيد، لا أتوقّع خلافاً في هذا الاجتماع. أردت فقط أن تفهمي شيئاً بخصوص رئيس أساقفة ماينتس. هو رجل ربما تقود مُعارضته إلى

الهلاك؛ ونظرًا لأنه رجل اعتاد أن يسحق مَنْ يُخالفه الرأي، بدلًا من الانتصار عليه بطرق دبلوماسية أكثر، فأنا قلق من أن تَبْدِين على أيِّ نحوٍ وكأنَّكَ تُخالفين ما يُريد. وبالاتفاق بيني وبين رئيس أساقفة ماينتس ورئيس أساقفة ترينيس، غير مسموح لي أن أفصح لك عن المسألة ذات الصلة. ولعلَّني أشدُّ على نقطة الاتفاق في الرأي هذه قليلًا حين أحاول تحذيرك. إذا أردتِ بضع دقائق للتفكير، في أيِّ مرحلة من مراحل النقاش، فانظري لي عبر الطاولة، وسأَتَدخُل على الفور وأقاطع الحديث بشيء يحتاج للتشاور مع الأعضاء الثلاثة للمجلس. بالطبع، سأفعل كلَّ ما بوسعي لأحميك إذا ما فقد صديقنا المقيت، رئيس أساقفة ماينتس، أعصابه، كما هو متوقَّع أن يحدث إذا عارضته.»

«ولماذا من المرجَّح أن أعارضه؟»

«لماذا؟! أنا لا أرى أيَّ أسباب. أنا رجل عجوز وحسب، وربما أبالغ في حذري. ما أسعى إليه هو درءُ أيِّ أزمة، والتي أَمَلُ ألا تحدث مطلقًا.»

«أيها الوصيُّ، لديَّ سؤال واحد أودُّ طرحه، وهذا سيَحسم المسألة هنا على حدود نهر الراين، قبل أن نصل إلى قلعة ستولزينفلز. هل تُوافق تمامًا، بقلبك وعقلك وضميرك، على العرض المقدم إليَّ؟»

رد رئيس الأساقفة بنبرة اقتناع لا يستطيع أحد إنكارها: «أوافق.» وأضاف: «أوافق بقلبي وروحي.»

«إذن، أيها الوصيُّ، الأزمة التي تخشى وقوعها لن تحدث. سأخبر نيافة رئيس أساقفة ماينتس، بأعذب نبرات صوتي وأجمل أساليبي، بأنَّني سأفعل كلَّ ما يطلبه مني.»

هنا توقَّف الحوار؛ فقد حلَّ محل الخلوة بين الاثنين مشهد يعجُّ بالنشاط؛ إذ وصلا إلى المرسى الذي بجواره يُوجد الجسر العائم، وكانت هناك معدية ضخمة، قادرة على حمل جماعتهما بأكملها في رحلة واحدة. اجتمع عدة مئات من الأشخاص، على ظهور الخيل أو سيرًا على الأقدام، على طول ضفة النهر، وارتفع الهتاف حين ظهر رئيس الأساقفة. ظنَّت الكونتيسة أنهم انتظروا لتحيتته، إلا أنهم كانوا مجرد مُسافرين أو تجار وجدوا رحلتهم توقَّفت في ذلك الوقت. أمر مبعوث من طرف رئيس الأساقفة المعدية أن تبقى في مرساها في الناحية الشرقية حتى يصعد نيافته على متنه. وحين ركب الموكب الرفيع، ألقى الطاقم على الفور مراسيهم وتمايلت المعدية المربوطة بفعل التيار السريع، وتأرجحت برفق باتجاه الشاطئ المقابل.

استقبلهم حشد كبير من الناس لدى وصولهم إلى مدينة كوبلنتز، وإذا كانت الصيحات الصاخبة والهتاف التشجيعي دلالة على الشعبية، فلا بدَّ أن رئيس الأساقفة لديه سبب قوي ليُهنئ نفسه على هذا الاستقبال. أوماً رئيس الأساقفة وابتسم، ولكنه لم يتوقَّف في مدينة كوبلنتز، وواصلَ طريقه على طول نهر الراين، الأمر الذي أصاب الحشد بخيبة أمل واضحة. وحين ابتعد الموكب الصغير عن الحشد، قالت الكونتيسة:

«لم يكن لديَّ أدنى فكرة بأن مدينة كوبلنتز تحتوي على عدد كبير جدًّا من السكان.»
رد رئيس الأساقفة قائلاً: «ولا أنا.»

«إذن، أهذا مجرد تدفُّق حشود من المدينة، أم هل اجتماع الأساقفة له من الأهمية ما يجتذب الكثير من المتفرجين؟»

«الاجتماع الذي يعقده رؤساء الأساقفة في هذه المناسبة مُهم جدًّا. رغم ذلك، أشك أن هؤلاء ليسوا مُتفرجين؛ لأن الناس لا يعلمون أننا سنجتمع اليوم. أظن أن مَنْ هلّلوا الآن على نحوٍ مُفعم بالحيوية هم رجال رئيس أساقفة تريفيس.»
«أتقصد جنودًا؟»

«أجل. جنود في زيِّ السكان المدنيين، ولكنني أجزؤ على القول إنهم جميعًا يعرفون طريق أسلحتهم إذا ما علّت صيحات الحرب.»
«هل تُلَمِّح إلى أن رئيس أساقفة تريفيس قد خرق اتفاقيته؟ فهمتُ أن موكبك مقتصر على العدد الضئيل من الرجال الذين يتبعونك.»
ضحك نيافته.

ثم قال: «رئيس أساقفة تريفيس ليس رجلًا بارعًا في التخطيط، ورغم ذلك أظن أنه على استعداد للاستيلاء على مدينة كوبلنتز في حالة حدوث مشكلة.»
«وما المشكلة التي يمكن أن تحدث؟»

«للحظة الحالية حُرْجة بعض الشيء؛ لأن الإمبراطور يُحتَضَر في فرانكفورت. ونحن الأمراء المُنتخبين الثلاثة نتمنى أن نتجنَّب الفوضى من خلال وضع بعض الخطط والعمل وفقًا لها على وجه السرعة. ولكن الساعات الفاصلة بين وفاة الإمبراطور وتعيين خليفته يُغلِّفها عدم اليقين. أظن أن الأخوات الصالحات في نونينویرث علَّمنكِ كلَّ ما يخص انتخاب الإمبراطور؟»

«بالتأكيد، أيها الوصي، يُؤسفني أن أعترف بأنهن فعلن، ولكنني قد نسيت كل شيء.»
«هناك سبعة أمراء مُنتخبين؛ أربعة نبلاء رفيعو المستوى من الإمبراطورية وثلاثة رؤساء أساقفة، اللوردات الدنيويون واللوردات الرُّوحانيون. كونت بالاتين الراين الحالي،

مثله مثل صديقي رئيس أساقفة تريفيس، خاضعُ تمامًا لنيافة رئيس أساقفة ماينتس؛ ومن ثمَّ اللوردات الرُّوحانيون الثلاثة، إلى جانب كونت بالاتين الراين، يُمثِّلون أغلبية المجلس الانتخابي.»

«فهمت. والآن، أظن أنكم تَجتمعون في ستولزينفلز لاختيار إمبراطورنا المُستقبلي.»
«كلا؛ لقد اختير بالفعل، لكن اسمه لن يُعلن أمام أيِّ أحد سوى شخص واحد قبل أن يموت الإمبراطور.»

«بالتأكيد، هذا الشخص هو كونت بالاتين الراين.»
«كلا، أيتها الكونتيسة، ليس هو هذا الشخص المقصود؛ وأحذرك، سيدتي، من استجابي بطريقة غير مباشرة. يجب أن تكوني رحيمة؛ فأنا مثل الصلصال في يديك، ورغم ذلك ثَمَّة معلومات مُعينة يُحظر عليَّ الإفصاح عنها؛ ولذا سأكتفي بالقول إنه إذا تصادف وكان رئيس الأساقفة في حالة مزاجية جيدة بعد ظُهر هذا اليوم، فمن المحتمل جدًا أن يُخبرك بمن سيكون الإمبراطور المُستقبلي.»
بدأت الفتاة متعجبة.

«يُخبرني أنا؟ ولماذا يفعل ذلك؟»
«قلتُ إنني لن أخضع لمزيد من الاستجابات. أخشى أن أكون قد أفشيت الآن ما لا ينبغي عليَّ البوح به؛ ومن ثمَّ سَنُغيِّر الموضوع لموضوع ذي أهمية قصوى؛ ألا وهو وجبة منتصف النهار. أنوي أن نتوقَّف في كوبلنتز لتناول تلك الوجبة، ولكن رئيس أساقفة تريفيس، الذي سنحلُّ عليه ضيوفاً، كان كريماً بما يكفي لقبول قائمة الطعام التي اقترحتها؛ ولذا سنجلس معه على المائدة.»
«لقد اقترحت قائمة طعام؟»

«أجل؛ أتمنَّى أن تنال إعجابك. يوجد بعض أسماك سلمون نهر الراين الممتازة، بالإضافة إلى مرقٍ شهير في تريفيس؛ مرقٌ يحظى باحتفاء شديد منذ قرون. بعد ذلك، لحم غزال شهير من الغابة الموجودة خلف قصر ستولزينفلز، والمشهورة بغزلانها. بالإضافة إلى ذلك، يوجد كعكٌ ومخبوزات متنوعة، وكذلك خضراوات، وجميعها سيقدِّم معها نبيذ أوبرفيزل اللذيذ. إلى أيِّ مدى تُعجبك قائمة طعامي، أيتها الكونتيسة؟»

«إنني أحفظُها في ذاكرتي، أيها الوصيُّ، لكي أعرف ماذا أَعُدُّ لك في زيارتك التالية لقصر ساين.»

«أوه، هذه المأدبة ليست على شرفي؛ وإنما على شرفك. أخشى أنك ربما تَعترضين على بساطتها. ووفقاً للسجلات التاريخية، هذه الوجبة استمتعت بها شابة قبل بضعة قرون،

في قصر ستولزينفلز هذا، بعد الانتهاء من بنائه بفترة وجيزة. وأظنُّ أنه من المحتمل أنها كانت أول ضيفة من النبلاء تنزل بهذا القصر المنيف. لقد بُني قصر ستولزينفلز على يد أرنولد فون إيزنبرج، أعظم رئيس أساقفة حَكَمَ تريفيس، إذا استثنيت الأسقف بالدوين، المقاتل. أصرَّ إيزنبرج أن يكون له حصن على نهر الراين في مُنتَصَف الطريق بين ماينتس وكولونيا، وجعله قصرًا وحصنًا كذلك، وقضى في بنائه كلَّ ما احتاجه من وقت — سبعة عشر عامًا. وقد بدأ بناءه في عام ١٢٤٢، ومن ثم بُني في نفس الوقت الذي تنازلت فيه جدُّك ماتيلدا عن لينتس لرئيس أساقفة كولونيا؛ ومن ثمَّ أرى أن رئيس أساقفة كولونيا تمنَّى على الأرجح أن يكون له حصن على مقربة من القلعة الجديدة لرئيس أساقفة تريفيس.

وكان من بين الأوائل الذين زاروا قصر ستولزينفلز شابة إنجليزية ساحرة، تُدعى إيزابيلا، كانت أصغر بنات الملك جون؛ ملك إنجلترا. ولا شك أنها جاءت إلى هنا مع مجموعة مهيبة من المرافقين، وأظنُّ أن قلعة الأسقف العظيم شهدت مواكب واحتفالات؛ حيث إنَّ المؤرخ، بعد أن أدرج قائمة الطعام التي أتمنَّى أن تجربها اليوم، أضاف:

«لقد تناولوا طعامًا جيدًا، وشرابًا رائعًا، ورقصت الفتاة الملكية كثيرًا».

بعد ذلك اعتلى أخوها العرش الإنجليزي. كان الملك هنري الثالث، وبالطبع أولى أخته الراقصة هنا اهتمامًا كثيرًا.»

«يا إلهي، أيها الوصيُّ، ما تقوله يجعلني أرى بنحو مختلف قصر ستولزينفلز العتيق. أنا لم أدخُل القصر مطلقًا، ولكني الآن سأستكشف أجزائه باستمتاع، وأتساءل عن القاعة التي رقصت فيها الأميرة الإنجليزية. لكن لماذا قطعت إيزابيلا كل هذه المسافة من إنجلترا إلى نهر الراين؟»

«جاءت لتلتقي برؤساء الأساقفة الثلاثة.»

«حقًا؟ لماذا؟»

«كي يُعلنوا خطبتها بصفتهم الكنسية، وبموجب السلطة الكنسية العُظمى.»

«يُعلنون في قصر ستولزينفلز خطبة أميرة إنجليزية، ابنة ملك وأخت ملك! إذن هل تزوجت من ألماني؟»

«أجل؛ تزوجت الإمبراطور، فريديريك الثاني؛ فريديريك هوهنشتاوفن.»

أدارت الفتاة رأسها ببطء، ونظرت إلى رئيس الأساقفة بثبات، الذي كان يُحدِّق بجدية في الطريق حتى يلمح القصر الذي كان مسرحًا للأحداث التي قصَّها. شحب وجهها، وظهر في عينيها نظرة تعجُّب مُتسائلة. ما الذي كان يقصده رئيس الأساقفة

بهذه الحكاية التاريخية الأخيرة؟ صحيح أنه رجل مُهتَمٌ كثيرًا بدراسة العالم القديم؛ وبالأحرى مولع بإظهار براعته في هذا الصدد حين يجد مستمعين صبورين. لكن هل يوجد مغزى خفي وراء قصته عن الأميرة الإنجليزية التي رقصت؟ هل يوجد أي تشابه خفي بين رحلة إيزابيلا الإنجليزية، والرحلة القصيرة التي تقوم بها هيلديجوندي من ساين هذا اليوم؟ كانت على وشك التحدُّث حين أصدر رئيس الأساقفة إشارة صغيرة بيده اليمنى، واندفع الفارس الذي كان يتبعهما على طول الطريق من كوبلنتز إلى جانب نيافته الذي قال بحدة للوافد الجديد:

«كم عدد رجال رئيس أساقفة تريفيس الموجودين في كوبلنتز؟»

«ثمانمائة وخمسون رجلًا، يا سيدي اللورد.»

«هل تكفي للاستيلاء على المدينة؟»

«كوبلنتز في حوزتهم بالفعل، يا سيدي اللورد.»

«يبدو أنهم غير مُسلَّحين.»

«أسلحتهم موجودة تحت حراسة مشددة في كنيسة سانت كاستور، ويُمكن أن تكون في أيدي الجنود في غضون بضع دقائق بإشارة من دقة أجراس كنيسة سانت كاستور.»

«هل يوجد أي جنود في كوبلنتز من ماينتس؟»

«كلا، يا سيدي اللورد.»

«كم عدد رجالي الواقفين خلف قصر ستولزينفلز؟»

«هناك ثلاثة آلاف مُختبئون في الغابة القريبة من قِمة التل.»

«كم عدد رجال رئيس أساقفة ماينتس المتاحين له؟»

«على ما يبدو نحو الستة رجال الذين وصلوا معه إلى قصر ستولزينفلز أمس.»

«هل أنت متأكَّد من ذلك؟»

«جرى إرسال مُرشدين عبر الغابة ناحية الجنوب، ولم يأتنا خبرُ حشود متقدِّمة. مجموعة أخرى من المرشدين ذهبَت أعلى النهر حتى حدود بينجن، ولكن كل شيء هادئ، ومن المستحيل على نيافته أن يُرسل عددًا كبيرًا من الرجال من أي مكان نحو قصر ستولزينفلز دون أن يعلم أحد جواسيسنا المائة بهذا التحرك.»

«إذن، لا شك أن رئيس أساقفة ماينتس يعتمد على تابعه الأمين رئيس أساقفة

تريفيس.»

«يبدو كذلك، يا سيدي.»

«شكرًا لك، هذا يكفي.»

حيّاه الفارس، واستدار بفرسه نحو الشمال، وانطلق مبتعدًا، وبعد مرور بضعة دقائق ظهر قصر ستولزينفلز على مرمى بصر الموكب الصغير، يقف في شموخ على تلّه المخروطي الشكل بجوار نهر الراين، على خلفية خضراء شكّلتها الغابات الجبلية الموجودة في الخلف.

هذه المحادثة التي لم تستطع هيلديجوندي أن تمنع نفسها عن سماعها، كانت أبعدت عن ذهنها تمامًا القصة الجميلة للأميرة الإنجليزية.
قالت: «رباه، أيها الوصي! يبدو أننا في خضمّ حرب أهلية وشيكة.»
ابتسم رئيس الأساقفة.

ورد قائلاً: «نحن في خضمّ سلام مضمون.»
«ماذا! رغم الاستيلاء عملياً على مدينة كوبلنتز، وثلاثة آلاف من رجالك مُتربصون في الغابة من فوقنا؟»

«أجل. لقد أخبرتك أن رئيس أساقفة تريفييس ليس رجلاً بارعاً في التخطيط. أظنّ أنه هو ورئيس أساقفة ماينتس يظنان أنه من خلال الاستيلاء على مدينة كوبلنتز فإنهما يُعيقان تراجعني إلى كولونيا. هما يعلمان تمامًا أنه لن يُجديّ بالنسبة إليّ الإبحار أعلى النهر في ظل وقوع أيّ أزمة، فأنا هكذا أبعد أكثر فأكثر عن قاعدتي التي يوجد بها رجالي وذخيرتي؛ ومن ثمّ أهمل رئيس أساقفة ماينتس وضع قوّات في ذلك المكان.»
«ولكنك، أيها الوصي، بالتأكيد مُحاصر، مع الاستيلاء على مدينة كوبلنتز، أليس كذلك؟»

«الأمر ليس كذلك، يا صغيرتي، وأنا تحت إمرتي ثلاثة آلاف رجل في مواجهة ثمانمائة رجل في الجانب الآخر.»

«ولكن هذا يعني نشوب معركة.»

«إنها معركة لن تحدث أبداً، يا هيلديجوندي؛ لأنني سأستولي على شيء أقيم من أيّ مدينة بكثير؛ ألا وهو رئيسا الأساقفة الاثنان. وحين يكون رئيسا أساقفة تريفييس وماينتس رهنً اعتقالي، وينقطعان عن الاتصال بقواتهما، فلن أخشى جيشاً بلا زعامة.
كما أن حجم القوات التي تحت إمرتي هو ضمانه للسلام.»

حينئذٍ كانا قد وصلا عند طريق التلال المتفرّع الذي يقود إلى بوابات قصر ستولزينفلز التي كانت فوقهما تمامًا، وتوقّفت المحادثة، ولكن كان مقدراً للكونتييسة أن تتذكّر الكلمات الأخيرة التي قالها رئيس أساقفة كولونيا بثقة شديدة قبل دخول المساء.

الفصل السابع

تمرد في البرية

في صبيحة أحد أيام شهر يوليو المبهجة وصل، حسب الاتفاق، الأمير رولاند مُترجلاً إلى ظلّ البرج الضخم، الذي يُعد اليوم آخر ما تبقي من قصر الأمير الناجب في هوكست، على رافد ماين. ووجد جريسيل هناك في انتظاره، وحده دون أي أحد من البقية. تبادل الاثنان التحية، وقال الأمير:

«جوزيف، لقد قررتُ منذ عدة أيام تعيينك نائباً لي في هذه المهمة.»

«أنصحك يا رولاند ألا تُقدِّم على فعل شيء كهذا.»

«لماذا؟»

«لأن الأمر سيبدو تفضيلاً لي، وسيُثير الغيرة بين الصفوف، وهو ما علينا تجنبه.»

«في رأيك، مَنْ هو الأنسب لتولي هذا المنصب؟»

«كونراد كورزبولد.»

«ماذا؟! ونُخاطر بتقسيم السلطة؟ فأنا عازم على تولي القيادة كما تعلم.»

«سيظل كورزبولد طُوع أمرك حتى وإن عيّنته مُساعدًا لك، شأنه شأن بقيتنا. إنه

شخص نشيط، ويُمكنك توجيه طاقته في المسار الصحيح. فبدلاً من كونه ناقداً سيُصبح

واحدًا ممَّن يُوجِّه لهم النقد، وهذا سيشغله. كما أن تعيينك له في هذا المنصب سيبيِّن له

أنك لا تحمِل أي ضغينة تجاهه بسبب ما قاله بالأمس.»

«يبدو، يا جريسيل، أنك تظنُّ أنه من واجب القائد السعي من أجل كسب ود أتباعه.»

«لا؛ ولكنني أرى أن اللباقة صفة مُهمة. فكما تعلم أنت لست جنرالاً لأحد الجيوش.

وَيُمكن لأفراد العصابة تنحيُّكَ متى شاءوا ليختاروا مَنْ يخلُفك، أو يُمكنهم التخلي عنك

ولن يُمكنك استدراك ذلك. فلا تتبع أسلوباً صارماً بل أسلوبَ رجلٍ يسعى لانتخابه لمنصب

رفيع.»

«أخشى أنني لست مؤهلًا لتأدية هذا الدور، يا جريسيل.»
«رولاند، إن أردت النجاح في المهمة التي اضطلعت بها، فعليك أن تتكيف مع الوضع الراهن كما هو بالفعل وليس كما تتمناه أنت. لقد وقفت في صفك مساء أمس ونجحت في إقناع الآخرين بفعل الشيء ذاته، ولكن لا أحد يُنكر أنك تحدّثت إلى هؤلاء الرجال بعجرفة غير مقبولة. عجبًا، لو كنت أحد ضباط الإمبراطور ذاته لما تصرفت بهذا الشكل. كنتُ أنصتُ لما تقوله وأقول في نفسي: «من أين أتى هذا الشاب بكل هذا القدر من التعالي؟» لقد تماديت حتى إنك أمرت كورزبولد بترك العصبة.»
«لماذا أيدتني، إذن؟»
«لأنني لم أرغب في رؤية مُغامرة سطو واعدة تفسد في مهدها، فقط لغياب بعض عبارات التهذؤة.»

ضحك رولاند بشدة. كان صباحًا باعثًا على الحماس وهو في مزاج جيد.
«يُمكن وصف كلماتك لكورزبولد بأي صفة باستثناء أنها كانت تُمثّل عبارات تهذؤة.»
«أعلم؛ فقد كنت مضطّرًا لسحقه. لقد كان السبب وراء تلك الجلبة؛ لذا لم أرحمه وكان عليه أن يتحمّل جزاء صنيعه. لكن الآخرين، ربما باستثناء جينسبين، رفاق يتسمون بالطيبة والصدق والصلاح، ولم أودّ رؤيتهم يقعون فريسة للتضليل. أرى أنه ينبغي عليك الإقلاع تمامًا عن فكرة العقاب، مهما كان قدر الإساءة الموجه إلى سلطتك.»
«حسنًا، أخبرني إذن كيف أتعامل عندما يحدث تمرّد؟»
«يجب أن تثق في مدى وعي بقية أفراد عُصبتك حتى تُصعّب الأمر على الشخص المخالف.»

«ولكن ماذا لو افترضنا أنهم ليس لديهم هذا الوعي؟»
«هز جريسيل كتفيه.
«أخشى أنك آنذاك لا حيلة لك. ولكن على أيّ حال لا طائل من الحديث عن الشنق أو تنفيذ أيّ عقوبة أخرى ما دُمت أنك لا تملك سلطة فعل ذلك. وهذا ما قصدته بتشبيه الجنرال الذي ذكرته؛ فالجنرال بإمكانه إصدار أوامر بشنق أيّ جندي في جيشه، وحينئذٍ يُؤخذ الرجل ليلقى مصيره شنقًا امتثالًا لأمر الجنرال، ولكن قرار تنفيذ حكم الإعدام على أحد أفراد العصبة يتطلب إدانته بتصويت أغلبية زملائه؛ لأنه حتى إذا حكمت أغلبية بسيطة على أحد المنتمين للأقلية فهذا يعني اندلاع حرب أهلية بيننا. فلنفترض على سبيل المثال أن هناك اقتراحًا بشنقك، وجاء تصويت أحد عشر فردًا لصالح إعدامك بينما عارض

تسعة أفراد هذا الاقتراح. هل تعتقد أننا نحن التسعة سنرضخ لهذا الحكم؟ كلاً، على الإطلاق. أنا نفسي رغم كوني أكثر الرجال تفضيلاً للحلول السلمية عندما ذكرت هذا الأمر شعرت بأنني يجب حينها أن أستلّ سيفي وأطيح بصاحب اقتراح الإعدام قبل أن تتسنى له فرصة إخراج سلاحه. بعبارة أخرى، كنت سأقتله درءاً للخلاف، وبعدها يُمكننا أن نتجادل كالرجال لتسوية الأمر.»

«جريسيل، لماذا لم تقل كل هذا ليلة أمس؟»

«ليلة أمس لم يكن لديّ هدف سوى حثّ كورزبولد على نسيان تهديدك للعصبة بشنق أحدهم. فلولا ذلك لما استطعت أبداً إجراء اقتراح الثقة. لكنك رأيت بالتأكيد كيف حرص بقية الرجال على دعمك حينما عُرض موقفك على نحو صحيح، وهو أمر، لسبب ما، ظننت أن فعله ينتقص منك.»

«عزيزي جوزيف، إنّ اللوم الهائل الذي أمطرتني به هذا الصباح كفيل بإبطال التصويت الذي حصلت عليه ليلة أمس.»

«عزيزي رولاند، أنا لا ألومك على الإطلاق؛ أنا فقط أحاول سرد الحقائق أمامك حتى تتمكن من استيعابها.»

«لا بأس، ولكن ما يُزعجني هو أن تلك الحقائق لم تُعلن في الوقت المناسب حتى أتخذ قراراً بتحمّل المسؤولية أو التملّص منها. لا أظنّ أن العمليات العسكرية الناجحة يمكن أن تنفذها مجموعة صغيرة من الأفراد الذين ينتمون لطائفة واحدة، يضطرّ رئيسها لتدليل أفرادها وطلب معذرتهم قبل أن يتفوّه بعبارة مثل: «فلتذهبوا إلى الجحيم!» لم أكن لأقبل بالقيادة ليلة أمس إن علمت بهذه الشروط.»

«حسنًا، لم يفت الأوان بعدّ على تراجعك. فالسفينة لن تغادر فرانكفورت قبل المساء، والعودة إلى هذه المدينة لا تتجاوز مسافة الفرسخين. وفي غضون نصف ساعة على الأكثر سيجتمع جميع رجال عصبتنا هنا. والآن هو الوقت الأمثل لمُصارحتهم بالأمر؛ لأنه عندما يحين صباح الغد لن يكون أمامك فرصة للانسحاب.»

«فات أوان ذلك، يا جريسيل، حتى الآن أيضًا. فإن كان قد عجز أفراد العصبة بالأمس عن جمع الأموال التي ندين بها لجوبل، فهل هناك أمل بأن تجد عملة نقدية واحدة في جيوبهم اليوم؟ وهل أفهم من ذلك أيضًا أنك ترفض أن تكون نائبًا لي؟»

«لا؛ ولكنني أذكرك أنها لن تكون خطوة صائبة. أنت واثق تمامًا من إخلاصي، وبصفتي جنديًا، كما وصفتني أنا ورفاقي ليلة أمس، أرى أنني هكذا سأكون قادرًا على الوقوف في صفك والحديث لصالح أكثر مما سيؤول إليه الحال وأنا مدين لك لترقيتك لي.»

«حسنًا فهمت. لهذا فأنت تنصحني باختيار كورزبولد، أليس كذلك؟»

«بلى.»

«ولم لا يكون جينسبين، الذي أعلن تمرُّده شأنه شأن كورزبولد؟»

«حسنًا، ليكن جينسبين إن كنت تفضُّله.»

«لقد أظهر عقلًا راجحًا ليلة أمس؛ فقد كان في أحد الجانبين حينًا وفي الآخر حينًا.»

«يا قائدي العزيز، لقد كُنَّا جميعًا ضدك ليلة أمس عندما تحدّثت عن الشنق، بل

وقبلها عندما ذكرت أمر الطرد من العصابة.»

«نعم أفترض أنكم كنتم كذلك، وجرت الأمور كما ذكرتها تمامًا، ولديكم مبرراتكم

بلا شك. ولكن أيعني ذلك أنني إن أصدرتُ أمرًا فربما أجد مَنْ يمتثل له ومن يعصيه،

وفقًا لأهوائكم في تلك اللحظة، هذا احتمال مُشجّع لم أتوقَّعه. فعندما عاهدني عشرون

رجلًا بأنهم سيُنفِّذون بأمانة كلَّ ما تعهدت به نيابةً عنهم، كنت أتوقَّع منهم أن يلتزموا

بهذا العهد.»

«رولاند، أرى أنك لست مُنصفًا. لم يرفض أحد، وربما لن يفعل ذلك أحد. وإن عصى

أحدهم أمرًا فيمكنك التصرُّف كما يحلو لك، لكن أتمنّى أن تدرك تمامًا ضعف موقفك

عند حديثك عن العقوبة القاسية.»

أجابه رولاند باقتضاب: «حسنًا، حسنًا.» وشبك يديه خلف ظهره، ودون أن ينبس

ببنت شفة أخذ يذرع ضفة النهر جيئةً وذهابًا محنيًا رأسه في تفكير عميق.

كان إبرهارد هو الوافد التالي، وحيًا جريسيل بحرارة، وبعدها توافد باقي أفراد

العصابة واحدًا تلو الآخر واجتمعوا في موقع المهمة. لم يُلْقِ رولاند التحية على الوافدين

الجدد وواصل سيره التأملّي.

وأخيرًا دقّ جرس البرج تسع دقات بطيئة رنانة متتالية، ورفع رولاند رأسه وتوقّف

عن تسكُّعه. وكان جريسيل يتفحصه بقلق عندما أتى باتجاه الجماعة، لكنه لم يستوضح

من ملامحه ما إذا كان عازمًا على استكمال المهمة أم أنه قرّر الانسحاب.

سأل رولاند: «هل أتى الجميع؟»

جاءه الرد: «لا؛ لم يصل كورزبولد وإيزلبرت وراسلشتاين وجينسبين بعد.»

لم يظهر على ملامح القائد أيُّ استياء نظرًا لعدم التزامهم بالموعد، وقال: «إن

سننتظرهم بضع دقائق أخرى»، ومن هذا، افترض جريسيل أنه لم يكن ينوي فقط

استكمال المهمة، بل وإنه أخذ تحذيره له على محمل الجد. سار إبرهارد وأحد رفاقه

سريعًا باتجاه فرانكفورت، أملًا أن يَلْمَحُوا المتأخرين، بينما استكمل رولاند سيره بجانب النهر. وفي نهاية المطاف عاد إبراهيماد ورفيقه واقترب الأول من رولاند قائلاً: قال: «لا أثر لأيٍّ من هؤلاء الأربعة». وأضاف: «ماذا تقترح أن نفعل؟» ابتمس رولاند.

«أظن أن ستة عشر رجلًا مُجْتَمِعِينَ على هدف واحد قادرون على إنجاز ما يُمكن لعشرين رجلًا مُنْقَسِمِينَ إنجازه. أقترح إذن أن نمضي قُدَمًا، إلا إن كنت ترى ضرورة وجود هؤلاء الأربعة؛ ففي هذه الحالة ليس بوسعنا شيء سوى الانتظار.» قال إبراهيماد: «أنا أؤيد المضي قُدَمًا؛ والتفتَ بعدها إلى البقية الذين اجتمعوا حول قائدهم، وطلب رأيهم. ووافق الجميع على المضي قُدَمًا فورًا. سأل إبراهيماد: «هل تنوي اتباع طريق النهر أيها القائد؟» «نعم، مسافة فرسخين أو ثلاثة، ولكن بعدها سنسير عبر القرية.» «ممتاز. يمكننا متابعة السير على مهلٍ على طول الطريق، ويمكن لأصدقائنا اللحاق بنا إن عقدوا النية على فعل ذلك.»

أجابه رولاند قائلاً: «هذا صحيح!» وأضاف: «دعونا ننطلق إذن.» سار الرجال السبعة عشر دون أيِّ تجمُّعات عبر القرية، وحين اقتربوا من حانة على جانب الطريق، انهالت عليهم الصيحات العالية للسُّكَّارَى الواقفين أمامها. كان كورزبولد هو المتحدث باسم الجماعة التي شكَّلها هو ورفاقه والمكوَّنة من أربعة أفراد. وصاح: «هلمُّوا لنشرب نخب المجد.» وأردف: «أين كنتم يا شباب طوال هذا الصباح؟» قال رولاند بحزم: «كان المكان المتَّفَق عليه عند برج الأمير الناخب.» رد كورزبولد قائلاً: «لم يكن المكان الذي اتفقت عليه هكذا. فأنا هنا منذ أكثر من ساعة.» وتابع: «لقد أخبرتك بالأمس أنني سأكون عطشانًا فور وصولي هوكست، وأنني سأحاول معالجة الأمر باللجوء إلى إحدى الحانات.» تدخل إبراهيماد ضاحكًا وقال: «أجل، يمكننا جميعًا ملاحظة أنك نجحت في مجابهة هذا العطش.»

«أوه، تقصد أنني ثمل، أليس كذلك؟ سأقاتل أيَّ رجل يقول إنني ثمل. لقد أصابني العطش الشديد بسبب جفاف حلقي من الليلة الماضية، ومن الغبار في أثناء سيرنا في طريق فرانكفورت هذا الصباح. لقد تطلَّب الأمر قدرًا كبيرًا من النبذ لمواجهة سببي

العطش هذين. هلموا يا رجال واشربوا نخب نجاح هذه الرحلة. لا تغضبوا. أيها المالك، أحضر هنا نبيذًا يكفي سبعة عشر رجلًا، ولا تنسنا نحن الأربعة أيضًا.»
كان الجمع بأكمله يسير تحت الأشجار المواجهة للحانة، عدا رولاند، الذي كان يقف بعيدًا.

أتاه كورزبولد هاتفاً: «ها هي ذي تحيتك أيها القائد.» وأضاف: «سأشرب النبيذ برفقتك.»

قال رولاند: «ليس قبل أن نعود بعد تنفيذ مهمة ناجحة.»
صاح كورزبولد وقد أصابه الفواق من أثر الخمر قائلًا: «أوه، هذا هراء!» وتابع: «لا تظن أن منصبك يجعلك تستكبر علينا وتحقر أن تشرب مع رفاقك.»
لم يردَّ رولاند على هجومه الشديد، وعندما رأى الستة عشر رجلًا موقف قائدهم تردّدوا في الحديث. أما إبرهارد الدبلوماسي فأخذ بعضًا من النبيذ واقترب من رولاند.
وقال بصوت عالٍ: «اشرب معنا أيها القائد»، ثم قال بهمس: «أرى أنا وجريسל أن عليك أن تشرب.»

قال رولاند وهو يتناول منه الكأس: «شكرًا أيها الرفيق.» وأضاف: «والآن أيها الإخوة دعونا نشرب نخبًا.»

هتف كورزبولد المخمور بصخب قائلًا: «رائع، رائع، رائع!» وتابع: «نخب نجاح المهمة. هذا هو النخب بلا شك، أليس كذلك أيها القائد؟»
«ليس هذا فقط؛ فهناك إعلان آخر أود تقديمه في هذا النخب. فلنشرب في صحة جريسل الذي عينته نائبًا لي هذا الصباح. ودعوني أخبركم أننا إذا تصرّفنا جميعًا بأسلوب مُشرّف وبكفاءة مثله فإن مخططنا سيكتب له النجاح.»

حينئذٍ وضع جريسل الذي كان جالسًا على طاولة رأسه بين يديه. وأدرك مصير النصيحة التي قدّمها، وعلى الفور أصبحت الجماعة أمام تحدٍّ جديد. وظن الآن أن رولاند قد اتخذ قراره، رغم كل شيء، بالعودة إلى فرانكفورت، بالمال أو بدونه. وحتى إن كان ينوي السير باتجاه الراين، فربما سيقع الأسوأ؛ فقد بدا واضحًا أنه عازم على الحكم أو الخراب. وفورًا رحب كورزبولد بهذا التحدي. فهبَّ واقفًا وهو يترنح في جميع الاتجاهات، ويُجاهد للوقوف باستقامة بالإمساك بطرف الطاولة التي كان يجلس عليها.

وصاح قائلًا: «توقفوا! توقفوا!» وأضاف: «لا أحد يشرب في صحة هذا النخب. تمهلوا، تمهلوا جميعًا! كل شيء بأوانه. إن كنّا نمتلك حق انتخاب قائدنا كما فعلنا أسفل الصليب

المتوّج بالديك عند الجسر القديم، فإننا نملك الحق لانتخاب مَنْ ينوبه! هذ أمرٌ من حق الجماعة أن تُقرّره، وما يقوله هو اغتصاب للسلطة من جانبه.»

صاح إبرهارد بعنف: «اجلس أيها الأحمق!» وأردف: «إنك سكران. لم يكن الرئيس ليختار مَنْ هو أفضل منه. ما رأيكم يا رفاق؟»

هتف الجميع مُبدين موافقتهم، ومن بينهم الثلاثة الذين رافقوا كورزبولد.
«والآن أيها السادة لا حاجة للمزيد من اللغط. في نخب جريسِل، النائب الجديد للرئيس.»

شرب الجميع النخب بحماس، كان جميعهم واقفين باستثناء كورزبولد الذي جلس على مقعده مُحدّثاً ضجة.

وصاح وهو يُلوّح بيده قائلاً: «حسنًا!» وأضاف: «حسنًا! حسنًا! هذا ما قصدته بالضبط. جريسِل رجل طيب وها قد اختارته الجماعة، إنه الشخص المناسب. وها أنا ذا أشرب نخبه. وسأشرب نخب أي شخص، سأفعل!»

وأمسك بكأس النبيذ ليرتشفه من جديد، ولكنه قلبه، وصاح بصوتٍ عالٍ مناديًا على مالك الحانة ليجلب له المزيد.

قال رولاند بلهجة حاسمة: «والآن يا رفاق فلنصطف. فأمامنا مسيرة طويلة في انتظارنا. هلمّ يا جريسِل علينا أن نتقدم الجمع؛ فأنا أود أن أطلعك على مسئولياتك.»
لقد كان بالأحرى موكبًا عشوائيًا ذاك الذي غادر هوكست.

بدأ رولاند بالحديث بينما يسير بجوار جريسِل، قائلاً: «ربما يجدر بي توضيح السبب وراء عدم عملي بالنصيحة التي حثّنتني عليها هذا الصباح بشدة بشأن تعيين نائب لي. في الحقيقة وددتُ أن ألْقَنكَ درسًا، ولم أستطع منع نفسي من أن أثبت لك أن الأزمة تَخْتفي حين نواجهها فورًا وبحزم، بينما إذا حاولنا التوصل لحلٍّ وسط بشأنها؛ فهناك خطر أن ينفلت زمام الأمور من بين أيدينا.»

«أُقرُّ بذلك. لقد نجحت أيها القائد في ذلك للتو، والسبب يعود لرجاحة عقل معظم أفراد جماعتنا ويَقظتهم هذا الصباح. ولكن انتظر حتى يأتِيَ الليل، بعد عدة كنُوس من النبيذ، فإن حاولت الحصول على دعمهم حينها، فالأرجح أنك ستفشل.»

«ولكنهم لن يشربوا هذه الليلة.»

«كيف يُمكنك أن تمنعهم من الشرب؟»

أجابه رولاند ضاحكاً: «انتظر وسترى».

وصلوا إلى مُفترق طرق بحلول هذا الوقت، وكان هناك طريق يتجه إلى الجنوب الغربي بينما الآخر يمتد غرباً في خطٍّ مستقيم. كان الطريق الأيسر بلا شكَّ أفضل طريق؛ فليس عليهم سوى اتباع مجرى رافد ماين وصولاً إلى نهر الراين. إلا أن رولاند اختار الطريق الأيمن.

قال له نائبه: «ظننتُ أنك كنت تنوي السير بمحاذاة النهر».

أجابه رولاند، دون مزيد من التوضيح: «لقد غيرتُ رأيي».

في البداية كان كورزبولد عازماً على تقدُّم الرُّكب. كان سيُظهر لرفاقه بأنه لم يكن ثملاً، ويدفعهم لاتباعه، ولكن لم تُطاوعه ساقاه العنيدتان على تنفيذ قراره المُمتاز هذا، وبدأ بالتقهقر تدريجياً حتى تخلف في المؤخرة. وحين علت الشمس أكثر، وازدادت حرارتها، فضحته خطاه، وقبِل دون اعتراض مساعدة اثنين من رفاقه اللذين رافقاه للشرب في هوكست. وسيطرت عليه حالة من الكآبة والتجهم عندما انقضت الحماسة التي أثارها النبيذ. وبعد ذلك بقليل رغب في الاستلقاء على جانب الطريق وسمح للبقية القاسية الناكرة للجميل باستكمال طريقهم دونه، ولكن شجَّعه رفاقه على بذل المزيد من الجهد، ونجحوا بنحوٍ ما في جرِّه في مؤخرة الموكب.

وعندما اقتربوا من قرية زيلسهام، طلب رولاند من نائبه إبلاغ السائرين أنهم لن يتوقفوا قبل وقت وجبة منتصف النهار.

تبعد زيلسهام عن هوكست أكثر من فرسخ، واستطاع كورزبولد أن يظلَّ مُستيقظاً ليؤكد لنفسه أن المسافة كانت تستحق كأساً أخرى، إلا أن رفاقه واجهوا صعوبة في جرِّه عبر تلك المنازل التي علَّقت علامة حانة على أبوابها. وفي البلدة الأكبر هوفهايم، التي تبعد خمسة فراسخ عن فرانكفورت، استقبل أفراد الموكب الأمر ذاته، وحينئذٍ كان هناك بعض التذمر؛ لأن النهار أصبح شديد الحرارة، وكان الطريق شاقاً للغاية في كل مكان.

رغم الاستعداد البدني الجيد لهؤلاء الرجال، فإنَّ المشي لم يكن أبداً تدريبهم المعتاد. وكانت جبال تاونوس الخلابة، التي تُمثِّل اليوم ساحةً تدريبية مليئة بالبهجة للسيارة، وتُعدُّ عملياً إحدى ضواحي فرانكفورت، في ذلك الوقت بريةً غير مُستكشفة، غاباتها كانت وكراً لقطع الطُّرق الهائمين؛ حيث لم يكن لرجلٍ أن يجزُّو على المغامرة بدخولها دون المخاطرة بحياته. وكان رجل العصور الوسطى لا يجزُّو على الابتعاد عن حدود المدينة إلا نادراً، وها هم أولاء لصوصنا المُغامرون، الذين يبدو عليهم ملامح القوة الكافية التي

تؤهلهم لتحمل التعب الشديد، ثبت أنهم لا يَاقون على تحمّل حرارة الشمس الحارقة طول الطريق العديم الظلال، وبحلول وقت وصولهم بريكنهايم، التي تبعد عن فرانكفورت بالكاد ستة فراسخ، بدعوا بمسح العرق من فوق جباههم وساد شعور عام بأنهم لا يمكنهم التحمّل أكثر من ذلك.

وفي بريكنهايم دعا رولاند إلى التوقّف لتناول وجبة منتصف اليوم، وكان مضطراً للانتظار قرابة النصف ساعة حتى يأتي آخر شريد من طاقمه الصغير من الطريق ويصل إلى المرج الأخضر أمام الحانة التي وقع عليها الاختيار لتكون موقع تناول الطعام. كانت المؤن الوحيدة المتوفرة هي الخبز الأسود ونوع من الجبن الريفى الخشن، ولكن كان لديهم إمداد وفير من هذه الأطعمة، إلى جانب الكثير من النبيذ الجيد وهو شيء مهم بالنسبة لعابري الطريق المتعثّرين؛ لأن بريكنهايم لا تزال على بُعد أكثر من فرسخ شمال هوخهايم الشهيرة.

أقبل المتسكّعون مثنى وفردى، وبعضهم غاص في المقاعد التي أمام الحانة، وبعضهم استلقى ممدداً على العشب القصير، وعلى الفور غطّ كورزبولد ورفاقه الثلاثة في النوم. لم يكن حتى رولاند ليحلّم بقيادة عصابة أكثر بؤساً وانصياعاً كتلك. فقد اختفت تماماً أيّ قدرة لهم على القتال، أو حتى الجدل. ولم يكتروا بمكان وجودهم أو بما يقال لهم. وكلّ ما كانوا يرغبون به هو أن يتركوا وشأنهم، حتى إنهم لم يظهروا أدنى اهتمام بإعداد وجبتهم المقتصدة. وخفّف حصول كلّ منهم على كوب من النبيذ من شعورهم بالوهن، إلا أن كورزبولد عبّر عن مدى استيائه بالشتائم المشينة حتى وهو ينهض لشرب النبيذ. وقال إنه كان عاجزاً على عيش حياة مُقتصدة في المستقبل، لكنه لم ينجح في مسعاه بعد أن نفدت مخصّصاته المالية بسبب طول وشدة هذا السّفر الصعب.

اقترب جريسيل من رئيسه.

وقال له: «ستواجهنا بعض الصعوبة عندما يتعين علينا دفع ثمن هذه الوجبة. أرى أن جميع هؤلاء الرجال مُفلسون بالفعل.»

أجابه رولاند قائلاً: «أخبرهم أنهم ليس عليهم القلق بهذا الشأن.» وتابع: «لقد سددت الفاتورة، وسأحرص على ألا يموتوا جوعاً أو عطشاً قبل أن نصل نهر الراين.»
تابع جريسيل قائلاً: «أقترح أن يضع كلّ منا جميع الأموال التي بحوزته في صندوق وتتولى مسئولية هذا الصندوق لجنة يُعيّنها الرجال. فما رأيك في هذا الاقتراح؟»

«لا أجد ما أقوله. أرى أنه قد فات أوان هذا الاقتراح؛ فقد أصبحت جيوب المشاركين فارغة.»

تابع جريسيل قائلاً: «إنهم يعلمون بأن بعضنا يمتلك المال، أنا على سبيل المثال، وهم يتمنون أن نتشاركه كما يجب أن يفعل الرفاق الجيدون، هذا ما قالوه على الأقل.»
«إنه قول يستحق الاحترام، ولكني لا أوافق عليه. ما مقدار المال الذي بحوزتك يا جريسيل؟»

«الثلاثون تالراً كما هي تقريباً لم أمسسها، وإبرهارد يمتلك المبلغ نفسه تقريباً.»
«حسناً، الخمسون تالراً ستبقى في أمان في جيبي، ولكن لن تدخل هذه العملات صندوق أي لجنة قد يعينها الرجال، وإن اختاروا لجنة فدعهم يؤمّلونها بأنفسهم.»
«سُيْلَقِي هذا القرار ببعض الاستياء، أيها القائد.»

«أظن ذلك. مع ذلك، وكما تعلم، أنا مُستعدٌ دائماً لفعل أي شيء يترك أثراً طيباً في نفوسهم؛ لذا يُمكنك إخبارهم أنك وإبرهارد وأنا، ثلاثتنا سنُساهم في أموال الصندوق بمبلغ يُعادل المبلغ الذي سيجمعه الثمانية عشر رجلاً. فهذا البذخ من جانبنا لا بد أن يرضيهم.»

«لن يُرضيهم أيها القائد؛ لأنه لا أحد من بين الثمانية عشر رجلاً يمتلك كرويتسراً واحداً.»

«حسناً فليكن. هذا كل ما أستطيع فعله. عليك يا جريسيل أن تُناشدهم أن يفكروا بعقلانية. فإذا شارك كل واحد من الثمانية عشر رجلاً بتالر واحد، فكلٌ منا نحن الثلاثة سيُساهم بستة تالرات مقابل كل تالر يدفعونه. اسألهم إن كانوا لا يرون أننا نتعامل معهم بسخاء ونحن ندفع ستة أضعاف ما يدفعه أيٌّ منهم لتوفير رأس المال للجنة.»
«إنها القدرة وليست الرغبة ما يفتقرون إليه، أيها القائد.»

«جوزيف، إنهم لا يتمتعون بأي منطق. إنهم يُثرثرون بشأن الرفقة، وعندما يتعلق الأمر بممارسة السلطة يُطالبون بالمساواة. كيف إذن يدعون الإنصاف وهم يؤكدون نكرانهم لما نفعله عندما نعرض عليهم تحمّل ستة أضعاف ما عليهم تحمله؟»
لم يُضِف نائب الرئيس المزيد، ولكنه غادر ليعلن القرار للرجال، ويبدو أن تفكير القائد أُخرس أيّ مُعارضة، أو أنهم كانوا متعبين للغاية بحيث لم يستطيعوا الدخول في جدال.

عند تقديم الخبز الأسود والجبن، وقدرٍ أخرى من النبيذ، جلس الجميع وأكلوا بنهم. انتهت المأدبة، وكان لدى جريسيل إعلانٌ ليُذيعه على الرجال. أخبرهم أنهم أمامهم ساعة

راحة قبل أن ينطلقوا في طريقهم مرة أخرى. وأخبرهم أن القائد هو الذي دفع ثمن الوجبة والنبيد، فلا داعي للقلق بشأن الحساب، ولكن إن رغب أحد في المزيد من النبيد فعليه أن يتحمل ثمنه بنفسه. ومع ذلك، فإنهم قبل مسيرة ما بعد الظهر سيحصلون أيضاً على كتوس من النبيد على نفقة القائد. استقبل الرجال هذا الإعلان في صمت، وتمدد الرجال فوق العشب ليستفيدوا من ساعة الراحة أقصى استفادة. تجول رولاند بمفرده ليتفحص القرية. وجلس نائب القائد وإبرهارد معاً على طاولة يتحدثان بهمس.

قال إبرهارد: «حسناً، ما رأيك في كل ما يحدث؟»

أجابه جريس قائلاً: «لا أعلم.» وأضاف: «إذا تمكّن بارونات نهر الراين من رؤيتنا، وعلموا أننا ننوي مهاجمتهم، أتخيل أنني سأسمع صخب ضحكاتهم المدوية.»
قُلْد إبرهارد البارونات وضحك. لقد كان شخصاً مرحاً.

وقال: «لا أشك في ذلك؛ ولكن من منطلق الحديث عن التوقعات، ما رأيك في القائد؟»
«لا شأن لي في هذا أيضاً. ففي هذا الصباح حاولت جاهداً أن أقدم له نصيحة جيدة. وطلبتُ منه تعيين أحد الساخطين سواء كورزبولد أو جينسين ليكون نائباً له بدلاً مني؛ لأنني ظننتُ أنه إذا ألقى على عاتقهما قدراً من المسؤولية، فإن هذا سيقينا النقد قليلاً.»
أشار إبرهارد قائلاً: «تبدو لي هذه الفكرة صائبة للغاية.»

«حسناً، لقد رأيت كيف تجاهل هذه النصيحة على الفور، ولكن رغم كل هذا أرى أنه قد يملك حكمة تفوق ظنوني. انظر كيف اتّخذني برعاً. فهو لا يعطي الرجال أي أوامر بنفسه، فقط يأمرني بتمرير ما يُريده بشأن هذا الأمر أو ذاك. يبدو أنه مُصمّم على القيادة بطريقته الخاصة، ورغم ذلك فهو حريص على ألا يتسبّب في نزاع شخصي بينه وبين أتباعه.»

«هل تظن أن هذا جبن منه؟»

«لا؛ إنه ليس بجبان. إنه ينوي بلا شك أن أتحمّل أنا وطأة أي غضب من جانب الرجال. وفي حال نشوب عصيان سيبدو الأمر وكأنهم يعصّون أوامري أنا وليس أوامره. فإن لم يكن الأمر ذا أهمية بطريقة أو بأخرى، فلا أظن أنه سيتدخل، لكنني أعتقد أنه عندما تصل الأمور لنقطة حرجة، فإنه سيطيح بي جانباً كما لو أنني ريشة في مهبّ الريح، وسيواجه الرجال بنفسه مهما كانت العواقب. هذا الصباح ظننت أنهم سيفوزون في وضع كهذا ولكنني لست واثقاً الآن. أرايت كيف أعلن تعييني على الملأ، وهو ينتظر منك بالطبع مساعدته. أخبرني، عندما كنا وحدنا بجانب البرج، أنك الرجل الأكثر راحة

في العقل من بينهم، ومن الواضح أنه استغلَّ هذا الأمر، ولم يمنحهم لحظة للتفكير، وأنت دعمته في ذلك. لقد حقَّق مقصده، ومنذ ذلك الحين لم يوجَّه لهم كلمة واحدة، وكل الأوامر يُمرَّرها من خلالي، لكنني كنت أعلم أنه ينوي أن يسلك طريق النهر، كما أخبرك، لكنه قادنا عبر منطقة التلال هذه بدلاً من ذلك حتى أصبح جميع الرجال على وشك السقوط. أما هو فقد أدَّخِر النبذ ولم يتناوله، وهو الآن في حالة جيدة. أدرك جيداً أنه اجتاز ضفَّتَي نهر الراين، من إيرنفيلس إلى بون؛ لذا فإن هذه المسيرة لا تعني له شيئاً. وفي نهايتها سيَشْعُر وكأنه خرج في نزهة، أما هؤلاء الرجال فيرقدون على الأرض كالموتى الراقدين تحت التراب.»

قال إبرهارد وهو مُستغرق في أفكاره: «أنا لا يُمكنني فهمه.» وتابع: «ما تعليمه؟ يبدو أنه تلقى تعليمًا جيدًا، ولكنني أجده جاهلاً ببعض الأمور العامة وكأنه طفل؛ فهو على سبيل المثال، لا يعرف الفرق بين مكانة الحِرَفِي الماهر والتاجر الذي يَحْتَرِف المساومة! كيف كانت تنشئته؟ من الواضح أنه ليس من طبقة التجار، ومع ذلك نجح في إقناع رئيس التجار، الرجل الأكثر تحفُّظاً، بالانخراط في تلك المغامرة الجامحة والمخاطرة بماله وبضائعه لدعمه. هذه المهمة ستُكَلِّف السيد جوبل ما لا يقل عن خمسة آلاف تالر، كل هذا إرضاءً لشابٍّ أتاه من الشارع دون مقدمات. كما أنه ليس بحِرَفِي من أي نوع؛ إذ عندما انضم إلينا لم يكن يمتلك أيَّ مهارة سوى مهارته في الإمساك بقبضة السيف.»

رد جريسِل: «لقد قال إنه مُعلِّم فنون المبارزة بالسيف.»

«أعلم أنه قال ذلك، ولكن عندما عرضنا عليه أجرًا مقابل تعليمه لنا، تجاهل الأمر. والهمُّ الأول لمُعلِّم المبارزة هو جُمع الأموال، شأنه شأننا. ولكن من الواضح أن الأموال لا تحظى باهتمام رولاند، وفي النهاية علَّمنا دون مقابل. ومعلِّمو المبارزة لا يشجَّعون على مهمات القرصنة، بالإضافة إلى أنهم يتمتَّعون دائماً باللباقة والأدب، ويتأدَّبون مع الجميع. في بعض الأحيان أخذت أراقب رولاند عن كثب، محاولاً دراسة شخصيته، وفي أثناء مُحاولتي ضبطته وهو ينظر إلينا بازدراء في بعض الأحيان، وأقسم لك أنني حينها كنت أشعر بإحراج شديد. أتعلم، يا جريسِل، هذا الشاب يتمتع بالصفات المعتادة التي يتحلَّى بها النبلاء أكثر من الصفات التي يتمتع بها أي تاجر؟»

اعترف جريسِل قائلاً: «إنه أشبه بلغزٍ بالنسبة إلي، وإن لم تفشل هذه الرحلة في بدايتها فأنا لست واثقاً من إتمامها بنجاح.»

لاحظ جريسيل نظرة تحذيرية في عيني إبرهارد، فألقى نظرة خلفه ليجد رولاند واقفاً وراءه. قال الشاب بهدوء:

«إنها لم تَفْشَل في بدايتها؛ لأننا بالفعل على بُعد أكثر من خمسة فراسخ من فرانكفورت. ولا بد أن ينجح مسعانا؛ فأنا محظوظ بوجود مُستشارين حكيّمين مثلكما جالسَيْن أمامي.»

لم يردَّ أيُّ من الرجلين. وكان كلاهما يتساءل عن مقدار ما سمعه قائدهم. وجلس على المقعد بجوار إبرهارد وقال له:

«أتمنى أن تتصرّف وكأنك نائبي الثاني. وإن وقع لي أيُّ مكروه، فسيأخذ جريسيل مكاني، وعليكَ أنت أن تأخذ مكانه. بالمناسبة هذا تعيينٌ وليس انتخاباً. ولن أعرض الأمر على العصابة. ببساطة ليس عليك سوى التصرّف كنائب ثانٍ، وهذا كلُّ ما في الأمر.»

أجابه إبرهارد قائلاً: «حسنًا، أيها القائد.»

«جريسيل، كم لديك من أموال؟»

«ثلاثون تالراً.»

«يا لك من رجل مُقتصد! هل ستقرضني هذا المبلغ حتى نصل إلى أسمانسهاوزن؟»

«بالطبع.» وأخرج جريسيل محفظته وأفرغ الأموال، وتولّى رولاند مسئوليتها.

«ماذا عنك يا إبرهارد؟ كم تمتلك من الأموال؟»

«أنا أمتلك خمسة وعشرين تالراً.»

«هل يُمكنني اقتراضهم منك أيضًا؟»

«أوه، أجل.»

تابع الشاب حديثه وهو يأخذ الأموال: «كنتُ أفكرُ أنّ فكرة هذه اللجنة المكونة من عدة رجال لها مزاياها الخاصة؛ لذا فقد شكّلتُ أنا اللجنة، بالتعيين وليس بالانتخاب، وسأتولّى صرف الأموال. كم المبلغ الذي يمتلكه رجالنا؟»

«ولا كرويتسر واحد، حسب معلوماتي.»

«حسنًا، في هذه الحالة لن تُجدي مُحاولتي في جمع المال منهم. والآن كما كنت أقول

يا جريسيل، إن حدث أي شيء لي، فعليك أنت استكمال تنفيذ الخطة في ضوء الخطوط التي وضعتها. أول شيء بالطبع هو الوصول إلى أسمانسهاوزن.»

تجرّأ جريسيل على الحديث قائلاً: «لا يمكن أن يحدث لك شيء قبل أن نصل إلى

هناك.»

«لستُ واثقًا من ذلك. الشمس في أوجها اليوم، وإن أصابتني ضربتها، اتركني مستلقيًا حيث أنا، ولا تَسمح لأيِّ شيء بمقاطعة المسيرة. وبمجرد وصولكم إلى أسمانسهاوزن، عليكما أنتما الاثنان أن تَحرصا على مراقبة النهر جيدًا. وعندما تلمحان السفينة، اجمعا الرجال وقوداهم إليها. ستنتظرنا السفينة على بُعد نحو نصف فرسخ شمال أسمانسهاوزن.»

تناقش الثلاثة حتى انقضت الساعة، ثم ألقى رولاند عباءته على ذراعه، ووقف ثم قال لنائبه:

«من فضلك تولّى مهمة إيقاظ الرجال؛ وأنت يا إبرهارد أخبر مالك الحانة أن يعطي كلَّ فرد إبريقًا من النبيذ. سنسلُك الطريق إلى فيسبادن. سأسير ببطء في المقدمة، حتى تتمكّن أنت والرفاق من اللحاق بي.»

وهنا، ابتعد القائد الشاب وهو يسير مُتمهلاً بلا اكتراث، تاركًا المهمة الشاقة لمرؤسيه والتمثّلة في إعادة الرجال المتعبين إلى عملهم مرةً أخرى. بدت علامات الضيق على جريسيل بينما ضحك إبرهارد.

وعلى بُعد مسافة قصيرة شرقَ فيسبادن انحرف القائد بجماعته عن الطريق، وبهذا عبروا باتجاه يسار فيسبادن، ووصلوا إلى قرية سونينبرج. توقّفت الجماعة المتعثرة عن السير فترةً وجيزة لحين شراء المؤن اللازمة، وحمل كلُّ رجل نصيبه، الذي يكفيه بالكاد لتناول العشاء والإفطار، وحصلوا على كمية من النبيذ ليستمتع كلُّ منهم بحوالي لتر ونصف، وهي كمية وافرة تكفي لإرواء العطش ولكنها لا تصل إلى حد الإسراف.

تذمّر الرفاق عندما أُجبروا على مغادرة سونينبرج. فكانوا يأملون قضاء الليلة في فيسبادن، وأفصحوا بصوتٍ عالٍ عن رضاهم عن المسافة التي قطعوها من البلاد حتى الآن. لم يتفوّه قائدهم بكلمة، وإنما ترك جريسيل وإبرهارد يتعاملون معهم. ودفع هو ثمنَ المؤن والنبيذ، ثم أرخى عباءته الفضفاضة فوق ذراعه وانطلق باتجاه الغرب وكأن شمس المغيب هي وجهته. تبعه البقية ببطء، وعلا وجوههم تجهمٌ شديد. فقد كانوا في بلاد برية غير معروفة لأيِّ منهم. وصارت التلال أكثر ارتفاعًا وانحدارًا، حتى إنه لم يكن هناك طريق ممهّد ليتبعوه، لكن رولاند، الذي يبدو أنه كان يعرف طريقه، سار بثبات إلى الأمام متقدمًا حتى على نائبيه. علت سحابة من الغيوم شرقًا، وأعقبت حرارة النهار عاصفة رعدية مدوية أعلى جبال تاونوس، وصحبها وابل من الأمطار على ما يبدو، ورغم ذلك لم يتخلف أيُّ منهم عن المسيرة.

عندما وصل القائد برفاقه إلى وادي ولوف الذي يقع على بُعد حوالي فرسخين ونصف من سونينبرج، كانت الشمس قد غابت. وهناك وجد الرجال أنفسهم وسط برية يجري خلالها تيار صاخب. وأعلن رولاند بأن هذا سيكون مكان تخييمهم الليلة. وفي الحال علت صيحات المعارضة. فكيف لهم أن يُخيّموا دون خيام؟ كانت هناك أمطار غزيرة وشيكة. وبالنظر إلى أصوات الرعد، كانت ستحدث سيول عارمة.

قال لهم رولاند: «لِلتفَّ كلُّ منكم في عباءته، وناموا تحت الأشجار. لقد فعلت ذلك كثيراً، وسأكّرر ذلك الليلة. وإن لم تتعبوا بالقدر الذي يدفعكم للانخراط في سبات عميق، فسأكون سعيداً لقيادتكم عدة فراسخ أخرى.»

تجمّع الرّجال في حلقة وأجروا جلسة استشارية بتجنّهم وصوت خفيض. وقرروا سريعاً العودة إلى سونينبرج، وهو القرار الذي أجمعوا عليه من قبل ولم يكن يجدر بهم التخلي عنه. فجميعهم أبناء مدن، ولم يقضوا ليلةً في حياتهم دون سقف يعلو رؤوسهم، وكان رضاهم بالأماكن التي اقترحها قائدهم للمبيت أشبه برميهم بعيداً في جزيرة صحراوية. لقد أذهلهم غموض الغابة. ولم يسعهم سوى التفكير بأن الغابة مليئة بالحيوانات البرية، وأنه في مكان قريب يختبئ المجرمون الذين لا يقلون وحشية عن الحيوانات. تحرّك الرجال الثمانية عشر باتجاه قائدهم الجالس على ضفة المجرى المائي وتتدلّى قدماه في زبد الماء، مُتجاهلين جريسيل وإبرهارد الواقفين في جانب يُراقبان تشاورهم بلامح قلقة.

قال قائد الاجتماع السري: «لقد قرّرنا العودة إلى سونينبرج.» وافقه رولاند بابتهاج قائلاً: «قرار مُمتاز.» وأضاف: «إنها قرية جميلة وقد مررت بها عدة مرات. ولكن بالمناسبة، فيسبادن أكبر بكثير وتُعدُّ خياراً أفضل للرجال المتعبين؛ فهي أقرب بنصف فرسخ.»

بدا المُتحدّث مُندهشاً من لهجة رولاند غير المبالية. «ولكننا لا نعرف الطريق إلى فيسبادن، وفي الواقع لسنا واثقين إذا ما كنا سنهتدي طريقنا للوصول إلى سونينبرج مع حلول الظلام أم لا.» «حسناً لو كنّا مكانكم لما غامرت بالمحاولة. فلمْ لا تأكلون عشاءكم وتشربون نبيذكم داخل حمى هذا البستان؟»

احتجّ المُتحدّث قائلاً: «ولكن بحلول هذا الوقت سيحل الظلام وسيكون المكان أشبه بالعالم السفلي.»

«حسنًا، فلتبقوا هنا الليلة كما اقترحت.»
«لا؛ إننا مُصمّمون على الوصول إلى سونينبرج. فالعاصفة وشيكة.»
«في هذه الحالة أيها السادة، لا تجعلوني أعيق تقدمكم. فالظلام سيزداد حلكة بينما أنتم تُضيّعون وقتكم في الحديث.»
«حسنًا، هذا رائع، ولكننا عندما نصل إلى سونينبرج سنحتاج إلى المال.»
«أجل هذا صحيح.»
«لذا فإننا نحتاج إلى تدبير هذا المال.»
«هذا صحيح تمامًا.»
«إذن، إننا نطلب منك أن تُعطينا ثلاثة تالرات لكل رجل منا.»
«أوه، هل تطلبون المال مني؟»
«أجل، إننا نطلبه منك.»
«ولكن هذا سيتطلّب إعطاءكم كلّ الأموال التي بحوزتي.»
«لا يَهم. إننا عازمون على أخذها.»
«هل تقصد أنكم ستأخذونها منّي بالقوة؟»
«أجل.»
«حسنًا، إذا كان الأمر كذلك، فربما من الأفضل لي أن أعطيها لكم عن طيب خاطر،
أليس كذلك؟»
«أظن ذلك.»
«أنا أتفق معك تمامًا. إنكم ثمانية عشر رجلًا، وجميعكم مسلّحون بالسيوف، بينما
أنا لا أملك سوى سيفي.»
بعد أن قال هذا فكّ عباءته التي كان يرتديها احتماء من برودة المساء القارصة،
وفك من حزامه محفظة مليئة بالنقود، ورفعها أمام أعينهم.
«بما أن هذه المحفظة ملكي بلا منازع، فإنني أمتلك حرية التصرف فيها كما يحلو
لي. لذا فأنا أختار أن أقذفها في هذا الجدول، الذي لا يكفّ عن الصياح مثلكم تمامًا، إلا
أن صوته موسيقي أكثر.»
صاح إبرهارد قائلاً: «توقّف يا رولاند، توقف!» إلا أن تحذيره جاء بعد فوات الأوان.
فقد ألقى الشاب بالمحفظة في الماء، واختفت وسط الزبد الكثيف. ونهض واستلّ سيفه.
«إن كنتم ترغبون في القتال الآن، فسيكون حبًّا فيه؛ فلا يوجد أي مجال للحصول
على مال.»

صاح المتحدث دون أن يُظهر أي نبرة عدوانية أخرى لأنه لن ينال شيئاً الآن سوى المبارزة بالسيف: «أقسم بالآلهة أنك أحمق ملعون!»
قال رولاند: «أجل، أنا أحمق!» وتابع: «لهذا فأنا أفضل من يقود رجالاً مثلكم. والآن اذهبوا إلى سونينبرج، أو اذهبوا إلى الجحيم!»
لم يفعل الرجال أيّاً من هذا. وجلسوا تحت الأشجار وتناولوا عشاءهم وشربوا نبيذهم.

اقترب رولاند من نائبيه المتجهمين الواقفين صامتين على مسافة قصيرة من الحلقة التي شكّلها بقية الرجال، وسألهم قائلاً: «هل ستتناولان العشاء معي؟»
أجابه جريسيل بتجهم قائلاً: «أجل، ولكنني كنت سأسعد أكثر بتناول العشاء معك لو لم تُثبِت صحة كلام هذا الرجل.»
«هل تقصد أنني أحمق؟ أوه، أنت نفسك فعلت مثله ونعتني بالأحمق هذا الصباح. هيا بنا لنجلس أبعد قليلاً على مجرى الجدول، بحيث لا يُمكنهم سماع ما نقوله.»
وعندما فعلوا ذلك، تابع رولاند حديثه بابتهاج قائلاً:

«دعوني أوضح لكم أنني قبل أسبوع مضى لم أكن أملك سوى محفظتي الخاصة، لكن قبل مُغادرتي في هذه الرحلة زرتُ والدتي وقَدِّمتُ لي صرة نقود. ولكنني خلال وجبة منتصف النهار توقَّعتُ أنهم سيُطالبوننا بالمال؛ لهذا اقترضتُ منكما كلَّ ما تملكونه. وعندما سرت في المقدمة، استعددتُ لما توقَّعتُ أنه لا مفرَّ من حدوثه، فملأتُ المحفظة الصغيرة الفارغة بحصّى صغيرة جدًّا جمعتها طوال الطريق. وهي الحافظة هي التي أَلقيت محتوياتها بمجرى الماء. كم من المدهش قُدرة العقل البشري على القيام باستنتاجات متسرَّعة! كيف يظنُّ أيُّ منكما أنني بهذا الغباء لأُلقي هذا المبلغ المهم من المال؟ يا صديقي، هذا عالم لا يُمكنكما الوثوق فيه بكل شيء!»

بعد نصف ساعة كان الجميع مُستلقين مُلتحفين بعباءتهم، ينامون في هدوء بسبب تعبهم، رغم كونهم في الهواء الطلق. وفي صباح اليوم التالي ساد خوف حقيقي أو مزعوم في المعسكر بأكمله. فلم يكن رولاند موجوداً في أيِّ مكان، ولم يكشف المزيد من البحث عن مكان وجوده.

الفصل الثامن

القائد المتغيب والأموال المفقودة

ربما بسبب المسؤولية الجديدة المُلقاة على عاتقه، كان جوزيف جريسيل أول مَنْ استيقظ في صباح اليوم التالي. ترك عباءته الطويلة تنسدل من فوق كتفيه وهو جالس، وحملق حوله في دهشة. بدا كأن ساحرًا قويًا من التلال قد خطفه خفيةً أثناء الليل. لقد أوى إلى الفراش في مكانٍ يُحيط به الخوف من كل جانب. لقد دَوَّى الرعد مهددًا بين قمم جبال تاونوس، وانعكاس وميض البرق الذي لا يكاد ينقطع تكراره، أضاء البستان بوهجٍ أصفر مُفزع. الزئير المتصل للتيار الرغوي الذي لمع في الظلام بلون شاحب، نال من أعصابه على نحوٍ ما. وتحت أثر الإضاءة اللحظية للرعد، بدا أن الأمواج تتقاذف عليه وكأنها مجموعة من الذئاب الجائعة، المرقطة بالرغوة، وسعى الضجيج لمحاكاة صوت الرعد الآتي من بعيد. وكان البستان في حدِّ ذاته مُنذرًا بالسوء في كآبته، وبدا أن أشباحًا مشئومة كانت تتحرَّك بين الأشجار.

كم كان المشهد مُختلفًا الآن! كانت الشمس لا تزال تحت الأفق الشرقي. وكانت السماء الصافية تُعدُّ بيوم دافئٍ آخر، وبلورات الهواء النقية تحت على التقاط الأنفاس. من منظور جريسيل، المشوب بالشعور الديني، بدا المكان الذي وجد فيه نفسه وكأنه موضعٌ ما من جنات عدن. الجدول المائي، الذي بدا بالنسبة إلى عقله المؤمن بالخرافات مصدرًا للخوف، صار هذا الصباح جدولًا هادئًا ومُبتسمًا و متموجًا يستطيع المرء دون أدنى مجهود منه أن يقفز عبره.

فرك عينيه في دهشة، ظنًّا منه أن غشاوة النوم هي التي تسبَّبت في هذا التحول السحري، حتى تذكرُ العاصفة الرعدية البعيدة لليلة السابقة بين الجبال الشرقية، وظن أن هطول الأمطار الغزيرة قد غمر هذه القمم والوديان بالمياه السريعة.

قال في نفسه في حماس: «يا لها من نعمة ذلك الصباح المتكرّر! كم يمحو الأخطاء ويزيل انفعالات الظلام! يبدو كأن الرب أراد أن يمنح الإنسان فرصاً متكررة للإصلاح والتشجيع. كم يبدو كل شيء الآن معقولاً، مقارنةً باضطرابات الليل الجهمني!»

وبينما كان ينهض من الفراش، أدرك وجود وزن غير مُعتاد بجواره، وحين وضع يده اندهش من الاصطدام بصرةٍ واضح أنها مُمتلئة بالعملات. كانت مربوطة بسيرٍ من جلد الغزلان في حزامه، كما هي الحال مع محفظته الفارغة. جلس مرةً أخرى، وجذبها أمامه، وفتحها. وبعد أن سكب العملات، وجد أن المحفظة تحتوي على مائة وخمسين تالراً، أغلبها ذهبية، بالإضافة إلى بضع عملات فضية. وفي الحال خطر على باله أن هذه هي الستون تالراً الخاصة بـرولاند، بالإضافة إلى الثلاثين الخاصة به، والخمسة والعشرين الخاصة بإبرهارد. ولسببٍ ما، وخشيةً على الأرجح من الرجال الذين ربما يشكّون في الحيلة التي مُورست عليهم الليلة السابقة، قد جعله رولاند أمين خزانة العُصبة. ولكن لماذا ينبغي أن يفعل ذلك خفيةً؟

وبعد أن أعاد وضع الصرة الجلدية في مكانها بعد إرجاع مُحتوياتها إليها، هب واقفاً على قدميه مرةً أخرى، ولكنه الآن أحكم عباءته حوله، حتى يخفي الصرة. كان إبرهارد يغطُّ في النوم بالقرب منه. أما أفراد العصابة الثمانية عشر الباقون، فكانوا مُتكوّرين بعضهم بالقرب من بعض، كما لو أنهم مُضطربون إلى النوم في مكان صغير جداً عليهم، رغم أن المدينة بأكملها ملك لهم ويُمكنهم أن يختاروا أي مكان للنوم فيه.

وعندما تذكّر أن الجدول المائي تناقَص حجمه، وأنه صار يتدفق الآن على نحوٍ رائق وواضح، خشي أن تظهر على نحوٍ واضح الصرة المليئة بالأحجار التي ألقي بها رولاند على نحوٍ درامي. وقرّر أن يوقظ قائده، وأن يبحث عن الصرة لبعض المسافة في اتجاه مجرى النهر؛ حيث إنه كان يعرف أنه حين يستيقظ الرجال، ويذهب عنهم الخوف الذي شعروا به ليلاً، وعندما يلاحظون انحسار الجدول المائي فقد يبدؤون البحث عن الصرة.

وعندما بحث عن رولاند حوله، لم يرَ أيَّ أثرٍ له؛ إلا أن هذا لم يُقلقه كثيراً؛ إذ إنه افترض أن القائد استيقظ في وقتٍ أبكر منه، رغبةً منه في التنزّه عبر الغابة، أو على طول الجدول المائي.

تجوّل جريسِل في الوادي بمحاذاة المجرى المائي، بهدف العثور على الصرة، وأيضاً على أمل لقاء قائده. وبالتحديد باستمرار في المياه الصافية، اكتشف أنه لا يوجد أيُّ أثر لبُعيته. أخذ يتوغّل أكثر فأكثر في الوادي الذي كان ممتلئاً بالأشجار على طول الطريق،

وأحياناً كان مُضطرباً إلى إهمال دليhle المائي، والتسلق بجهد عبر الأحراش للوصول إلى حدوده مرة أخرى.

وفي النهاية، وصل إلى شلال صغير، وهناك انقطعت الغابة، وهو ما دفعه إلى الوقوف مشدوهاً بالمنظر الذي فرض نفسه عليه. وأسفل المنحدر امتدَّت الغابة بعض المسافة، ثم أفسحت المجال أمام حقول العنب المنحدرة، مع ظهور بيوت هنا وهناك بين أشجار العنب. وعند سفح هذا التل، كان هناك شريط أزرق عريض، عرف أنه نهر الراين، على الرغم من أنه لم يره من قبل. ومن فوقه طفا غلافٌ فضي اللون من الضباب الذي كان يختفي سريعاً. وبدأ الشاطئ الغربي مسطحاً، وظهرت التلال على طول الأفق، والتي لم تكن عاليةً مثل التل الذي هو واقف عليه؛ إلا أنها كانت جميلةً في مقابل السماء الزرقاء، وبدأت كأنها أقرب بفعل الأشعة الأولى للشمس الساطعة التي صبغت القمم باللون القرمزي.

أخذ جريسيل نفساً طويلاً مُستشعراً الرضا العميق. لم يدرك من قبل قط أن العالم كان ساحراً وهادئاً للغاية. وبدأ أنه من المستحيل أن الرجال الذين يتمتعون بميزة العيش على أرض كهذه لا يمكنهم أن يجدوا عملاً أفضل من تقطيع بعضهم رقاب بعض.

لقد عزز الهدوء الهدير الرقيق لشلال المياه الموجود على يمينه. ومن على ارتفاعه، نظر إلى البركة الواسعة الصافية، التي ينهمر الماء إلى أعماقها، وهناك قبعت صرة الكنز المزيف بوضوح تاماً. شق طريقه بحذر إلى الحد الحصوي للبحيرة الصغيرة، وخلع بسرعة ملابسه، وغطس برأسه أولاً في هذه البركة الرائعة. كانت تجربة بدبعة، وقد أخذ يسبح حول الحوض الدائري، وتسلق بجهد على الحصى وترك تيار المياه ينساب فوق كتفيه اللامعتين، مستمتعاً بالحمام الذي أعطته إياه الطبيعة. وما إن شعر بالرضا عن الارتفاع المناسب، اندفع في غطسة أخرى وأمسك بالصرة وارتفع مرة أخرى إلى السطح. وما إن وصل إلى الشاطئ حتى فكَّ السيور المنتفخة، وسكب الأحجار على الشاطئ، وبعد التفكير للحظة، عصر الماء من الصرة نفسها، وربطها بحزامه، حيث إنه لا يعرف أين سيتجول الرجال بمجرد أن يستيقظوا، وإذا قذفها بين الشجيرات، فربما يجدها أحدهم، مما يثير التعجب من كيفية وصولها إلى هناك، ثم الشك في أنها حيلة.

عاد جريسيل إلى المعسكر الذي يوجد بجوار الضفة الأخرى من الجدول المائي. وعلى الرغم من أن أشعة الشمس المبكرة تسَلَّت عبر الفروع العليا للأشجار من فوقهم، فقد كان الثمانية عشر رجلاً المنبطحون على الأرض ينامون كما لو أنهم أهل الكهف. قفز فوق الجدول، ولمس إبرهارد النائم بقدمه، ومن ثم أيقظه. تتأهب هذا الرجل الرائع، ومد ذراعيه فوق رأسه.

وقال: «أنت كالطائر الذي يستيقظ في وقت مبكر جدًا، يا جريسيل.» وتابع: «هل اصطدت شيئاً؟»

رد الآخر قائلاً: «أجل، فعلت.» وأضاف: «وجدتها عند حوض شلال مياهٍ على بُعد نحو فرسخ من هنا»، وما إن قال هذا حتى أزاح عباءته جانباً ليُظهر الصرّة الفارغة التي كانت لا تزال مبتلة.

لم يفهم إبرهارد شيئاً لبضع لحظات. ثم نهض وهزّ نفسه وألقى نظرة خاطفة حوله.

ثم صاح قائلاً: «يا إلهي! هذا بالتأكيد ليس الجدول المائي الذي بتنا عنده الليلة الماضية؟ هل تقصد أن تُخبرني بأن خيط الماء هذا هو الذي بث الرعب في قلبي قبل بضع ساعات؟ أنا لم أنم في الهواء الطلق من قبل في حياتي كلها، ولا أستطيع أن أتخيل أن هذا سيترك مثل هذا التأثير عليّ. الآن، أنا أفهم ما تقصده. لقد وجدت الصرة التي ألقاها رولاند في السيل الرغوي.»

«أجل؛ لقد اندهشتُ كثيرًا من هذا التحوُّل مثلك تمامًا حين استيقظت، ثم خطر على بالي أنه حين يرى أصدقائنا انحسار جدول الماء، حينئذٍ سيشرعون في البحث عن الكنز؛ لذا قرّرت أن أطمس الدليل.»

«هل كانت الصرة تَمْتَلئ بالأحجار فعلاً؟»

«أوه، أجل.»

«حسنًا، هذا درس لي. أظن بعد كل هذا أن رولاند صادق على نحوٍ غير قابل للشك، ولكنني كنت أظن الليلة الماضية أنه كان يخدعنا. كنت متأكدًا من أنه ألقى بصرة المال، وعندما شعر بالخزي، كَذَب علينا.»

«وكيف أمكنكَ تخيُّل ذلك؟ لقد أخرج لكينا صرة المال.»

«لقد أخرج صرةً مليئةً بشيءٍ ما، ولكنّي، باعتباري توما المُشكِّك في هذه المجموعة، لم أقتنع بأن داخلها أموالاً.»

«أها، لقد ذكّرتني، إبرهارد؛ ها هي ذي الصرة التي رأيناها ليلة أمس. اكتشفتُ أنها مربوطة إلى حزامي هذا الصباح.»

«إذن، ثبَّتْها في الحزام الخطأ، لأنك صدقته. كان ينبغي عليه أن يربطها في حزامي. ما السبب الذي أعطاه لتقديمها إليك؟»

«أوه، أنت تَمَسُّ الآن نقطة تشغل ذهني. لم أرَ أثرًا لروланд هذا الصباح. لذا، افترضت أنه استيقظ قبلي، وتوقَّعت أن ألتقي به في مكانٍ ما على طول الجدول المائي، ولكن لم أَلْتِقْه.»

«لعلَّه شرد بعيدًا. وبما أنك عثرت على الصرة، فبال تأكيد هو فقدها، وواصل على الأرجح بحثه.»

«أشكُّ في ذلك؛ لأنني وصلت إلى نقطةٍ أستطيع أن أنظر من خلالها إلى نهر الراين والتلال فيما وراءه. واستطعتُ أن أتتبع مسار الجدول المائي مسافة كبيرة، وراقبته فترة طويلة، ولكن هناك بدا أنه لا أثر لشيء على قيد الحياة في الغابة.»

«أنت لا تفترض أنه عاد إلى فرانكفورت، أليس كذلك؟»

«أنا في حيرة من أمري.»

«إذا كان قد هجر هذه المجموعة من الساخطين، فينبغي أن أكون آخر مَنْ يلومه. كانت الطريقة التي تصرَّف بها هؤلاء الخنازير أمس مُهينة، ليُنْهوا يومهم بإعلان العصيان والتهديدات بالعنف. بحق الصليب الحديدي، يا جريسِل، لقد ترك هؤلاء الأوغاد، وهذا ما يستحقُّونه تمامًا، فهم يتشدَّقون فقط بمبادئ الزمالة ويتصرَّفون كالسفاحين. هذه هي طريقة رولاند لإعادة أموالنا إلينا؛ إذ أظن أن الصرة تحتوي على الثلاثين تالراً الخاصة بك والخمسة والعشرين الخاصة بي.»

«أجل، والستون الخاصة به أيضًا. إن هذا الشيطان البائس المُحبَط كان كريماً حتى النهاية. كان هو مَنْ جلب كل الأموال في البداية، ولكن هؤلاء الخنازير الثَّملة أنفقوها على الخمر، وأثبتَ كرمه وشجاعته لدرجة أن الثمانية عشر رجلاً استجمعوا كلَّ شجاعتهم لمواجهة، وهو الرجل الذي أغدق عليهم الأموال.»

«جريسِل، الموقف كله يُشعرني بالاشمئزاز. أقترح أن نترك المجموعة نائمة هنا، ونذهب إلى فيسبادن لتناول الإفطار، ثم نعود سيرًا على الأقدام إلى فرانكفورت. هذا من شأنه أن يُلقي بالأوغاد.»

قال جريسِل بنبرة هادئة: «لا، سأنفذ تعليمات رولاند.»

«أعتقد أنك لم ترَ هذا الصباح؟»

«إنه لا أثر له. أنت سمعت أوامره في بريكنهايم.»

«لا أتذكَّر. ماذا كانت أوامره؟»

«إذا حدث له أي شيء، فعليَّ أن أقود القطيع إلى أسمانسهاوزن. أنا متفق معك تمامًا، يا إبرهارد، أن لديه ما يُبرِّر تركه لهؤلاء الأوغاد، ولكن من ناحية أخرى، أنا وأنت وقفنا

بإخلاص معه، ولا يبدو أنه مُحَقٌّ في تركنا بلا كلمة. أنا لا أصدِّق أنه قد فعل ذلك، وأتوقَّع عودته في أيِّ لحظة.»

«أنت مخطئ، يا جريسيل. لقد رحل. وهذه الصرة تفسير كافٍ، وبما أنك نكَّرتني بتعليماته، فأعتقد أن ثمة شيئاً فرض نفسه عليه في وقتٍ باكر من هذا اليوم. لقد حرم نفسه من كل كرويتسر من هذه الأموال التي كانت في حوزته، وسلَّمها إليك، وبدلاً من أن يعود إلى فرانكفورت، شق طريقه عبر التلال إلى أسمانسهاوزن، وسينتظرنا هناك.»

«وما الهدف وراء ذلك؟»

«ربما يكون أحد الأسباب هو أنه سيَعرف ما إذا كان لديك القدرة الكافية للسيطرة على هؤلاء الرجال لتأتي بهم إلى نهر الراين أم لا. وسيُقنع نفسه بأن انضباطك يتمثَّل في تحسين سلوكياتهم. وربما يكون في نيته أن يستقيل ويجعلك أنت القائد، إذا أثبتَّ قدرتك على السيطرة عليهم.»

«وافترض أنني فشلتُ في ذلك؟»

«حسنًا، إذن — تذكر أن هذا مجرد تخيُّل — أعتقد أنه ربما سيتجول في أسمانسهاوزن ليعثر على صحبة أخرى ستكون على الأقل مُطبعة له.»

«ما تقوله يبدو منطقيًّا للغاية. ورغم ذلك، أنا لا أرى السبب وراء ترك صديقين مثلنا دون أيِّ كلمة منه.»

«عزيزي جريسيل، الكلمة من شأنها أن تقود إلى أخرى، ثم كلمة أخرى، ثم أخرى. أحد الأسئلة الأولى الذي من شأنك أن تطرحه عليه هو: «ولكن ماذا سأفعل أنا وإبرهارد؟» هذا بالضبط ما لا يرغب في أن يجيب عنه. هو يريد أن يَعرف ما الذي ستفعله بمحض إرادتك. لقد فقدَ الأمل على الأرجح في هؤلاء الرُّعاع، ولكنه يُعطيك فرصة، ثم فرصة أخرى. عجبًا، خطته واضحة مثل الجدول المائي الصغير الموجود هنا، ويمكن رؤيتها بكل سهولة. إنك إما أن تعبرَ بهؤلاء الرجال عبر التلال، أو لا تفعل ذلك. إذا أُجبرنا أنا وأنت على تسلُّق التلال ووصلنا إلى أسمانسهاوزن بمفردنا، فعلى الأرجح سيسعد رولاند برؤيتنا أكثر مما إذا أحضرنا هؤلاء الأوغاد في أعقابنا. فهو سيُعيِّنك النائب الأول في مجموعته الجديدة، وأنا النائب الثاني. وإذا كنت تشك في استنتاجاتي، فسأراهن بخمسة وعشرين تالراً مقابل الثلاثين الخاصة بك بأنني محق.»

«أنا لا أقامر مطلقًا، يا إبرهارد، لا سيما حين تكون الخسارة حتمية. أنت أكثر دهاءً مني؛ أكثر بكثير.»

في أيّ عمل أدبي، بالطبع سيُخفى حتى الوقت المناسب ما إذا كان هذان الرجلان مخطئين تمامًا بخصوص تكهّناتهما بشأن مصير رولاند، ولكن نظرًا لأن هذه رواية تاريخية، فلعلنا نقول إن الشاب لم يكن لديه أدنى رغبة في اختبار قدرة جريسيل، ولن يجده نائباه ينتظرهما حين يصلان إلى أسمانسهاوزن.

«مرحبًا! استيقظوا! ماذا لدينا من أجل الإفطار؟ هل شُرب النبيذ كله؟ لا أتمنى ذلك. فمي جاف كفرن حجري!»

كان هذا هو كورزبولد الشجاع الذي تحدّث، وهو يركل على نحوٍ لعبٍ، لا بلطف بالغ، رفاقه الذين يرقُدون بالقرب منه. جاءه الرد على هيئة آهات ولعنات، مع استيقاظ النائمين واحدًا تلو الآخر وهم يتساءلون أين هم بحق السماء.

صاح جينسبين قائلاً: «مَن الذي سرق النهر؟»
قال ثالث: «أوه، لا يهْمُ سرقة النهر». وأضاف: «هو مجرد مياه جارية. مَن الذي شرب النبيذ كله؟ هذا هو السؤال الأهم.»

«حسنًا، بصرف النظر عن سلب النهر، يُمكنني أن أقسم بأن محفظتي لم تُسرق مني دون أن أتحمّسها؛ لأنني أنفقتُ آخر كرويتسر معي أمس.»
تذمّر كورزبولد قائلاً: «لا تتفاخر». وأضاف: «لست وحدك في فقرك هذا. نحن جميعًا نعيش الحالة نفسها. العنوا رولاند الأحمق هذا لتخلّصه من الأموال التي نحن في أمس الحاجة إليها.»

قال جينسبين الفيلسوف: «هناك حاجة ماسّة دومًا للمال.»
ثم نهض وهز نفسه، ثم ألقي نظرة على الغدير الجميل والصغير.
وإضافة: «أيها الرجال، هل كنّا في حالة سكر طوال الليلة الماضية؟ هل كان هناك سيل مُتعدّد عبوره هنا أم لا؟»
صاح كورزبولد: «كيف يتسنّى لنا السكر، أيها الأحمق، بأكثر قليلًا من لتر نبيذ لكلّ منّا.»

رد صديقه قائلاً: «من فضلك، كُنْ مُهذَّبًا في حديثك أكثر من ذلك.» وتابع: «لقد كنت ثملًا طوال اليوم. كان اللتر والنصف مجرد الكأس الأخيرة. وإذا كنت واثقًا أن هناك سيلاً، إذن فلا بد أنني أعاني الحالة نفسها مثلك.»

هنا صرخ متحدث الليلة السابقة الذي جرى توبيخه لأنه لم ينقضّ على رولاند قبل أن يتمكن من التخلص من الكنز.

وقال: «هذه المياه صافية مثل الهواء. يُمكنكم رؤية كل حصة في القاع. شَمُّروا عن سواعدكم، أيها الناعسون، وابحثوا على طول جدول المياه. سنستعيد تلك الصرة، ثم نعود إلى سونينبرج لتناول الإفطار. ومن يجدها، يجدها من أجل العصابة؛ إذ سنوزعها توزيعاً عادلاً ومُتساوياً فيما بيننا. أي، بيننا نحن الثمانية عشر. وأظن أن رولاند وجريسيل وإبرهارد لا يُشاركوننا إياها. لقد خطَّطوا لسرقتنا.»

صاح الآخرون: «نحن مُوافقون!» ثم بدأ البحث عن الكنز باندفاع.

شاهدهم جريسيل وإبرهارد يَخْتَفون عبر الغابة على طول جدول الماء.

قال إبرهارد: «جريسيل، يا له من شغف مُؤسف ذلك السعي المحموم وراء الأموال في هذه الأيام، لا سيما تلك الأموال التي لم نكسبها. الباحثون عن الكنز المتحمسون لا يُدركون أن الموضوع الوحيد الذي يستحق التفكير في تلك اللحظة من الصباح الباكر هي وجبة الإفطار. نظراً للإسراف والجشع الذي ساد الليلة الماضية، سيحتاج الأمر إلى صيد كمية كبيرة من السمك كي يَكْفِيهم اليوم. يوجد من الطعام ما يكفي بالكاد لرجلين، وبما أننا قد تَخَلَّصنا من هؤلاء الرجال لمدة نصف ساعة على الأقل، أقترح أن نجلس لتناول وجبتنا الأولى.»

لم يُعلِّق جريسيل على هذه الملاحظة، ولكن النصيحة راقته له؛ إذ عمل بها. وبعد فترة من انتهاء تناولهما الإفطار، عادت المجموعة الفاشلة مثنى وثلاث. وبدا أنهم لم يتجولوا لمسافة أبعد من الشلال؛ إذ إنه لم يتحدث أحد منهم عن المنظر الرائع لنهر الراين. بالتأكيد، كان من الواضح أنهم اعتبروا أنفسهم علقوا في برية لا حدود لها، وكانوا في حيرة بالغة من أمرهم بخصوص اقتراح المخرج. وبعد وابل اللعنات بسبب عدم تناولهم الإفطار، وبعد شجار طويل فيما بينهم حول مَنْ أكثرهم جشعاً الليلة الماضية، حوّلوا انتباههم إلى الرجلين الصامتين اللذين يراقبانهم.

تساءلوا: «أين رولاند؟»

أجاب جريسيل: «لا أعرف.»

«ألم يُخبركما إلى أين سيذهب؟»

رد إبرهارد بلطف: «لم نره هذا الصباح.» وتابع: «يبدو أنه اختفى في جنح الليل. لعله سقط في جدول الماء. أو لعله تركنا عمداً. إنه لم يُعطينا أيَّ إشارة على نواياه الليلة الماضية، ونحن نجهل مكانه مثلكم تماماً.»

صاح كورزبولد قائلاً: «هذا شيء مُخزٍ!» وأردف: «من واجب القائد أن يَعُول أتباعه.»

«أجل؛ إذا كان أتباعه يتبعونه.»

قال كورزبولد في سخط: «لقد تبعناه، واقتادنا إلى هذه الصحراء، ونحن لا نعرف حتى أين نحن بحق السماء. وها نحن أولاء قد تركنا هكذا، بلا إفطار، عطشى ...» هنا، توقف كورزبولد عن الكلام ولم يستطع إكماله، ووضع ظهر يده على شفتيه الجافتين. واصل إبراهيم كلامه بنبرة هادئة قائلاً: «حين تتذكرون، أيها السادة، أن آخر تعامل مع قائدكم كان عبارة عن ثمانية عشر سيفاً موجهاً إليه؛ وحين تتذكرون أنكم عبرتم عن تصميمكم على سرقة، وحين تستحضرون إلى الذهن أنكم، أنتم الثمانية عشر رجلاً الشجعان، هددتموه باستخدام العنف على المستوى الشخصي إذا قاوم هذا السطو من جانبكم، فلا أستطيع أن أفهم لماذا تندهبون من انسحابه من قيادتكم.»

«أنت متحدث معسول الكلام دومًا، لكن السؤال الآن: هو ما الذي سنفعله؟»

قال إبراهيم: «أجل، وهذا سؤال عليكم أن تقرروا الإجابة عنه.» وتابع: «عندما تمردتم الليلة الماضية، عزلتم رولاند عملياً من القيادة. في رأيي، لم يعد لديه أي التزامات ناحيتكم، ولذا، بما أنكم استوليتم على السلطة تقريباً وصارت بين أيديكم، لكم أن تتعاملوا مع الأمر على أفضل وجه تظنونونه. ولا ينبغي أن أنسى نفسي بحيث أخطر حتى بتقديم اقتراح.»

قال كورزبولد: «كما ألمحت لك، أنت تتحدث كثيراً. أنت مجرد واحد منّا، على الرغم من أنك تعزل نفسك عنّا. لقد عُين جريسيل نائباً من خلال التصويت بالإجماع، وإذا ثبت أن رئيسه رعيد جبان، فهو الرجل المنوط به التصرف. ومن ثم، جوزيف جريسيل، أسألك بالنيابة عن المجموعة عما الذي تنوي فعله.»

رد جريسيل قائلاً: «قبل أن أتمكن من الإجابة عن هذا السؤال، يجب أن أعرف ما إذا كنتم ستصرفون كما تصرفتم بالأمس أم لا؟»

«ما الذي تقصده بذلك؟» طرح عدة رجال في نفس واحد هذا السؤال.

«أريد أن أعرف ما إذا كنتم ستتبعونني إلى حيثما أقودكم برحابة صدر وبدون اعتراض؛ فأنا أرفض أن أقوم بدور الموجه إذا كنت أخطر بمواجهة ثمانية عشر سيفاً مصوباً نحو رقبتى بينما أبذل أنا قصارى جهدي.»

علق كورزبولد قائلاً: «أوه، أنت تتحدث كأحمق.» وأردف: «لقد تبعنا رولاند بإخلاص كافٍ حتى وصل بنا إلى هذا المأزق. أنت تبالغ كثيراً في حادثة الليلة الماضية. لم يقصد أيُّ منّا أذيتك، كما تعلمان جيداً، وبالإضافة إلى ذلك، نحن لا نريد قائداً خائفاً يهرب عند ظهور أول علامة خطر.»

قال جريسيل في عناد: «خذوا قراركم بخصوص ما تنون القيام به، وأبلغوني به، وحينئذ سأبلغكم بقراري.»

لاحظ جريسيل أنه على الرغم من أن كورزبولد تحدّث كالفتوة الذي هو عليه، سكت الآخرون في خضوع، ولم يرتفع أيُّ صوت سوى صوته دفاعاً عن سلوكهم السابق. تابع كورزبولد حديثه قائلاً: «هناك شيء واحد يجب أن نخبرنا به قبل أن نتمكّن من اتخاذ قرار.» وأضاف: «كم لديك من المال أنت وإبرهارد؟»

«في مُنتصف نهار أمس، كان معي ثلاثون تالراً، ومع إبرهارد خمسة وعشرون. وبينما كنتم جميعاً نائمين على الحشيش، بعد وجبتنا في بريكنهايم، طلب رولاند منّا المال.»

«بالتأكيد لم تكونا غيّين لدرجة إعطائه إياه؟»

«كان قائدنا، ورأى كلانا أنه من الصواب أن نفعل ما يطلبه منّا.»

أوضح إبرهارد قائلاً: «قال إن اقتراحك بخصوص عمل لجنة مالية كان اقتراحاً جيداً، وقد قرّر تشكيل تلك اللجنة. وسألنا ما إذا كان لدى أيّ منكم أموال، ولكنني أخبرته بأنني أظن أنها أنفقت كلها، ولهذا السبب على الأرجح اقتصر طلبه علينا نحن الاثنين.» صاح كورزبولد قائلاً: «إذن، نحن هنا وسط برّية غير معروفة، عشرون رجلاً، جائعون، وليس معنا أيُّ نقود؟! وكانت التعليقات التي قالها الواقفون وراءه مُثيرة للشفقة.»

«يسرّني أنكم أخيراً تُقدّرون موقفنا تماماً، وأتمنى أن تدركوا أن الموقف لم يكن نتيجة لغلطة ارتكبها رولاند، الذي رضخ لأهوائكم وتصرفاتكم الطائشة حتى وصلتم إلى حد القتل والسرقة. لذا، لوموا أنفسكم ولا تلوموه. والآن، أنتم تعرفون عن موقفنا مثلما أعرف، ولذا خذوا قراركم بشأن الخطوة التالية، وأبلغوني بالقرار النهائي الذي توصلتم إليه.»

صاح كورزبولد في ازدياء: «يا لك من قائد شجاع وجبار!» وبهذه العبارة، تراجع الرجال الجياع إلى البستان، ومن هناك جاء صدى نقاش غاضب إلى سَمع الرجلين اللذين جلسا على حافة الجدول المائي. وبعد مرور بعض الوقت، تقدموا إلى الأمام مرة أخرى. مرة أخرى، كان كورزبولد هو المتحدث.

«لقد قرّرنا الرجوع إلى فرانكفورت.»

«جيد جداً!»

«أفترض أنك تتذكّر ما يكفي من الطريق الذي يقودنا على الأقل حتى فيسبادن. بعد هذه النقطة يُمكننا أن نعتني بأنفسنا.»

قال جريسيل: «كم يُسعدني أن أكون مرشدكم، ولكن للأسف سأسافر مع إبرهارد في الاتجاه الآخر.»

زأر كورزبولد قائلاً: «لماذا، بحق هؤلاء الجياع؟» وتابع: «أنت لا تعرف شيئاً عن البلدة التي أمامنا كما هو الحال بالنسبة لنا. بالعودة مرةً أخرى، يُمكننا أن نحصل على شيء لنأكله، ونشربه، من أحد المزارع التي سنمرُّ عليها على هذا الجانب من سونينبرج.»

تساءل جريسيل: «وكيف ذلك؟»

«عجباً، إذا طلبوا مالاً، فسنعطيهم حديداً بدلاً من الفضة. لا أحد يموت جوعاً ويتدلى السيف من جانبه.»

«لنفترض أن هذا يُمكن تحقيقه، وأن المزارعين سيستسلمون لك بدلاً من أن يُثيروا أهالي المنطقة ضدك، عندما تصل إلى فرانكفورت ما الذي ستفعله؟ تأكل وتشرب مع صاحب حانة راينجولد حتى يصير مُفلساً؟ يجب أن تتذكّر أن رولاند هو مَنْ سَوَّى دَيْنَنَا الأخير هناك، دون أن يطلب أو يتلقّى كلمة شكر واحدة، وفعلَ ذلك في وقت قريب جداً حين تبددت موارد صاحب الحانة وأوشك على إعلان إغلاق حانته في غضون أسبوع آخر.»

ثار كورزبولد جرّاء تكرار الحديث نفسه عن رولاند وكرمه، ولكن مَنْ معه كانوا جياعاً، والآن تذكّروا، بعد فوات الأوان، أن ما قاله جريسيل كان حقيقياً تماماً. لو كان رولاند يتظاهر حينذاك، لوجد مجموعة سهلة الانقياد. في الواقع، كانوا يتدمّرون ضد كورزبولد، ويلومونه وجماعته على الكارثة التي حلّت بهم.

تساءل النادمون برفق مُثير للدهشة: «لماذا لن تأتي معنا؟»

«لأن المستقبل في فرانكفورت يبدو لي ميئوساً منه. لا أحد بيننا لديه عقلٌ مُدبّر مثل رولاند، الذي طردناه. بالإضافة إلى ذلك، يفصلنا عن فرانكفورت تسعة فراسخ ونصف، فقط ثلاثة فراسخ ونصف عن أسمانسهاوزن. أتوقّع أن نجد رولاند هناك، وعلى الرغم من أنني لا أعرف شيئاً عن نواياه، أتخيّل أنه ذهب لتجنيد مجموعة من عشرين فرداً أو نحو ذلك، وأنهم سيطيعون أوامره. هناك بعض الأمل في الذهاب إلى أسمانسهاوزن؛ وقطعاً لا أمل وراء الرجوع إلى فرانكفورت. إذن، كما قلت، أسمانسهاوزن على بُعد أكثر من ثلاثة فراسخ بقليل؛ وهي حقيقة تستحق التفكير من جانب رجالٍ جياع. وعلى ضفة نهر الراين، نحن في مكانٍ غنيٍّ بالنبيذ، حيث يوجد الكثير من الطعام والشراب، المتاحة للجميع على الأرجح، بينما إذا أدركنا وجوهنا نحو الشرق فنحن نسير نحو الفاقة.»

جلبة التعليقات التي علّت بعد هذا الحديث أثبتت للرجلين أن كورزبولد وقف وحده مرةً أخرى. لقد أقنع جريسيل، دون أن يُبدي اهتماماً بخط سير الأمور، ذلك الحيوان غير العقلاني بأن يتصرّف مثلما يروق له. وتظاهره باللامبالاة المطلقة أثار إعجاب إبرهارد، لا سيما حين تدكّر أنه تحت عباته يوجد مائة وخمسة عشر تالراً ذهباً وفضةً. اعترض كورزبولد قائلاً: «ولكنك لا تعرف شيئاً عن الطريق.» وأضاف: «لا أحد منّا يعرف شيئاً عن المناطق الواقعة ناحية الغرب.»

قال جريسيل: «لسنا بحاجة إلى معرفة ذلك.» وتابع: «نحن نتحرّك نحو الغرب من خلال النظر إلى الشمس من الحين إلى الآخر، ولا يُمكن أن نضل الطريق؛ لأننا لا بد أن نصل إلى نهر الراين؛ ثم سنسلك إما أعلى أو أسفل النهر، حسبما يقتضيه الحال، لنصل إلى أسمانسهاوزن.»

جاءت الصيحة من الجميع: «إلى الراين! إلى الراين!» قال جريسيل، كما لو أنه قبلَ بالقيادة على مضض: «قبل أن نبدأ رحلتنا، يجب أن تَعِدُونِي بأنكم ستُطيعونني من غير جدال. أنا لستُ رجلاً صبوراً مثل رولاند، ولكن من جانبي أنا أضمن لكم وجبةً مُمتازة ونيبذاً جيداً بمجرد أن نصل إلى أسمانسهاوزن.» قال كورزبولد بامتعاض: «كيف تعدُّ بذلك، في حين أنك قد تخلّيت عن أموالك؟» «لأنني، كما قلت لك، أتوقّع مقابلة رولاند هناك.»

«ولكنه ألقى بصرته.» «أجل؛ أخبرته بأنه تصرّف أحمق، وربما يكون هذا هو سبب مغادرته دون أن يتفوه بكلمة، حتى لي. إنه رجل داهية. أسمانسهاوزن مألوفة بالنسبة إليه، وأجروا على القول إنه لن يُلقَى بأمواله دون أن يعرف من أين يأتي بالمزيد.» «إلى الراين! إلى الراين! إلى الراين!» صاح الجمع المتعجّل، وهم يجمعون عباتهم، ويوثّقون أحزماتهم، كما يفعل الهمج عندما يتملّكهم الجوع. قال جريسيل، وهو يثب عبر جدول المياه الصغير في صحبة إبرهارد: «إلى الراين، إذن.»

أثنى عليه الآخر قائلاً: «لقد أجّدت فعل ذلك، يا جريسيل.» رد القائد الجديد قائلاً: «أنا أفضل الذهاب بمفردي معك؛ لأنني حكمت على نفسي بارتداء هذه العباءة الثقيلة، المناسبة جداً للنوم بها، ولكنها مُرهقة تحت أشعة الشمس الحارقة.»

قال صديقه مُتنبئاً: «لن تكون الشمس خانقة جدًّا، بينما نلتزم نحن بالسير في الغابة.»

«هذا صحيح جدًّا، ولكن تذكّر أننا في مكانٍ ما بمنطقة راينجاو، ولا بد أن نتوغّل في مزارع الكروم عما قريب.»

«لا تتذمّر، يا جريسِل، ولكن ارفع رأسك عاليًا كدبلوماسي عظيم. رولاند نفسه لم يكن ليستطيع السيطرة جيّدًا على هؤلاء الرجال مثلك، أيها المنافق المتكبر، الرأسمالي الوحيد بيننا، ورغم ذلك تتحدّث كما لو كنت راهبًا مقدّرًا له الفقر الأبدي.»

غَيّر جريسِل الموضوع.

قال: «ألا تلاحظ أننا نتبّع طريقًا معيّنًا، الذي لا بد أننا سرنا فيه الليلة الماضية، دون أن نراه وقت الغسق.»

قال إبرهارد: «أظن أن رولاند كان يعرف جيّدًا إلى أين يذهب. لقد كان يَسبقنا كما لو كان شخصًا واثقًا من طريقه. لا أشكّ في أن هذا الطريق سيقودنا إلى أسمانسهاوزن.»

تَجَدّر هنا الإشارة بأنه لم يكن يقود إليه. كان الطريق عبارة عن مسارٍ ضيّقٍ للغاية، قد يتبعه رجل حادّ البصر، وكان يُفضي مباشرة إلى قلعة إيرنفيلس الخاصة برئيس الأساقفة.

امتدّت الغابة مسافة طويلة قدّرَها الرجلان اللذان في مقدمة المجموعة بفرسخين، ثم خرجوا إلى الريف المفتوح، ورأوا الكرمات المرحّبة النامية. وما إن خرجوا من الوادي مُتسلّقين حتى لاحظوا على اليمين، بالقرب من قمة تل، قرية صغيرة، وهو ما كان له تأثير فوري على رفع الرُّوح المعنوية للمجموعة اليائسة.

صاحوا قائلين: «مرحبًا بالإفطار!» ولولا أنهم كانوا مُتعبين، ولولا انحدار التل، لاقترحوا المكان ركضًا.

صاح جريسِل بصرامة، وهو يقف أمامهم وفوقهم: «توقفوا!» على الفور، أطاعوا أوامره، الأمر الذي جعل إبرهارد يبتسم.

وأردف جريسِل قائلًا: «إنكم ستتسلّقون حتى تصلوا لأعلى هذا التل، وهناك ستستريحون تحت قيادة نائبي، إبرهارد. وبينما نحن نتقدّم نحو الحضر، يجب أن تعلموا أننا إذا كنا سنحصل على وجبة إفطار، فلا بد أن يحدث هذا بالإقناع؛ لا بالقوة. ومن ثم، بينما تنتظرون أعلى التل، سأذهب بمُفردٍ إلى المنازل الموجودة ناحية اليمين، وأرى ما يُمكن فعله بخصوص تقديم وجبة لثمانية عشر رجلًا. سأصوم أنا وإبرهارد عن

الطعام حتى نصل إلى أسمانسهاوزن. ومن ناحية أخرى، ينبغي أن تكونوا على استعداد لقبول خيبة الأمل؛ فلن نحصل على أرغفة الخبز بإشهار السيوف. وإذا عدتُ وأمرتكم بالسير دون تناول الطعام، فيجب عليكم القيام بذلك بمرحٍ بقدر ما تستطيعون.»

لم يُثر أي اعتراض على هذا الإنذار الأخير، وقاد إبرهارد المجموعة بينما انحرف جريسِل ناحية اليمين وهو يصعد التل، ليصل إلى القرية على نحو أسرع.

عرّف أن اسم المكان هو أنطون-كاب، وأن الطريق الذي كان يسلكه سيأخذه إلى إيرنفيلس، وأنه يجب عليه أن يأخذ طريقًا جبليًا وعرا إلى حدٍّ ما ناحية اليمين حتى يصل إلى أسمانسهاوزن.

ومن خلال استنزاف موارد المكان بعض الشيء، والذي اتّضح أنه لا يوجد به حانة، جمع القدر الكافي من الخبز لثمانية عشر رجلاً، ولم تكن هناك أزمة في النبيذ، على الرغم من أنه اتّضح أنه شراب رديء لا يعكس على نحو حقيقي سمعة منطقة راينجاو في هذا الشأن. وقد سدّد ثمن هذه الوجبة مقدّمًا، مُصرّحًا أنهم جميعًا في عجلة من أمرهم للوصول إلى أسمانسهاوزن، وأراد أن يُغادر فور الانتهاء من تناول وجبة الإفطار المقتصدة هذه.

وبعد صعود رابية صغيرة غرب القرية، أشار إلى الرجال الصابرين ليصعدوا، والذين فعلوا ذلك بسرعة شديدة. هنالك، تناولوا الخبز وشربوا النبيذ دون أن ينبس أحدهم ببنت شفة. وبعد ذلك، نزلوا من على التلّ مرةً أخرى، وعبروا جدول جايسنهايم الصغير، وصعدوا مرةً أخرى، ليجتازوا نجدًا عاليًا منّهم إطلالة على نهر الراين، وفي النهاية نزلوا عبر وادٍ آخر، قادهم إلى أسمانسهاوزن، المشهورة بنبيذها الأحمر، اللون الذي لم يروه من قبل قط.

ثبت لهم أن أسمانسهاوزن مدينة مقارنة بالقرى الصغيرة التي مروا عليها، ورغم ذلك كانت صغيرة بما يكفي بحيث يُمكن استكشاف المكان استكشافًا كاملاً دون بذل الكثير من الجهد أو تضيق الكثير من الوقت. قاد جريسِل رجاله إلى حانةٍ توجد خارج القرية بمسافة قصيرة، وما أسعدهم أن كلّاً منهم نجح في الحصول على لترٍ من النبيذ، بالإضافة إلى وجبة كبيرة مكوّنة من اللحم والبيض وما إلى ذلك. تركهم جريسِل وإبرهارد هناك في ذروة استمتاع كبير، جميعهم في حالة سعادة غامرة بعد الشعور بالجوع والإجهاد الشديدين؛ إذ إن مسافة الثلاثة فراسخ ونصف التي قطعوها لم تكن على أرضٍ مُستوية منبسطة تقريبًا. سأل القائدان عن رولاند، ولكن بلا جدوى، في مُختلف الحانات التي

تشتهر بها أسمانسهاوزن، ثم طافا على كل بيت في القرية، ولكن لا أحد منهم رأى رجلاً بالأوصاف التي ذكرها.

وبالوصول إلى واجهة النهر، وقد تملَّكهما الشعور بالإحباط الشديد، حدَّق الاثنان في المياه الفارغة، التي خلَّت من الحركة النابضة بالحياة. صار من الواضح الآن لهما أن رولاند لم يدخل أسمانسهاوزن؛ حيث إنه لا يُمكن أن يمر شخص غريب في قرية صغيرة وثرثارة كهذه دون أن يلاحظه أحد.

تساءل إبراهيم: «حسنًا، يا جوزيف، ما الذي تتوي فعله؟»

«لا يوجد شيء نفعله سوى الانتظار حتى نفاذ أموالنا. من المؤكَّد تمامًا أن رولاند ليس هنا. هل من الممكن أن يعود بعد كل ذلك؟»

«كيف يُمكنه فعل ذلك؟ نحن نعرف أنه بلا مال؛ ومن ثمَّ لماذا يذهب إلى فرانكفورت، حتى وإن كانت مثل هذه الرحلة مُمكنة لرجل مُفلس؟»

قال جريسيل في يأس: «أنا حزين الآن لأنني لم أتَّبِع الاقتراح الذي خطر على بالي، والمتمثِّل في أن آخذَ الرجال مباشرة من الوادي الذي خيَّمنا فيه، إلى ضفاف نهر الراين، وأقوم بالتحريات هناك.»

«هل تظنُّ أنه ذهب في هذا الاتجاه؟»

«أظنُّ ذلك، حتى تقنعني أنت بغير ذلك.»

«مرةً أخرى أتساءل عن هدفه.»

«يبدو لي أن هذا التمرد ترك انطباعًا في ذهنه أكبر مما توقَّعته. ففي النهاية، هو ليس واحدًا منَّا، ولم يكن كذلك أبدًا. أنت نفسك أشرت إلى ذلك حين تحدثنا عنه في بريكنهايم. إذا لاحظت نظراته لنا التي تنمُّ عن الازدراء بينما كنَّا نستمتع بوقتنا كأسرة واحدة سعيدة في قبو القيصر، فلماذا العجب من ازدرائه للعصبة بعد يوم مثل البارحة؟»

«هذا صحيح. يجب أن تسافر مع المرء لتعرف حقيقة شخصيته.»

«هل تقصد رولاند؟»

«أقصد هذه العصبة المُسرفين في الشراب بالحانة. وأقصدك أنت، وأقصد نفسي؛ أجل أقصد رولاند كذلك. لم أكن أعرف مطلقًا حتى أمس واليوم أنك رجل قدير، وحين أتذكَّر أنني رشَّحت كورزبولد ليكون قائدنا قبل أن يظهر رولاند على المشهد، أندesh من قلة خبرتي في الحكم على الرجال. أما بالنسبة إلى رولاند نفسه، فلقد سقط من نظري. لا شيء

كان يُمكن أن يُقنعني بأنه سيتخلّى عنّا جميعاً دون إيضاح، بصرف النظر عما حدث. وتوقّعاتي بخصوص تصرفاته كانت خاطئة فيما يبدو. في رأيك، ما الذي حدث فعلاً؟»
 «في رأيي أنه كلما فكّر في التمرد، زاد شعوره بالغضب؛ وهو غضب فاتر وعنيد، لا صوت له على الإطلاق، بخلاف غضب كورزبولد. أظنّ أنه بعد أن ثبت الأموال في حزامي خرج إلى الوادي ومنه إلى نهر الراين. يجب أن تتذكّر أنه يعرف المنطقة. إنه سينتظر هناك حتى تظهر السفينة، أو على الأرجح سيمضي قدماً على طول حافة النهر، وينادي على القارب حين يظهر في الأفق. وسيعرفه القبطان، وينعطف، ونحن نعرف أن القبطان يُطيع أوامره. لا شك أنهم في هذه اللحظة يقطعون طريقهم ببطء عبر نهر الراين ومنه إلى رافد ماين؛ ومن ثمّ سيصلون إلى فرانكفورت. لقد وُضع السيد جوبل ثقته في رولاند، وإلا ما كان ليُخاطر أبداً بكلّ ما خاطر به لمجرد وعد منه. إنه سيعترف لموله بأنه أخطأ الظن بنا، وبلا شك سيُخبره بكلّ ما حدث، وسيُقدّر التاجر ذلك، على الرغم من أنه فقد الخمسمائة تالر الخاصة به، ولكن لن يسمح رولاند بأن يفقد بضاعته أيضاً.»

«هل تفتّرض أنّ رولاند سيُجنّد مجموعة أخرى؟»

«من المُحتمل جدّاً، نظراً لأنّ السيد جوبل يثق فيه، والله أعلم، هناك عدد كافٍ من العاطلين في فرانكفورت ليُختار رولاند من بينهم مجموعة أفضل منّا.»
 كان من المؤكد تماماً أن رولاند ليس في أسمانسهاوزن، إلا أن توقّعات جريسيل كانت خاطئة مثل تلك الخاصة بإبرهارد تماماً.

الفصل التاسع

عرض زواج رسمي

حين تدنُّ رولاند في عباءته، واستلقى على المرج الموجود على بُعد مسافة صغيرة من المنطقة التي نام فيها مساعداه، وجد أنه لا يستطيع أن يحذو حذوهما. وعلى الرغم من أنه ظلَّ هادئًا تمامًا من الناحية الظاهرية حين سُنَّ الهجوم عليه، فإن ذهنه ظل مشوشًا بدرجة كبيرة تجاه المستقبل المنظور. لقد راجع سلوكه، مُتسائلًا عما إذا من الممكن تعديله بحيث يتمكن من نيل احترام رجاله والحفاظ على طاعتهم له. وإذا لم يستطع القيام بذلك، فسُيُحكم على خطته بالفشل. أفكاره جعلت النوم يطير من عينيه، وتذكر آخر مناسبة جعلت من هذه المنطقة مضجعًا له. حينها غطَّ في نومٍ تُجافيه الأحلام طوال الليل. كان على الطريق المباشر بين قلعة إيرنفيلس ومدينة فيسبادن؛ ذلك الطريق الذي يُنقل من خلاله المؤن إلى القلعة من وقتٍ لآخر حين تعجز السفن القادمة من ماينتس عن الوصول. ولقد أوضح له حارس القلعة هذا الطريق حين ضاق الشاب بالحدود الضيقة للقصر ذرعًا لأول مرة، ومنذ ذلك الحين، كان يقطع طريقه عبر الغابة إلى مدينة فيسبادن ويعود منها. لم يَرَ قبل ذلك قرية ولوف الصغيرة بهذا الصخب البالغ، وكأنها تتظاهر بأنها ذات أهمية، وظنَّ على نحوٍ صحيح تمامًا أن السبب يُعزى إلى الانهيار المفاجئ للأمطار على الجبال الموجودة أقصى الشرق. ونظرًا لأن دويَّ الرعد القصي كان قد توقَّف منذ فترة طويلة، فقد أدرك أن حجمَ جدول المياه كان يقلُّ باستمرار. وعندما انحسر جدول المياه تدريجيًّا عند مُستواه المعتاد، صارت الغابة أكثر سكونًا. وكلما حاول النوم أكثر، قلَّ شعوره بالنعاس أكثر، وبدأت جميع حواسِّه مُستيقظة بشدة بسبب هذه المحاولة البائسة لاستدعاء النعاس. وقدَّر من مواضع النجوم، بينما كان مُستلقيًا على ظهره، أن الوقت اجتاز منتصف الليل، حينها أدرك فجأةً الضجيج الآتي من الجهة الغربية له، على الجانب الآخر

من جدول المياه. وما إن جلس وأنصتَ باهتمام شديد، شك، من الحفيف الآتي من أسفل الشجيرات، أن أحدهم يتبع أثره، ومن شأنه أن يقترب في الوقت الحالي من رجاله النائمين. وقف خلسةً، واستلَّ سيفه، وقفز عبر الغدير، وقفز عبر الجدول، وتقدَّم تدريجيًّا بحذر شديد أعلى المنحدر، مُقتفياً الأثر بأفضل ما يُمكنه في الظلام. صمَّم على معرفة أمرٍ عابر السبيل دون أن يُزعج رجاله؛ ولذا زحف سريعاً أعلى التل. ورأى على الفور بصيص ضوء، وخمَّن أن هناك شخصاً ينزل في طيش، مُسترشداً بسراجٍ يتدلى من يده. وقف رولاند على أهبة الاستعداد بسيف ممدود أمامه مباشرة، وكاد أن يلامس صدر الوافد إلا أنه توقف مُصدراً صرخةً فزع مفاجئة؛ إذ كشف السراج عن رجل مسلَّح يقطع عليه الطريق. كانت الكلمات الأولى للشخص الغريب «أنا لا أملك مالاً».

رد رولاند قائلاً: «لا يُهمني ذلك كثيراً». وتابع: «ولكن أتمنَّى ألا تكون هذه المعلومة كاذبة. لماذا تسير مسرعاً عبر الغابة في الليل؛ إذ لا يوجد رجل عاقل يسلك هذا الطريق في الظلام؟»

ردَّ الغريب وهو يتنفس بصعوبة: «لا يسعني الانتظار حتى بزوغ ضوء النهار». وأردف: «أحمل رسالة بالغة الأهمية. أتوسَّل إليك ألا تعطلني. أنا مسافر لإنجاز شئون الدولة؛ أمور إمبراطورية، من الضروري أن أصل إلى فرانكفورت في موعدي، وإلا ربما تطير رءوس».

سأله رولاند وهو ينزل حدَّ سيفه؛ إذ لاحظ أن الرسول أعزل: «هل الأمر بهذا القدر من الأهمية؟» وأضاف: «مَن الذي تقصده؟» «لا أجروُ على إخبارك. الرسالة تخصُّ أصحاب السمو، وأنا ملتزم بالسريَّة. تأكد، يا سيدي، أنني أقول الحقيقة».

«نبرة صوتك صادقة. أمسك بالسراج على امتداد الذراع، لعلني أرى ما إذا كان وجهك مألوفاً بالنسبة إليَّ. ها، هذا مُرضٍ جداً! والآن، أيها الشاب المُستعجل، هلا تكشف عن مهمتك، وإلا اضطررتُ إلى غرس سيفي في جسدك؟» قال الشاب لاهثاً، وهو يرتجف أعلى التل: «حينئذٍ لن تعرف».

ضحك رولاند. وعلَّق قائلاً: «هذا صحيح بما يكفي؛ ولذا لن أقنَّك على الخازوق، وإنما سأكشف لك بدلاً من ذلك السرَّ الذي تحمله. أنت لست متجهاً إلى فرانكفورت...» «أؤكد لك، يا سيدي، أنني مسافر إليها، وأخشى أن التزامي يمنعي من تحقيق رغبتك، حتى وإن كنت ستقتلني، وهو ما قد يحدث بسهولة، نظراً لأنني أعزل».

«لا أشك في أنك ستمر عبر فرانكفورت، ولكن هدفك هو غرفة صغيرة معينة في صاحبة زاكسنيهاوزن المجاورة، والشخص الذي تبحث عنه هو شاب في نفس سنك، اسمه رولاند. وأنت مُسافر بناءً على طلب والدك، الذي كان يُعاني قلقاً كبيراً حين تركته، وأظن أنه هو حارس قلعة إيرنفيلس.»

صاح الشاب في ذعر قائلاً: «باسم الرب! كيف خمنت كل ذلك؟»
ضحك رولاند مرة أخرى ضحكة هادئة.

ثم قال: «عجباً، يا هاينريش، اضطرأبك جعلك تنسى أصدقاءك القدامى. ارفع سراجك مرةً أخرى، وانظر ما إذا كنت ستتعرف عليّ كما تعرفت عليك.»
«يا إلهي! الأمير رولاند!»

«أجل؛ رحلتك في نهايتها، يا هاينريش الطيب، اشكر الحظ السعيد الذي أبقاني مُستيقظاً هذه الليلة. هل تعلم لماذا أرسلت في هذه الرحلة الطويلة والمضنية؟»
«أجل، سمو الأمير. وصلت وثيقة مُطوّلة إلى القلعة من رئيس أساقفة ماينتس لتُوقع عليها، وتُخطرُك بأنه بعد الغد سيجمع رؤساء أساقفة ماينتس وتريفيس وكولونيا معاً في القلعة لإجراء بعض المحادثات معك.»

«يا إلهي، يا هاينريش، لو كنت قد وجدتني في زاكسنيهاوزن، ما كنا لنصل أبداً إلى إيرنفيلس في الوقت المحدد.»

رد الشاب قائلاً: «أظن أنه كان بإمكانني إنجاز ذلك.» ثم تابع: «كان ينبغي أن أصل إلى فيسبادن قبل الفجر، ومن هناك أشتري أسرع حصان يُمكنني العثور عليه. أخبرني والدي بأن أقدر الوقت جيداً، فإذا لم يكن بإمكانني — بحصولي على حصان آخر في فرانكفورت من أجلك — القيام برحلة العودة بالسرعة الكافية، فسأستأجر مركباً بعشرين مُجدِّفاً، إذا اقتضت الضرورة، وأصل بك إلى إيرنفيلس قبل وصول رؤساء الأساقفة.»

«إذن، كنت تَخدعُني، يا هاينريش، حين قلت لي إنه ليس معك أموال.»

«كلا، سمو الأمير، ليس لديّ أموال، وإنما أحمل طلباً بمبلغ كبير من تاجر في فيسبادن والذي سيُرَوِّدني أيضاً بحصان.»

«هاينريش، هناك الكثير من النجوم اللامعة فوق رؤوسنا الليلة، وكنت أتأملها، ولكن لا بد أن نجمتك هي الأكثر لمعاً على الإطلاق من بينها. اجلس واسترح حتى أعود. لا تُصِدِرْ أيّ ضوضاء؛ لأنه يوجد عشرون رجلاً آخر نائمون بجوار الجدول المائي. عبايتي عند سفح التل، ويجب أن أحضرها. سأكون معك بعد قليل؛ لذا أبقِ شمعتك مشتعلة، حتى لا أفقدك.»

وبهذا نزل رولاند بسرعة المنحدر، وهو يفكُ صرة الأموال أثناء نزوله. وربطها بحرص في حزام جريسيل، ثم انتزع عباءته من على الأرض، وركض عبر الجداول المائي مرة أخرى وصعد إلى هاينريش المنتظر.

لم يريا أبراج إيرنفيلس إلا في وضح النهار، ووجدا صعوبة بسيطة في إيقاظ والد هاينريش؛ نظرًا لأنه نام ليلة سيئة مثلما نام رولاند نفسه.

ألقى الحارس ذراعيه حول السجين الشاب.

وكان كلُّ ما قاله: «أوه، الحمد لله، الحمد لله!» ثم قال مرة أخرى: «الحمد لله!» وأضاف: «لم أشعر أبدًا من قبل هذا أن رأسي مُهدّد فوق كتفي. لو لم تحضر إلى هنا حين أتوا، يا سمو الأمير، لعجزتُ عن تقديم أي تفسير لسيادتهم.»

«حقًا، كنت في منأى عن الخطر بفضل مثل هذا الابن الماهر. ما كان لرؤساء الأساقفة أن يشكّوا مطلقًا أنه ليس أنا؛ لأنه لا أحد من الثلاثة رأي. أنا مُتأكّد تمامًا من أن هاينريش من شأنه أن يُقلّد توقيعي على نحوٍ ممتاز، ويُجيب عن جميع الأسئلة التي ربما يطرحونها على نحوٍ مُرضٍ بالنسبة إليهم. وما دام أنه يُطاول رغباتهم، فلن تجري أيُّ تحقيقات، لأنه لن يلاحظ أحد التغيير. بالطبع، أيها الحارس، لقد فانتك فرصة حياتك المتمثلة في اختفائي؛ ومن ثمّ تتيح لابنك أن يكون الإمبراطور المنتخب.»

«أنت تنسى، يا سمو الأمير، أن ابني المسكين لا يستطيع أن يكتب اسمه، فضلًا عن اسمك. بالإضافة إلى ذلك، سيكون تزوير توقيعك بمنزلة خيانة عظمى، ولذا مرة أخرى الحمد لله أنك جئت إلى هنا. وبالتأكيد، أنا في ورطة كبيرة بخصوص ابني، يا سمو الأمير.»

«أوه، الخطر ليس جسيمًا للغاية كما تظن.»

«هذا ليس الخطر، يا سمو الأمير. المواجهة من واجبه، ولكنه يستغلُّ وضعه كسجين. هو يعلم أنني لا أجرؤ على رفض أيّ طلب له، وهو يطلب المزيد والمزيد من النبيذ، ويقضي نهاره في العريضة، وليله في النوم.»

«أنت تدهشني. لماذا لم تنتزع هذا الهراء من داخله؟ ذراعك قوية بالقدر الكافي.»

«لا أجرؤ على رفع العصا عليه، وأتوسّل إليك ألا تتفوه بكلمة مما قلته لك؛ فكلانا واقع في قبضته، وهو يعرف ذلك. فإذا طلبت المساعدة لوضعه في زنزانة حقيقية، فلسوف يُفشي بالسري بأكمله.»

«في تلك الحالة، يجب أن تصل إلى اتفاق معه. ولن يستمر هذا إلا لفترة قصيرة جدًّا من الوقت، وبعد ذلك سنُخضعه للإصلاح. لقد كان في الغابة خائفًا جدًّا من سيفي، وسأجعله يتلوّى عند حدّه بمُجرد أن تنتهي هذه الأزمة.»

«سأفعل ما بوسعي، سمو الأمير. ولكن لا بدَّ أنك كنتَ في طريقك إلى إيرنفيلس. هل سمعتَ بما يجري؟»

«كلا. لقد قابلت هاينريش في الغابة بالصدفة المحضة، وكان على وشك الاصطدام بسيوفي أثناء تسرُّعه. كنتُ أقفُ في الظلام، بينما كان يحمل سراجًا يتيح الفرصة لأي سارق يرغب في القضاء عليه.»

قال الحارس: «لقد كان أعزل، ومن دون أموال؛ إذ ظننتُ أنه سيكون في أمان أكثر مما لو كان العكس. ولكن أنت تشعر بالجوع بالتأكيد، سمو الأمير. تفضَّل بالدخول، وسأُفي باحتياجاتك.»

وعلى الفور، تناول الأمير الهائم على وجهه وجبة إفطار مبكِّرة ومُمتازة، وخلع ملابسه، ورمى نفسه على أريكة، ليغطَّ في نوم بلا أحلام في الوقت الذي كان جريسيل وإبرهارد يتفكران في دوافعه، التي كان بريئًا منها تمامًا.

حين استيقظ رولاند في فترة ما بعد الظهر، كان قد نسي أن مجموعة الرجال الذين اتخذوه قائدًا لهم، حتى وإن كان هذا اسميًا على الأقل، كانوا يتساءلون عما حل به. نادى على الحارس، وطلب أن يُلقِيَ نظرةً على الوثائق التي أرسلها رئيس أساقفة ماينتس عبر النهر لكي يقرأها بإمعان. ووجد أن الوثائق كُتبت بحرص شديد للغاية على هيئة سلسلة من الأوامر التي في شكل طلبات.

والعهود التي كانت مطلوبة من الأمير الشاب كانت مكتوبة في ثلاث مخطوطات، كلُّ منها نسخة طبق الأصل من الآخرين. إذا وافق رولاند عليها، فسيُوقَّع عليها في اليوم التالي، في حضور رؤساء الأساقفة الثلاث. كان ما اتضح له أثناء قراءة لفيفة الورق هو حقيقتين بارزتين؛ ألا وهما؛ أولاً: أن رؤساء الأساقفة عازمون على الحكم، وثانيًا: أنه إذا لم يَعد بالطاعة، فإنهم سينتخبون إمبراطورًا آخر غيرَه عند موت والده أو الإطاحة به. عزم الشاب على الانصياع لهم وترك المستقبل يحسم مسألة ما إذا كان سيعتلي هو أم رؤساء الأساقفة عرش الإمبراطورية. وغمره شعور غريب بالبهجة بسبب هذا الاحتمال، واختفت جميع الأفكار الأخرى من رأسه.

خرج إلى الشرفة، بعد أن ترك المخطوطات على الطاولة في قاعة الفرسان حيث تفحَّصها، ليستمتع بالنسيم العليل، الذي يهبُّ حول أبراج قلعة إيرنفيلس بصرف النظر عن مدى دفء جو النهار. كان هناك ممشًى حجري، مُعلَّق فوق نهر الراين، يُعطي إطلالة رائعة على ضفة النهر القريبة وعلى طول ضفته المقابلة. ومن هذه الهضبة المرتفعة

المرصوفة، كان بإمكانه رؤية قلعتي راينستايين وفالكينبرج أسفل النهر، وأعلى النهر كانت قلعة ماينتس تقف على أقصى بُعد. وقدّر من ارتفاع قرص الشمس أن الساعة كانت حوالي الرابعة عصرًا. ذكّرهُ مشهد قلعة راينستايين بصحبته التي هجرها؛ لأن هذه هي القلعة الأولى التي كان يعتزم الهجوم عليها، إلا أن الاحتمالات التي فُتحت أمامه من خلال رسالة رؤساء الأساقفة جعلت كل شيء آخر يتبخر من ذهنه.

وبعد قليل، انضم إليه الحارس المتحفّظ في وكره، وكان رولاند يعلم على نحوٍ غريزي سبب مجيئه. كان العجوز يتساءل عما إذا كان سيُثير المتاعب بخصوص توقيع الوثائق. كان يخشى طيش الشباب المتهورّ وغرورهم؛ والكراهية الفطرية من جانب أمير شابٍّ مُعتدٍّ بنفسه لتقييده وكبح جماحه على أيدي الكبار، ولم يستطع السجّان إخفاء شعوره بالرضا حين أخبره السجين بأنه بالطبع سيُذعن لرغبات رؤساء الأساقفة الثلاثة. وأردف بابتسامة قائلًا: «كما تلاحظ يجب أن أضع توقيعِي على هذه الوثائق من أجل الوفاء بوعدِي لك.»

قاطعته صيحةٌ تعجّب من جانب رفيقه العجوز.

صاح العجوز قائلًا: «العجائب لا تنتهي أبدًا!» وأردف: «لا بد أن هؤلاء التجار الذين في فرانكفورت أغبياء على نحوٍ يستحيل إصلاحه. انظر هناك، يا سمو الأمير! هل ترى هذه السفينة الآتية على طول النهر، تحمل شحنة ثقيلة، بحقٍّ، لأنها غائرة في المياه. إنها واحدة من أكبر السفن في فرانكفورت، ولا شك أن هؤلاء المغفلين المُفعمين بالأمل يتخيّلون أن بإمكانهم أن يشقّوا طريقهم عبر كولونيا بما يكفي من السلع لدفع تكلفة الرحلة. هذا جنون! عجبًا، فرسان راينستايين وفالكينبرج وحدهم سيسلبونها قبل أن تغيب عن أعيننا. إذا كانوا يفكّرون في تفادي هؤلاء القراصنة من خلال الاحتماء بشاطئنا، فإنهم سيكتشفون غلطتهم قبل أن يذهبوا بعيدًا.»

حدّق رولاند في السفينة القادمة، وعلى الفور تذكّر أنه كان مسئولًا عن ظهورها على نهر الراين. تعرّف على سفينة السيد جوبل العظيمة، بصاريها العريض في المقدمة، والتي لم ترفع عليها أيُّ أشعة نظرًا لأن الرياح كانت تهب عكس اتجاه التيار. وما إن تذكّر رجاله الذين تركهم، تساءل عما إذا كان جريسِل قد أتى بهم عبر التلال إلى أسمانسهاوزن. هل اكتشفوا بعدُ أن جوزيف يحمل صرة مليئة بالعملات الذهبية؟ وقهقه حين تخيّل المناوشات التي سيخوضونها حين يعلمون بذلك. ورغم أنه لم يكن مهتمًا كثيرًا بأمر الثمانية عشر رجلًا؛ فإنه شعر بندم شديد وهو يتخيّل المأزق الذي واجهه جريسِل

وإبرهارد حين أدركا أنه تَرَكهما دون أن يقول لهما كلمة واحدة. ورغم ذلك، عجز عن التفكير في أيِّ تفسير مُمكن من جانبه دون أن يكشف عن هويته، وهو الأمر الذي كان مُصمِّمًا على عدم فعله.

استدار وقال فجأة للحارس:

«هل كنت تتلقى مبلغ السبعمئة تالر كل شهر؟»

جاء الرد: «بالتأكيد.»

«هذا مجموعه ألفان ومائة تالر. هل أنفقت المبلغ كله؟»

«لم أَلَسْ تالراً واحداً منها. المبلغ كله مِلْكُك، أنت وحدك، أيها الأمير رولاند. إذا كنتُ سَأبقى في الخدمة فأنا بانتظار مكافأتي، وإن لم أَبَقْ هنا، فأنا أعرف أنك لن تنسى أسرتي.»

«معاذ الله ألا أفعل ذلك. لكن تذكر أنَّ الألفين ومائة تالر جميعها ملك لك، ولكنني أتوسَّل إليك أن تُقرضني ألفاً؛ لأنني ليس في صرتي تالر ذهبي واحد. بل الحقيقة أنني ليس معي حتى صرة. كان لديَّ صرتان أَمَس، ولكنني تركت واحدة والأخرى أَلقيت بها.» نزل العجوز بسرعة، وعاد على الفور ومعه صرة بالأموال التي طلبها رولاند. ولكن قبل أن يحدث ذلك، شاهد رولاند السفينة، ولاحظ أنها اقتربت من الشاطئ ورست عليه على بُعد مسافة قليلة شمال أسمانسهاوزن. أخذ المال، ونزل السَلَمَ الحجري متجهاً إلى الفناء. وقال: «سأعود قبل غروب الشمس»، ومن دون لغط كثير غادر هذا الأسير الغريب سجنه، ونزل التلَّ في اتجاه السفينة.

وبعد أن حيَّا القبطان بلومنفيلس، عرف أن السفينة تأخَّرت بسبب الاصطدام بشاطئ رملي عند رافد ماين أثناء الليل، ولكنهم استطاعوا إخراجها عند الفجر، وها هم أولاء قد أتوا. وبينما كان يقف على الشاطئ يتحدث مع القبطان على متن السفينة، رأى رجلين يعرفهما يقتربان من أسمانسهاوزن. وبعد أن أخبر القبطان بأنه ربما لن يكون مستعداً للإبحار لعدة أيام، سار على طول الشاطئ ليلتقي بصديقيه المندهبين اللذين قفزا إلى استنتاج خاطئ، كما هي عادتهما، وظنَّ أنه عاد على متن السفينة التي رآها تستدير بهدف أن ترسو على ضفة النهر.

تجمَّد جريسِل وإبرهارد في مكانهما حتى أقبل هو عليهما.

«مساء الخير، أيها السيدان. هل أنتما هنا وحدكما، أم أحضرتما الحشد معكما؟»

قال إبرهارد، قبل أن يتمكن رفيقه الأكثر تمهلاً من صياغة الرد: «نائبك البار، يا سيدي، جعل الرجال يظنون أن الأمور تسير على هواهم، ولكن في الحقيقة هو حولهم إلى هواه؛ ومن ثم كلُّ منهم الآن يستمتع باحتساء لتر من الشراب في حانة ذا جولدن أنكر.» قال رولاند: «ما هذا إلا قطرة ماء في صحراء قاحلة. هل اكتشفوا أن في حوزتك أموال، يا جريسيل؟»

«لا، ليس بعد؛ ولكن أخشى أنهم سيشكُّون عما قريب. اعتقدت أنك نزلت إلى وادي الجدول الصغير ومنه إلى نهر الراين، ولحقت بالسفينة هناك؟» رد رولاند قائلاً: «اعتقدت ذلك.» وأضاف: «وماذا تظن أيضاً أن بإمكانني فعله؟» «أنا متأكد من أنك فعلت ذلك، وخشيتُ أن تستدير بالسفينة وتعود أدراجك إلى فرانكفورت.»

«لم أفكر أبداً في مثل هذا الأمر. في واقع الأمر، أخبرني القبطان بأنه لاقى صعوبة بالغة في الإبحار في رافد ماين الضحل، وأظن أنه يُفضِّل نهر الراين الأكثر عمقاً. بالطبع، أنت تعرف السبب وراء تركي لكم.»

نظر الرجلان كلُّ منهما للآخر دون ردٍّ، فضحك رولاند. «أرى أنه تُخامركما الشكوك السيئة، ولكنَّ المسألة في غاية البساطة. يُخبرنا الرهبان الأتقياء أن الكتاب المقدس يقول إنه إذا طلب منَّا رجل أن نصحبه لفرسخ واحد، ينبغي أن نصحبه لفرسخين. ليلة أمس طلب أصدقاؤني الأعزاء من عصبة الحدادين أكثر طلب معقول، ألا وهو أنه ينبغي أن أُعطي لكلِّ منهم ثلاثة تالرات، وبالتأكيد، سأقتبس قول الرهبان مرة أخرى، الفاعل مُستحقُّ أجرته.»

قال جريسيل: «أوه، أنت تنظر إلى الأمر من هذا المنظور إذن.» «أجل أنظر له من وجهة نظر الكتاب المقدس؛ بل إنني سأزيد على تعاليم أيام صغري بإعطاء كل رجل منهم عشرة أضعاف المبلغ الذي يتمناه. ثلاثون تالراً تنتظر كلًّا منهم في هذه الصرة.»

صاح إبرهارد قائلاً: «يا إلهي! لو أن هذا لا يرقى إلى كونه مكافأة على التمرد، فإنه يكاد يقترب من ذلك بدرجة كبيرة.»

«ليس الأمر كذلك، يا إبرهارد؛ ليس الأمر كذلك. لم تشارك أنت وجريسيل في التمرد، ولهذا سأعطي لكلِّ منكما مائة وثلاثين تالراً؛ ثلاثون تالراً مثل التي حصل عليها كلُّ مُتمرد، بالإضافة إلى مائة تالر أخرى، وذلك مكافأة لأنكما لم تنضمَّا إليهم. وعلى أيِّ حال،

هناك الكثير مما يمكن قوله بخصوص وجهة نظر الرجال. لقد قُدتهم بلا هوادة تحت أشعة شمس يوليو الحارقة، وعلى طول طريق وعِرٍ بلا ظلال، ثم سحبتهم بعيداً عن خزائن النبيذ الوفير في سونينبرج؛ ثم قدتهم عبر شجيرات العليق، وفوق جداول المياه، وداخل المستنقعات وخارجها؛ وفي النهاية، حين أنهكهم التعب، والجوع، والمزاج السيئ، أشرت في لا مبالاة إلى جزء من الأرض وقلت: «هناك، يا رجالي الأعزاء، سيكون مضجعكم»، هؤلاء الرجال الذين لم يناموا من قبل بلا أغطية وسقف. ولا عجب أنهم تَمَرَّدُوا؛ ورغم ذلك، تالله، هم في الواقع لم يُهاجموني حين وقفت مُستَلًّا السيف في يدي.»

قال إبرهارد: «بالطبع، هذا على الأقل ما يُمكن أن تشعر حياله بالامتنان.» وتابع: «ثمانية عشر رجلاً مقابل رجل واحد ستكون مواجهة صعبة.»
«ممتنٌ! بالتأكيد، أنت تحلم يا إبرهارد. لماذا ينبغي عليَّ أن أكون مُمتنًا، إلا لتجنُّبي الشعور بوخز الضمير لو كنت قتلْتُ مجموعة كبيرة منهم على الأقل!»
ضحك إبرهارد بشدة.

«أوه، إذا كنت واثقًا من نفسك هكذا، فأنت لست بحاجة إلى التعاطف من جانبي.»
«أنت تعتقد بأنني سأُغلب؟ بحق ملوك المجوس الثلاثة، هل تراني ذلك الأحمق الذي يُعلِّمكم أنتم أيها الحرفيون فنون السيف على أعلى مستوى؟ لو أن الثمانية عشر رجلاً أخذوا خطوة أبعد من ذلك، لكانت مفاجأة مُحزنة بالنسبة إليهم. ورغم ذلك، لقد انتهى كل شيء، ولن نقول المزيد عن ذلك. دعونا نجلس هنا على المرج، ونستمتع بالنشاط الترفيهي الأكثر قبولاً المتمثل في عدِّ الأموال.»

فرش عباءته على العُشب وسكب عليها العملات الذهبية.
«سأُبقى ماثني تالر لنفسِي، باعتباري قائد المهمة، الطَّمَاع. إليك المائة والثلاثين تالراً الخاصة بك، يا جريسِل، وها هي ذي الخاصة بك يا إبرهارد. ستجدان الخَمسمائة والأربعين تالراً الباقية، التي إذا وُزَعَتْموها بالدقة الكافية، فسيكون نصيب كل رجل من رجالنا الأقوياء الثمانية عشر ثلاثين تالراً.»

سأله جريسِل: «ألن تأتي معنا إلى أسمانسهاوزن، بحيث تُعطي هذه الأموال بنفسك إلى الرجال؟»

«كلا؛ هذا الشرف من نصيب نائبِي، الأول والثاني. يُمكن أن يُوزَّع أحدهما المال في حين يعطي الآخر محاضرة أخلاقية عن التمرد، مُوضِّحاً ما يُدرُّه السلوك القويم على المرء. لا تقولا شيئاً للرجال عن وجود السفينة هنا؛ فقط اطلبوا منهم أن يستعدوا للتحرك. والآن،

وقد توقّرت معكما الموارد المالية، استأجرا غرفة كبيرة، حصرياً لكم، في حانة ذا جولدن أنكر. هكذا، ستكوّنان أكثر قدرة على منع الرجال من التحدّث مع الغرباء؛ ومن ثمّ منع تسريب أيّ أخبار عن نوايانا للإبحار عبر النهر إلى راينستاتين أو فالكينبرج. ويُمكن أن تُوضّحا لهم، إن اعترضوا على الغرفة الخاصة، أنكما، لو جاز لي القول، تحاولان استحضار صورة قبو القيصر بفرانكفورت في قرية أسمانسهاوزن. وإصلاً اجتماعات عصابة الحدادين المعتادة، قبل تدنيسي لها بعد أن صرّت عضواً فيها. ومن واقع معرفتي بالرجال، مثلما تعرفونهما أنتما أيضاً، أقترح أن تعقدا صفقتكما معهم قبل إعطائهم الأموال. أوضّحا لهم أن عدم قطعهم أيّ وعدٍ يعني عدم حصولهم على الثلاثين تالراً. والآن، وداعاً. سأكون مشغولاً للغاية في الأيام المقبلة لترتيب مبلغ أكبر من المال؛ لذا لا تبحثا عني مهما حصل.»

وهنا صافحهما رولاند، وعاد إلى قلعة إيرنفيلس.

في الظهرية لاحت في الأفق السفن الفخمة الثلاث لرؤساء الأساقفة، وكانت اثنتان منهما تسيران أعلى النهر والثالثة أسفله. وقد قام القائمون عليها بالمناورة حتى رست جميعاً في الوقت نفسه؛ ومن ثمّ وطأت أقدام رؤساء الأساقفة الثلاثة الأرض الصلبة في اللحظة نفسها؛ لأنه لم يكن لأيّ منهم أفضلية على الاثنتين الآخرين. وعند دخول قلعة إيرنفيلس داخل البلاد، دلفوا إلى قاعة الفرسان الكبرى، وجلسوا في ثلاثة كراسٍ متساوية وضعت على طول الطاولة الكبيرة. وفُرشَت أمامهم مائدة، مصحوبة بأجود أنواع النبيذ الذي تُنتجه منطقة راينجاو، ورغم أن كبار الأساقفة العظماء أكلوا بنهم، فإنهم كانوا مُقتصدين بشدة في شربهم؛ لأنه حين يتطلب الأمر التصرّف بالتنسيق بعضهم مع بعض لم يكن يجزؤ أحدهم على تعريض نفسه لموقف غير مُواتٍ أمام الآخرين. وكانوا سيتخلّصون من حالة الامتناع عن الشرب التي كانوا يعيشون فيها حين يأوي كلّ منهم إلى قلعته الخاصة. وبعد رفع المائدة، استدعى رولاند، وبعد الانحناء باحترام عميق لكلّ من رؤساء الأساقفة الثلاثة، اتخذ مكانه بالوقوف في تواضع على الجهة المقابلة من الطاولة. شغل رئيس أساقفة ماينتس، نظراً لكونه الأكبر سنّاً بين الثلاثي، الكرسي الأوسط، وعلى يمينه جلس رئيس أساقفة تريفييس، نظراً لكون التالي في الترتيب من حيث السن، وعلى يساره، رئيس أساقفة كولونيا. ولعل المراقب الدقيق قد لاحظ أن السلوك المُراعي للآخرين، غير المُدلّ للذات، من جانب الأمير الشاب، قد ترك انطباعاً إيجابياً لدى هؤلاء الحكام الذين إذا اجتمعوا معاً، يُشكّلون ثاني أقوى سلطة، من الناحية الاسمية فقط، في الإمبراطورية.

كان رئيس أساقفة ماينتس هو مَنْ كسر حاجز الصمت.
«أيها الأمير رولاند، إثر اندلاع الاضطرابات في البلاد قبل بضعة أشهر كان من المُستحسن أن يجري نقلُك، باعتبارك المرشح المحتمل لاعتلاء العرش، من العاصمة إلى المكان الأكثر أماناً الذي يُقدِّمه هذا الحصن بين جنباته. أُمِّلُ ألا يكون قد ترك هذا لديك أبداً انطباعاً بكونه احتجازاً جبرياً يستحق المسمى القاسي للسجن.»

قال رولاند بنبرة صدق حقيقية: «مطلقاً، قداستكم!»
أوماً ثلاثتهم برءوسهم، وتابع رئيس أساقفة ماينتس كلامه قائلاً:
«أثق بأن تنفيذ أوامرنا لم يتسبَّب لك في أيِّ مضايقة أثناء إقامتك في قلعتي إيرنفيلس؛ ولكن إذا كان لديك أيُّ سبب للشكوى فسأتأكد من مُعاقبة المقصر بأقصى عقوبة.»
«سيدي، لو كان الأمر كذلك، لتواصلت مع نيافتكم في ماينتس على الفور. حقيقة أنك لم تتلقَ مثل هذه الشكوى من جانبي هو ردُّ على كلامك؛ ولكن أود أن أوكد على هذا الرد بقولي إنني قُوبلت بأكبر قدر من اللطف والكرم بين جنبات هذه القلعة.»
«أنا أتحدَّث بالنيابة عن أخويَّ وبالنيابة عن نفسي حين أعرب عن شعورنا جميعاً بالرضا للاستماع لما قلته الآن. لقد أرسلت إليك وثيقة من ثلاث نسخ لكي تقرأها بإمعان. فهل كان لديك وقت لقراءتها؟»

«أجل، يا سيدي، وأودُّ أن أقول على الفور إنني سأوقِّع عليها ببالغ السعادة؛ لأنني على أيِّ حال إذا تقلَّدتُ المنصب الرفيع الذي عرضتموه عليَّ، فسينبغي عليَّ حينئذٍ أن أَسْتَشِيرَ قداستكم في كل مسألة أراها مُهمّةً بالقدر الكافي بحيث تستحق انتباهكم، ولا يمكنني على أيِّ حال تكوين رأيٍ مخالف لحكمة نيافتكم مجتمعةً.»

لبضع دقائق ساد حديث هامس بين ثلاثتهم، ثمَّ تحدَّث رئيس أساقفة ماينتس مرة أخرى:

«أيها الأمير رولاند، مرةً أخرى أتحدَّث باسم زميليَّ، وأؤكد لك أن كلماتك حازت أعلى آيات الرضا من جانبنا. في عالم اليوم بأسره، لا يُوجد شرف أرفع مقاماً من ذلك الذي في يد سُلطة الأمراء النخبين منحك إياه، وإنها لبُشرى مباركة من أجل رفاهية بلادنا أن ترتبط طاقة الشباب وطموحه في هذا المنصب الرفيع بخبرات كبار السن.»

هنا قام بإشارة، فقدم مسرعاً الحارس المُسن الذي كان مستنداً بظهره إلى الباب، بعيداً عن مرمى السمع؛ نظراً لأن الحديث كان يدور بنبرات خافتة وهامسة، وطلب منه رئيس أساقفة ماينتس أن يأتي بالوثائق التي في عهده. وفُردَت الوثائق أمام الشاب الذي

وَقَعَ على كل نسخة منها في صمْتٍ عميق، لم يَقْطعه سوى صوت خربشة ريشة الكتابة على الورق.

وحتى هذه النقطة، ما كان رولاند إلا أمير الإمبراطورية؛ أما الآن، ولأسباب عمليّة، فقد صار هو الوريث المُنتَظَر للعرش. كان رئيس أساقفة ماينتس هو مَنْ أشار إلى هذا الاختلاف بدقة، عندما طلب من الخادم أن يُحضِر كرسيّاً، ثم طلب من الشاب أن يجلس عليه. افترض رولاند أن المراسم قد انتهت، ولكن صار من الواضح أن شيئاً آخر كان باقياً، حيث اقتربت الرءوس الثلاثة الحكيمة بعضها من بعض مرةً أخرى، واتّضح وجود خلاف هامس بينهم بخصوص أسلوب فتح الموضوع. تطوع رئيس أساقفة كولونيا، باعتباره الأصغر سنّاً بين الثلاثة، بالقيام بدور المتحدث الرسمي، ونظر إلى الشاب وعلى وجهه ابتسامة قبل أن يشرع في الحديث.

«أعيش في مكانٍ أبعد من زميليّ عن مدينتك، مدينة فرانكفورت الجميلة، رغم اضطرابها، وربما هذا أحد الأسباب التي تجعل معرفتي محدودة بالمدينة ومجريات أمورها من خلال الملاحظة الشخصية. أتصوّر أنني يُمكنني القول إنك شابٌ يروق لنا جميعاً بدرجة كبيرة، ولذا أي سؤال قد أطرحه عليك أتمنى ألا ترى فيه شيئاً خفياً مُضمراً لا يبدو في ظاهره.»

أخذ رولاند نفساً عميقاً، وشحب وجهه بعض الشيء.

وقال في نفسه: «ما القادم، بحق السماء، الذي يَستدعي هذه المقدمة المشئومة للغاية؟ لا بد أنه شيء أكثر خطورة من المعتاد. لِيمنحني الرب القدير الشجاعة لمواجهته!» ولكنه ظاهريّاً أوماً فقط برأسه.

«كنّا جميعاً شباباً، وأثق بأنه لم يَنسَ أحدٌ منّا المُغريات، وربما المخاطر، التي تحيط بالشباب من كل جانب، لا سيما حين يتبوأ أحدهم منصباً رفيعاً. قيل لي إن فرانكفورت مدينة مُترفة مليئة بالملاذات، ولا شك أنك خالطت الناس، إلى حدٍّ ما على الأقل، في مجتمعاتها.» هنا توقّف رئيس الأساقفة برهةً، ونظرًا لأنه من الواضح أنه كان ينتظر ردّاً، تحدّث رولاند قائلاً:

«أخشى أن أقول، يا سيدي، إن فرصتي في التعاملات الاجتماعية حتى الآن محدودة إلى حدٍّ ما. فأنا منشغل بدرجة كبيرة بالدراسة، والوقت المتاح لي لاكتساب رفقاء، فضلاً عن أصدقاء، قليل.»

«ما تقوله سموك وتصور — كما يبدو لنا — أنه عيب، أمر جيد. فهو يجعل المستقبل خالياً من التعقيدات التي ربما تسبّب لك الإحراج.» هنا ابتسم رئيس الأساقفة

مرةً أخرى، ووجد رولاند نفسه مُعجَبًا بالأسقف الجليل. وأردف قائلاً: «لم أرغب في الحديث عن الرجال، وإنما عن النساء.»

صاح الشاب المتهور قائلاً: «أوه، أهذا كل شيء؟» وتابع: «كنتُ أخشى، يا سيدي، أنك كنتَ على وشك فتح موضوع خطير. أما بخصوص النساء، فأنا غير مُهْتَمِّ بأيِّ منهن، باستثناء والدتي.»

وهنا ابتسم الأساقفة الثلاثة بدرجات مُتفاوتة؛ حتى إن شفّتي رئيس أساقفة ماينتس الصارمتين استرختا جراء التأكيد الواثق من جانب الشاب الذي رأى أن الاهتمام بالنساء ليس بالمسألة المهمة.

وتابع رئيس أساقفة كولونيا قائلاً: «سموُّك تُمهِّد لي الطريق على نحوٍ مُثيرٍ للإعجاب، وتُزيح عن صدري عبئًا ثَقِيلًا؛ لأن أخويَّ وضعاً ثَقْنهما فيَّ لعرض مقترحٍ أجد بعض الصعوبة في عرضه عليك. إن الأمر هو التالي. يعدُّ اختيار الإمبراطورة من أهم المسائل التي ينبغي أن يتخذ الإمبراطور قرارًا حيالها. وتلعب التفضيلات الشخصية دورًا كبيرًا في اختيار الزوجة، في جميع الطبقات باستثناء أرقى الطبقات، ولكن في حالة الملك ألا تتفق معي أنه يجب وضع اعتبارات الحكم في الحسبان؟»

«بالتأكيد، يا سيدي.»

«هذه هي المسألة التي أعطيناها، نحن الناهخين الثلاثة، جُلَّ الاهتمام، وفي النهاية اتفقنا على مَنْ نعتقد أنها تمتلك المقوِّمات الضرورية؛ فهي سيدة ذات نسب عريق، وشديدة التدبُّن، وفاحشة الثراء، وآية في الجمال. وهي تنتمي لأرقى العائلات في البلاد. إنني أتحَدَّث عن هيلديجوندي لوريتا بريسيلا أجنيس، كونتيسة فون ساين. إذا كان لديك أيُّ أسباب لعدم توافق تفضيلك الشخصية مع تفضيلنا، فأودُّ منك أن تذكرها بصراحة تامة.»

صاح رولاند، وهو يتنفس الصعداء حين عرف أن مخاوفه لا أساس لها من الصحة تمامًا: «ليس هناك أيُّ أسباب على الإطلاق، قداستكم.» وأضاف: «سأكون سعيدًا للغاية وسأحظى بشرف كبير حين أتزوِّج من تلك السيدة في الوقت الذي يقع اختيار قداستكم واختيارها عليه.»

قال رئيس أساقفة ماينتس وهو يهْبُ واقفًا ويتحدَّث بنبرة إجلال عظيم: «إذن، جرى اختيارك الإمبراطور المستقبلي لبلادنا.»

الفصل العاشر

اجتماع كارثي

استقبلَ كبير الأساقفة والفتاة التي كان وصيًا عليها من جانب رئيس أساقفة تريفيس شخصيًا عند أبواب قلعة ستولزينفلز، وكانت حفاوة الاستقبال شديدة. كان هناك خدم كثيرون، رجالًا ونساءً، حول القلعة، بيد أنه لم يكن هناك أثر لرجال مسلّحين. اصطُحبت الكونتيسة إلى غرفةٍ أبهرتها إطلالتها. كانت الغرفة تشغل طابقًا بأكمله في برج مربع الشكل، وكانت ذات نوافذٍ مُطلّة على الاتجاهات الأربعة الأساسية، ومن على هذا الارتفاع كان بإمكانها رؤية نهر الراين وصولًا إلى قلعة ماركسبورج القديمة والحصينة، وفيما يتجاوز كوبلنتز وصولًا إلى مملكتها في ساين، التي كانت تُتأخم النهر، على الرغم من أن القلعة التي كانت تحكم منها هذه المنطقة كانت تختبئ بسبب التلال التي تنتهي في إرنبرايتشتاين.

حين نزلت عند استدعائها لتناول وجبة الغداء، جرى تقديمها إلى إحدى شقيقات رئيس أساقفة تريفيس، وهي سيدة كبيرة السن ووقور؛ وإلى ابنة أخت رئيس الأساقفة، وهي سيدة أكبر من هيلديجوندي بعشر سنوات. ولم يكن لدى أيٍّ من هاتين السيدتين النبيلتين الكثير لقوله، وكان الحديث أثناء تناول الغداء مُقتصرًا على رئيسي الأساقفة. بالطبع، لم تكن الكونتيسة تعلم أن حضورها كان سيتسبّب في إحباط كبير للسيدتين النبيلتين؛ لأن صلة القرابة الوثيقة بين الشابة الأصغر ورئيس أساقفة تريفيس جعلت من المستحيل أن تحظى بالشرف الذي على وشك أن يكون من نصيب كونتيسة فون ساين الأصغر والأجمل.

تناول رئيس أساقفة ماينتس، في أصغر غرفة بالجنّاح المخصّص له في القلعة، وجبةً خفيفةً قدّمها له خدّمه الخاصون، وأعدّها له طبّاخه الخصوصي.

وحين وُضعت سمكة سالون الراين الكبيرة، التي كان يتصاعد منها البخار، أغدق رئيس أساقفة كولونيا الثناء عليها، وحكى مرةً أخرى، لمُضيفه وأهل بيته، قصة الأميرة الإنجليزية التي تناولت سمكةً مُماثلة، في هذه الغرفة نفسها بلا شك. وعلى الرغم من قائمة الطعام التاريخية، والسمات المنعشة لنبيذ أوبرفيزل الفاخر، الذي شبّه رئيس الأساقفة المرهف الحس لوْنَه الأحمر الرقيق بحمرة الخجل التي تملو وجه العروس، طغى الشعور الغامض بوجود خطر مُحْدِق على الجانب الاجتماعي لوجبة منتصف اليوم. وفي الحوار الودود على نحوٍ مُصطنعٍ لرئيسي الأساقفة، كان هناك شيء غير طبيعي؛ سلوك المضيفة الأكبر سنًا كان يكشف عن حزن شديد. فهي، بعد تبادلٍ بضع تحيات تقليدية مع ضيفتها الشابة، لم تتفوّه بكلمة واحدة أثناء تناول الوجبة. وكانت ردود ابنتها، التي جلست إلى جوار الكونتيسة على الجهة المقابلة من المائدة لنيافة رئيس أساقفة كولونيا، مُقتصرة على الإجابة بـ «نعم» أو «لا» على تعليقات سيدة ساين التي أثنت على الموقع الرائع للقلعة، وسماتها المعمارية المتفردة، والمنظر الرائع من أسوارها، ذلك المديح الذي بدأ بقدرٍ كافٍ من الحماس، ولكن في النهاية تلاشى في الصمت، وساده الفتور بسبب الاستقبال غير الودي تمامًا.

تأملت الفتاة ما يحدث وشعرت بمزيد من عدم الراحة حين اتّضحت أكثر الملامح الغريبة للوضع في ذهنها. فما هو ذا صديقها الموقر المحب يفرض روحًا مرحة كانت تعلم أنه يعجز عن الشعور بها، ويتناول الطعام ويشرب النبيذ مع رفيقٍ بينما يقف ثلاثة آلاف رجل من رجاله المسلحين فوق السطح الذي يأويه، على استعدادٍ كامل بإشارة منه لاقتحام قلعة ستولزينفيلس كالطيور الجارحة، يأسرون ويقتلون، إذا اقتضت الضرورة. تذكّرت الهتافات الودية التي استقبلتهما عند وصولهما مدينة كوبلنتز، رغم أن كل رجل حيّاهما في صخب ولوّح بقبعته في الهواء كان بلا شك عدوًّا لهما. زاد من شعورها بالاكئاب أكثر فأكثر الطبيعة السرية والمجهولة للخطر المُحْدِق بها كلما فكّرت فيه؛ الجنود الشرسون المُختبئون في الغابة، الذين على استعدادٍ للانقضاض في أي لحظة، واضطرام النيران والقتل بإشارة خفية من أمير ذي طابع ديني؛ والأسلحة الفتاكة المخبئة في إحدى الكنائس؛ كل هذا الواقع المُرّوع لمعتقدٍ يحتلّ لديها مكانة رفيعة لم تُشر إليه قط الراهبات الرقيات اللائي كانت تعيش وسطهن في سعادة بالغة أغلِبَ فترات حياتها.

وفي النهاية، نهضت مُضيفتها الكئيبة، وحذت هيلديجوندي حذوها وهي تتنفس الصعداء. أزاح رئيس أساقفة كولونيا الستار الموجود عند المدخل بشهامة، وأحنى رأسه

أثناء مرور السيدات الثلاث. قادت المضيئة الصامته ضيفتها إلى ردهة موجودة في نفس الطابق الذي توجد به غرفة الطعام؛ كانت الردهة تُفضي إلى باب آخر يربطها بقاعة الفرسان الصغيرة التي من المنتظر أن يُعقد فيها الاجتماع الرسمي لرؤساء الأساقفة. لم تدخل شقيقة رئيس الأساقفة الردهة؛ حيث ودّعت رسمياً كونتيسة فون ساين التي استدارت لتتحدّث إلى الشاغل الوحيد للغرفة، قريبها ومُستشارها، الأب أمبروز.

سألته قائلة: «ألم تجرِ دعوتك لتناول الغداء معنا؟»

«بلى، ولكنني رأيت من الأفضل أن أرفض الدعوة. أولاً: خشيت أن يكون لدى رؤساء الأساقفة الثلاثة شيء سرّي يُريدون الحديث معك بشأنه، وثانياً: أنا في أفضل الأحوال صُحبة سيئة على المائدة.»

«بالتأكيد، لا داعي لأن تكون حسّاساً كهذا، أولاً: لم يكن هناك ثلاثة رؤساء أساقفة وإنما اثنان فقط، ولم يُوجّه أيُّ منهما لي كلاماً من المفترض ألا يسمعه العالم بأكمله، وثانياً: باقي الصحبة، أخت رئيس أساقفة تريفييس وابنة أخته، كانت كئيبة للغاية لدرجة أنك كنت ستثبت أنك صحبة مرحة مُقارنةً بهن. هل صرّح لك وصيي بأي شيء أمس في فترة ما بعد الظهيرة يكشف عن هدف هذا الاجتماع المزمع؟»

«كلّاً ألبتة. دار حوارنا بأكمله حول أرضك وإدارتي لها. وتحدّثنا عن المحاصيل والزراعة ومزارع الكروم.»

«أنت ليس لديك أدنى علم إذن بالسبب وراء استدعائنا إلى هنا؟»

«أنا مثلك تماماً، يا هيلديجوندي، لا أعرف شيئاً عن هذا الأمر.»

تمتّمت الكونتيسة قائلة: «لا أظنُّ أنني جاهلة تماماً، رغم أنني لا أعرف شيئاً محدداً.»

«هل تظنّين، رغم إنكار وصيك، أن الاجتماع يتعلّق باستعادتك بلدة لينتس؟»
«ربما، لكن ليس هذا احتمالاً كبيراً. هل قلت أي شيء بخصوص رحلتك إلى فرانكفورت؟»

«لم أنبس بكلمة. فهمتُ منك أنه لا ينبغي ذكر أي شيء عن زيارتي هذه ما لم يسأل قداسه أسئلة تُثبت أنه يعلم الأمر، وحينها سيتعيّن عليّ قول الحقيقة.»

«أنت مُحقٌّ تماماً، أيها الأب. هل طلب منك وصيي المجيء معنا إلى ستولزينفيلس؟»
«بالتأكيد؛ وإلا ما ينبغي لي أن أفعل.»

«ما الأسباب التي أعطاه إياك لذلك، وما التعليمات التي قالها لك؟»

«هو يرى أنه ينبغي أن يكون بجانبك قريب لك. وكانت تعليماته بالأقْدَم تحت أي ظرف أيّ تعليق على ما يجري. في واقع الأمر، أنا غير مسموح لي بالحديث إلا للإجابة عن سؤال موجّه لي مباشرة، وبأقل عدد مُمكن من الكلمات.»

توقّفت هيلديجوندي عن استجوابها، وجلست بجوار نافذة مُطلّة على جانب الجبل المنحدر خلف القلعة، حيث عرفت أن رجال وصيّها يقفون في الانتظار مُحتمين بالغابة الكثيفة والمُظلمة. ارتجفت قليلاً، وهي تتساءل في نفسها عن المقصود من هذه الاستعدادات، ولاحظت في ظل الصمت الشديد تسارع نبضات قلبها. شعرت بقليل من الاطمئنان بحضور قريبها، الذي كانت شَفْته تتحركان بلا همهمة، وبدأت عيناه الرزینتان مُركّزتين على المستقبل، تتأملان لغز العالم الآخر، وتتجاهلان تمامًا حقائق الأرض التي يعيش عليها. حوّلت نظرتها المُضطربة مرة أخرى إلى الغابة الخضراء، وبعد مرور فترة زمنية طويلة، قطع تأمل الثنائي دخول موظّف يرتدي ملابس فخمة. انحنى هذا الموظف وقال بنبرة إجلال عظيمة:

«سيدتي، رؤساء الأساقفة في انتظارك.»

كانت قاعة الفرسان الصغيرة تشغل موقعاً رائعاً من الجهة المطلّة على النهر من قلعة ستولزينفيلس، وكانت نوافذها تُطل على نهر الراين، مع ظهور القلعة لانيك الحصينة فوق مصبّ رافد لان، وقلعة مارتينسبورج الأكثر زخرفة عند الطرف العلوي لمدينة أوبرلنتشاين. والصرح الأخير، الذي بناه الأمير الناخب السابق لماينتس، كان نادراً ما يقيم فيه رئيس الأساقفة الحالي، ولكن نظراً لأنه يجلس على الكرسي الأوسط للمجلس، فكان يتمتع بميزة القدرة على النظر عبر النهر إلى منزله الخاص، هذا إذا رغب في القيام بذلك. كان رؤساء الأساقفة الثلاثة يقفون وراء الطاولة الطويلة حين دخلت الكونتيسة؛ إذ أدركوا أن مَنْ جاءت إلى حضرتهم، تلك الفتاة الجميلة والصغيرة في السن، سيدة عظيمة للغاية بحقّ النسب والمكانة. وقد رَدّت على هذا التصرّف اللطيف بإيماءة رشيقة برأسها، ورد عليها كل أمير من أمراء الكنيسة الثلاثة بإيماءة، وكانت إيماءة رئيس أساقفة ماينتس بالكاد محسوسة، وإيماءة رئيس أساقفة تريفيس تنم عن الاحترام واللفظ، وإيماءة رئيس أساقفة كولونيا يصحبها ابتسامة تشجيعية ودودة.

وفي منتصف القاعة في مقابل الطاولة الطويلة وُضع مقعد ضخم، مأخوذ من قاعة الفرسان الكبيرة، وكان مزداناً بنقوش ذهبية ومُغطّى بقماش مخملي إيطالي ذي ألوان

زاهية. كان المقعد أشبه بكرسي عرش، وكان يُستخدم، بطبيعة الحال، فقط في المناسبات التي يزور فيها أحد أفراد العائلة الإمبراطورية القلعة. وإلى هذا المقعد الفخم، اقتاد الموظف — الذي لا يقلُّ روعة — الفتاة، وحين أخذت مقعدها، جلس رؤساء الأساقفة الثلاثة. ثم انحنى الموظف المبجل حتى كادت أن تلمس جبهته الأرض، ثم غادر في صمت. وقف الأب أمبروز في تواضع، بثيابه الخشنة والريثة ذات اللون الوقور التي تتناقض على نحو صارخ مع ثراء الملابس التي يرتديها الآخرون، بجوار المقعد الذي تجلس عليه قرييته.

سدَّت الكونتيسة نظرةً سريعةً إلى رئيس أساقفة ماينتس، ثم أخفضت عينيها. لقد كانت تعرف رئيس أساقفة كولونيا طوال حياتها؛ أما رئيس أساقفة ترينيس فقد التقت ذلك اليوم؛ وأعجبت به، بالرغم من أنها كانت تشعر بأنها لا تستطيع أن تُجلَّه مثل وصيِّها؛ أما الرجل الجالس في المنتصف، فقد انتابها شعور بالخوف بعد نظرتها السريعة إليه. قالت في نفسها: «إن له وجهًا ينمُّ عن قوة بالغة، ولكن شفاته الرفيعتان والمستقيمتان، والمزمومتان بإحكام، تبدو عليهما القسوة وكذلك التصميم.» وفي لحظة خاطفة من الإدراك، فهمت الآن تحذير وصيها بعدم معارضته. وكان من السهل التصديق على الحقيقة المعروفة بأنَّ لهذا الرجل اليد العليا على الرجلين الآخرين. ورغم ذلك، حين تكلم كان صوته لطيفًا على نحو مدهش.

قال: «سيدتي، إننا نجتمع هنا في ساعةٍ يعمُّها قلق عارم. الآن، يرقد الإمبراطور، الذي يُعاني المرض منذ وقت طويل، على فراش الموت، والأطباء الذين يباشرون حالته أخبروني بأنه ربما يجري استدعاؤنا في أيِّ لحظة لانتخاب خليفته. ولقد وقع الاختيار بالفعل على هذا الخليفة؛ ولعلني أضيف قائلًا بأنه اختير بطريقة غير رسمية؛ ولكن لن يجري التراجع عن اختياره على الأرجح، إلا بتصرف من جانبه قد يتسبَّب في جعلنا نُعيد التفكير في قرارنا. ولقد اتخذنا قرارنا مؤخرًا في قلعتي إيرنفيلس، ونحن نجتمع مرة أخرى في قلعة أخي رئيس أساقفة ترينيس، ليس بصفتنا الدينية باعتبارنا رؤساء أساقفة، ولكن بصفتنا الدنيوية باعتبارنا أمراء ناخبين للإمبراطورية، لتحديد مسألة نراها على قدر متساوٍ من الأهمية. إنه لشرف لنا أن نمنحك أعلى درجات السمو والشرف التي قد تُمنح لأيِّ امرأةٍ في البلاد؛ ألا وهو منصب الإمبراطورة.

وحين تُعبرين عن قبولك لهذه المرتبة العظيمة، يجب أن أطرح عليك عدة أسئلة بخصوص واجباتك المستقبلية تجاه البلاد، وهذه الأسئلة موضحة في وثيقة سيُطلب منك التوقيع عليها.»

لم ترفع الكونتيسة عينها. وبينما كان رئيس الأساقفة يتحدث، تخضّبت وجنتاها بالحمرة، ولكن وجهها شحب مرةً أخرى، ولاحظ وصيّها، الذي كان يراقبها باهتمام شديد عبر الطاولة، أن وجهها صار شاحباً جداً لدرجة أنه كان يخشى من أنها كانت على وشك أن تفقد وعيها. رغم ذلك، استجمعت قواها، وأخيراً، نظرت لأعلى، لا إلى المتحدث إليها المتجهّم، وإنما إلى رئيس أساقفة كولونيا.

وقالت بصوت مسموع بالكاد: «هل لي أن أعرف مَنْ يكون زوجي المستقبلي؟»
أجاب وصيها بنبرة مهدئة: «بالطبع، بالطبع، ولكن أمير ماينتس هو المتحدث الرسمي بالنيابة عنّا، ويجب أن توجهي سؤالك إلى سموه.»

هنا حوّلت عينيها الخائفتين إلى رئيس أساقفة ماينتس، الذي قطّب جبينه قليلاً بسبب هذه المقاطعة، والذي أطبق شفّتيه بإحكام أكثر. جلس في مكانه رابط الجأش، رافضاً التضرّع الذي في عينيها؛ ومن ثمّ أجبرها على إعادة طرح سؤالها، الذي عندما وُجّه إليه اتخذ شكلاً آخر.

«سيدي، مَنْ سيكون الإمبراطور القادم؟»
«كونتيسة فون ساين، أخشى أنني قدْتُك إلى فهم خاطئ من خلال تعديل أسلوب خطابي الافتتاحي ليتناسب مع فهم فتاةٍ خرجت توّاً من حياة الدير. مجلس الأمراء الناهبين لم يُعقد بهدف الحصول على موافقتك، وإنما بهدف فرض تنفيذ الأمر عليك. ليس مسموحاً لك أن تطرحي الأسئلة، وإنما لتُجيبى عنها.»
«تقصد أنني سأتروّج هذا الرجل المجهول، سواء وافقت أم رفضت؟»
«هذا مقصدي.»

استندت الفتاة بظهرها إلى كرسيّها، واختفت الندادة التي اجتمعت في عينيها كما لو أن اللهب الضئيل الذي أضرّم بداخلهما قد جفّفهما.
وقالت: «عظيم!» ثم أضافت: «سل أسئلتك، وسأُجيب عنها.»
«قبل أن أطرح أسئلتني، يجب أن أحصل على موافقتك على طلبي الأول.»
«هذا غير ضروري على الإطلاق، يا سيدي. عندما تسمع إجاباتي عن أسئلتك، ستسحب طلبك بسرعة بالغة.»

مال أمير تريفييس، الذي كان يتقلقل في كرسيّه، إلى الأمام وتحدّث بأسلوبٍ متملق.
«أيتها الكونتيسة، أنت جارة لي، على الرغم من أنك تعيشين على الجهة المقابلة من النهر، ولي الشرف أن أستقبلك باعتبارك ضيفة لي. وباعتبارك ضيفة وجارة، أناشدك

بالنيابة عنّا أن تتأكّدي من أننا لا نتمنّى شيئاً سوى مصلحتك وسعادتك.» تلاشى البريق الذي كان في عينيها، ونظرت بلطف إلى الأمير الناخب المتودد. وواصل الرجل حديثه قائلاً: «إن أمامك ثلاثة رجال غُراب شيوخ، جاهلين تماماً بطرق النساء. وإذا كان قد قيل أيُّ شيء أساء إليك، فأرجوك اغفري لنا تقصيرنا؛ فأنا أوكد لك، بالنيابة عن زميلي وبالأصالة عن نفسي، أن أي شخص منّا سيَندم أشد الندم على التفوه ولو بكلمة واحدة قد تتسبّب في إزعاجك.»

«إزعاجي، يا سيدي، جاء من رفض الإفصاح عن الاسم الوحيد الذي سألت عنه. هل أنا فتاة قروية يجري تسليمها إلى الشخص الذي يقدّم أعلى عرض؟»
«كلّاً ألبتّة. لم تردّ على خواطرنّا فكرة كهذه. بالطبع، الاسم في اللحظة الراهنة سرٌّ، وأقدّر جدّاً عدم رغبة نيافة رئيس أساقفة ماينتس في ذكر الاسم، ولكن أظنّ في هذه اللحظة أننا يمكننا القيام باستثناء على نحوٍ آمن، ولذا أناشد نيافته الآن أن يُعلم الكونتيسة بما تُريد معرفته.»

رد رئيس أساقفة ماينتس بلا مبالاة:
«لا أتفق معك، ولكن نحن — الأمراء الناخبين الثلاثة — نتمتّع هنا بسلطة مُتساوية؛ لذا صوتان يُمكن أن يعلبا صوتاً واحداً دوماً.»

ابتسم الأمير الناخب الخاص بكونوليا ابتسامةً بسيطة؛ فقد رأى من قبلُ هذه الكوميديا المتجسّدة، ولم يعترض عليها قط. وقد كان تعبير رئيس أساقفة تريفيس عن وجهة نظر مخالفة لرئيسه في أمورٍ غير مُهمّة يُعطيهِ شعوراً معيّناً بالاستقلالية.

قال رئيس أساقفة تريفيس، وهو يميل إلى الأمام ويُخاطب الرجل الموجود عند الطرف الآخر للطاولة: «قداسة رئيس أساقفة كولونيا، ألا تتفق معي؟»

أجاب رئيس أساقفة كولونيا بشيء من الاختصار قائلاً: «بالأكيد.»
استطرد رئيس أساقفة تريفيس قائلاً: «في هذه الحالة، آخذ على عاتقي إعلامك، يا سيدتي، بأن الشاب المختار ليكون الحاكم المستقبلي هو الأمير رولاند، الابن الوحيد للإمبراطور المُحتَضَر.»

أمسكت الكونتيسة بعصبية بالمخمل الناعم لذراعي كرسياها.
وقالت وهي تُخاطب رئيس أساقفة تريفيس، وتحدّث بنبرة هادئة كما لو أنها رئيس أساقفة ماينتس نفسه: «شكراً لك.» وأردفت: «ولكن هل لي أن أسأل ما إذا كانت هذه الزيجة قد عُرضت على الشاب؟»

نظر رئيس أساقفة تريفيس في توتر إلى وجه رئيس أساقفة ماينتس الصارم، الذي أوماً إليه، وكأنما يقول له:

«أنت تبلي بلاءً حسنًا؛ استمر.»

رد رئيس أساقفة تريفيس: «أجل.»

«هل أخفي اسمي عنه؟»

«كلا.»

«هل سمع عني من قبل؟»

أجاب رئيس أساقفة تريفيس اللبق قائلاً: «بالتأكيد؛ فشهرة كونتيسة فون ساين تتخطى الأفاق لأبعد مما يسمح به تواضعها.»

«وهل وافق؟»

«على الفور، وعلى نحو مُبتهج، فيما بدا لي.»

استطردت الكونتيسة قائلة: «على أيِّ حال، هو لم يرني مُطلقاً.» ثم تابعت: «هل طرح أيُّ أسئلة، بخصوص ما إذا كنت طويلة أم قصيرة، كبيرة في السن أم صغيرة، غنية أم فقيرة، جميلة أم قبيحة؟»

«بدا أنه راضٍ تمامًا باختيارنا.»

وضع رئيس أساقفة تريفيس مرفقيه على الطاولة، ومال إلى الأمام وأسند ذقنه على راحتي يديه المفتوحتين. لقد تحدث طوال الوقت بأكثر الطرق تقديرًا، وكانت نبرته لطيفة ومعسولة. كان من الواضح أنه راضٍ تمامًا عن دبلوماسيته لدرجة أن عين رئيس أساقفة ماينتس الجادة طرقت على نحو خبيث حين التفتت الفتاة بتهور نحو الطرف الآخر من الطاولة، وصاحت قائلة:

«أخبرني بالحقيقة، أيها الوصي! علمت أن هذا الشاب قبلَ بي كما لو أنني جوال محبوب، فذهنه مُركّز على شيء واحد فقط؛ ألا وهو تأمين منصب الإمبراطور لنفسه. أليس الأمر كذلك؟»

قال رئيس أساقفة كولونيا بنبرة رصينة: «الأمر ليس كذلك، أيتها الكونتيسة.»

«صحيح أن الأمير رولاند لم يُعلّق بأي شيء بخصوصك.»

«أنا متأكّدة أنه لم يفعل. وأيُّ فتاة في ألمانيا كانت ستفعل مثله تمامًا. لقد كنت مجرد جزء من الصفقة التي كان مضطرًا لإبرامها معكم، وأنا الآن أعلن للمجلس أنه لا توجد قوة على الأرض يُمكن أن تُرغمني على الزواج من الأمير رولاند. وأطالب بحقي كأنثى ألا أتزوج إلا بالشخص الذي أحبه ويحبني!»

عبر رئيس أساقفة ماينتس عن تعجبه بصيحة يُمكن وصفها على نحو فظّ بكونها نخرة ازدراء. وكان الأمير الناخب لتريفيس يميل إلى الخلف في كرسيه مُستاءً من تغيير نبرة حديثها المفاجئ تجاهه. ومال الأمير الناخب لكونوليا الآن إلى الأمام، وقد فزع من تحوّل الأمور عن مسارها، وظهر قلق عميق على جبهته.

وبدا كلامه بأن خاطبها بلقبها مما جعلها تُدرك مدى عمق الخطأ الذي ارتكبته، ثم أضاف: «أنا في حياتي كلها لم أقابل مُطلقاً شاباً أثار إعجابي بشدة مثلما فعل الأمير رولاند، أمير ألمانيا. وإذا كان لديّ ابنةٌ أحبّها كثيراً، فلن أتمنّى لها حظاً أفضل من الزواج بشاب أمين مثله. والنقطة التي تأخّذنيها عليه لا بد أن تكون في صالحه بقوة من وجهة نظر أيّ فتاة شابة. إن قراءتي لشخصيته بخصوص الحب الذي تحدثت عنه، تقول لي إنه لا يعرف الكثير عنه مثلك تماماً، ولهذا وافق على عرضنا على نحوٍ ينمُّ عن لا مبالاة في ظاهره، الأمر الذي تُخطئين في تقديره تماماً. إذن، إذا كنتِ تؤمنين بحسن نواياي تجاهك، وفي اهتمامي الشديد براحتك وسعادتك، فأرجوك أن تُوافقي على الاقتراح الذي تقدّم به نيافة رئيس أساقفة ماينتس. أنتِ تتحدّثين عن الحب ولا تعرفين شيئاً عنه. وأودُّ منك أن تتذكّري حقيقة أن سيدة نبيلة من عشيرتك ربما أضاعت فرصة السعادة التي قد يجلبها الحب، رغبة منها في التضحية من أجل شخص أحبته بصدق، لدرجة أنها اختارت أن يقودها نداء الواجب الأكثر قسوة. لقد عُرضت عليك المسألة، يا عزيزتي، بطريقة مختلفة، وأنا متيقن من أن الواجب والحب سيجتمعان معاً.»

بينما كان رئيس الأساقفة المبجل يتحدّث بمثل هذه الجدية العميقة، بصوتٍ أحبته للغاية، دفنت الفتاة وجهها في يديها، واستطاع أن يرى الدموع تتساقط من بين أصابعها. وتبع الصمت حديث وصيّها، ولم يقطع سوى الأنفاس المهتاجة لهيلديجوندي. قطع الصوت الصارم للأمير الناخب لماينتس حاجز الصمت، وكأنه نفّس من نهر جليدي، والذي قال:

«هل تقبلين، يا سيدتي؟»

قالت الفتاة وهي تلهث، وكتفاها ترتجفان من الانفعال، ولكن دون أن تنظر إلى أعلى: «أجل.»

«أخشى أن يُنسى الهدف من هذا الاجتماع في خضمّ تدفّق المشاعر من كلا جانبي. هذا اجتماع عمل، لا وليمة محبة. هلا تتكرّمين يا سيدتي، برفع رأسك والإجابة عن سُؤالي؟»

انهمرت الدموع من عيني الفتاة، واعتدلت في جلستها، وهي تُمسك ذراعي كرسي العرش بيدين مُتوترتين، كما لو أنها كانت تُثبت نفسها في مواجهة المحنة القادمة.

«لم أكد أسمع ما قُلْتِه. هل تقبلين الزواج من الأمير رولاند، أمير ألمانيا؟»

أجابت في حزم: «أقبل..»

«هل ستستغلين تأثيرك عليه لكي يُنفذ أوامر رؤساء الأساقفة الثلاثة؟»

«أجل، إذا كانت الأوامر لصالح البلاد.»

«لا أستطيع القبول بأي شروط؛ ومن ثمَّ سأكرِّر سؤالِي. هل ستستغلين تأثيرك عليه

لكي يُنفذ أوامر رؤساء الأساقفة الثلاثة؟»

«من الممكن ألا يكون لي أيُّ تأثير على هذا الرجل.»

«أجيبني عن هذا السؤال، يا سيدتي.»

قال رئيس أساقفة كولونيا مُتوسلاً: «قولي نعم، يا هيلديجوندي.»

نظرت إليه بعينيها اللتين تغمرهما الدموع.

وصاحت قائلة: «أوه، أيها الوصيُّ، أيها الوصيُّ!» وتابعت: «لقد فعلت كلَّ ما بوسعي، وكل هذا من أجلك، من أجلك أنت. لا أستطيع أن أتحمَّل المزيد. هذا تعذيب بالنسبة إليَّ.

دعني أعود إلى المنزل، وسأجيب عن أسئلتك في يوم آخر حين أكون أهدأ حالاً!»

جلس رئيس الأساقفة المُتحيِّر مرَّةً أخرى بتنهيذة عميقة. وعلى نحوٍ مُذهِل تبدَّد

الجهل بالنساء الذي وصف ثلاثتهم به زميله رئيس أساقفة ماينتس. لم يَسْتَطِع فهم

السبب الذي يجعل هذه الفتاة تُظهر هذه المشاعر تجاه فكرة الزواج من وريث العرش،

في حين أن الشاب كان يُمثِّل كل ما تطمح إليه أيُّ فتاة عاقلة.

قال رئيس أساقفة ماينتس بنبرة صوت خالية من العاطفة: «سيدتي، أرجوك أن

تولينني انتباهك.» ثم أضاف: «لقد استمعت إلى حوارك مع زميلي، وأتمنَّى أن تُقدِّري ما

تحلَّيتُ به من صبر. هذه مسألة عمل — وأكَّد على الكلمة الأخيرة — يجب أن تُسوَّى

اليوم، وإزالة أيِّ سوء فهم، أودُّ أن أقول إنَّ وصيَّك ليس له تأثير في هذه المسألة. لقد

حُسم الأمر قبل دخولك إلى هذه القاعة. مسموح لك أن تختاري أمرًا من اثنين؛ الأول:

الزواج من الأمير رولاند، والثاني: السجن في قلعة فالتس الواقعة وسط نهر الراين.»

تساءلت الكونتيسة: «ماذا تقول؟»

«لقد سئمتُ من تَكَرُّر عباراتي.»

«هل ستَسْجُنُونِي، أنا، كونتيسة فون ساين؟»

مرةً أخرى تبخرت الدموع من عينيها، وحلَّ محلُّها النار المتأججة التي ورثتها عن أجدادها الصليبيين، وكذلك سارقي نهر الراين؛ إن كان ولا بد ذكر الحقيقة كاملة.

«أجل، يا سيدتي. ذات مرة شتق أحد أسلافي واحدًا من أجدادك.»

صاحت الفتاة في غضب جامح: «هذا غير صحيح.» وأضافت: «كان الإمبراطور رودولف هو مَنْ شتقَه؛ إنه هو نفس الإمبراطور الذي عاقب رئيس أساقفة ماينتس، وأتى به جاثيًا على ركبتيه يتوسَّل العفو، والذي منحه الإمبراطور إياه بكلِّ ازدراء. أنت لا تجرؤ على سجنني!»

قال رئيس الأساقفة بهدوء بالغ: «أرفض الزواج من الأمير رولاند، وستعرفين إن كنتُ كذلك أم لا.»

هبت الفتاة واقفة على قدميها، وهي ترتجف من الغضب.

«أنا أرفض قطعًا! لقد خدع الأمير رولاند ثلاثكم بمظهره الكاذب! إنه فاسق ومتهور، ويختلط بأحقر الطبقات في حانات فرانكفورت، وهو كاذب وسارق؛ بل إنه ليس بسارق شجاع؛ وإنما سفاح يرفع سيفه إلى صدر تاجرٍ أعزل بينما يسرق منه أمواله. بالإضافة إلى ذلك، فهو سكيرٌ مثل والده؛ وفوق كل ذلك، مُنافق، على عكس والده، ورغم هذا وذاك فهو ماهر بالدرجة الكافية؛ فمع كل مساوئه هذه، خدع ثلاثة رجال دمرَّ حكمهم الفاسد فرانكفورت»، وأضافت وهي تشير بيدها نحو النهر الخالي: «وحرَم نهر الراين الشاسع من حركة التجارة التي كانت تجعله ينبض بالحياة.»

كان رئيس أساقفة كولونيا أول مَنْ هب واقفًا في زعر.

وتمتم قائلاً: «لقد جُنَّت الفتاة!»

وقف رئيس أساقفة تريفيس أيضًا، ولكن ظلَّ رئيس أساقفة ماينتس جالسًا، وعلى شفتيه ابتسامة مريرة، ورغم ذلك كان في عينيه بريق إعجاب.

صاحت وهي تُحدِّق فيه بابتسامة، وقد اختفى غضبها بسرعة تمامًا مثلما أُثير، قائلة: «كلا، وصيي المسكين، أنا لست مجنونة.» وأضافت: «ما أقوله هو الحقيقة، وربما يكون اجتماعنا مُضطربًا، ولكنه قد يمنعكم من ارتكاب خطأ عظيم. الرجل الذي من شأنكم أن ترفعوه إلى العرش ليس كما تظنون.»

صاح رئيس أساقفة كولونيا قائلاً: «فتاتي العزيزة! كيف يتسنَّى لك توجيه مثل هذه الاتهامات إليه؟ كيف يُمكن لفتاة تعيش في عزلة مثلك أن تعرف ماذا يجري في فرانكفورت؟»

«الأمر يبدو غريباً، أيها الوصي، ولكنه حقيقي. اجلس مرةً أخرى، أُوَسِّلْ إليك، أنت ورئيس أساقفة تريفيس. أظنُّ أن حتى قداسة رئيس أساقفة ماينتس سيتفهم شعوري بالاستياء عندما أقدم لي مثل هذا العرض، وأملُ أن تغفر لي، يا سيدي، نوبة غضبي.»

سمعت رئيس أساقفة تريفيس المرتجف يتمتم قائلاً:

«رئيس أساقفة ماينتس لا يغفر أبداً.»

«الآن، تفضّل، أيها الأب أمبروز.»

تساءل أمبروز وقد استفاق من حالة الاستغراق في التفكير: «لماذا؟»

«أخبرهم عن تجربتك في فرانكفورت.»

اعترض الراهب قائلاً: «أنا غير مسموح لي بالحديث.»

صاح رئيس أساقفة كولونيا: «تحدث! تحدث!» ثم أضاف: «ما علاقتك، يا سيدي، بما تقوله هذه الفتاة؟»

قال لقريبته بنبرة مُرتبكة: «ظننت أنه ينبغي ألا أذكر زيارتي إلى فرانكفورت ما لم يُثر قداسة رئيس الأساقفة هذا الموضوع.»

قالت الفتاة بنفاد صبر: «ألم تَسْمَعْ إلى ما حدث؟» ثم تابعت: «لقد أثير الموضوع أمام رؤساء الأساقفة الثلاثة، وليس واحداً منهم فقط. أخبر قداستهم بما تعرفه عن الأمير رولاند.»

بدأ الأب أمبروز، بتنهيذة عميقة، في سرده، الذي استمع إليه رئيساً أساقفة تريفيس وكولونيا بدهشة متزايدة، بينما تراجع رئيس أساقفة ماينتس متجهماً في كرسيه، وبوجه هادئ، لكنَّ شفّتيه الرفيعتين كانتا ترمّان أكثر فأكثر أثناء مواصلة الحكّي.

وحين انتهى السرد، كان قداسة رئيس أساقفة كولونيا هو أول من تحدّث:

«بحق السماء، لماذا لم تُخبرني بكل هذا أمس؟»

نظر الأب أمبروز في قلة حيلة إلى قريبته، ولكن لم يردّ.

قالت الفتاة في إباء، ولأول مرة تُخاطبه بلقب رسمي، كما لو أنه من الآن فصاعداً سيُحسَب في عداد أعدائها: «أنا منعه، يا سيدي.» وأضافت: «أنا الوحيدة المسؤولة عن رحلته إلى فرانكفورت وتبعتها، أيّاً ما كانت. أنت أقسمت الآن، يا سيدي، بحق السماء، وأودُّ منك أن تعرف أنني مقتنعة بأن السماء نفسها تدخّلت بالنيابة عنيّ لكشف الشخصية الحقيقية للأمير رولاند، الذي نجح في خداع ثلاثة رجال مثلكم، من المفترض أن يكونوا مخضرمين!»

تحول رئيس الأساقفة إلى عينيها الحزنتين، مرتبكا ولكنه ما زال لطيفا. وقال: «عزيزتي الكونتيسة، أنا لم أسع لتوبيخك؛ رغم أنني، أو بالأحرى كنتُ، وصيِّك، وأظن أنه ينبغي استشارتي قبل أن تقومي بتصرُّف يهدد خططنا.» ردَّت الفتاة، بالأسلوب المتعجرف الذي استخدمته مؤخرا:

«أنا لا أجادل في أمر وصايتي، ولقد شكرتُك أكثر من مرة على رعايتك لي، ولكنك في أزمة حياتي هذه — الأزمة التي حولتني من فتاة إلى سيدة — خذلتني، بأن تخلَّيت عني هنا. تمنيتُ أن أقضي شهرا أو شهرين في العاصمة، ولكن قبل أن أزعجك بمثل هذا الطلب قرَّرت أن أعرف ما إذا كان وضع فرانكفورت مضطربا مثلما تزعم الشائعات أم لا. وما إن وجدت أن الأمور ميئوس منها، حتى تخلَّيت عن مشروع الزيارة، وما كنت أعلم شيئا عن الشرف الذي سيمنح للأمير رولاند؛ ولذا ظننت أنه من الأفضل إبقاء ما جرى اكتشافه بخصوص شخصيته سرا بيني وبين الأب المبجل. وأجرؤ على القول بأن ثمة محاولة ستجري للتشكيك في قصة الأب المبجل، وقد يُقنع قضائي الثلاثة أنفسهم بكذبها، ولكنهم لن يستطيعوا إقناعي بذلك، وأقول لكم في النهاية وبصفة رسمية إنه لا توجد قوة على الأرض يُمكن أن تُجبرني على الزواج من لص وسارق!»

أسكتَ تماما هذا الإعلانُ الصديقَ الوحيد لها بين الثلاثة. أدار رئيس أساقفة ماينتس رأسه، ونظر إلى زميله الجالس على يمينه، وكأنه يقول: «هل ترغب في إضافة نصيبك لهذا الكلام غير المنطقي؟»

مال رئيس أساقفة تريفيس إلى الأمام، في خضمِّ هذا الصمت، وتحدَّث إلى الراهب المرتبك، الذي عرف، بطريقةٍ ما لم يتفهَّمها تماما، أن الأمور تنجرف نحو كارثة.

بدأ رئيس أساقفة تريفيس حديثه قائلا: «الأب أمبروز، هلا تتكرم بإخبارنا بالتاريخ الدقيق الذي حدث فيه هذا اللقاء على الجسر؟»

أجاب الأب أمبروز قائلا: «عيد القديس كيرلس.»

«وأثناء ليلة ذلك اليوم كنت محبوسا في القبو وسط براميل النبيذ؟»

«أجل، يا سيدي.»

«هل ستندَهِش، أيها الأب أمبروز، حين تعلم، أنه أثناء عيد القديس كيرلس، وقبل ذلك التاريخ بعدة أيام، كان الأمير رولاند سجيناً تحت الحراسة المشددة في قلعة إيرنفيلس المنيعة الخاصة بقُداسة رئيس أساقفة ماينتس، وأنه من المستحيل تماما أن تلتقي به في فرانكفورت، أو في أي مكان آخر؟»

قال الأب أمبروز، في عناءٍ هادئٍ لرجل دمث، بإصرار: «ورغم ذلك، التقيتُ به.»
ابتسم رئيس أساقفة تريغيس.

«أين نزلت في فرانكفورت، أيها الأب؟»

«في دير البندكت في زاكسينهاوزن.»

«هل يُقدِّم الإخوة الصالحون لضيوفهم نبيذًا قويًا؟ تُعد فرانكفورت، ولطالما كانت دومًا، سوقًا رئيسية لهذا المشروب المنعش، والمسبب الهلاوس في نفس الوقت.»

تخصَّبت وجنتا الكونتيسة خجلًا من هذا التلميح الذي يَنال من رصانة قريبها. واستقرت يد الراهب العجوز على ذراع كرسيِّها، ووضعت يدها على يده وكأنها تشجِّعه على التعبير عن الاستياء من التشويه الضُّمني لسمعته. ففي النهاية، كان كلاهما، وهما ينتميان إلى ساين، يتعرَّضان إلى ضغوط شديدة من قِبَل هؤلاء الحكام القُساة. ولكن رد أمبروز بلطف قائلاً:

«لعلَّ الدير يَحتوي على نبيذ، يا سيدي، ولا شك أنه نبيذ جيد، ولكني لم أذوقه أثناء زيارتي هذه.»

وفي نهاية الاستجواب، تحدَّث رئيس أساقفة ماينتس بصوتٍ أعلى من الهمس بقليل، وقد بدا بعض الإرهاق في أسلوبه.

قال: «سيدِّي، لقد ابتعدنا عن الموضوع. المغامرة التي قام بها الأب أمبروز مُثيرة لكن ليست ذات أهمية، وبعيدة تمامًا عن النقطة الأساسية. وحتى الطفل الصغير يمكن أن يفهم ما حدث، لأنه مجرد خطأ في تحديد الهوية، وأنا مُتعاطف تمامًا مع الشخص المجهول؛ فهو رجل حازم، شعر بالغضب على نحوٍ طبيعي من إصرار أحدهم على التدخل ومن دون دعوة منه؛ ومن ثمَّ حبَسَ المتطفل على نحوٍ مُستحق وسط البراميل، وهو على الأرجح داهية بالدرجة الكافية ليرى أن هذا الشخص الذي لا يُدمن الخمر لن يمَسَّ تلك البراميل بسوء.

سيدتي، قفي!»

بدَّت الكونتيسة ميَّالة إلى رفض هذا الأمر المقتضب، ولكن نظرة التوسُّل التي رأتها في عيني وصيها المذعور تمامًا الآن غيَّرت نيَّتها، وهبَّت واقفة على قدميها.

«سيدتي، عُرض عليك أعظم شرف يُمكن أن تناله أيُّ امرأة في نطاق سلطة هذه الإمبراطورية، ورُفُض بغضب غير مبرَّر. ولذا، أود أن أبلِّغ بِأنك، في ضوء هذا الاجتماع، لا تُعدِّين جديرة بهذا المنصب الرفيع، الذي كان من المقرَّر أن تشغيله قبل معرفة شخصيتك

الحقيقية. كما أنَّ الافتراءات الكثيرة التي صببته فوق رأس الأمير رولاند البريئة تصلُ إلى حدِّ تهمة الخيانة العظمى.»

صاح رئيس أساقفة كولونيا قائلاً: «معذرة، يا سيدي! زعمك لا أساس له من الصحة سواء من الناحية القانونية أو الناحية الفعلية. الخيانة العظمى هي جريمة يُمكن ارتكابها فقط ضد المملكة ككل، أو ضد الحاكم بصفة شخصية. الأمير رولاند لا يُعدُّ إمبراطورَ ألمانيا بعدُ، ورغم أننا ربما نأسف على اللغة المستخدمة للنَّيل منه، فلقد كان هذا بسبب سوء تفاهم واضح جدًّا لنا جميعاً. إن رجلاً صالحاً، لكنه حالم، ارتكب خطأً، ورغم فظاعته، فقد طرَّحه بصدق لا يُمكن لأحدٍ منَّا أن يُشكَّك فيه؛ بالطبع كانت نية الأب أمبروز أن يُبقي معرفته المفترضة سرًّا، ولقد لاحظ كلاكما مدى تردُّده الواضح حين طلب منه زميلي رئيس أساقفة تريفيس التحدُّث. وبصرف النظر عن مدى العدالة في تأديب الأب أمبروز، فلا لوم أبداً على سيدتي، كونتيسة فون ساين، وقبل إلقاء المزيد من اللوم، أتوسَّل إلى قداستك أن تضع في الاعتبار ملابسات المسألة، التي استدعيت إليها فجأةً شائبةً، دون إنذار سابق أو إعداد، لتأخذ أهم قرار في حياتها. أقول إنه لأمر يُحسب لها أن ترفض أعلى منصب في البلاد في سبيل ما تفترضه، ولو على سبيل الخطأ، بأن يكون بسبب الصدق والرصانة، ولعلني أضيف أيضاً، تعاليم المسيحية؛ وهي سمات ينبغي علينا نحن الثلاثة أن ندعمها.»

اعترض رئيس أساقفة تريفيس قائلاً: «سيدي، نحن نلتقي هنا باعتبارنا أمراء دنيويين، لا رؤساء أساقفة الكنيسة.»

«أعرف هذا، أخي رئيس أساقفة تريفيس، وأحتكم إلى القانون الدنيوي. والأمير رولاند، رغم نسبه العالي المقام، هو مجرد مواطن في الإمبراطورية، ونجل جلالة الإمبراطور. ولهذا السبب من المستحيل أن تُرتكب جريمة الخيانة العظمى ضده.»

وأثناء هذا الاعتراض والمناقشة، مال رئيس أساقفة ماينتس إلى الورا مرةً أخرى بموقفه المعتاد من اللامبالاة؛ وعينه الثاقبتان شبه مغلقتين. وعندما تحدَّث لم يُشر إلى أيِّ مما قاله زميلاه.

قال دون أن يرفع صوته: «سيدتي، قرار هذا المجلس هو سجنك، للمدة التي تتراءى لنا، بقلعة فالنيسجرافينشتاين، الموجودة على صخرة وسط نهر الراين. وتحت حراسة الفاليسجراف فون شتاليك، الذي سيكون مسئولاً عن الحفاظ على سلامتك، وأتمنى أن تُنصتي إلى النصائح المُخلصة لزوجته الصالحة بحيث عندما تَحين المرة التالية التي يُتاح

لك فيها شرف حضور اجتماع عالي المستوى كهذا تعرفين على نحو أفضل اللغة التي يجب أن تستخدمها. يُسَمَح لك باصطحاب خادمَتين، تختارينهما بنفسك من أهل بيتك، ولكن يُمنع أيُّ تواصل مع العالم الخارجي منعا باتاً. لقد قلتِ ما مفاده أنه لا يجرؤ القائمون على هذا المجلس أن يتخذوا هذا الحكم ضدك؛ ولكن إذا كنتِ تَمُتِكين الحكمة التي يتّضح جدّاً افتقارك إليها، لعلك كنتِ ستعتقدين أن السلطة التي تتجراً على سجن الإمبراطور المُستقبلي لهذه البلاد لن تتردّد في وضع كونتييسة فون ساين قيد السجن.»

أُحنت الكونتييسة رأسها قليلاً، وجلست مرة أخرى دون أن تُبدي أي اعتراض. وقف رئيس أساقفة كولونيا.

وقال: «سيدي، لقد أثّرت المسألة القانونية هذه وقد جرى تجاهلها تماماً.»

رد رئيس أساقفة ماينتس قائلاً: «هذا هو الوقت المناسب لإثارتها، وستكون راضياً على الفور. هذا المجلس مؤهّل لاتخاذ قرار بشأن أيّ مسألة قانونية. وإذا كان قداسة رئيس أساقفة تريفيس متفقاً معي، فإن اعتراضك مرفوض.»

قال رئيس أساقفة تريفيس: «أنا متفق معك.»

قال رئيس أساقفة ماينتس وهو يستدير نحو الشخص الذي كان يتحدث معه: «قداسة رئيس أساقفة كولونيا، قرار المجلس يرفض اعتراضك.»

كانت هيلديجوندي تتعلم درساً بالفعل. ورغم أنها صُعقت من القرار، فإنه لم يسعها سوى الإعجاب بنبرة النقاش الهادئة بين الثلاثة رجال أمامها، مقارنةً بفورة غضبها السابقة.

قال رئيس أساقفة كولونيا: «قرار المجلس كان متوقعاً، ويؤسفني أنني مجبر على الطعن عليه.»

تساءل رئيس أساقفة ماينتس بنبرة لطيفة: «إلى مَنْ ستتقدّم بالطعن؟ الإمبراطور كما تعلم غير مؤهّل تماماً للقيام بالعمل العام، وحتى إن كان الأمر غير ذلك، فسوف يتردّد في الاعتراض على قرار اتخذته أغلبية هذا المجلس.»

قال رئيس أساقفة كولونيا: «سأتقدّم لسلطة يتوجّب حتى على الأباطرة أنفسهم الانصياع لها؛ ألا وهي سلطة القوة الجسدية.»

قال رئيس أساقفة ماينتس في أسى: «تقصد الثلاثة آلاف رجل المختبئين في الغابة وراء هذه القلعة التي تحلُّ عليها ضيفاً؟»

تفاجأ رئيس أساقفة كولونيا بهذا الرد الشبه الهامس لدرجة أنه عجز عن الكلام للحظات. اجتاح شحوب مُفاجئ وجهه المتورّد عادة. آمال قداسة رئيس أساقفة ماينتس برفق رأسه كما لو أنه كان يَنتظر رداً، وحين لم يأت الرد، استطرد دون انفعال: «دعني أخبرك، يا سيدي، بأن جيشي يحتلّ العاصمة فرانكفورت، وهو قادر على قمع أيّ اضطرابات قد تنجم عن إعلان وفاة الإمبراطور ومُستعدّ لذلك، ولكن لا يزال هناك عدد كبير من القوات المدرّبة التي على استعداد لدعم قرارات هذا المجلس. فبينما كان جواسيسك يجوبون البلاد عبر الغابات وعلى طول النهر وصولاً إلى بوابات مدينة ماينتس، يبدو أنهم كانوا واقعين تحت وهم أن قدراتي تقتصر على تحريك جنودي برّاً فقط. وبطبيعة الحال، لم يتلقّوا أيّ إشارة على وقوع مثل هذا الأمر، نظراً لأنني استوليت على مائة سفينة وجدّتها خالية في رافد ماين بالقرب من فرانكفورت. وهذه السفن أبحرت على طول رافد ماين وصولاً إلى مدينة ماينتس، وهناك استقبل كلُّ منها مائة رجل. وفي الليل الدامس، أبحرت على طول نهر الراين، حسبما يبدو، دون أن يلاحظها أحد، وهي الآن مُختبئة عند مصبّ رافد لان في مقابل هذه القلعة مباشرة.

وعندما يُرْفَع علمي على سارية علم البرج الرئيسي، سيرسو هذا الأسطول أسفلنا في غضون نصف ساعة. ولا شك أنك قمت بترتيبات مُماثلة لتأتي بالثلاثة آلاف رجل من رجالك إلى حصن ستولزينفيلس، ولكن بوابات هذه القلعة مُغلقة الآن. بالطبع، وضعت قلعة ستولزينفيلس في وضع مقاوِمة الحصار بعد مرور فترة قصيرة جدّاً من دخولك أنت والفتاة، ويحرّسها مائتا مُقاتل، وفَرهم لي أخي رئيس أساقفة تريفيس بناءً على طلبي. وأشكُّ أنه يمكن الاستيلاء عليها، حتى لو منحت الإشارة لذلك، وهو ما لن نسمح به. وبالطبع، خطّتك لتأسرني أنا ورئيس أساقفة تريفيس كانت جيدة لو كان بالإمكان تنفيذها، ونظراً لأن أيّ رجل يُواجه مأزقاً سيتنازل دوماً، ولأنني أرى أنك في هذا الموقف، لذا سأسعد بمعرفة ما الترتيب الذي تقترحه.»

لم يردّ رئيس أساقفة كولونيا، ولكنه وقف مُحنياً رأسه ومُقطّباً جبينه. كانت كونتييسة فون ساين هي من وقفت لتتحدث:

قالت: «قداسة رئيس أساقفة ماينتس، لن أغفر لنفسي أبداً إذا تسبّب تصرّفي في حدوث صراع مهلك بين بني وطني. لا أرغب في لعب دور هيلين في حرب طروادة. ومن ثم، فأنا مُستعدة وراغبة في أن أسجن أو أن أتزوَّج الأمير رولاند الفرانكفورت، ما دام لن يُلجَأ أيّ أدنى بصديقي، قداسة رئيس أساقفة كولونيا.»

قال رئيس أساقفة ماينتس بلباقة: «سيدتي، لا يوجد «الآن» خياران، كما تفترضين.»
«في هذه الحالة، سموك، سأُتجه فوراً إلى قلعة فالتس، وأطلب أن يُسمح لوصيي
بمصاحبتني في هذه الرحلة.»

«سيدتي، جرّت الموافقة على قرارك، ولُبّي طلبك، ولكن نظراً لأن المهمة التي اجتمع
من أجلها رؤساء الأساقفة الثلاثة لم تُنجز بعد، أطلب منك الانسحاب حتى يجري التوصل
إلى اتفاق. ويُسمح للأب أمبروز أن يصحبك.»

هَبَ رئيس أساقفة تريفيس الشهم واقفاً على قدميه فوراً، للحصول على شرف قيادة
الكونتيسة إلى جناح شقيقته وابنتها. وحين فُتح الباب المؤدّي لغرفة الانتظار، لم يغفل
رئيس أساقفة كولونيا، الذي تابعت عيناه الفتاة المغادرة، ملاحظة أن الرّدهة كانت مليئة
بالرجال المدجّجين بالسلاح، وقد أدرك الآن، إن لم يكن قد فعل ذلك من ملاحظة رئيس
أساقفة ماينتس، كيف أنه كان مُحاصراً تماماً. وحتى وإن كان مائة ألف من جنوده يقفون
على استعداد تام فوق التلال، كان يستحيل عليه أن يُعطيهم الإشارة ليأتوا إلى نجده.

وبعد مرور بضعة دقائق، عاد رئيس أساقفة تريفيس، وأخذ مكانه على يمين رئيس
أساقفة ماينتس. تحدّث الأخير كما لو أن الاجتماع قد سادته الاتفاق في الرأي والود.

قال: «الآن، وبما أننا نحن الثلاثة بمفردنا، أظن أن بإمكاننا مناقشة المشكلات في
ظل غياب الشعور بالخوف إذا طُلب من الجيش الصغير المترصد في الغابة الرحيل إلى
كولونيا.» وأردف ملتفتاً إلى رئيس أساقفة كولونيا: «ونظراً لأن هذا هو الحال، هلا تتكرّم
بكتابة أمر بهذا المعنى إلى قائدك؟ أخبره بأننا — نحن الأمراء الناهخين الثلاثة — نتمنى
أن نُسّعرض قواتك العسكرية من الشرفة الشمالية، ونطلب منهم التقدم عبر التلال إلى
طريق النهر. وقل لهم إن عليهم عبور نهر موزيل عبر الجسر القديم، ثم العودة إلى
مدينتك. ولعلك ستتعهد بعدم إصدار أية إشارة إلى ضباطك أثناء مرورهم بنا. وأنا أتقدّم
بهذا الطلب وكُلّي ثقة بأنك مدرك تماماً بأن الثلاثمائة رجل سيُدمرون أنفسهم في أي
محاولة للاستيلاء على هذه القلعة؛ لأن هناك جيشاً قوامه عشرة آلاف رجل سيطوّقهم
ويبيدُهم. هل توافق على ذلك؟»

أجاب رئيس أساقفة كولونيا: «موافق.»

كتب الأمر المطلوب، وسلّمه إلى رئيس أساقفة ماينتس، الذي تفحص الوثيقة بإمعان
قبل أن يمررها إلى رئيس أساقفة تريفيس. وخاطب رئيس أساقفة ماينتس رئيس أساقفة
كولونيا بألطف نبرات صوته:

«هلا تتكرّم بتوجيه زميلنا كيف يُمكن أن تصل هذه الرسالة بأمان إلى قائدك؟»

«إذا تمكّن من إرسالها إلى رئيس حربي القليلين هنا، أمرًا إياه بأخذها مباشرة أعلى التل خلف هذه القلعة حتى يصل إلى جنودي، الذين يعرفهم بصفة شخصية، سيُسمحون له بالمرور، وتوصيل أمري المكتوب إلى الضابط المسئول.»

وما إن أنجز ذلك، وعاد رئيس أساقفة تريفييس مرة أخرى، حتى قال رئيس أساقفة ماينتس:

«أنا متأكد من أننا جميعًا ندرك أن كونتيسة فون ساين، حتى وإن كانت مثيرة للإعجاب من نواح أخرى، تمتلك عقلًا مستقلًا وإرادة صلبة تجعلها غير مناسبة تمامًا للمنصب الذي كنّا نعتزم أن تشغله. أظن أن وصيّها لا بد أن يكون قد اقتنع الآن، على الرغم من أنه كان يُساوره بعض الشكوك حيال ذلك من قبل، بأن هذه السيدة لن يسهل التأثير عليها بأي اعتبارات قد نُشير عليها بها. والوقائع المؤسفة التي حدثت في هذا الاجتماع قد غرست على الأرجح في ذهنها تحاملاً معيناً تجاهنا.»

وهنا، ولأول مرة، ضحك رئيس أساقفة كولونيا.

وقال: «هذا مُحتمل جدًّا، يا سيدي، وقطعًا أسلوبك الرزين في طرح الأمر مقنع. لن تخضع سموها كإمبراطورة لنا. ولهذا، أتقدم باقتراح بقدر من الثقة، وأنا متأكد من أنه سيُرضي كليكما. دعني أشرح لكما السيدة الرزينة والصامتة جدًّا ابنة أخت أخي رئيس أساقفة تريفييس لمنصب الإمبراطورة.»

كتم رئيس أساقفة تريفييس شهقة في مَهْدِها، ولكنه لم يستطع أن يُطفئ بريق الطموح الذي قفز فجأةً إلى عينيه. إن ارتقاء ابنة شقيقته الأرملة إلى العرش الإمبراطوري لهو ميزة هائلة جدًّا، وقد جاءت هذه الفرصة على نحوٍ غير مُتوقَّع تمامًا، لدرجة أن ذهنه البطيء قد توقّف أمام هذا الاحتمال الرائع في تلك اللحظة. وبدأ أنه لا يمكن تصديق أن رئيس أساقفة كولونيا تقدّم بمثل هذا المقترح فعلاً.

ضاقت عينا رئيس أساقفة ماينتس حتى كادتَا تنغلِقان، بيد أنه لم يكن هناك أيُّ وسيلة أخرى سواها لتُبين انفعالاته. وكومضٍ رأى بذهنه اليقظ فتيل القنبلة التي ألغاهها رئيس أساقفة كولونيا بلا مُبالاة بينه وبين تابعه المخلص. فرئيس أساقفة كولونيا، بعد أن فقد كل شيء، قد أظهر براعة كافية بحيث يتسبّب في خصومة بين من أجمعا على معارضته وإبطال نفوذه. إذا نُصِّبَت هذه الفتاة إمبراطورةً، فسوف تكون تحت تأثير خالها تمامًا؛ فقد كانت منذ طفولتها مُطيعَةً جدًّا في أسرته. ولكن ما الذي على رئيس أساقفة ماينتس القيام به؟ لو اعترض على هذا الترشيح، فسوف يخسر على الفور ولاء

رئيس أساقفة تريفيس الشديد له، وإذا حدث هذا، فإن رئيسي أساقفة تريفيس وكولونيا، مجتمعين، سيغلبانه في التصويت، وسيكون اعتراضه بلا جدوى. إنه سيغضب رئيس أساقفة تريفيس دون أن يحقق ما يُريد، وهو يعرف أنه يشغل منصبه فقط بسبب أن الرجل الأضعف يُبدي إخلاصًا شديدًا له. ازداد الغضب تدريجيًا في قلبه بينما كان يتخيل الوضع في المستقبل. إن التأثير الذي كان يسعى لممارسته على الإمبراطور بالمساعدة غير المباشرة للإمبراطورة، يجب أن يحدث من خلال موافقة رئيس أساقفة تريفيس، الذي سيقدّر تدريجيًا أهميته المتزايدة.

كل هذا طرأ على ذهن رئيس أساقفة ماينتس، وقد توصّل إلى قراره قبل أن يستعيد رئيس أساقفة تريفيس رباطة جأشه.

قال رئيس أساقفة ماينتس، وهو يُحاول جاهدًا أن يجمع نظرة الحقد نحو الرجل الجالس على يساره: «إنه لمن دواعي سروري ... إنه لمن دواعي سروري العظيم جدًا في واقع الأمر أن أؤيد هذا الترشيح المثير للإعجاب، لدرجة أنني أتوجّه بالتهنئة إلى زميل مُحترم وصديق عزيز. قداسة رئيس أساقفة تريفيس، أنا واثق من أنك ستؤيد هذا الترشيح؛ إذ لسعادتي قد توقّع قداسة رئيس أساقفة كولونيا، قبل بضع دقائق، المقترح الذي كنت بصدد تقديمه إليك.»

رد رئيس أساقفة تريفيس متممًا، وقد وجد صعوبة في التحدث، قائلاً: «سيدي، أنا ... أنا ... بالطبع، سأوافق على أي قرار يتوصل إليه المجلس. وأنا ... أنا أشكر يا سيدي، وأنت أيضًا، أخي رئيس أساقفة كولونيا.»

ثم صاح رئيس أساقفة ماينتس، بنبرة مبتهجة: «إذن، أنجزت المهمة التي اجتمعنا من أجلها، وأعلنُ انتهاء الاجتماع.»

ثم قام من على كرسيه. لم يفكر رئيس الأساقفة الجالس على يمينه الذي كان يطير فرحًا في حقيقة أن رئيسهما لم يستدع السيدة التي ستُنقذ قرار الاجتماع السري وتُجيب عن الأسئلة التي ستطرح عليها، ولكن رئيس أساقفة كولونيا لاحظ هذا، وعرف منذ تلك اللحظة أن رئيس أساقفة ماينتس سيحشد براعته ليُبطل الترشيح. وعلى الرغم من أن قنبلته لم تنفجر، وأن رئيسي الأساقفة الآخرين يبدوان الآن صديقين عظيمين أكثر من أي وقت مضى؛ فقد حقّق رئيس أساقفة كولونيا هدفه المباشر وشعر بالرضا.

وجاء عبر النوافذ المفتوحة الصوت المنتظم للخطوات الثابتة للجنود، وصوت اصطدام الأسلحة والأذرع أثناء عبورهم.

اجتماع كارثي

صاح رئيس أساقفة ماينتس قائلاً: «والآن، دعونا نَستمتع باستعراض القوات الشجاعة التابعة لرئيس أساقفة كولونيا. قُدمت المسيرة، يا قداسة رئيس أساقفة تريفيس. أنت تعرف القلعة على نحو أفضل منا.»

قاد رئيس أساقفة تريفيس الفخور، وهو يتبختر، ضيفيه إلى الشرفة الشمالية.

الفصل الحادي عشر

مال وفيرٌ بأجنحةٍ يطير!

وسط الظلام الدامس كان رولاند يذرع الضفة الشرقية من نهر الراين ذهابًا وإيابًا في منطقة في منتصف الطريق بين مدينة أسمانسهاوزن وقلعة إيرنفيلس. خيم على الليل سكون شديد، أبرزه صوت خرير تيار الماء الهادئ الذي كان يُداعب مقدمة السفينة الحادة، التي كان اتجاهها عكس التيار. وقف القبطان بلومنفيلس بهيئته الضخمة بلا حراك كالتمثال وبدا كشخص أكثر اسمرًا في مقابل التلال السوداء على الناحية الأخرى من نهر الراين. كانت المجاديف الطويلة موازية لحواثل الأمواج الخاصة بالسفينة، واتخذ الرجال الشجعان مواقعهم، في انتظار صدور الأوامر بالإمساك بتلك المجاديف الضخمة، متحدين الرياح وحركة المد والجزر. لكن المد وحده في هذه الحالة سيكون عائقًا لهم؛ إذ كان النسيم الجنوبي القوي مُواتيًا تمامًا. ستكون رحلتهم في تلك الليلة قصيرة وشاقة في الوقت نفسه؛ فهم سيعبرون النهر فقط، ويرسون عند الضفة المقابلة، لكن أمواج النهر كانت تتلاطم بقوة حول صخرة إيرنفيلس من فوقهم، وكان عليهم أن يجذفوا بقوة لو أرادوا النجاة من خطر محقق.

الآن بدا رولاند، الذي كان أصغرَ عضوٍ في عصابة الحدادين حين غادروا فرانكفورت، أكبرَ بسنوات من عمره الحقيقي — وهذا إذا ما استطاع المرء تمييز صورته وسط ظلام الليل الحالك — وقد ازداد مظهره وقارًا؛ إذ بالرغم من كونه مجرد قاطع طريق محتمل الآن، فقد تأكد من أنه سيكون الإمبراطور المنتخب في النهاية.

كان رولاند قد أرسل خطابًا هذا الصباح إلى جريسيل في حانة ذا جولدن أنكر، يرجوهُ أن يجمع رجاله ويقودهم إلى السفينة قبل ساعة من ارتفاع القمر في كبد السماء بحدٍّ أقصى؛ إذ كان يتطلع للوصول إلى الجانب الآخر من النهر دون أن يراه أحد على كلتا الضفتين. وطلب منه أن تكون مسيرته صامتة، وقد وجد جوزيف هذا الأمر صعب التنفيذ

في البداية، لكنه في كل الأحوال لم يكن يحتاج للقلق من تحقيق ذلك. فقد كان للنبيذ الأحمر الذي تشتهر به أسمانسهاوزن تأثيره القوي، وكان أهل المدينة يعتادون الغناء والضحك في الشارع الوحيد الموجود في ذلك المكان طوال ساعات الليل.

عند وصولهم، كان الرجال في غاية الهدوء، وسرعان ما اتخذوا مخابئهم في مؤخرة السفينة، وعندئذٍ لَوَّحَ رولاند، الذي كان آخر مَنْ صعد إلى متنها، بيده إلى القبطان لكي يبحر. بدأت السفينة تبتعد بمقدمتها عن البر شيئاً فشيئاً، وأخذت ترتطم المجاديف القوية بالماء. وبدأت السفينة تشق طريقها عبر النهر في تَوْدَةٍ وثبات؛ ودون أن يراها أو يسمعها أحد على كلتا الضفتين. إلا أن تيار الماء جرفهم للجهة المقابلة لأضواء أسمانسهاوزن المتلألئة، وبعد ذلك أخذوا يُجَدِّفُونَ بثبات عكس التيار قرابة نصف فرسخ وسط هدوء الماء في الشاطئ الغربي، ثم رست السفينة وربطوا أحبالها في الأشجار النامية على حافة الماء لبقية الليل.

أشار رولاند على رجاله بأخذ قسط من النوم إن أمكن؛ لأنَّ عليهم الاستيقاظ مبكراً عند بزوغ فجر اليوم التالي؛ ومن ثم ودون تَذُمَّرٍ لَفَّ كُلُّ مِنْهُمْ جسده بعباءته واستلقى على أرضية مقصورة السفينة.

وعندما أصبحت السماء الشرقية رمادية اللون، أُوقِظَ النيام وقُدِّمَ لكلِّ مِنْهُمْ الخبز والنبيذ. وكان القبطان قد تَلَقَّى بالفعل تعليماته، وَاتَّبَعَ الرجال، نافضين عن أنفسهم غبار النوم، قَائِدَهُمْ إلى الغابة الساكنة الموحشة. وفي هدوء شديد ودون إحداث أي ضجيج يُذَكِّرُ، تَسَلَّقُوا التل الشاهق الكثيف الأشجار، ليصلوا إلى شيءٍ أَشْبَهَ بِمَمَرٍ يعلو النهر بمائة ياردة، واتجهوا نحو اليمين في صمت مُطْبِقٍ لا يخلو من الهمسات.

أخذ الضوء يسود الغابة شيئاً فشيئاً، وفي النهاية، اتجه رولاند، رافعاً يده محذراً، يسارَ الممر، وسلك طريقه عبر الغابة التي امتدت بلا نهاية تلوح في الأفق. كانوا قد قطعوا ربما فرسَخاً حين جاءهم أمر صامت آخر دعاهم إلى التوقف التام، وعندما أخذ الرجال يختلسون النظر عبر الأشجار الموجودة جهة الشرق، لمحوا الأبراج المحصنة الرمادية التي تَتَمَيَّزُ بِضَخَامَتِهَا لقلعة راينستاين الشهيرة، فرأوا برجاً مربعاً في أقرب ركن منهم، بجواره جدار ساتر به كوات، وبرجاً مربعاً آخر أكبر يكاد طوله يصل إلى ارتفاع البرج الأول، الذي يعلو الجرف المؤدي إلى نهر الراين. وبداخل هذا السياج المنيع يوجد صرح القلعة نفسها، وبالقرب منه يوجد البرج الرئيسي المربع الضخم، الذي له بُرْجٌ ثُمَانِيُّ الشَّكْلِ على الجانب الجنوبي الشرقي، قَمَّتُهُ هي أعلى نقطة في هذا الحصن، رغم وجود برجٍ مُسْتَدِيرٍ يُطَلُّ على النهر مباشرة لا يقل طوله عنه كثيراً.

توغّل رولاند وسط الأشجار، فيما أشار لرجاله بالبقاء حيث كانوا، وأخذ ينظرُ بتمعّن إلى الأبراج وبالأسفل إلى بوابة الدخول.

كان بارون هوهينفيلس جالسًا في أمانٍ تامٍّ داخل وكر اللصوص الذي كان يحتمي به، والذي كان يظنُّ أنه لا يُقهر، وبالفعل الجرف الذي كان مُستقرًّا عليه وكُرّه والذي كان ارتفاعه قرابة المائة ياردة، جعله يبدو كذلك إذا ما اقترب منه أحد من جهة نهر الراين؛ لدرجة جعلته لا يضع عليه سوى حارس واحد، وكان هذا الحارس مُتمركزًا عند المنصة المرتفعة للبرج المستدير. رأى رولاند الحارس يتثاءب في ضجرٍ بينما يتكئ على رمحه الطويل، وقد سرّه أن يرى حارسًا واحدًا للقلعة؛ إذ كان يخشى في البداية أن يكون كلُّ مَنْ فيها نيامًا، وكان البرج المستدير مُتواريًا خلف البرج الرئيسي المربع الأقرب إليه إلى أن غيّر رولاند موقعه جهة الشمال. وبعد أن اكتنفه شعور بالرضا لما رآه، أشار إلى رجاله أن اجلسوا ففعلوا. واتخذ هو موقعًا خلف شجرة، بحيث يمكنه مراقبة الحارس ذي الرمح دون أن يراه أحد.

بدأ الكسل والتراخي يظهران على الحارس حتى بدأ رولاند يخشى أن تمر السفينة دون أن يراها. فلم تظهر أيُّ سفينة في النهر منذ شهور، ولا شك أن الحارس لم يكن يرى فائدة لمنصبه، بل كان يراه مبعثًا للضجر. بدأت السماء تزداد سطوعًا ناحية الشرق، حتى ظهر الشفق الأحمر في النهاية أعلى التلال المطلة على نهر الراين الساكن. وفجأة هبَّ الحارس واقفًا، ثم ظلل عينيه بيميناه، واتكأ على الأسوار، محدقًا جهة الجنوب. وما هي إلا لحظات حتى قطع الصمت صرخة مُدوية، واختفى الرجل وكأن الأرض قد ابتلعتة. وسرعان ما تردّد صدى صيحات البوق بين الجدران، متبوعًا بصوت قعقعة الدروع وأصوات ضجيج الرجال وكأنّما عش دبابير قد هُوجم. ظهر ستة رجال أعلى الأبراج والأسوار المتعددة، ونظروا إلى النهر ثم اختفوا في لمح البصر كما فعل الحارس.

في النهاية، فُتحت البوابات في تناقل، وكان الرجال الثلاثة الأوائل الذين ظهرُوا يمتطون ظهورَ الخيل، وكان أحدهم يرتدي ثوبًا خارجيًا على عجل، لكنّ الخيول المدربة جيدًا — التي كانت تعرف عملها تمامًا مثل راكبيها؛ لأنها اعتادت السباحة في النهر إذا ما خالفت أيُّ سفينة الأمر الذي صدر لها بالتوقّف — خرجت من البوابة، وانطلقت في الطريق الذي ينحدر عبر الغابة. اندفع الرجال ومعهم سيوف أو رماح، وتواروا عن الأنظار. بدوا بلا قيادة، مندفعين للأمام دونما تنظيم معيّن، لكنهم كانوا يعرفون عملهم جيدًا كخيولهم. كان لكل هذه الجلبة تأثيرها على رولاند، الذي تقدّم ببطء على يديه

وركبتيه ليعرف ماذا يجري، والجميع احتبست أنفاسه في ذهول؛ لكنهم كانوا يرون قائدهم هادئاً وبلا حراك؛ إذ كان منشغلاً بعد الأفراد الذين يمرون على أصابعه لأنه كان يعرف جيداً عدد الموجودين داخل القلعة.

همس قائلاً: «ليس بعد، ليس بعد!»

وأخيراً ظهر ثلاثة رجال يبدو عليهم الوقار يمشون بخطى واسعة وثيقة؛ ويبدو من ملابسهم الأنيقة أنهم ضباط، وتبعوا الآخرين.

صاح رولاند قائلاً: «أها! لقد أسرف البارون العجوز هوجو في الشرب ليلة البارحة حتى عجز عن الاستيقاظ مبكراً كهذا.»

كان يتحدث بصوت مسموع الآن.

«اعتبروا من ذلك يا رفاق، وإياكم أن تسمحوا للنبيذ أن يؤثر على عملكم. اتبعوني بحذر، فرادى واحداً تلو الآخر وانتبهوا لخطواتكم. فالطريق شديد الانحدار من هنا إلى البوابة»، وقد وجدوه كذلك بالفعل، لكن الجميع وصلوا إلى الساحة الأمامية بسلام واجتازوا البوابة المفتوحة أيضاً دونما خطر.

جاءهم الأمر التالي: «أغلقوا تلك البوابات بإحكام»، فنفّذوه في الحال.

هبط درج القلعة الصخري رجلٌ ضخم بدين وهو ينخر ويلهث، وكان مُنتفخَ الوجه، مغمض العينين ويبدو أنه شرب حتى الثمالة. كان يحاول جاهداً ارتداء سترة الدوبليت الخاصة به بينما يساعده خادم عجوز يكسو الرعب ملامح وجهه، وكان يُطلق السباب واللعنات على نحوٍ فظيع. وعندما رأى الجمع عند البوابة، ظنهم خطأً رجاله، فصاح فيهم قائلاً:

«ماذا تفعلون هنا أيها الأوغاد؟ اذهبوا جميعكم إلى النهر، اللعنة عليكم جميعاً أيها الكسالى! لماذا بحق الجحيم ...» وفي تلك اللحظة توقّف فجأة عن الكلام عند الدرجة الأخيرة من السلم، بينما سلّط سيفٌ على رقبته، فاحتبست أنفاسه وبات وجهه الأرجواني شاحباً.

«صباح الخير، يا هوجو بارون هوهينفيلس. من تخاطبهم بهذه اللهجة الفظة لا يُطيعون سوى أوامري أنا.»

قال العجوز في صجر: «ومن تكون بحق الجحيم؟»

«مهنتي جلال. أثناء استقرارنا بين التلال رأينا سفينة تبحر في النهر، فاعتقدنا أنه من المحتمل أن تُترك القلعة دون حماية؛ ومن ثم أتينا لإعدام كبير اللصوص.»

كان البارون يرتعد بشدة من الخوف. وكان من الواضح أنه، برغم قسوته وفضاظته المعروفتين عنه، كان جباناً في أعماق نفسه.

أخذ يتمتم بصوت مرتجف: «أنتم ... أنتم ... أنتم ... لصوص! أنتم لصوص من هونسروك.»

«ما أذكاك، أيها البارون، كي تتعرّف علينا في الحال. والآن أنت تعرف ما يجب أن تتوقعه بعد ذلك. جريسيل، فك الحبل الذي أعطيتك إياه بالأمس. سأريك الغرض منه.»
فعل جريسيل ما أمره به دون تعليق، لكن إبرهارد اقترب بشدة من رئيسه وهمس قائلاً:

«لماذا نلجأ إلى العنف؟ لسنا على خلاف مع هذا الفيل. ما نريده هو الذهب الذي يمتلكه، وشنقه مضيعة للوقت.»

قال رولاند بلهجة صارمة: «صه، يا إبرهارد. يقال إن كل كبير يضمُّ ما هو أصغر منه. أنا أعرف هذا الرجل، وأسلكُ أسرع الطرق للوصول إلى مكان خزينته.»
تراجع إبرهارد، وعندئذٍ كان المساعد جريسيل قد صنع عقدة بالحبل ولفّها حول عنق البارون كرابطة العنق.

صاح النبيل المرتعب: «لا، لا، لا تفعل!» وتابع: «لا حاجة لكم بحياتي. لن تنفعكم في شيء؛ كما أنني لم أؤذ الخارجين عن القانون يوماً.»

قال رولاند: «هذا كذب.» وأردف: «فقد أرسلت حملة ضدنا العام الماضي.»
رد بارون هوهينفيلس معترضاً: «لست أنا، بل قرصان فالكينبرج. لكن لا بأس. سأشتري حياتي منكم. فأنا رجل ثري.»

سأله رولاند في تردد: «بكم تشتريها؟»

«بأكثر مما يمكنكم جميعاً حمله.»

«ذهباً؟»

«بالتأكيد ذهباً.»

«إذن أين مفاتيح خزينتك؟»

«في غرفتي. سأتيك بها»، واستدار البارون وهمّ بصعود السلم من جديد.

فصاح رولاند قائلاً: «لا، ليس هكذا.» وتابع: «قف مكانك، وأرسل خادمك ليأتي بها. وإن لم توضع أمامي هنا قبل أن أعدّ إلى أربعين، فستموت شنقاً، ولن ينقذك مني أحد.»
أخبر البارون خادمه المرتعب بمكان المفاتيح.

«جريسِل، اذهب أنت وإبرهارد معه، وأُيِّ إشارةٍ غديرٍ أو مُحاولَةٍ للاستغاثة، اقتلاه بسييفيكما.» واستطرد سائلًا البارون: «هل يَعْرِفُ خادمك مكان الخزينة؟»

«أوه، نعم، نعم!»

«كيف تَحْتَفِظُ بأموالك؟»

«في حقائب من الجلد.»

«جيد. جريسِل، اصطحب ستة عشر رجلًا، وأحضِرْ ما استطعتم حملاً من المال إلى هنا. وسوف نُقَرِّرُ بعدها ما إذا كان هذا كافياً لشراء حياة البارون أم لا؛ فقيمتُهُ عندي كبيرة. إنه رجل مُهم. نفَّذْ ما أقوله بسرعة يا جريسِل، وإياك أن تَغْفُلَ عن هذا الخادم. أحضره معك ثانية، محملاً بالذهب.»

اختفوا جميعاً داخل القلعة، يقودهم الخادم العجوز.

قال رولاند بلطف: «اجلس أيها البارون.» وتابع: «تبدو مُضطرباً للغاية، ولا أرى داعياً لذلك ما دام لديك ما يكفي من الذهب ليفديك.»

جلس النبيل الضجر متنهّداً في إنهاك.

وأردف رولاند قائلاً: «وَادْعُ الرب الكريم ألا يعود رجالك قبل إتمام هذه الصفقة؛ فإنهم إن فعلوا فسيكون أول ما أقوم به هو أن أخنقك بالحبِل. وحتى الذهب لن يخلصك مني في هذه الحالة. لكنك ما زلت تملك فرصة أخرى للحياة، في حالة وقوع هذا الحدث البغيض. سيكون عليك أن تَصيح في رجالك عبر البوابات المغلقة وتأمرهم بالعودة إلى حافة النهر إلى أن تنضم إليهم؛ ثم، إذا أطاعوا أَمرك، فستكون قد نجوت. رجاءً تذكّر أنه لا داعي للصراخ؛ لأننا مسيطرون على قلعة راينستاین، وأنت تعلم أنه لا يُمكن مهاجمة القلعة من الخارج.»

تنهّد البارون.

وقال مُكتئباً: «لا تتسرّع في استخدام الحبِل.» وتابع: «فأنا سوف أطيع أوأمرک.»

غير أن اللصوص لم يعودوا، وحذّم الباحثون عن الخزينة هم من عادوا، جامعين الحقائق في الساحة الأمامية، فتنهّد بارون هوهينفيلس ثانية في أسفٍ لما رآه. وأشار رولاند إلى حقائب معيَّنة بطرف سيفه، آمراً رجاله بفتحها. فكانت جميعها تمتلئ بالذهب.

فصاح قائلاً: «والآن، يا رفاق، اصنعوا للبارون معروفاً بحمل هذا الوزن من الذهب، ثم سننّجه إلى هونسروك. افتحوا البوابات. واصطحبِ الرجال يا جريسِل إلى النقطة التي تجمعنّا فيها وانتظروني هناك.»

غادر الجمع الثَّري، بينما حاول رولاند إضاعة الوقت وتخفيف حدة التوتر الذي تملك البارون بحديث خفيف وشيق لم يحظَ بردٌ أو مقاطعة منه. وأخيراً وبعد أن انتظر ما يكفي من الوقت لكي يتمكَّن رجاله من الوصول إلى نقطة تجمُّعهم الأخيرة، فك رولاند الحبل الملفوف حول عنق البارون وربط يدي اللص العجوز خلف ظهره، ثم ربط قدميه، بعد أن قطع الحبل إلى قِطْع مُستخدمًا سيفه. وفعل الشيء نفسه مع الخادم المرتعد، وحبسه داخل القلعة، ثم أغلق الباب بأكبر مفتاحٍ وسط مجموعة المفاتيح التي رماها بجانب الرجل النبيل.

ثم قال: «يا بارون هوهينفيلس، لقد وفيتُ بوعدي معك، وداعاً الآن. سأترك بالخارج؛ لأنه يبدو أنك تُعاني ضيقاً في التنفس، والهواء النقي مفيد لك. وداعاً أيها البارون.»

لم ينبس البارون ببنت شفة، حين غادر رولاند المكان مُنظِّفاً قبعته، وتسَلَّق الممر المنحدر وانضم إلى رجاله المُنتظرين. وقد قادهم على طول جانب التل عبر الغابة لبعض الوقت، ثم نزل إلى حافة الماء. كان النهر خالياً، فجلسوا جميعاً تحت الأشجار بعيداً عن الأنظار، تاركين أحدهم للقيام بمهمة الحراسة. وعندئذٍ قضى رولاند نصف ساعة يسودها قلق بالغ، لم يُهدِّئه سوى معرفته بافتقار رجال قلعة راينستاين إلى براعة اختراق الغابات، ومن ثمَّ قد لا يتمكنون من ملاحقة الهاربين. لقد كان من المرجَّح أن يُهرعوا إلى الطريق المعاكس تماماً، باتجاه هونسروك؛ لأن بارون هوهينفيلس كان يعتقد أنهم لصوص من هذا المكان ولم يربط وجودهم بأي حال بالسفينة المسروقة.

لكن لصوص راينستاين لو خطر ببالهم إغراق السفينة، ولطالما فعلوا مثل هذا الأمر، لوقع رولاند ورفاقه في مأزق؛ إذ إنهم سيكونون حينها بلا طعام ولا وسيلة لعبور النهر. غير أنه كان واثقاً من أن القبطان بلومنفيلس سيتَّبَع تعليماته، بالأبدا يُبدي أيَّ مقاومة، بل ويساعد اللصوص في مهمتهم.

قال رولاند مخاطباً رجاله: «في حدود مسافة فرسخ واحد، توجد ثلاث قلاع للقراصنة: قلعة راينستاين، التي غادرناها للتو، ثم قلعة فالكينبرج، التي على بُعد مسافة قصيرة بعدها، ثم قلعة زونيك. إن لم يحدث للسفينة شيء، فأنا أتوقَّع الانتهاء من القلاع الثلاث قبل حلول الليل؛ ونظرًا لقرب تلك الحصون بشدة من بعضها، فعلينا العمل بسرعة، وعدم السماح بأن تُسبِقنا أخبار ما نفعل وتتسرب إليهم.»

رد كورزبولد قائلاً: «لكن ماذا لو احتجز رجال هوهينفيلس السفينة في مرساهم؟»

رد رولاند: «سَنَنْتَظِرُ هُنَا نِصْفَ سَاعَةٍ أُخْرَى، وَإِنْ لَمْ نَعْرِفْ أَيَّ شَيْءٍ عَنِ السَّفِينَةِ خِلَالِهَا، فَسَنَذْهَبُ إِلَى حَافَةِ النَهْرِ إِلَى أَنْ نَعْرِفَ مَاذَا حَلَّ بِهَا. أَنَا لَا أَظُنُّ أَنَّ اللُّصُوصَ سَيَتَعَرَّضُونَ لَهَا؛ إِذْ إِنَّهُمْ لَمْ يُبْدُوا حَتَّىٰ أَيَّ انْزِعَاجٍ لَا بَعْضِيَّانِ أَوْ أَمْرَهُمْ بِالْإِرْسَاءِ وَلَا بِالْمُقَاوِمَةِ بَعْدَ وَصُولِ السَّفِينَةِ إِلَى الشَّاطِئِ. كَمَا أَنَّي أُعَوِّلُ عَلَى حَقِيقَةِ أَنَّ الضَّبَاطَ سَيَكُونُونَ مَتَلَهِّفِينَ عَلَى الْأَقْلَ لِلِسَمَاحِ لِلْسَّفِينَةِ بِالْانْطِلَاقِ، أَمَلًا فِي أَنْ تَتْبِعَهَا سَفْنٌ مُّحَمَّلَةٌ أُخْرَى، وَأَعْتَقِدُ بِالْفِعْلِ أَنَّهُمْ لِهَذَا السَّبَبِ سَيَكُونُونَ أَكْثَرَ مِنَّا اعْتِدَالًا فِي النَّهَبِ.»

وَقَبْلَ أَنْ يُنْهِيَ حَدِيثَهُ، أَعْلَنَ الْحَارِسَ الَّذِي يُرَاقِبُ النَهْرَ وَجُودَ السَّفِينَةِ فِي مَرْمَى الْبَصَرِ، حَيْثُ كَانَتْ تَتَدَفَّقُ مَعَ التَّيَّارِ. وَعِنْدَئِذٍ هَبَّ الْجَمِيعُ تَارِكِينَ الْغَابَةَ. كَانَ الْقَبْطَانُ بِلُومَنْفِيلِسَ يَتَفَقَّدُ الشَّاطِئَ بِعَنَاءٍ حِينَ رَأَاهُمْ فَجْأَةً، فَأَدَارَ مَقْدَمَةَ السَّفِينَةِ بِاتِّجَاهِ مَكَانٍ وَقُوفِهِمْ.

وَضَعَتْ حَقَائِبُ الذَّهَبِ فِي خَزَائِنِ مَتِينَةٍ تَمْتَدُّ عَلَى جَانِبِي الْمَقْصُورَةِ. وَفِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ، أَعْطَى رُولَانْدُ لِلْقَبْطَانِ تَعْلِيمَاتٍ دَقِيقَةً بِشَأْنِ الْخُطْوَةِ التَّالِيَةِ مِنَ الْخُطَةِ، ثُمَّ عَادَ مَعَ رَجَالِهِ إِلَى الْغَابَةِ ثَانِيَةً.

لَقَدْ كَانَتْ مَهْمَّتُهُمْ أَصْعَبُ مِنَ الْاسْتِيلَاءِ عَلَى قَلْعَةِ رَايْنِسْتَايْنِ؛ لِأَنَّ قَلْعَةَ فَالْكِينْبِرْجِ الضَّخْمَةَ تُوجَدُ عَلَى قِمَّةِ صَخْرِيَّةٍ خَالِيَةٍ مِنَ الْأَشْجَارِ؛ كَمَا أَنَّ الْقَلْعَةَ نَفْسَهَا عِبَارَةٌ عَنْ كِتْلَةٍ رَمَادِيَّةٍ عَمَلَقَةٍ مُسْتَطِيلَةٍ، لَهَا بَرَجٌ مَرَبِعٌ رَفِيعٌ بِالْقَرْبِ مِنْهَا، يَرْتَفِعُ عَنْ أُسُورَاهَا عَلَى مَنحَدٍ يَصِلُ إِلَى نَهْرِ الرَّايْنِ، مِمَّا يَجْعَلُهُ بَرَجَ مِرَاقَبَةٍ مِمْتَازٍ. لَكِنْ بِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّ التَّلَّ الصَّخْرِيَّ الْمَخْرُوطِي الشَّكْلَ كَانَ خَالِيًا مِنَ الْأَشْجَارِ الضَّخْمَةِ الَّتِي كَانَتْ تُحِيطُ بِقَلْعَةِ رَايْنِسْتَايْنِ، فَقَدْ كَانَ هُنَاكَ الْكَثِيرُ مِنَ الصَّخُورِ وَالشَّجِيرَاتِ الَّتِي يُمَكِّنُ الْاِخْتِبَاءَ خَلْفَهَا. وَمِنْ ثَمَّ لَمْ يَكُنْ بِإِمْكَانِ مَجْمُوعَةِ الْغَزَاةِ أَنْ يُؤْمِنُوا مَوْقِعًا عَلَى نَفْسِ الْمُسْتَوَى مَعَ أُسُورِ الْقَلْعَةِ كَمَا فَعَلُوا خَلْفَ قَلْعَةِ رَايْنِسْتَايْنِ؛ وَمِنْ ثَمَّ كَانُوا مُضْطَرِّينَ لِلانْدِفَاعِ بِسُرْعَةٍ بِاتِّجَاهِ الْبَوَابَةِ أَعْلَى التَّلِّ.

لَكِنْ عَوَّضَ كُلُّ هَذِهِ الْمَسَاوِي حَقِيقَةً كَوْنِ مَوْقِعِ قَلْعَةِ فَالْكِينْبِرْجِ أَعْلَى مِنْ قَلْعَةِ رَايْنِسْتَايْنِ بِكَثِيرٍ، كَمَا أَنَّ الْقَلْعَةَ كَانَتْ بَعِيدَةً عَنِ النَهْرِ أَكْثَرَ، بِحَيْثُ إِذَا نَزَلَ الرِّجَالُ إِلَى حَافَةِ الْمَاءِ فَلَنْ يَتِمَكَّنُوا مِنَ الْعُودَةِ بِالسَّرْعَةِ الَّتِي عَادَ بِهَا رَجَالُ هُوِهِنْفِيلِسَ. فَقَدْ كَانَتْ قَلْعَةُ رَايْنِسْتَايْنِ مَطْلَةً عَلَى النَهْرِ مَبَاشَرَةً وَلَا تَعْلُو عَنْهُ سِوَى مَائَتَيْنِ وَسَتِينَ قَدَمًا، بَيْنَمَا كَانَتْ قَلْعَةُ فَالْكِينْبِرْجِ أَبْعَدَ مِنْهَا دَاخِلَ الْبَرِّ. لَكِنْ جَمِيعُ هَذِهِ الْقِلَاعِ لَمْ تُهَاجَمْ مِنْذُ زَمَنِ طَوِيلٍ وَكَانَ أَصْحَابُهَا يَعْتَبِرُونَ أَنْفُسَهُمْ آمِنِينَ، حَتَّىٰ إِنَّهُمْ أَهْمَلُوا الْحِرَاسَةَ الْكَافِيَةَ؛ إِذْ كَانَ

القائم على الحراسة في فالكينبرج شخصًا واحدًا يقف على البرج الطويل. لم يرَ المهاجمون أحدًا عند أسوار القلعة، فشقوا طريقهم حول التل إلى أن اختفى المراقب عن أنظارهم خلف مبنى القلعة نفسه، ومن ثم زحفوا كالسحالي من شجيرة إلى شجيرة ومن حجر إلى آخر ومن حافة صخرية إلى أخرى، مستغرقين الوقت الكافي لذلك، وكانوا لا يُغادرون موقعًا للاختباء حتى يتخذوا قرارًا بشأن آخر. وكان وجود الحارس عند الجانب المثل على نهر الراين من القلعة قد جعل التسلل خلسة من أي منطقة على البر خيارًا عظيمًا.

وأخيرًا دَقَّت أجراس الخطر؛ وفتحت البوابة، فهُرِعَ كُلُّ مَنْ فِي القلعة أسفل التل بلا تردد. ومن ثم أصبحت الفرصة سانحة أمام اللصوص الهواة لكي يَمْضُوا فِي طريقهم، وبالرغم من أن هذا كان في البداية يبدو ميزةً، فسرعان ما وجدوا العكس؛ إذ إنهم تمكنوا بالفعل من التجول من غرفة لغرفة، لكنهم لم يعرفوا مكان الخزينة. فلم يكن رولاند يعرف تفاصيل القلعة من الداخل، حيث كانت إحدى الحصون التي كان مُضطَرًّا للبيات فيها في مَبْنَى ملحِق بها. وأخيرًا وجدوا الباب المؤدِّي إلى غرفة الخزينة، حيث أشار رولاند إلى أنها ربما تكون في مكان مماثل لَذاكَ الذي وجدوها فيه في قلعة راينستاین، ولذا، مَنْ كانوا يُرافقون خادم بارون هوهينفيلس بدءوا البحث من هذا المنطلق، وكوفئوا بالوصول إلى بابٍ مُغْلَقٍ بِإحكام شديد لم تُجِدِ جهودهم لفتحه نفعًا.

تملَّكهم إحباط شديد، عندما سمعوا أصوات عدد من رجال الحراسة يُدممون بوحشية، فاضطروا للانسحاب خالي الوفاض؛ إذ أُنذرتهم الصرخات التي كانت تقترب منهم بعودة رجال الحراسة، فتسلَّلوا زحفًا عائدين من حيث جاءوا، واتجهوا نحو النهر، حيث كانت السفينة في انتظارهم هذه المرة.

لقد أثبت سيد فالكينبرج اعتداله في سطوهِ كرجال راينستاین تمامًا. فقد فُتِحَ الكثير من البالات وكان اللصوص، بمهارة نسَّاجي الملابس، يختارون أفضل البضائع فقط في كل مرة، لكنهم لم يأخذوا من هذه البالات إلا ما يكفي لزيٍّ واحدٍ فقط لكلٍّ منهم. وبالرغم من أن العصبية بدأت عملها مبكرًا جدًّا، فقد كان الوقت قد تجاوز الظهيرة حين عادوا إلى السفينة في المرة الثانية. فُقِّدَتْ لهم وجبة كبيرة؛ إذ كانوا جميعًا يتضورون جوعًا، إلى جانب إحباطهم لعلمهم بأن حتى مجال السرقة فيه تقلبات.

وفي ساعة مبكرة من العصر، اتجهوا إلى قلعة زونيك الجميلة، التي كانت أبراجُها الرفيعة واقفة في شموخ وسط السماء الزرقاء. وهناك وجدوا غطاءً مُمتازًا على مرمى البصر من الداخل؛ إذ كانت قلعة زونيك تقف وحيدة على صخرتها دون جدار يحميها.

وعندئذٍ تكررت تجربة راينستين، باستثناء أنهم لم يُواجهوا سيد القلعة، بل كان حارساً مرتعّباً استسلم تحت تهديد السيوف وأحضر المفاتيح وفتح الخزينة. ورغم أنهم لم يحظوا بالغنيمة نفسها التي حظوا بها في المرة الأولى، فإنهم حصلوا على ما يكفي ليُجعل عملهم يستحق العناء، ثم ذهبوا إلى السفينة وهم في معنويات عالية.

انتظرت المجموعة في ظل التلال إلى حلول وقت الشفق، ثم تسلّلوا بهدوء عبر النهر مختفين وراء جزيرتين وتوقّفوا على طول ضفة النهر، قبل قرية لورش النشطة مباشرة، التي لا تكاد تبعد أكثر من فرسخين عن المكان الذي كانوا فيه بالأمس. وعندما رست السفينة، مشى رولاند مع القبطان على متنها يستمع إلى روايته للأحداث من مستوى سطح النهر. لقد ثبت أنه في المجمل لم يكن بإمكان رولاند أن يُسيّر اليوم على أفضل مما كان. فقد سار كل شيء على أحسن ما يكون من وجهة نظر بلومنفيلس.

وبينما كانا يتمشيان، جاء أحد الرجال وقال ببعض العجرفة: «أيتها القائد، رفاقك يرغبون في مقابلتك عند المقصورة.»

لم يُبدِ رولاند أي رد، وواصل حديثه مع القبطان إلى أن عرف من هذا الشخص الكتوم بعض الشيء كلّ ما يرغب في معرفته. وبعد ذلك مشى في تودة إلى الخلف ونزل إلى المقصورة، حيث وجد الثمانية عشر رجلاً يجلسون فوق الخزانات، كما لو كان هذا الاجتماع السري لأعضاء هيئة ما كالأمرء النخبين، الذين توصلوا إلى قرار بالغ الأهمية.

قال كورزبولد: «لقد أصدرنا قراراً بالإجماع مفاده توزيع المال علينا جميعاً بالتساوي كل ليلة. ولا أظن أنك تعارض هذا، أليس كذلك؟»

«بلى؛ أنا لا أعارض صدور قرار من قبلكم.»

«ممتاز. نحن لا نريد أن نُضيّع الوقت الآن في التقسيم؛ لأننا سنذهب إلى لورش للاحتفال بنجاحنا بإقامة مأدبة. هل أنت وجريس وإبرهارد مُهتمون بالانضمام إلينا؟» رد رولاند في هدوء: «لا يمكنني أن أتكلّم نيابةً عن الاثنين الآخرين، لكن بالنسبة إليّ فلن أستطيع الحضور؛ لأنّ لديّ بعض الخطط المستقبلية التي أحتاج للتفكير فيها.»

قال كورزبولد، الذي بدا غير مكترث على الإطلاق بعدم حضور قائده: «حسناً في هذه الحالة لن ننتظرك.»

قال جون جينسبين مقترحاً: «ربما سينضمُّ القائد إلينا في وقتٍ متأخّر من المساء. فقد علمنا حين كنا في أسمانسهاوزن أن حانة كرون رائعة للغاية، فقررنا الذهاب إليها.» سأل رولاند: «كيف عرفتمُ أننا ننوي التوقف في لورش؟» وتساءل ما إذا كانوا قد سمعوا بأي نحو أنه ينوي مقابلة مبعوث جوبل في هذه القرية.

رد جينسبين: «لم نكن مُتأكّدين، لكننا أجرينا استقصاءً بشأن جميع القرى والقلاع المطلة على نهر الراين، ودوّنّا ملاحظاتنا في هذا الشأن.»

«أها، أنت إذن مرشد ماهر. قد أجد فرصة أستخدم فيها تلك المعلومات.»

قال كورزبولد في ضجر: «كلنا مشاركون على نحوٍ مُتساوٍ في هذه الحملة، ولا ينبغي أن تتخيّل أنك الوحيد المعني بهذا. لكن الوقت يتسرّب من بين أيدينا. ما نريده الآن هو أن تفتح واحدًا من هذه الصناديق وتقسم إحدى حقائب الذهب فيما بيننا. وسوف تُقسم البقية عند عودتنا هذا المساء؛ وبعدها لن نكون بحاجة لإزعاجك بطلب المزيد من المال يا سيد رولاند.»

«هل نفدت الثلاثون تالراً التي أعطيتك إياها قبل بضعة أيام يا سيد كورزبولد؟» رد القائد السابق المتمرد قائلاً: «دعك من هذا.» وتابع: «الأموال المختزنة في هذه الخزانات ملك لنا، ونحن نطالب بتقسيم جزء منها الآن، والبقية بعد عودتنا من المأدبة.» من دون أن يتفوه بكلمة أخرى، أخذ رولاند حَفنة المفاتيح من حزامه وفتح إحدى الخزانات، وأخرج إحدى حقائب الذهب وفك أربطتها، وسكب العملات على غطاء الخزانة ثم أغلقها مرة أخرى.

وقال مخاطباً كورزبولد: «ها هو ذا المال.» وأردف: «سأرسل في طلب جريسيل وإبرهارد ليشاركا في توزيعه، ومن ثم يُمكنك أن تدعوهم لحضور مأدبتك. أما نصيبي أنا فيمكنك أن تتركه على غطاء الخزانة.»

وهنا صعد إلى ظهر السفينة من جديد وقال لنائبه:

«لقد طلب كورزبولد، نيابةً عن الرجال، حقيبةً من المال. وسوف تذهبان للمقصورة لاستلام حصتكما. وسوف يدعوكما أيضاً لحضور مأدبة في حانة كرون. فاقبلا دعوته، وإن أمكن احجزا غرفة خاصة كما فعلتما في أسمانسهاوزن، لكي تمنعا الرجال من الحديث إلى أيٍّ من السكان. دعوهم يستمتعون هناك إلى أن يخلد كلٌّ من في القرية إلى النوم؛ ثم أرسلوهم إلى السفينة ثانية في هدوء شديد قدر الإمكان. فقد صدر قرار بتوزيع المال بين محاربينا لدى عودتهم، لكنني أتصوّر أنهم لن يكونوا بحالة تجعلهم يتصرّفون تصرفات مسئولة عندما أسعد برؤيتهم من جديد، ولذلك إذا قيل شيء عن التقسيم، فاقترحا تأجيل الأمر حتى الصباح. ولست بحاجة لأن أضيف أنني أتوقّع ألا تشربا كثيراً؛ لأن هذه النصيحة أنوي تطبيقها بنفسى.»

أخذ رولاند يذرع سطح السفينة مستغرقاً في أفكاره إلى أن غادر فريقه المتمرد باتجاه أضواء القرية المتلائة، ثم عاد إلى المقصورة، وسكب نصيبه من المال في حقيبته

ثم تبع رفاقه لمسافة داخل قرية لورش. تجنَّب زيارة حانة كرون، وبعد أن شق طريقه توقَّف عند نُزل أصغر بكثير، يُدعى حانة ميرجلر. وهناك أعطاهم اسمه وسألهم عما إذا كان هناك أحد ينتظره، فاصطحبوه إلى الطابق العلوي إلى غرفةٍ وجد فيها السيد كروجر والذي كان على وشك الجلوس لتناول العشاء. كان هناك فتىٌ قويٌّ عمره يناهز العشرين يقف في وسط الغرفة، ولم يكن رولاند بحاجة لكلمات الرجل الأكبر سنًّا ليعرف أنه ابنه؛ إذ عرف ذلك من مظهره.

قال كروجر: «أتيتُ به على سبيل الاحتياط؛ إذ رأيت أن فارسَين خير من فارس واحد لأداء المهمة التي وُكِّلت بها.»

رد رولاند قائلًا: «أنت مُحقٌّ تمامًا، وأهنتك على رفيق السفر الشجاع هذا. أستاذنكما في طلب وجبة والجلوس لتناول العشاء معكما، لنوفِّر الوقت بالحديث أثناء الطعام، لأنكما ستكونان بحاجة للرحيل بأقصى سرعة ممكنة.»

«تعني أننا سنرحل في الظلام؟ الليلة؟»
«أجل؛ وبأقصى سرعة مُمكنة. هناك أسباب ملحةٌ تجعلكما ترحلان دون تأخير. كيف أتيتما إلى هنا؟»

«على ظهر الخيل؛ في البداية على طول رافد ماين، ثم على ضفة نهر الراين.»
«عظيم. ستعودان من حيث أتيتما وسط الظلام، لكن مسافة الوصول إلى قلعة إيرنفيلس فقط؛ أي على بُعد ثلاثة فراسخ من هنا. وهناك ستوقضان الحارس، وتقضيان بقية الليلة في أمان هناك. وغداً في الصباح سيوفِّر لكما دليلًا يرشدكما عبر الغابة للوصول إلى فيسبادن، ومن هناك أنتما تعرفان طريقكما إلى فرانكفورت، التي يجب أن تصلا إليها قبل حلول المساء.»

وفي تلك اللحظة أتى صاحب النُّزل الذي استُدعي للحضور.
قال رولاند: «سأتناول عشاءً مع صديقي هنا.» وتابع: «أظن أنني لست بحاجة لأن أسألك عما إذا كان لديك بعض النبيذ الأحمر الجيد الذي تشتهر به لورش، والذي أخبروني أنه لا يقلُّ لذة عن نبيذ أسمانسهاوزن، أليس كذلك؟»
«بلى، يا سيدي، إنه نتاج حقل العنب الذي أملكه، ولذلك يُمكن أن أضمن لك جودته. أما عن كونه يُشبه نبيذ أسمانسهاوزن، فنحن نعتبره أفضل منه دائماً، وكثير من الذوَّاقة يُوافقوننا في ذلك.»

«أعطني منه قنينة إذن، حتى تتمكن من إضافة رأبي إلى آراء الآخرين.»

وعندما أحضر صاحب النُّزل النبيذ، رفعه رولاند إلى شفَتَيْهِ وارْتَشَفَ رشفةً كبيرة. وقال: «بالفعل هذا هو الأفضل على الإطلاق، أيها المالك، والفضلُ يعود لحقولك ونُزْلُك. أريد أن أُرسل برميلين كبيرين من هذا النبيذ الجيد لتاجر من مَعَارِفِي في فرانكفورت، وقد وعدَ صديقي السيد كروجِر بتوصيلهما إلى هناك. وإن استطعت أن تُوفِّر لي برميلين من هذا النبيذ الرائع، فسوف يُحقِّق هذا توازنًا أكبر للحصان.»

«بالتأكيد، يا سيدي.»

«اختر، أيها المالك، اثنين من البراميل الطويلة التي بها ثقبٌ كبير في جانبها. هل توجد لديك حزمة سرج؟»

«أها، نعم.»

قال رولاند مُلتفتًا إلى ابن كروجِر: «وأنت يا صديقي الشاب، هل أتيت إلى هنا مستخدمًا سرجًا؟»

قال الأب مقاطعًا: «كلا، أنا أستخدم السرج، لكن ابني اضطرَّ للاكتفاء بقطعة من قماش السيد جوبل الخشن بعد طيها أربع مرات وربطها في ظهر الحصان.»

«إذن ما زال بإمكاننا استخدام قطعة القماش كوسادة لحمل حزمة السرج، وأنت يا صديقي ستُضطرُّ للمشي وهو أمر أعتقد أنك معتاد عليه.»

ابتسم الفتى ابتسامة عريضة، لكنه لم يُبدِ أيَّ اعتراض.

«والآن، أيها المالك املأ برميليك بالنبيذ أثناء تناولنا الطعام، ثم ضع حزمة السرج على ظهر حصان الفتى، والبرميلين فوقها؛ إذ أزعِم أن لديك رجالًا بارعين في هذا الأمر.»

قال صاحب النُّزل مُتفاخرًا: «لا يوجد أبرع منهم على امتداد نهر الراين.»

«ضع البرميلين بحيث يكون الثقب لأعلى، ولا تُحكِم غلق الثقب أكثر من اللازم، لأنه سيُفتح قبل الوصول إلى فرانكفورت، وسوف يَستفيد من النبيذ صديق آخر لي. وعندما يتم ذلك، أبلغني، وأخبرني بكم أدين لك.»

ذهب صاحب النُّزل وجلس الثلاثة يتناولون العشاء.

قال رولاند: «تُوجد كميات من الذهب أكثر مما توقَّعت، ولا يُمكن لكما حتى حملها في حقائب مُعلَّقة في أحزمتكما. بالإضافة إلى ذلك، إذا تعرَّضتما لمُضايقات، فلن يكون حملُها بهذا الشكل آمنًا بالمرّة. أما حمل النبيذ فهو أمر أكثر شيوعًا بحيث لا يلفت الأنظار أو يثير الفضول. ولذلك أقترح عند مغادرتنا هنا أن نذهب إلى سفينة السيد جوبل، ونفتح السدادتين ونسكب الذهب داخل البرميلين ولنترك النبيذ المُستبدل يتدفق

إلى الأرض. ثم لنغلق السداتين بقوة، وإن عارضكما الحراس عند بوابات فرانكفورت، فلتدعهم يتذوّقون النبيذ إن أصرّوا، وأظنُّ أنها لن تحمل نكهة العملات المعدنية فيها.»
قال السيد كروجر في حماس: «اقترح رائع. يا لها من خطة بارعة؛ لأنني أعترف أنني كنتُ أنظر لهذه الرحلة بشيء من القلق، وأنا أحمل حقائب الذهب تحت عباةتي.»
«نعم. أنت مجرّد رجل مُحب للشراب، سئمتُ نبيذ فرانكفورت الأبيض، وتُمتّع نفسك بنبيذ لورش الأكثر قوة. أنا واثق من أنك ستُوصّل المال للسيد جوبل في أمان، صحيح أنه سيكون ملطّخًا ببعض الشراب، لكن لا بأس هذا بالتأكيد أفضل من ضياعه بالكامل.»
انتهوا من تناول الطعام، وجرت تصفية جميع الحسابات، وغادر الثلاثة النزل ووصلوا إلى السفينة وهم يقودون الحصانين دون أن يُلاحظهم أحد. وهناك فتحت سداتُ البرميلين وأخذ الرجال الثلاثة بمساعدة القبطان يفتحون حقيبة تلو الأخرى بسرعة وهذوء، ويسكبون ما بها من عملات في النبيذ؛ غشُّ فريد بالتأكيد، ومذهل حتى فيما يتعلق بنبيذ قويٍّ مثل نبيذ لورش. اقتطع رولاند من المبلغ كلّ ألفي تالر، وقسمها بالتساوي على حقيبتين.

وقال مُخاطبًا كروجر: «الألف تالر هذا ستقتسمه بينكما أنت وابنك، بجانب ما ستحصلان عليه من السيد جوبل. أما الألف الثاني فسوف تعطيه للحارس في قلعة إيرنفيلس، وتخبره بأنه من صديقه رولاند، وهو المال الذي اقترضه منك منذ بضعة أيام. وسوف يكون هذا خطابًا تعريفياً رائعاً له. قل له إنني أطلب منه أن يُرسل معك ابنه دليلاً يُرشدك عبر الغابة حتى تصل إلى فيسبادن؛ وأتمنى لك ليلة سعيدة وحظاً سعيداً.»

كان قد مرّ وقت طويل بعد مُنتصف الليل حين عاد الرجال في صخب عبر ضفة نهر الراين إلى السفينة. وكان القمر قد ارتفع بما يكفي ليمدّهم بالضوء اللازم للمشي بخطى حثيثة دون أن يتعرّضوا لخطر السقوط في الماء. وكان إبرهارد معهم، فيما تقدمهم جريسيل بسرعة ليُخبر قائده بشيء ما قبل أن يأتي الآخرون.

«لقد نجحتُ في منعهم من الحديث إلى أيِّ شخص غريب، لكنهم تناولوا في الحانة من النبيذ ما يكفي لجعلهم صعبى المراس ومُثيرين للمشاكل بشدة إذا ما قُوبلوا بالاعتراض. عندما اقترحتُ أن يتركوا أمر التقسيم إلى صباح الغد، ارتابوا في البداية ثم أبدوا استيائهم لقول إنهم ليسوا في حالة تمكّنهم من أداء هذه المهمة. ولذلك أنصح أن تسمح لهم بتقسيم المال الليلة. فسوف يُخفّف ذلك من مخاوفهم بشأن تدبير أمر ما للتلاعب بهم، وإذا لمّحت لحالة الثمالة التي هم عليها، فسوف يخرّجون عن السيطرة على الأرجح. وما دام وقت توزيع المال لا يُهم، فأنا أنصحك بمسايرتهم الليلة وتأجيل التفكير العقلاني للغد.»

قال رولاند: «سأفكر في الأمر».

«لقد اشتروا عدة براميل من النبيذ، ويتبادلون الأدوار في حملها. فهل ستسمح بصعود هذا النبيذ على متن السفينة، حتى وإن كنت عازماً على إلقائه في الماء غداً؟»
قال رولاند بلا مبالاة: «أوه، نعم. أدخلها إلى المقصورة بمنتهى الهدوء، وأبقها هناك إذا استطعت؛ لأنها إذا وُضعت على ظهر السفينة فسوف نفقد بعضها بسقوطها في النهر».

عاد جريسِل ليُقابل السكاري، بينما استدعى رولاند القبطان ورجاله.
وقال لبلومنفيلس: «استعدّ، وفي اللحظة التي أرفع فيها يدي، انطلق. اتجه إلى جانب الجزيرة الكبرى هذا، وتوقّف هناك بقية الليلة. ومُر مجدّفيك أن يبذلوا كل طاقتهم في التجديف».

نُفذت الأوامر بدقة كعادة القبطان. تسَلَّ ضوء القمر إلى المشهد بنوره الخافت، وبدأت الجزيرة القاحلة مهجورة، بينما كان الرجال يُرسون سفينتهم عندها. لقد انطفأ معظم أضواء قرية لورش، وخيّم ضوء القمر الخافت على المدينة في سكون وكأنها مدينة أموات. جلس رولاند على متن السفينة وجريسِل وإبرهارد بجانبه، بينما أخذ يحكي الأخير الصعوبات التي واجهوها هذا المساء. ملأت أصوات الغناء المقصورة ثم عمّ هدوء مفاجئ بسبب الجلبة المسموعة بالأسفل، التي تبعثها صرخة تنبئ عن وجود خطرٍ ما. وما هي إلا لحظات حتى صعد الرجال وهم يبدو عليهم الغضب إلى متن السفينة، يقودهم كورزبولد، والجميع مُشبهرون سيوفهم التي تتلألأ في ضوء القمر.
صرخ كورزبولد في وجه رولاند قائلاً: «أيها الوغد! هذه الخزانات مليئة بحقائب فارغة».

ردّ رولاند بهدوء: «أعلم ذلك. المال في أيادٍ أمينة، وسوف يُقسم في نهاية الرحلة بالعدل».

صرخ كورزبولد مُشهرّاً سيفه بوجهه: «أيها السارق! أيها اللص!»
رد رولاند بهدوء: «نعم هذا صحيح. فقد كنت أدعى كبير اللصوص في حين أنني لم أكن أستحقّ هذا اللقب وقتها. والآن استحققت».

«لقد استحققت عقوبة السرقة، وأرى أننا سنُلقِي بك في نهر الراين».
«كلا، أنا واثق أنك لن تفعل هذا قبل أن تعرف مكان المال».
لقد أذهلهم ما سمعوه برغم أنهم كانوا في حالة سكر، لكن كورزبولد كان مُستشيطاً غضباً وقد أذهب النبيذ عقله.

صانع السيوف

فصرخ قائلاً: «هلمُّوا يا شجعان! لا يوجد سوى ثلاثة منهم.»
قال رولاند بصوت هامس، بينما كان نصل سيفه يتلألأ في ضوء القمر: «اسحبا
سيفيكما يا رفيقي.»
فأطاع جريسِل وإبرهارد الأمر.

الفصل الثاني عشر

مارجريف فورستنبرج الأحمر الضاحك

ضحك إبرهارد، وأخذ خُطوتين إلى الأمام. فكلما زادت الأمور جدية، كان بإمكان المرء دومًا أن يعتمد على ضحكة من إبرهارد.

قال: «معدرة، أيها القائد، ولكنك وضعتني أنا وجريسيل في موضع مسئولية عن هذه المجموعة الورعة والتقية؛ وبما أنني أقل واحد في مساعدتك، فيجب أن أتحمل العبء الأكبر لفشلنا في الحفاظ على هذه الحملان مُسالمة لهذه الليلة. قف يا جريسيل خلفي وأمام القائد. وبما أنني مَنزَن إلى حدٍّ معقول، فأعتقد أنني أستطيع قطع رقاب ستة من هؤلاء الأبرياء قبل أن يقضوا عليَّ. وأنت ستتهتمُ بالستهة التاليين، تاركًا ستة لروланд ليقتلهم بطريقته. والآن، تفضَّل، يا سيد كونراد كورزبولد.»

قال كورزبولد: «ليس لدينا خلاف معك. تنحَّ جانبًا.»

«ولكنني مُصرٌّ على مبارزتك، أيها الخنزير الهمجي. دافع عن نفسك؛ لأنني، بحق ملوك المجوس الثلاثة، سأنزِع السدادة عن برميل النبيذ المتحرِّك الخاص بك!»
لكن كورزبولد تراجع بسرعة شديدة، مما أوقع على الأرض واحدًا أو اثنين ممَّن كانوا وراءه، والستهة رجال الذين كان من نصيب رولاند مبارزتهم سقطوا بعضهم فوق بعض أسفل السلم الشديد الانحدار إلى المقصورة.

ضحك إبرهارد مرةً أخرى حين اختفى آخر رجل.

وقال لروланд: «أظنُّ أنك لن تواجه المزيد من المتاعب من جانب أصدقائنا. من الواضح أنهم كسروا الخزانات، وارتعبوا لأنني أنا وجريسيل طلبنا تأجيل التقسيم، ربما بنية إجراء التقسيم دون مساعدتنا.»

سأله جريسيل: «هل أخفيت المال؟»

رد رولاند: «ليس بالضبط، ولكن في حال إذا ما حدث أيُّ شيء لي، فسأخبرك بما فعلته به.»

وأضاف، بعد أن أنهى جملة الأخيرة، قائلاً:
«سأعطي كلاً منكما خطاباً إلى السيد جوبل، أعرّفه فيه بكما. ويحقُّ له الحصول على أربعة آلاف وخمسمائة تالر من المال. أما الباقي، فستقومان بتوزيعه على مَنْ يبقى منا على قيد الحياة.»

خلد رولاند إلى النوم على سطح السفينة، مُتدثراً بعباءته. وتناوب نائباه على الحراسة، بيدَ إنه لم يصدر أي صوت من المقصورة سوى غطيط. لم يستيقظ المتمردون مبكراً جداً في صبيحة اليوم التالي. وكانت الشمس تعدُّ بيومٍ دافئٍ آخر، وأخذ رولاند يذرع سطح السفينة جيئةً وذهاباً، وعلامات القلق مرسومة على جبينه. وقد عزم على مهاجمة قلعة البارون الضاحك، الذي كان ذا بنية عملاقة، ويُقال عنه إنه الأذكى، والأشرس، والأشجع بين النبلاء السارقين على طول نهر الراين، وتشتهر قلعته بأنها الأصعب في اختراقها على طول ضفاف ذلك النهر الشهير. ولعدة أسباب، لن يكون من الحكمة التسكع لفترة أطول في منطقة لورش. والثلاث قلاع التي دخلوها في اليوم السابق كانت لا تزال على مرمى البصر من الضفة الغربية. ولا شك أن أخبار الغارات ستتناقل حتى تصل إلى فورستنبرج التي هي أيضاً على امتداد البصر أسفل النهر؛ ومن ثمَّ المارجريف الضاحك سيأخذ حذرَه، ويبتهج بفرصة مُحاصرة اللصوص المحتملين. كما تُعد فورستنبرج إقطاعية تابعة لكونونيا، وأي اعتداء عليها سيورط أطرافه، إذا جرى التعرف عليهم، في الدخول في تعقيدات مع الكنيسة ورئيس الأساقفة.

ومن ثمَّ كان من الضروري التحرك بحذر، والانسحاب خلسة، إن أمكن. كانت هاتان الصعوبتان وحدهما كافيَتين لإيقاف أجراً الرجال، بيد أن رولاند كان يعوقه أيضاً رجاله. فكيف يتسنى له تنفيذ أي خطة معقدة تتطلب الصمت، والطاعة الفورية، ودرجة كبيرة من اليقظة، ولديه رجال أذهانهم مغيبة بسبب الشراب، وسلوكهم متشعب بالتآمر ضده؟ كان لديهم ما يكفي من النبذ على متن السفينة ليواصلوا عربدتهم، وكان عاجزاً تماماً عن منعهم من الإسراف في الشرب. وبتنهيدة عميقة، أدرك أنه سيضطر إلى عدم مهاجمة فورستنبرج؛ ومن ثمَّ سيترك خلفه قلعة مهمة، وهو ما كان يعرف أنه تكنيك سيئ من الناحية العسكرية.

وأثناء تأملاته، كان رجاله يخرجون من المقصورة الخانقة إلى الهواء الطلق وأشعة الشمس. خرجوا مثني وثلاث، يتنأبون ويفركون أعينهم، ولكن لم يُغامر أحد بمقاطعة

القائد، وهو يقطع سطح السفينة جيئةً وذهاباً محنياً رأسه. بالطبع، بدا الرجال خاضعين لأبعد الحدود. نزلوا من السفينة إلى الجزيرة بلا مبالاة مُبالغ فيها تقريباً، ومشوا الهوينى نحو الطرف الأدنى منها، ومن هناك وفي ظل هواء الصباح النقي كان يمكن رؤية قلعة فورستنبرج الكئيبة بكل وضوح قطعياً عبر النهر. لقد كان إبرهارد هو مَنْ قاطع تأملات رولاند.

«يبدو أصدقاؤنا هادئين جداً هذا الصباح، ولكنني ألاحظ أنهم اجتمعوا عند الجزء الشمالي من الجزيرة متخذين إياه مكاناً للتمشية قبل الإفطار. أظن أنهم يعقدون اجتماعاً رسمياً للعصبة، ولكن لم تتم دعوتي أنا وجريسيل، ولذا أفترض أنه بعد موقف الليلة الماضية، لم يعودوا يعتبروننا أخوين لهم. بالنسبة إليّ يبدو هذا الخنوع من جانبهم أكثر خطورة من اضطراب الليلة الماضية. أظن أنهم سيطلبون منك معرفة ما الذي حدث للنقود. هل اتخذت قراراً بخصوص ردك بشأن هذا؟»

«أجل؛ من حقهم أن يعرفوا، ولذا سأخبرهم بالحقيقة. بحلول هذا الوقت، يكون كروجر في طريقه إلى مكان ما بين إيرنفيلس وفيسبادن. إنه سيصل إلى فرانكفورت الليلة، ولا يُمكن اللحاق به.»

«أليس هناك احتمال أن يُغادروا جميعاً، ويعودوا إلى فرانكفورت، ويطلبوا من السيد جوبل نصيبهم من الغنيمة؟»

رد رولاند قائلاً: «لا يهم ذلك. لن يوزع جوبل كرويتسراً واحداً إلا بضممان الخطابين اللذين سأعطيهما لك ولجريسيل، وحتى مع ذلك، لن يفعل إلا إذا أثبتما وفاتي.»

قال إبرهارد مُعترضاً: «هذا كله جيد جداً، ولكن ألا ترى أيّ سلطة خطيرة تضعها في أيدي هؤلاء المتمردين؟ جوبل مجرد تاجر، وبالرغم من أنه ثري، فهو لا حول له ولا قوة على الصعيد السياسي. لقد دخل بالفعل صراعاً مع السلطات، وقضى فترة بالسجن. ولا تنسى أن رؤساء الأساقفة رفضوا اتخاذ أيّ إجراءات ضد هؤلاء البارونات اللصوص. وبإمكان رجالنا، إذا كان من بينهم رجل عاقل ورشيد، أن يبتثوا الرعب بكل سهولة في قلب جوبل لدرجة أن يُقسّم الكنز بالتهديد بالاعتراف على أنفسهم وعليه فيما يتعلّق بالاشتراك في الغارات. فكّر في الحجة المُقنعة التي يُمكنهم طرحها، موضحين أنهم انضموا إلى هذه الحملة عن جهلٍ بأغراضها؛ ولكن في اليوم الأول، حين علموا ماذا يجري، تركوا قائدهم المجرم، وهم الآن يسعون إلى التعويض. وجوبل قليل الحيلة. إذا قال إنهم طلبوا الأموال منه أولاً، فسيُنكرون بشدة، ويجب أن يتمّ تصديق إنكارهم؛ لأنهم أتوا بمحض

إرادتهم إلى السلطات. وعند التحقيق في الأمر سيثبت أن التاجر — الذي تَلَطَّخت سمعته بالخيانة، وعانى السجن، وأُفْلِتَ بشقِّ الأنفس من الشنق — متورِّطٌ مِنْ قِمَّةِ رأسه إلى أخمص قدمه في هذه القضية. وليس هناك صعوبة في معرفة أن سفينته شَقَّتْ طريقها أسفل النهر، وهي مزوَّدة بطاقم من اختياره. بالطبع، لن يضطرَّ جوبل أبداً إلى الوصول إلى هذه النقطة؛ لأنه، نظراً لكونه رجلاً داهية، باستطاعته على الفور أن يرى الخطر الشديد الذي يواجهه، وسيقتنع من خلال قصة الرجال بأنهم كانوا على الأقل جزءاً من فرقك، وسيُسلَّم لهم الكنز. ألا ترى أنه يجب عليه فعل ذلك لينقذ رقبته؟»

فكَّر رولاند بعمق فيما قيل له، ولكن مرَّت دقيقة دون أن يرد. ظلَّ جريسِل، الذي انضمَّ إليهما أثناء المحادثة، صامتاً حتى انتهى إبراهيم من الحديث، ثم تحدث قائلاً:

«أنا متفق تماماً مع كل كلمة قيلت.»

تساءل رولاند: «إذن، بما تنصحانني؟»

قال جريسِل: «لقد كنت أتحدث مع واحد أو اثنين من الرجال. إنهم لن يتحدثوا إلى إبراهيم لأنه رفع سيفه عليهم. واكتشفت أنهم يَعتقدون أنك استغللت غيابهم لتدفن الذهب فيما تَفترض أنه مكان آمن. وهم متأكدون من أنك لا تعرف أحداً في لورش بإمكانك أن تأتمنه على المال، وبالطبع هم لا يشكُّون في مجيء مبعوث من فرانكفورت. وينبغي أن أنصحك أن تقول إن الترتيبات قد تَمَّت بحيث يحصل كل رجل على نصيبه ما دام لم يُحدِث لك أي شيء سيئ. فهذا سيحافظ على حياتك إذا ما ذهبوا إلى حد تهديدها، ويُرغمهم على البقاء معنا. ففي النهاية، نحن مجرد حرفيين، ولسنا مقاتلين. وأنا مُقتنع أننا إذا تعرَّضنا إلى هجوم حقاً، فلسوف نُقدِّم عرضاً سيئاً للغاية، حتى وإن كنَّا نحمل سيوفاً. تذكَّر كيف تعثرَّ الرجال وسقطوا بعضهم فوق بعض وهم في عجلة للفرار بعيداً عندما لوَّح إبراهيم بسيفه.»

علَّق إبراهيم قائلاً: «أعتقد أن اقتراح جريسِل ممتاز.»

قال رولاند: «عظيم جداً، سأتبناه، على الرغم من أنني عقدتُ النية على تبصيرهم بالحقيقة.»

واصل إبراهيم قائلاً: «هناك أمر آخر أودُّ أن أتحدَّث معك بخصوصه. في أسمانسهاوزن، ولورش، ليلة أمس، سمعنا الكثير عن فورستنبرج. إنها أخطر قلعة على نهر الراين فيما يتعلَّق بالهجوم عليها. البارون الضاحك، كما يطلقون عليه، على الرغم من أنه مارجريف، هو الرجل الوحيد الذي جرَّؤ على منَع أي ملك من المضيَّ قدماً على طول نهر الراين، واحتجازه طلباً للفدية.»

قال رولاند: «أجل؛ أدولف كونت ناسو وهو في طريقه لتولي العرش في مدينة آخن.»
«تمامًا. حسنًا، هذا الهمجي الضخم ... أنا لا أستطيع تذكر اسمه مطلقًا؛ هل يمكنك ذلك يا جريسيل؟»

«كلا، لا يُمكنني ذلك.»

قال رولاند بمهابة شديدة لدرجة أن إبرهارد ضحك وحتى جريسيل ابتسم:
«المارجريف هيرمان فون كاتزنلينبوجينشتاليك.»

قال إبرهارد مُوافقًا: «هذا هو الشخص المراد، ويجب أن تعترف بأن الاسم في حد ذاته مُرعب لشئ هجوم عليه، حتى من دون الرجل العملاق الذي ينتمي إليه.»
قال رولاند: «اطرد كل مخاوفك. لقد قررتُ بالفعل المكوث هنا طوال اليوم، والنزول بهدوء إلى النهر ليلاً في جنح الظلام متجاوزًا قلعة فورستنبرج.»

قال إبرهارد: «أظنُّ أنه قرار حكيم.»

قال رولاند مُعترضًا: «هذا ضد جميع القواعد العسكرية، ورغم ذلك ومع مثل هذا الجيش الذي أقوُّده يبدو أن هذه هي الطريقة الوحيدة. هل يعلم الرجال أن قلعة فورستنبرج هي أكبر خطر نواجهه؟»

«أجل؛ ولكنهم لا يَعلمون الكثير مثلي. الليلة الماضية، تركتهم تحت مسؤولية جريسيل بعد أن انزعجت مما سمعته عن فورستنبرج، واستأجرت مراكبًا ليأخذني إلى هناك قبل أن يرتفع القمر في كبد السماء. واكتشفت أن البارون الضاحك وضع سلسلة لتطفو تحت سطح الماء مباشرة، تمتد قُطريًا لأكثر من نصف الطريق أعلى النهر، بحيث يتم الإمساك بأيِّ مركب وإرغامها على النزول إلى اليابسة، نظرًا لأن التدفق الرئيسي لنهر الراين، كما تعلم، يمتد إلى غرب هذه الجزيرة. والمراكبي الذي نقلني كان يعرف بوجود هذه السلسلة، ولكنه ظن أنه جرى التخلي عنها منذ توقُّف الحركة الملاحية. وقال إنها تمتد حتى القلعة، وفي اللحظة التي يُشَنُّ هجوم عليها، يُقرع جرس كبير تلقائيًا داخل القلعة، مما يجعل البارون يضحك بصوتٍ عالٍ جدًا لدرجة أنهم أحيانًا يسمعونه في لورش.»

«هذا مُثير جدًا، يا إبرهارد، وإنه إنجاز ممتاز في الاستكشاف يجب أن يُضاف إلى رصيدك. لا تَقُل شيئًا للرجال؛ لأنه على الرغم من أننا سنمرُّ أمام قلعة فورستنبرج في هذه الحالة، فإنني سأحضر جنازة هيرمان فون كاتزنلينبوجينشتاليك عند عودتي، والمعلومات التي قدمتها لي ستثبت أهميتها.»

صاح جريسيل: «انظر! ها هم أولاء صبيتنا قد عادوا، كلهم في مجموعة واحدة تحت قيادة كورزبولد كالعادة. تخيلت أنهم سيلجئون هذا الصباح إلى الحديث، وسيتركون سيوفهم في الغُمد. واضح أنهم توصلوا إلى قرار بالغ الأهمية.»

انسحب ثلاثتهم إلى مقدمة السفينة بينما ذهب العصابة إلى مؤخرة السفينة. أخذ القبطان واثنان من رجاله المركب الشراعي الصغير الخاص بالسفينة، وتوجهوا إلى لورش، لشراء بعض الإمدادات. وقف رولاند عند مقدمة المركب، مُتقدماً نائبه قليلاً، ومُنْتَظِراً مجيء كورزبولد ومن خلفه السبعة عشر رجلاً.

قال المتحدث الرسمي بنبرة خالية تماماً من الصرامة التي سادت في حوارهما الأخير: «أيها القائد، لقد عقدنا اجتماعاً للعصابة تَوًّا، واتفقنا على أن نسألك سؤالاً واحداً، ونقدم لك اقتراحاً.»

رد رولاند قائلاً: «يُسعدني أن أجيب عن السؤال الأول إذا رأيت أنه لا بأس به، وأخذ الثاني في الاعتبار.»

أوماً برأسه للمبعوث، وفي المقابل رد عليه الجمع بإيماءة صغيرة. كانت هذه بداية مبشرة للغاية؛ إذ أظهرت تحسناً ما في الأسلوب من جانب الأغلبية.

«السؤال هو ماذا فعلتَ بالمال الذي استولينا عليه أمس، أيها القائد؟»

أجاب رولاند قائلاً: «استفسار مُناسب جداً يسعدني بشدة أن أرد عليه. لقد وضعت المال في حوزة شخص ما، وهي طريقة أعتقد أنها آمنة أماناً مُطلقاً، ورتبتُ أنه إذا لم يحدث لي أي شيء، فسيتم توزيع هذا المال كما ينبغي في حضوري.»

«هل تُنكر، يا سيدي، أن هذا المال يخصُّنا؟»

«لا شك أن جزءاً منه كذلك، ولكن باعتباري قائد الحملة، فإنني من الناحية الأخلاقية، ما لم تكن من الناحية القانونية أيضاً، مسئول أمامكم جميعاً عن الاحتفاظ به في مكان أمين. لقد توقفتُ سفينتنا ثلاث مرات حتى الآن، وأخبرني القبطان بلومنفيلس أنه لم يُواجه عُنفاً حقيقياً حتى الآن يُمكن أن يشتكي منه، ولكن لو مَضينا قُدماً على طول النهر، فمن المنتظر أن نواجه أحد البارونات الذي ليس طيباً على هذا النحو؛ على سبيل المثال، المارجريريت فون كاتزلينبوجينشتاليك، الذي رأيتم بلا شك قلعته من آخر مكان اجتماع للعصابة. إن مثل هذا الرجل باعتباره حاكماً عسكرياً بالتأكيد سيفعل ما أنتم أنفسكم فعلتموه بلا تردد ليلة أمس؛ أقصد، كسر الخزانات، وإذا كانت الأموال هناك، فأنتم تعرفون أنها لن تبقى في حوزتنا بعد هذا الاكتشاف.»

«لقد أغفلت، أو بالأحرى، تهرّبت من النقطة الأساسية، أيها القائد. هل الأموال ملك لنا، أم ملك لك؟»

«لقد قلتُ جزء منها ملك لكم.»

«إذن، بأي حق تُعطي لنفسك سلطة التعامل معها، دون مُوافقتنا؟ إذا سمحت لي أن أقول ذلك، فأنت أصغر عضو في مجموعتنا، وتُعامل بقيتنا كما لو كنا أطفالاً.»

«إذا كان لديّ طفل تصرّف فجأة على نحو مشاغب وبطريقة جبانة جدًّا مثلما فعلتم الليلة الماضية، فسأقطع جزءًا من إحدى أشجار الغابة هنا، وأجلّده بصرامة بحيث لن ينسى ذلك أبدًا. ونظرًا لأنني لم أفعل ذلك معكم، فأنا أنكر أنني أعاملكم مثل الأطفال. الحقيقة هي أنني بالرغم من كوني أصغركم، فأنا قائدكم. نحن مُشتركون في أعمال حرب؛ لذلك القانون العسكري يسود، لا القانون المدني. وواجبي أن أحمي كنزكم وكنزي، وأن أضمن أن كل رجل منكم ينال نصيبه. وبعد القسمة، يُمكنكم أن تفعلوا ما يحلو لكم بالمال؛ لأنكم بعد ذلك ستكونون تحت طائلة القانون العام، ولا ينبغي أن أعطي حتى المشورة بخصوص إنفاقه.»

«إذن، أنت ترفض أن تُخبرنا بما فعلته بخصوص المال؟»

«أجل. الآن تفضّل باقتراحكم.»

«أخشى أنني استخدمت تعبيرًا مُخفّفًا جدًّا حين قلتُ اقتراحًا، بالوضع في الاعتبار ردك غير المرضي على سُؤالي، ولذا أنا أسحب كلمة «اقتراح»، وأستبدل بها كلمة «أمر».»
توقّف كورزبولد برهة قبل أن يقول ما يُريد بقوة أكبر. وارتفعت من خلفه همهمات الموافقة.

صاح رولاند معبرًا عن نفاذ صبره لأول مرة قائلاً: «الكلمات لا تُهمُّ على الإطلاق. أنا أتعامل مع الأفعال. قل إذن أمرك!»

«الأمر الذي اجتمع عليه الرجال هو: يجب أن نترك قلعة فورستنبرج وشأنها. نحن نعرف الكثير عن تلك القلعة أكثر منك، لا سيما بخصوص مالکها وحاميها. لقد قمنا بجمع المعلومات أثناء رحلتنا، ولم نَجلس متجهمين في السفينة.»

قال رولاند: «حسنًا، هذه أخبار مُشجّعة. ظننت أنكم شاركنم في جمع عينات الخمر.»
«لقد سمعت الأمر. هل ستطيعه؟»

قال رولاند بلهجة حاسمة: «لن أفعل.»

اتخذ إبرهارد خطوة إلى الأمام ليقف إلى جانب قائده، ورمقه بنظرة مؤنّبة. ظل جريسيل أينما كان، ولكن لم يتفوه أيّ من الرجلين بكلمة.

«أنت تنوي مهاجمة فورستنبرج؟»

«أجل.»

«متى؟»

«بعد ظهر اليوم.»

التفت كورزبولد إلى أتباعه.

وقال: «أيها الإخوة، لقد سمعتم هذا الحوار، ولا يحتاج الأمر مني إلى تعليق.» من الواضح أن الأمر لا يحتاج إلى تعليق الآخرين أيضًا. ووقفوا هناك في حالة من التجهم والارتباك، كما لو أن الأمور أخذت منعطفًا غير متوقع.

قال أحدهم: «أظن أنه حريٌّ بنا أن ننسحب ونتشاور مرة أخرى.»

كانت الموافقة بالإجماع على هذا الأمر، ونزلوا مرة أخرى على الجزيرة، وتوجهوا إلى اجتماعهم للتشاور. لم يتفوه جريسيل وإبرهارد بكلمة، ولكنهما شاهدا الرجال يختفون عبر الأشجار. نظر رولاند إلى الرجلين واحدًا تلو الآخر بابتسامة.

ثم علّق قائلاً: «أرى أنكما تستنكران تصرفي.»

ظل جريسيل ملتزمًا الصمت، إلا أن إبرهارد ضحك وتحدث.

«لقد توصلتَ بترو إلى استنتاج مفاده أنه ليس من الحكمة مهاجمة فورستنبرج. والآن، بسبب افتقار كورزبولد إلى الكياسة، أنت تحيد عن حُكمك العاقل، وتقفز بسرعة إلى مسار عكس ذلك الذي حدّدته لنفسك بعد تفكير رصين وغير مُتحيّز.»

«عزيزي إبرهارد، واجب القائد هو إعطاء الأوامر، لا تلقّيها.»

«هذا صحيح. الأوامر والاقتراحات مجرّد كلمات، مثلما أشرت بنفسك، لا أهمية لها.» «كنتُ مُخطئًا في ذلك، يا إبرهارد. الكلمات مهمة، رغم أن كورزبولد لم يكن بارعًا بالدرجة الكافية ليُصحح لي معلوماتي. على سبيل المثال، أنا لا أضع أيّ رجل في مكانة أعلى منك أنت شخصيًا، ولكن لعلك تستخدم كلمات تجعلني أستلّ سيفي في الحال وأوجّهه إليك، وأبارزك حتى يستسلم أحدنا أو كلانا.»

ضحك إبرهارد.

«أنت تُعبّر عن الأمر بطريقة فيها تملق، يا رولاند. الحقيقة هي أنك ستقتاتلني حتى أستسلم؛ فمهاراتي في المبارزة لا تُضاهي مهارتك. ورغم ذلك، سأقول الكلمات التي تجعلك تستلّ سيفك؛ ألا وهي: أيها القائد، سأدعُك مهما فعلت.»

قال جريسيل بنبرة فظة: «وأنا كذلك.»

صافح رولاند الرجلين تباغًا.

ثم صاح: «صحيح. إذا قُدِّر لنا الهزيمة، فسَنَنْهَزم وراياتنا ترفرف عاليًا.»
بعد فترة من الوقت، عاد القبطان بمُوْنَه، إلا أن أغلبية العصابة بقيت منخرطة في
المداولة. من الواضح أن النقاش لم يمضِ بإجماع مثلما كان يُصَرُّ كورزبولد دومًا أن
الحال كذلك.

في وقت الظهيرة، طلب رولاند من القبطان أن يرسل بعضًا من رجاله بوجبة إلى
الحاضرين لهذه الجلسة المطولة، وأن يَحْمِلُوا لهم أيضًا برميل نبيذ فرغ نصفه إما هذا
الصباح أو الليلة السابقة.

قال رولاند، بينما كان يجلس هو ومُناصروه في المقصورة الفارغة لتناول وجبتهم:
«سيستمتعون بنزهة تحت الأشجار على حافة النهر.»

«أَتظُنُّ أنهم يتأخَّرون عن عمد، بحيث لا يُمكنك العبور بعد ظهر هذا اليوم؟»
قال رولاند: «هذا محتمل جدًّا. سأنتظر هنا حتى غروب الشمس، وحين يدركون
أنني بصدد تركهم على جزيرة مهجورة من دون أيِّ شيء ليأكلوه، أظن أنك ستراهم
يتدافعون إلى متن السفينة.»

قال جريسيل مقترحًا: «ولكن لنفترض أنهم لم يفعلوا. هناك ثلاثة على الأقل قادرُونَ
على السباحة عبر هذا الفرع الضيق من نهر الراين، واستتجار مراكبيٍّ لاصطحابهم، في
حالة عدم ملاحظة شراع المركب.»

«مرة أخرى، هذا لا يُهم. خطتي للانقضاض على القلاع لا تَعْتَمِد على القوة؛ وإنما
على البراعة. نحن — الثلاثة — لا يُمكننا حمل كمية الذهب نفسها التي يحملها واحد
وعشرون رجلًا، ولكن نصيبنا سيكون مُماثلًا، ولكن ليس من المرجَّح أن نجد مرة أخرى
خزينة مملوءة مثل تلك التي وجدناها في راينستاتين. تَبَدَّد اعتقادي بأن هؤلاء الرجال
سَيُقَاتِلُونَ من تصرفاتهم ليلة أمس. تذكرنا كيف أن ثمانية عشر رجلًا مسلحًا فروا أمام
سيف واحد!»

«أنت غير دقيق في تقديراتك، أيها القائد. لقد كانوا تحت تأثير الخمر.»

«صحيح؛ ولكن الشجاع سَيُقَاتِل، سواء أكان ثملًا أم متزنًا.»

وعلى الرغم من أن الشمس غابت عن الأنظار، لم يَرْجِع الرجال. كان هناك الكثير
من الخمر داخل البرميل أكثر مما كان رولاند يفترض؛ إذ كان يتردَّد صدى أغاني عصابة

الحدادين المُرحة عبر عزلة الغابة. طلب رولاند من القبطان أن يجعل رجاله في وضع الاستعداد للعمل ويُجدّفوا حول أعلى نقطة في الجزيرة ومنها إلى المجرى الرئيسي لنهر الراين. من الواضح أن المتمردين كانوا قد عيّنوا عيوناً لهم؛ فقد جاءوا ركضاً عبر الغابة، وتابعوا تحركات السفينة من الشاطئ، مواكبين إياها في الخطى. وحين وصلت السفينة إلى الجهة المقابلة من الجزيرة، اقترب المجدّفون من الشاطئ.

تساءل رولاند في سرور: «هل ستصعدون على متن السفينة؟»
رد كورزبولد قائلاً: «هل ستوافق على المرور على فورستنبرج أثناء الليل؟»
«كلا.»

«هل تتوقّع النجاح، مثلما كنت تفعل بخصوص القلاع الأخرى؟»
«بالتأكيد؛ وإلا ما كنت سأقوم بالمحاولة.»

قال كورزبولد بلطف: «أخطأت في استخدام كلمة «أمر» بدلاً من كلمة «اقتراح» التي استخدمتها في البداية. هناك أسباب عديدة خطيرة لتأجيل محاولة الهجوم على فورستنبرج. وفي خضمّ الجدل، لم تُعرض عليك هذه الأسباب. هل تُوافق على الاستماع إليها إذا صعدنا على متن السفينة؟»

«أجل؛ إذا كنتم — من جانبكم — ستعدّون بالالتزام بقراري.»
قال كورزبولد: «أتظن أن تحيُزك ضدي، الذي قد تتفق على وجوده ...»
قال رولاند معترفاً: «إنه موجود.»

«ممتاز! هل ستترك هذا التحيُز يمنعك من اتخاذ قرار في صالح الرجال؟»
«كلا. إذا قدّموا أسباباً تقنع جريسيل وإبرهارد بعدم الهجوم على فورستنبرج، سأفعل ما ينصح به هذان الرجلان، حتى لو كنتُ مُقتنعاً بالعكس. ومن ثم، كما ترى سيد كورزبولد، إن كرهى الظاهر لك لن يلعب دوراً على الإطلاق.»

قال كورزبولد: «هذا مُرضٍ جداً. هل ستُرسو على الشاطئ البعيد حتى تأخذ قرارك؟»
رد رولاند: «بكل سرور»، وبناءً على ذلك تدافع المهاجمون في عُجالة ليصعدوا على متن السفينة، عندئذٍ انكبّ البحّارة على مجاديفهم الطويلة، وسرعان ما وصلوا إلى الضفة الغربية، عند مكان خلاب بعيد عن أنظار أيّ قلعة، حيث انحدرت الأشجار من جانب الجبل إلى حافة المياه. هنا نزل البحّارة، مُنطلقين إلى الشاطئ، وربطوا حبالهم القوية بجذوع الأشجار، وامتدّت السفينة الكبيرة بجانبها على اليابسة، ومقدمتها تشير نحو المجرى المائي.

قال رولاند لنائبيّه: «كما تلاحظان، ودون التدخل بأيّ نحو، أُتيحُ لكما اتخاذ القرار، وبناءً عليه سأخذ قرار الهجوم على فورستنبرج أو سنهرب من كارثة محققة في هذه الحالة.»

أجاب جريسيل الرصين: «بعيدًا عن جميع الاعتبارات الأخرى، أظنُّ أنه من قواعد الدبلوماسية أن نتفق مع رأي الرجال، نظرًا لأنهم أوضحوا الأمر على نحوٍ مُحترَم جدًّا. إنهم يتحسّنون، أيها القائد.»

قال له مُوافقًا الرأي: «الأمر يبدو كذلك فعلًا. من الأفضل أن تذهب أنت وإبرهارد وراءهم، وتطلبان منهم بدء الاجتماع على الفور؛ لأننا إذا كنّا بصدد الهجوم، فلا بد أن نفعل ذلك قبل حلول الظلام. سأبقى هنا كالعادة عند مقدمة السفينة.»

كان هناك بعض الرجال المتجوّلين على سطح السفينة، ولكن مكث أغلبيتهم في المقصورة، التي هبط درجاتها النائبان. زاد نفاذ صبر رولاند مع تضاؤل الضوء. وفجأة جاءت صيحة من المقصورة، وقد كُتمت على الفور، ثم جاءت بعدها صرخة: «خيانة! احذر!»

حاول رولاند التقدّم، ولكن هجم عليه أربعة رجال، ووثقوا ذراعيه إلى جانبه، مانعين إياه من أن يستلّ سيفه. صعد كورزبولد مع ستة آخرين، إلى سطح السفينة. أمرهم كورزبولد قائلاً: «جرّدهم من السلاح!» فأخرج أحد الرجال سيف رولاند من غمده، قاذفًا إياه على سطح السفينة ليستقرَّ عند قدمي كورزبولد. جاء الآخرون الآن، آتين بالنائبين، مكّمّمين، وأذرعهما موثّقة خلف ظهريهما. توقّف رولاند عن مقاومته، التي أدرك أنها عديمة الجدوى.

قال كورزبولد وهو يُخاطب النائبين: «نريد تسويةً سلميةً لهذا الأمر ونندم على الاضطراب إلى استخدام تدابير ربما تبدو عنيفة. أنا لم أفعل ذلك إلا لمنع إراقة الدماء غير الضرورية.» ثم استطرد وهو يكلّفت إلى رولاند: «في وقتٍ سابق من اليوم، حين وجدنا جميع المناشدات إليك ذهبت سدى، أجمعنا على عزلك من القيادة، وهو حقٌّنا، وواجبنا أيضًا.»

قال رولاند: «لا يحقُّ لكم ذلك بموجب الأحكام العرفية.»

«لا بد أن تُشيرَ إلى أنه لم يكن هناك حديث عن الأحكام العرفية قبل مغادرتنا فرانكفورت. لم نكن نعرف حتى وقتٍ متأخّر أننا نصّبنا طاغيةً غير عقلاني علينا. لقد عزلناه، وانتُخبَت مكانه، وصار جون جينسبين نائبًا لي. سنتحقّق على ثلاثكم هنا حتى

يُخَيِّمُ الظلام التام على المكان، ثم نترككم على الشاطئ من دون سلاح. ستكون باخاراخ، على هذا الجانب من نهر الراين، مكان استراحتنا التالي، ولا شك أنك رجل فطن، يا رولاند، ولعلك ستخمن أننا اخترنا باخاراخ لأنها مسماة تيمناً بياخوس، إله السكارى. ورغم ذلك، ولإظهار حسن النوايا تجاهكم، سنمكث هناك طوال اليوم غداً. يمكننا بسهولة الوصول إلى باخاراخ بالسير على طول قمم التلال قبل الفجر. قمنا بكتابة ميثاق رُفقة وَقَّع عليه الجميع باستثناءكم. وإذا وعدتم في باخاراخ بالعمل بإخلاص تحت قيادتي، فسنعيدكم مرة أخرى إلى عصبتنا، ونُعيد إليكم سيوفكم. وفي مقابل هذا، نطلب منك أن تأمر القبطان أن يُطيع أوامري مثلما كان يطيع أوامرك.»

قال رولاند للبحار الأمين الذي وقف مندهشاً من تحوُّل الأمور على هذا النحو: «أيها القبطان بلومنفيلس، عليك أن تنتظر هنا حتي يحلَّ الظلام التام. تأكد من عدم إشعال أي مشاعل يُمكن أن تُحذِّر أولئك الموجودين في فورستنبرج.» وأضاف رولاند وهو يلتفت إلى رفقة السابقة قائلاً: «بالمناسبة، أنصحكم بألا تتناولوا أي شراب حتى تمروا بسلام أمام القلعة. فإذا أنشدتم أناشيد العُصبة على مرمى سمع قلعة فورستنبرج، فمن المرجح أن تُضطروا إلى الصرخ بعلو صوتكم قبل بزوغ النهار. لا تنسوا أن المارجريرف فون كاتزلينبوجينشتاليك هو كبير الجلادين في ألمانيا.» ثم وجَّه حديثه إلى القبطان مرة أخرى قائلاً:

«نظرًا لأن قلعة فورستنبرج تقف عاليًا فوق النهر، وفي خلفيتها، ستكون بعيدًا عن الأنظار إذا بقيت بالقرب من هذا الشاطئ. ومع ذلك، يمكنك بكل سهولة أن تقدِّر مسافتك؛ لأن الأبراج ستكون مرئية حتى وسط العتمة في مقابل السماء. ولا يستطيع أي رجل يقف على متاريس القلعة أن يراكم بالأسفل على سطح المياه المظلم، ما دمت لا تحملون معكم مشعلًا.»

قال كورزبولد: «رولاند، صديقي المعزول، أخشى أنك تحمّل ضغينة تجاهي؛ لأنك تعطي القبطان أوامر بدلاً من أن تخبره بأن يطيعني.»

«كورزبولد، أنت مُخطئ. أنا بكل سرور تخلّيت عن القيادة، وبالتأكيد، سيُشهد جريسِل وإبرهارد أنني كنتُ قد عزمتُ أمري بالفعل على تجاوز قلعة فورستنبرج وعدم الهجوم عليها. ونظرًا لأن نائبَي السابقين مُجردان من السلاح، فبالأكيد لن تخشى المجموعة، المسلحة بثمانية عشر سيفًا، منهما بحيث يُيقُون عليهما مكَمَّين ومُكَبَّلين. ولا غرو في أنك ترغب في تجنُّب البارون الضاحك، إذا كان هذا كلُّ ما لديك من شجاعة.»

وبعد أن جرحته هذه الانتقادات، أمر كورزبولد رجاله في غِلْظة بأن يُحرِّروا سجينَيْهم، ولكن حين أزيلت الكمامتان، وقبل أن تُقطع الأحبال، وجَّه كلامه إلى النائبتين قائلاً: «هلا تعدانني بالأ يَصْدُر منكما أيُّ مقاومة أخرى، إذا أذنتُ بعدم تقييدكما؟»

صاح جريسِل: «لن أعدك بشيء، أيها الكلب المُتمرِّد! وإذا فعلتُ، فكيف لك أن تتوقَّع مِنِّي أن أحفظ وعدي بعد أن رأيت الخيانة من جانبك بعدما أخذت على نفسك ميثاقاً، ثم نقضته؟ سأطيع قائدي، ولا أحد غيره.»

قال كورزبولد: «أنا قائدك.»

رد جريسِل: «أنتَ لستَ قائدي.»

ضحك إبرهارد.

وقال: «لا حاجة لك أن تسألني. أنا أدمم موقف صديقي.»

أمر كورزبولد قائلاً: «كَمْموهما مرةً أخرى.»

صاح رولاند: «لا، لا! نحن لا حيلة لنا تماماً. تعهَّدا له بما يُريد، أيها النبيلان.» أطاعه جريسِل مُكفهرًا، بينما أطاعه إبرهارد مُبتَهجًا. بدأ الظلام يُخيِّم الآن، وحين انسدل الظلام تماماً، أطلق الرجال الثلاثة إلى الغابة.

قال كورزبولد لروланд: «أنتَ لم تأمُر القبطان بطاعتي بعد. وأنا لا أعترض على ذلك، ولكن سيكون من السيئ بالنسبة إليه وإلى رجاله أن يَرفضوا قبول تعليماتي.»

سأله رولاند: «هل تعرف هذه المنطقة، أيها القبطان بلومنفيلس؟» «أجل، يا سيدي.»

«هل هناك طريق على امتداد التلِّ سيقودُنَا إلى ما وراء قلعة فورستنبرج ومنها إلى باخاراخ؟»

«أجل، يا سيدي، ولكنه طريق وعر جدًّا.»

«هل المسافة بعيدة جدًّا بحيث لا يمكن لك أن تُرشدنا خلالها، وتعود قبل أن يرتفع القمر في السماء؟»

«أوه، كَلَّا، يا سيدي، يُمكنني أن أرشدك إلى الطريق خلال نصف ساعة إذا وافقت على التسلُّق بنشاط.»

«حسنٌ جدًّا. سيد كورزبولد، إذا كنت لا تُطبق صبرًا على المغادرة، وستسمح للقبطان أن يرشدنا خلال الطريق، سأمره بأن يطيعك.»

سأل كورزبولد: «كم ستستغرق حتى تعود، أيها القبطان؟»

«يُمكنني العودة في غضون ساعة، يا سيدي.»
«هل ستطيعني إذا أَمرك القائد السابق بذلك؟»
«أجل، يا سيدي.»

قال رولاند: «أيها القبطان، أنا أبلغك على مسمع هؤلاء الرجال أن السيد كورزبولد يشغل منصبي، وأنه عليك أن تُطيعه إلى أن أَسْتعيد قيادتي.»
ضحك كورزبولد.

وقال: «أنت تقصد إلى أن يُعاد انتخابك لعضوية عصبة الحدادين، حيث إننا لا نعتزم أن نجعلك قائدًا مرةً أخرى. والآن، أيها القبطان، لتذهب إلى التل، ولتحرص على ألا تتأخر في عودتك.»

اختفى الأربعة رجال داخل الغابة المظلمة.

قال رولاند حين وصلوا إلى الطريق: «أيها القبطان، لقد أخذتُك إلى هذا المكان لا لأُنني أحتاج إلى مساعدتك؛ فأنا أعرف هذه المنطقة كما تعرفها أنت. أنت ستُطيع كورزبولد، بالطبع، ولكنه إذا أَمرك بأن تتَّجه إلى لورش، فدع سفينتك تنجرف في التيار، ولا تتجاوز مُنتَصَف النهر حتى الجهة المقابلة من قلعة فورستنبرج. تُوجد سلسلة عائمة ...»

قاطعهُ القبطان قائلاً: «أنا أعرفها جيداً. لقد تجنَّبتها مرات عديدة، لكن عُلقت بها مرتين، على الرغم من جميع محاولاتي، وتعرَّضتُ للسرقة على يد البارون الضاحك.»
«حسن جداً؛ أطلب منك أن تقع في شِراك تلك السلسلة الليلية. لا تُبدِ أيَّ مقاومة، وستكون في مأمن بالدرجة الكافية. لا تُحاول مساعدة هؤلاء الرجال، إذا ما جرى الهجوم عليهم، وإذا لم أَسْتعِد القيادة مرةً أخرى قبل مُنتَصَف الليل، فسيكون هذا من سوء الطالع. ابقَ على مقربة من هذا الشاطئ؛ ولكن إذا أمروك لتُبحر وسط النهر، أو عبره، ماطل، صديقي بلومنفيلس الطيب، ماطل حتى تعوقك السلسلة للمرة الثالثة.»

عندما عاد القبطان إلى سفينته، وجد كورزبولد يَدْرَع سطح السفينة جيئةً وذهاباً بأسلوبٍ سيادي، ويتوق إلى الرحيل. وللمرة الأولى يَمْتَنِع المحاربون عن الشرب بجهد شديد.

قال كورزبولد: «سنَفْتَح برميل نبيذ بمجرد أن نتجاوز القلعة.»

أمر القبطان أن يسير بجانب الشاطئ بقدر ما هو آمن، وأن يحرص على ألا يكونوا على مرمى البصر من برج فورستنبرج المُستدير الطويل. جلس الجميع أو اضجَعُوا على سطح السفينة المظلم، من دون أن يتفوَّهوا بكلمة بينما أبحرت السفينة في صمت على

طول نهر الراين السريع. وفجأةً اختلت سرعة السفينة على نحوٍ مُفاجئٍ للغاية لدرجة أن رجلاً أو رجلين من الواقفين طُرِحَا أرضاً. ومن أعلى جانب التل جاء صوت قرع عميق لجرس. تَأَرَّجَتِ السفينة وتمايلت على جانبيها في التيار، واندفعت المياه على جانبيها كأفَاعٍ تُصدر فحيحاً، وكان قرع الجرس بمنزلة ناقوس إنذارٍ عالٍ بدا أن إيقاعه يتوافق مع اهتزاز السفينة البائسة.

صاح كورزبولد، وهو يهبُّ واقفاً مرةً أخرى على قدميه راكضاً إلى مؤخرة السفينة: «ما الخطب، أيها القبطان؟»

«أخشى، يا سيدي، أن هذه سلسلة مثبتة.»

«ألا يُمكنك قطعها؟»

«هذا مُستحيل، يا سيدي.»

«إذن، ارفع مجادفك، وعُد إلى الوراء. في رأيك، أين نحن؟»

«تحت أسوار قلعة فورستنبرج.»

«اللعنة! اجعل رجالك يُسرعون، ودعنا نبتعد عن هنا.»

أمر القبطان طاقمه أن يُسرعوا، إلا أنهم رغم جهودهم لم يتمكّنوا من تحرير السفينة من السلسلة التي أخذت ترتطم بها من الأعلى والأسفل محدثةً ضوضاء شديدة، حتى إن حاملي السيوف من الرجال الذين لا يفقهون شيئاً في الملاحة رأوا التيار يتدافع قطرياً نحو الشاطئ، وطوال ذلك الوقت كان الجرس يُقرع بشدة.

تساءل كورزبولد قائلاً: «ما الذي يعنيه هذا الجرس بحق الجحيم؟»

أجاب القبطان قائلاً: «إنه جرس القلعة، يا سيدي.»

وقبل أن يتمكّن كورزبولد من قول أي شيء، ضجّت الأجواء بضحكات عالية متتالية. وبدأت المشاعر تلمع وسط الأشجار، ودوى صدى قعقة حوافر الخيول على الصخر. ولم يتكشف من قبل مشهد أعظم من ذلك أمام عيون الحشد المذهولة التي لا تُقدّر هول المفاجأة. وعلى طول الطريق المتعرّج، وبين الأشجار، تراقصت المشاعر، كلٌّ منها بأثر شرر وكأنه ذيل مذنب. كان حاملو المشاعر يندفعون في تهوّر إلى أسفل المنحدر، فالويل لمن لا يصل إلى حافة المياه على نحوٍ أسرع من سيده.

كان ضوء المشاعر ينعكس على أنصال السيوف اللامعة ورءوس الرماح المتلألئة، إلا أن المشهد الرئيسي كان يتمثّل في هيرمان فون كاتزنلينبوجينشتاليك، بهيئته العملاقة، وهو يمتطي حصاناً مهيباً، أسود كسواد الليل، وذا حجم يُكافئ حجم فارسه الاستثنائي. كانت

لحية المارجريف الطويلة وشعره المُنسَدِل حمرَاوِي اللون؛ بل قرمزيين إن جاز القول، ولكن ربما يكون هذا انعكاسًا لنيران المشاعل. كان الخدم والطُّهاة والسُّيَّاس يَحْمِلُونَ الأثوار؛ أما الرجال المسلَّحون فكانوا لا يَحْمِلُونَ شيئًا سوى أسلحتهم، والطريقة العَمَلِيَّة التي اصطفُّوا بها على طول الشاطئ كانت نموذجًا للانضباط، ومصدرًا للرعب في قلوب من لم يعتادوا الحرب. وفوق كل ذلك، كانت الضحكات العالية الصاخبة للمارجريف تعلو فوق ضجيج صليل الأسلحة ليتردَّد صداها الصاخب الوحشي بين جنبات التلال على الجانب الآخر من نهر الراين.

الآن، كانت مقدمة السفينة تحتك بحافة الصخر، التي كانت ترتفع عليها السلسلة المتأرجحة التي تقطر منها المياه، وتتلاَّأ كُثْعَبَانِ مفصلي تحت ضوء المشاعل. صاح المارجريف قائلاً: «حفظنا الرب جميعاً! ما الاستعراض النادر الذي لدينا هنا؟ بحق شفيعي المقدَّس، رئيس الأساقفة، التجار يرفعون السلاح! من ذا الذي رأى شيئاً كهذا من قبل؟ ها! القبطان البدين بلومنفيلس، هل أعرفُك؟ لقد أوقعت بك سلسلتي مرة أخرى. هذه هي المرة الثالثة، أليس كذلك، يا بلومنفيلس؟»

«أجل، جلالتك.»

«يُمكنك أن تُخاطبني بـ «قداستك» كما تُخاطبني بـ «جلالتك». أنا راضٍ بقلبي «البارون الضاحك»، ها ها ها! إذن، تجارُك رفعوا السلاح مرةً أخرى؟ لم يتعلموا شيئاً من درس لورلاي! ألا تُوجد حبالٌ على متن السفينة، أيها القبطان؟»

«الكثير، يا سيدي.»

صاح بصوت جهوري في رجاله المسلحين: «إذن، اقدفوا بكراً إلى الشاطئ. والآن، أيها النمر، احضروا لي هؤلاء التجار الملعونين.»

ومع اصطدام الدروع والأسلحة، صعد قُطَاع الطريق على متن السفينة، وفي أقل من الوقت الذي أُصدر فيه الأمر، كان كل رجل من رجال العُصبة قد نَزَعَ منه السلاح وأُلْقِيَ به إلى الشاطئ. ثم جاء أمر آخر من المارجريف بتوثيقهم وثاق الخارجين عن القانون، كما يُسمِّيهِ، وهي أكثر عملية مُؤَلَّة حيث يتمُّ توثيق جسد كل ضحية وأطرافه حتى تصير حمراء مثل الحديد. كانوا قد جرى إلقاؤهم على وجوههم في صف، وتم ضربهم بهراوات حتى اسودَّ وازرقَّ جلدهم، برغم صرخات الألم وتوسلات الرحمة من جانبهم.

أمر المارجريف أتباعه قائلاً: «والآن، اقلبُوهم على ظهورهم»، وقد فعلوا ما أمر به. تساقط وهج المشاعل القاسية على الوجوه المتلوية من الألم. وعرَّج البارون بحصانه في

اتجاه صف الرجال العاجزين، وأخذ يَنخس الحيوان ليسير فوق الصف من طرف لآخر، ولكن الحصان الذكي الذي كان رحيماً أكثر من راكمه، سار برقّة بالغة، برغم حجمه الاستثنائي، ولم يَطأ فوق الأجسام الممددة. وبعد ذلك، سار البارون الأحمر وهو يهتز بضحكته الجهورية بحصانه فوق الرجال المنكوبين ذهاباً وإياباً.

«والآن، أفرغوا حمولة السفينة، ولكن لا تُصيبوا أيّاً من البَحّارة بأذى! أودُّ أن أراهم ثانية كثيراً. لا يُمكنك أن تُخَمِّن إلى أي مدّى نفتقدك، أيها القبطان. ما الذي تحمله هذه المرة؟ أقمشة فرانكفورت الرائعة؟»

«أجل، جلالتك ... أقصد، أيها البارون.»

«كلا، تقصد قداستك؛ إذ إنني أنتظر لقب رئيس أساقفة، إذا سارت كل الأمور على خير ما يُرام»، ثم دَوَّى صدى ضحكته عبر نهر الراين. وأضاف: «افتح كواتك، يا بلومنفيلس، وأمر رجالك أن يساعدوا في قذف البضائع إلى الشاطئ.»

سار الحصان الخائف برشاقة فوق الرجال الممدّدين، مُطْلَقاً نخيراً، ربما يكون متعاطفاً، من فتحتي أنفه الحمراءوين، وكان جلده الأسود يَرْتَجِف من المشهد المثير. أطاع القبطان المارجريف بسرعة وخفة. رُفِعت أغطية الكوات، وقذف البَحّارة، اثنان اثنان، بالات التاجر على حافة الصخرة. كدّس الرجال المسلحون الذين كانوا يُجيدون كل الأعمال، أسلحتهم في كومة، وحملوا البالات بضع ياردات إلى الداخل. وخلال كل هذا، أخذ البارون يزار ضاحِكًا، ويمتطي حصانه على طول الرصيف النابض بالأجساد الحية، لينتقل من طرف إلى آخر.

وصاح في الرجال المُمدّدين قائلاً: «تحلّوا بالصبر، ولن يستغرق تجريد السفينة من البالات وقتاً طويلاً، ثم سأقوم بشنقكم على هذه الأشجار، وأرسل جثثكم على متن السفينة، كعبرة لتُجار فرانكفورت. يجب أن تعود، أيها القبطان؛ لأنه لن يُمكنك بيع جثث لتابعي في كولونيا.»

وبينما كان يتحدّث، انتشر وهج أحمر فوق نهر الراين، كما لو أن أحدهم أشعل فانوساً أحمر فوق المياه. ثم اختفى الوهج على الفور.

صرخ المارجريف قائلاً: «ما هذا! أهو انعكاس للحيتي، أم أن الشيطان وأعوانه جاءوا من أسفل بحثاً عن نصيبهم من أقمشة فرانكفورت؟ سأقتسم الغنيمة مع أخي الصالح الشيطان، ولكن لا أحد غيره. احرقوني لو قلتُ إنني رأيت مشهداً كهذا من قبل! ماذا كان هذا، أيها القبطان؟»

«لم أرَ شيئاً غيرَ عادي، أيها البارون.»
صاح المارجريف: «هناك، هناك!» وبينما كان يتحدث بدا أن ضباباً قرمزيًا غشَّى
النهر، وقد أخذ يزداد لمعاناً أكثر فأكثر.
صرخ القبطان قائلاً: «أوه، أيها البارون، القلعة تحترق!»
صرخ المارجريف وهو يرشم الصليب: «فليَحْمِنَا القديسون!» واتجه نحو الغرب،
حيث إنَّ السمع والبصر الآن كانا يشهدان على اشتعال نيران. كانت السماء الغربية بأكملها
متَّقدة، وعلى الرغم من أنه لا يُمكن رؤية اللهب بسبب الجرف، كان الجميع يَعْرِف أنه لا
يوجد مكان آخر للسكن يُمكنه أن يكون سبباً في مثل هذا الضوء.
نَحَسَ حصانه ونادى على رجاله ليجتمعوا، ثم أسرعوا إلى المنحدر الصاعد، وحين
غادر آخر رجل، خرج رولاند ونائباه من بعده من الغابة جهة اليمين إلى التل الصخري.

الفصل الثالث عشر

«قد صدر الحكم: هيا، فلتستعدّا!»

قال رولاند بهدوء مخاطبًا القبطان: «أيها القبطان، فلتُنزل طاقمك إلى الشاطئ، وعليكم إعادة هذه البالات إلى متن السفينة مرةً أخرى، بأقصى سرعة ممكنة.»
شرع البحّارة في العمل فورًا وأفسدوا بأيديهم جهودهم السابقة.
صاح أحد الرجال المُقيّدين متوسلًا إلى رولاند: «نناشدك بالرب، يا رولاند، أن تُمسك بسيفٍ وتحرّرنا من قيودنا.»

أجابه رولاند بقوله: «كل شيء يأتي في وقته المناسب. فالبالات أكثر أهمية لي منكم، ولدينا برميلا ذهبٍ عند حافة الجرف علينا إحضارهما، هذا إن لم يكونا قد غرقا بالفعل في نهر الراين. جريسِل، هل لك أنت وإبرهارد أن تَصطحبا اثنين من الطاقم وتنطلقوا بالقارب الصغير وتُنقذوا البرميلين إن أمكنكم العثور عليهما؟»
تنهّد رفاقه السابقون قائلين: «الرحمة يا رولاند! فلترحمنا!»

قال رولاند: «لقد بالغتُ في إهدار الرحمة عليكم بالفعل. فإن أنقذتكم الآن فسأضطر إلى شَنقكم في الصباح بصفتكم خارجين عن القانون؛ لذا يُمكنني ترككم حيث أنتم، والسماح للمارجريرف الأحمر بتوليّ الأمر وإعفائي من تلك المشقة. فإن خسارته لقلعته لن تجعله أكثر رحمة، لا سيما إن علم أنكم السبب في ذلك. أتوقّع حينئذٍ أنكم ستتجرّعون عذابًا خالصًا؛ فلربما وافقني الرأي بأن الإعدام شنعًا هو العقاب الأمثل لكم. فلولا تمردكم لما أُحرقت قلعتُهُ أبدًا.»

تأوّه الرجال المُمدّدون أرضًا ولكن دون إبداء مزيدٍ من التوسل. كان بعضهم فطنًا بما يكفي ليُدرك أن تغييرًا جليلاً حلّ بالشاب الذي ظنوا أنهم يعرفونه جيدًا؛ فها هو

ذا يقف دون اكتراث، مُقترِحًا بين الحين والآخر حلًّا أفضل في التعامل مع البالات؛ تلك الاقتراحات التي تحمل بين طياتها سلطة تجعل مَنْ تُقال لهم يمتثلون لها فورًا. لم يعلموا أن هذا الشخص الذي ظنُّوه واحدًا منهم، وكان الأصغر من بينهم، وعاملوه على هذا الأساس، تلقى قبل يوم أو يومين تأكيدًا هائلًا، يكفي لتغيير طريقة تفكير أي فرد في العالم، كبيرًا كان أم صغيرًا؛ التأكيد بأنه سيَجري تنويجه الحاكم الأعلى للملايين المخلوقات أمثالهم؛ حاكمٌ قادرٌ بكلمة منه على مَحْوهم من على وجه الأرض.

ولكن يا لَغرابية طبيعة البشر؛ فعلى الرغم من أن عِلْمَ رولاند بهذا كان يؤثّر تدريجيًّا في شخصيته، فلم يكن تمرُّد الثمانية عشر رجلًا أو كلماتهم الثائرة هو ما جعله الآن قاسيًّا تجاههم إلى هذا الحد. لقد كان السبب في ذلك هو الحقيقة البسيطة المتمثلة في أن أربعة منهم تجرّءوا على الانقضاض عليه وتقييد ذراعيه وقذف سيفه، الذي يُعد رمزًا لشرفه، عند قدَمي كورزبولد قائد العصيان.

كان يوشك أن يرى نفسه حاكمًا مُختارًا من الرب، على الرغم من أنه لم ينلْ هذه المكانة المقدَّسة رسميًا بعد. وكان يوشك أن يرى أنه إمبراطور دنيوي وخليفة الله على الأرض، كان مُقدَّرًا له أن تَقْبِض يدهُ على السيف الخفي لانتقام القدير. وكانت أفعاله تُمثِّل تجسيدًا لكلمات الرب «أنا سأجازي». وكان يحركه باعث دينيٌّ عميق على الرغم من صِغَر سنِّه، أو ربما لهذا السبب، وهو ما يُفسِّر، وليس الطموح، موافقته السريعة على مُقترحات رؤساء الأساقفة.

إن الشخص الذي رآه الأسرى ماثلاً أمامهم على الحافة الصخرية في فورستنبرج يختلف كثيرًا عن الشاب الذي كان أحد رفاقهم الذين غادروا فرانكفورت برفقتهم. لقد تفحصَّوه بوضوح كافٍ، ولم تكن هناك حاجة لوجود مشاعل على طول الشاطئ؛ فقد كان الليل يتألَّق بلون قرمزي، وانبعثت أصوات هدير مُستمر من أسفل التل تشبه تلك الصادرة عن شلال نهر الراين الذي يبعد سبعين فرسخًا.

واخترق هذا الوهج الأحمر القارب الصغير وركَّابه الأربعة، وعلت الابتسامة وجه رولاند حين لاحظ وجود برميلين ممتلئين ضمن حمولة القارب. عادت البالات الآن على متن السفينة من جديد، ووجَّه القائد أمرًا لأفراد الطاقم بمساعدة الرجال الأربعة في القارب الصغير في حمل البرميلين الثقيلين. تسلَّق جريسِل وإبرهارد من جانب القارب، ووصلا إلى الحافة حيث يقف رولاند، بينما تولَّى أفراد الطاقم دحرجة البرميلين إلى مقصورة القيادة.

«قد صدر الحكم: هيا، فلتستعدا!»

تحدّث رولاند مخاطباً نائبيه قائلاً: «اختارا من بين هذه الكومة فأسين للقتال تتمتعان بالصلافة والقوة. اتبعا السلسلة لأعلى التل حتى تصلا إلى نقطة اتصالها بالحبل السميك. واقطعا الحبل بفأسيكما واسحبا السلسلة معكما حتى نفصح المجال للسفينة كي تعبر.»

اختار الرجلان فأسي قتالٍ قويتين، ثم توجّها إلى قائدهما.
وسألاه: «أليس من المفترض أن ننقل رجالنا إلى متن السفينة أولاً قبل تحريرها؟»
فأجابهما بقوله: «هؤلاء المتمرّدون أسرى للمارجريف الأحمر. وأمّهم لا يخصني، بل يخصه هو. وسيبقون في مكانهم.»

اندفع النائبان في الوقت ذاته باتجاه قائدهما الذي استهجن فعلهما هذا. وانطلقت استغاثات بئسة من الرجال المقيدين، أما كورزبولد فصاح قائلاً:
«فلتقض عليه يا إبراهيم وتحرّنا. أناشدك باسم العُصبة أن تفعل شيئاً! إنه أعزل؛ فلتقض عليه! إنّ تركه لنا على هذا الحال لجريمة شنيعة!»

كانت الإطاحة برولاند أمراً يسيراً؛ فمئذ وقوع «التمرد» على السفينة وهو يقف أعزل بين ظهرائهم. وعلى الرغم من خطورة الموقف والجدية الشديدة التي علت وجوه الجميع، ضحك إبراهيم المتفائل.

وقال: «أشكر يا كورزبولد على اقتراحك. ولكننا لم نتقدم لاستخدام القوة، وإنما لمحاولة إقناعه. رولاند، لا يُمكنك هجر الرجال الذين أخرجتهم من فرانكفورت وتركهم لكي يموتوا.»

«ولم لا يُمكنني؟»

«قبل لحظة كنْتُ سأقول إنك لن تفعل، ولكنني الآن أقول إنك لا تستطيع ذلك. لقد أظهر كورزبولد للتو جانبه الوحشي الذي لا يُمكنه التملُّص منه، ولكنك تمتلك معدناً مختلفاً، ربما يكون ذلك شيئاً فطرياً منذ الولادة أو لتدريب خُصته أو لأي سبب آخر جعلك هكذا، ولهذا السبب لا يُمكنك تركه فريسة للانتقام ذلك الشيطان الأحمر أعلى التل.»
«إذا أنقذته الآن، فبعد ساعة من الآن سيواجه مصير الشنق. أنا لست جلاًداً على عكس المارجريف. وأنا أفضل أن يتولّى هو تلك الإعدامات.»

ضحك إبراهيم مجدداً.

«رولاند، لا فائدة من تظاهرك بالتخلّي عنهم؛ لأنك لن تفعل. إنني أفضل بشدة أن أطفوع لأكون الجلاّد وأنهي حياة كورزبولد وواحد أو اثنين من البقية، باستخدام فأسي

هذه، ولكن دع الأمور تجري بنحوٍ لائق ومنظم، وليكن الإعدام اللائق نتاج محاكمة عادلة.»

صاح القبطان وهو على متن السفينة قائلاً: «أتوسّل إليك أن تسرع أيها القائد. احترق الحبل المتصل بالقلعة، والسلسلة تُوشك أن تتحرّر. التيار سريع والسفينة ثقيلة. سنبتعد في غضون دقيقة.»

صاح رولاند: «اصطحب طاقمك إلى الشاطئ في الحال، ولتلقوا بهذه الحمولة الحقيرة من البشر على متن السفينة. ليُمسك أحدكم برأس أحدهم والآخر بقدميه ولتقذفوه إلى السفينة. هل لدينا متسع من الوقت أيها القبطان لنأخذ معنا هذه الكومة من الأسلحة كغنائم من المعركة؟»

أجاب القبطان: «أجل يُمكننا، إذا أسرعنا بفعل ذلك.» قُذفت الحمولة البشرية المُنتجبة من الحافة إلى السفينة، ولم يُخطئ البحّارة الأقوياء المُعتادون على تلك المهمة؛ فلم يُسقطوا أيّاً منهم في الماء. وبالسّعة ذاتها التقط آخرون كومة الأسلحة وألقوا بها مُبعثرة على ظهر السفينة. ثم قفز الجميع على متن السفينة، وكان رولاند آخر مَنْ قفز لمقدمة السفينة بعد أن أشار لنائبه ليسبقه.

تدحرجت السلسلة فوق الحجارة مُحدثة قعقعة كبيرة، وسقطت في النهر باندفاع شديد. تحرّرت السفينة وأصبحت تتمايل ومؤخرتها في الأمام، وأمسك البحّارة بمجاديفهم وبدءوا في التجديف، واستطاعوا الإبحار بسفينتهم تدريجياً بعيداً عن الشاطئ. وعندما ابتعدت السفينة قليلاً عن المكان الذي رست فيه، استطاع أولئك الذين كانوا على ظهر السفينة النظر عكس التيار ورؤية مشهد مُتواصل للحريق الهائل. بدت القلعة الحجرية الضخمة وهي تتوهّج بفعل نارٍ كبيرة. وتهاوى السقف واكتسى الليل بلون أحمر من وهج هذا السعير الملتهب. أصبح البرج الضخم كالشعلة المتوهّجة التي يصل أجيجها عَنان السماء. وأصبحت قمة التل بالكامل أشبه بفوهة بركانٍ نشط. أثبتت الأرضيات والجدران الخشبية العتيقة أنها مادة خصبة للحرائق، وحتى الأحجار كانت تنفث وتتهاوى في بحيرة من النيران، وتساعد بركان هائل من الشرر بسقوط جزء تلو الآخر في هذا الجحيم الأرضي.

طفت السفينة الطويلة بسلام في نهرٍ يُشبه الذهب المُنصهر. وسادت السفينة حالة من الفوضى، وتكدّست فوقها بالات القماش التي لم توضع بعد في أماكنها، وتناثرت السيوف وفئوس القتال والرماح هنا وهناك. أما الرجال فكانوا عاجزين لا حيلة لهم،

ولا يزالون في الأماكن التي قُذِفوا فيها في السفينة، وكان بعضهم مُلقَى على ظهره والبعض الآخر مُلقَى على وجهه. كان سطح السفينة مضيئاً كما لو أن شمس المغيّب كانت تلقي بأشعتها الحمراء فوقها. جلس رولاند فوق إحدى البالات وتحدّث إلى القبطان قائلاً:

«اجعل رءوس كل هؤلاء الرجال لأعلى»، وامتلئ القبطان لأمره.

«إبرهارد، لقد قلت إنّ الإعدام لا بد أن يُنفَّذ وفقاً لمحاكمة عادلة. لا داعي لاستدعاء الشهود أو الخضوع للشكليات القانونية الخاصة بالمحاكمة. أنتما الاثنان على دراية تامة بكل ما حدث، وهذه المعرفة لن تدعّمها أو تدحضها أيُّ شهادة. في البداية، خذ كورزبولد الرئيس الجديد ومُعاونه جينسين، وافصلهما عن المجموعة. سيتولّى تنفيذ هذا الأمر اثنان من أفراد الطاقم»، وجرت الأمور وفقاً لذلك.

نهض رولاند، وسار أمام صف المُدّين أرضاً، واختار أربعة رجال آخرين، عشوائياً على ما يبدو، ثم خاطب أفراد طاقمه قائلاً:

«ضعوا هؤلاء الرجال الأربعة إلى جانب قائدهم». وأكمل حديثه مخاطباً نائبه: «لو كان الأمر متروكاً لي، لكان عليّ إعدام هؤلاء الستة. ولكنني لن يكون لي دور في ذلك. إنني أُعيّنكما يا جوزيف جريسيل، وأنت يا جوتليب إبرهارد قاضيين، ولكما سلطة البتّ في مسألة إعدامهم من عدمها. إن حكمتما على أحد المتّهمين، أو جميعهم، بالموت فلن أستخدم الفأس أو حبل المشنقة لقتلهم، بل أقترح قذفهم في النهر، وإن كتب الله لهم النجاة ووصلوا إلى الشاطئ أحياء، فلن تُشكّل قيودهم عائقاً لهروبهم».

تناوب كورزبولد ومعاونه على إطلاق اللعنات والاستغاثات وأكّدا على عدم استبعاد جريسيل وإبرهارد من العُصبة، وناشدوهما بقسم الأخوة التي تجمعهم أن يُطلقوا سراحهم بعد أن أصبحت لديهم السلطة لفعل ذلك. لم يردّ القاضيان اللذان تقلّدا منصبيهما للتو، على تلك الدعوات، ولم يُصدر إبرهارد هذه المرة أي ضحكة.

أما الأربعة الآخرون فوجّهوا استغاثتهم إلى رولاند نفسه. وصاحوا بأنهم وقعوا ضحية للتضليل، وأنهم نادمون بشدة على ما فعلوا. لقد عانوا بالفعل عقاباً شديداً يفوق طاقة البشر، وكانوا يخشون أن تنكسر عظامهم إثر الضرب بالهراوات ومنذ ذلك الحين والقيود تُؤلّهم بشدة. أقسم جميعهم بأنهم تغيّروا، ونظراً لأنّ قائدهم المتّجهّ ظل صامتاً، سألوه كيف يزيّد ما اقترفوه عما اقترفه الاثنا عشر الآخرون، الذين يبدو أنه سيصّفح عنهم. وأخيراً أجابهم رولاند.

قال رولاند بصرامة: «لقد تجرّأتم أنتم الأربعة على مهاجمتي؛ ولهذا أطالب القاضيين بإصدار حكم بالإعدام عليكم».

نظر إليه نائباه في دهشة، وبدا لهما أنه بالغ في ردة فعله تجاه ما عايشاه بنفسيهما، ولم يتفوه أيُّ منهما بأيِّ شكوى تجاهه. من المؤكَّد أن مهاجمتهم، حتى وإن كانت فيها غِلظة ووقاحة شديدة، ليس عقوبتها الإعدام، ولكن رغم دهشتها أدركا أن رولاند كان جادًا للغاية.

نظر إليهم رولاند بوجه هادئ مُتسائلًا عن سبب تحديقهما به، ولكنه بدا عابسًا. وقال: «اعملا ما دام هناك نورٌ ساطع. أيها القاضيان فكِّرا في قراركما وأصدرا حكمكما.»

أدار جريسيل وإبرهارد ظهريهما للبقية، وسارا ببطء باتجاه مؤخرة السفينة، ونزلا إلى المقصورة. وعاد رولاند إلى جلسته فوق بالة القماش مُستندًا بمرفقيه على ركبتيه وواضعًا وجهه بين كُفَّيه. خمدت جميع النداءات وساد صمتٌ تامٌّ من جديد، وعانى جميع من على متن السفينة من حالة توتر مُزعجة. خفتت النيران المشتعلة في القلعة البعيدة شيئًا فشيئًا، وأظلم سطح السفينة من جديد. وأخيرًا خرج القاضيان من المقصورة وتقدَّما ببطء.

كان جريسيل هو المتحدث.

وقال: «هل هؤلاء الستة فقط هم الذين قيد المحاكمة؟»

أجاب رولاند: «نعم، هؤلاء الستة فقط.»

قال جريسيل: «حُكِّمنا هو الموت. سيُقذف كورزبولد وجينسبين في نهر الراين على الوضعية التي هم عليها، ولكن سيحصل الأربعة الآخرون على فرصة للعيش؛ إذ سنُفكُّ قيودهم وتُحرَّر أطرافهم.»

لم يُثر إبداء تلك الرحمة أيَّ عزاء للرجال الأربعة؛ فقد أعلن كلُّ منهم في أسف أنه لا يستطيع السباحة.

قال رولاند: «أشكركما على حُكمكما، الذي أثق أنكما اتخذتماه بعد تردُّد هائل. والآن بعد أن أثبتُّما أنكما قاضيان ممتازان، فلا شك لديَّ أنكما ستُظهرا حكمة مُماثلة كمُستشارين. لقد تفوَّهت بكلمات يا إبرهارد تأبى أن تغيب عن ذهني، رغم كل جهودي لطردِها. لقد رددت شيئًا عند الحافة الصخرية مفاده أننا غادرنا فرانكفورت معًا كرفاق. هذا صحيح تمامًا، وما لم تعترضا على قراري، أرى أنه إن كان الموت هو مصير أيِّ منا، فأحد غيري هو من عليه تولي تنفيذ هذه العقوبة. إن الاثنَين عشر رجلًا الراقدين هنا ليسوا أقل ذنبًا من الستة المحكوم عليهم الآن، ولهذا أقترح أن نُضع كورزبولد وجينسبين على

الضفة الشرقية؛ فأحدهما مارق والآخر أحمق. أما الستة عشر رجلاً الباقون، فقد أثبتوا بجدارة أنهم ليسوا إلا مغفلين، وأنا واثق أنهم لن يستاءوا من نعتي لهم بهذا الوصف. ولكن إن تخلّوا عن ادعاءات الرفاق التي يتغنّون بها كثيراً، وأقسموا بملوك المجوس الثلاثة على أن يتبعوني ويمتثلوا لكل ما أقوله دون تردد أو جدال، ففي هذه الحالة سأصفح عنهم، ولكن عند ظهور بادرة تمرّد منهم، فسيأتكّد لي وقتها أن رأفتي بهم كانت في غير محلّها، ويُمكن أن أؤكد لهم أنها لن تتكرّر ثانية. أيها القبطان، إن رجالك يُجيدون التعامل مع الحبال المعقودة. أطلقوا سراح جميع هؤلاء الرجال ما عدا الستة المحكوم عليهم.»

بدأ البحّارة بسرور بالغ في تحرير الأسرى المنبطحين أرضاً وفك قيودهم، ولكن بعض المتمرّدين عانوا من ضربهم بالهراوات بقسوة بالغة، وكان من الضروري مساندتهم حتى يقفوا على أقدامهم. كان فجر أحد أيام الصيف المبكر على وشك البزوغ، وقد بشرّ باقترابه بداية انقشاع الظلام الذي أحاط بهم، وبدأ لون رمادي باهت هائل يُغطّي سطح النهر الشاسع. وأسفل التيار من جهة الغرب، كان يمكن من بعيد تمييز أبراج باخاراخ التي تبدو كأنها مدينة الأحلام، وقد انتشرت نقاط النور هنا وهناك لتبدّد الكآبة البسيطة التي سادت المكان، والتي أشار كلّ منها إلى شخص نهض مبكراً.

وقفت مجموعة صامته يعترّيها الغم الشديد وسط ذلك النور الخافت الغريب، في انتظار معرفة آخر الأفكار التي توصّل إليها بشأنهم رولاند الأصغر سنّاً بين جماعتهم، الهادئ الذي لا يُظهر أيّ عاطفة، والذي لم تُعدّ هيمنته موضعاً للخلاف لدى أيّ منهم. تابع رولاند كلامه قائلاً: «أيها القبطان، فلنبحر باتجاه الشاطئ الشرقي. أعلم أن باخاراخ هي أعظم أسواق النبذ على نهر الراين، وأنها حفظت جيداً صيت الإله المخبور الذي سُميت باسمه، إلا أننا سنتجاوزها. هناك جزيرة ممتدة في الجهة المقابلة للمدينة ولكنها تقع على مسافة أبعد قليلاً. لا بد أنك تعرفها جيداً. اجعل هذه الجزيرة بيننا وبين باخاراخ، ولترسو على اليابسة بعيداً عن معقل باخوس. إنه إله مُضللّ لن نتعامل معه ثانية.»

«والآن، يا جوزيف جريسيل وجوتليب إبرهارد هل ستتولّيان مهمة قسّم هؤلاء الرجال الاثنى عشر بملوك المجوس الثلاثة على الطاعة؟ ولكن قبل ذلك امنحهم جميعاً الخيار، واسمح لهم بالإفصاح عما إذا كانوا سيّتبعون كورزبولد على اليابسة، أم أنهم سيُطيعونني في الماء.»

عندئذٍ انفجر كورزبولد مرةً أخرى في نوبة غضب مرتعدة، وقال:

«إن إنصافك المزعوم ليس إلا خدعة، وخيارك الزائف جزء من تضليكَ المُستتر. ما الفرصة التي نملكها، نحن أبناء القرى، حين تضعنا على الشاطئ مُفلسين، وسط برية مجهولة بعيداً عن أيِّ مكان يسكنه البشر، ونحن لا نَعلم شيئاً عن طريق العودة إلى فرانكفورت؟ إن رأفتك المخادعة تُنقذنا من الغرق فقط لتحكم علينا بالموت جوعاً.»

بزغ ضوء النهار وسطع للحدِّ الذي أتاح للجميع رؤية الابتسامة اللطيفة ترتسم على شفتي رولاند، واللمعان الذي يُومض في عينيه وهو ينظر إلى كورزبولد الغاضب.

«إنك لأذكى زعيم لهؤلاء الرجال يا سيد كونراد. أظن أن هؤلاء الاثني عشر رجلاً سيتدافعون للانضمام إلى قيادتكَ. لا بد أنهم فخورون بك حقاً بعد أن علموا الحقيقة. سأقدِّم لكل واحدٍ منكم، من مُستودعي الخاص من الذهب الذي جئنا به من القلعة التي هاجمتوها بشجاعة الليلة السابقة، نصف المبلغ المستحق له. سيبلغ ذلك أكثر من أيِّ مالٍ امتلَكَه أحدكم من قبل؛ الحقيقة أن نصيب كل فرد منكم يتجاوز إجمالي ما جمعتُموه أنتم الثمانية عشر جميعاً طوال حياتكم. يُمكنني بسهولة منحكم حصصكم دون انتقاص الأموال التي انتزعها ثلاثتنا من خزائن المارجريف الأحمر دون مساعدة. والسبب في عدم دفعي حصصكم كاملة هو الآتي. إنني لا بد أن أضمن أنكم عندما تصلون إلى فرانكفورت ستصونون ألسنتكم الحمقاء بالصمت. وإذا تحدَّث أي رجل عن أعمالنا فسيبلغني ذلك عند عودتي، وسيكبَّد هذا الرجل خسارة نصف حصته المتبقية.»

يُوسُفني أن أفصح جهلك يا كورزبولد، ولكني سأودِّعُك الشاطئ وأنت مزوَّد بمالٍ وفير، وأنت بالكاد تَبْعُد مسافة فرسخين من لورش، حيث قضيت أمسية مُمتعة للغاية، وهناك لن يسع المرء الذي يَحمل ذهباً في جيبه الخوف من الجوع والعطش. يمكنك الوصول إلى لورش في أقل من نصف ساعة من المشي المتهلَّل، وبالكاد تَبْعُد أسمانسهاوزن فرسخين عن هذه البقعة، وأنت بالتأكيد تعرف الطريق من مخزن النبيذ الأحمر هذا إلى العاصمة فرانكفورت بعد أن اجتزته مرة من قبل. إن طفلاً في السادسة سيكون في أمان على هذا الشاطئ حيث ستطأ قدمك. لذلك أيها النائبان احِرِصا على أن يعلم كلُّ رجلٍ بأنه سيحصل على كيس من النقود، وأن بإمكانهم مرافقة كورزبولد الشجاع والذكي إلى البر دون مضايقة.»

عندما أنهى خطابه، الذي تسبَّب في ضحك حتى بعض المحاربين المهزومين على زعيمهم، أصبحت السفينة بمحاذاة الساحل، بعيداً عن أنظار باخاراخ. أقسم الاثنا عشر

رجلاً جميعهم بملوك المجوس الثلاثة وهو القسم الذي لا يجوز الحنث به، على أن يُصبحوا تابعين مطيعين لروланд.

قال رولاند: «يمكنكم الانصراف إلى المقصورة حيث سيُقدّم لكلّ منكم إبريق نبيذ، وكذلك وجبة فطور مبكرة. بعد ذلك سيُسمح لكم بالاستلقاء وإرخاء أطرافكم المتورّمة، ولتأملوا في مُقتطف الكتاب المقدّس الذي يذكر مصير العميان عندما يقودهم أعمى مثلهم.»

حين انصرف الاثنا عشر رجلاً، التفتَ الرئيس إلى سجنائه. «أشعر بالاستياء تجاهكم أنتم الأربعة، وأشعر أنني لا أستطيع التخلّص من هذا الاستياء إلا باستبعادكم، ولكن عندما فُكرت تبيّن لي أنكم تصرّفتم بناءً على تعليمات هذا القائد الأحمق الذي اخترنموه؛ ومن ثمّ أرى أن اللوم الأكبر يقع على مَنْ أصدر الأمر، لا على المُكلّف بتنفيذه. لذا أمنحكم الخيار ذاته الذي منحتة للبقية. فكّ قيودهم أيها القبطان، وفي أثناء ذلك فلتُحضّر يا جريسِل حقيبتين فارغتين من الخزانة، وافتح أحد البرميلين، وضع في كل حقيبة مبلغاً تُقدّره بأنه نصف الحصّة المستحقة لكورزبولد.»

نهض الرجال الأربعة وأقسموا اليمين على طاعة رولاند، وشكروه على إظهاره الرحمة لهم، وأسرعوا بإشارة منه لتناول الخبز والنبيذ.

بعد انصرافهم، صاح رولاند قائلاً: «أرسلوا إلى هنا رجلين ممّن استعادوا نشاطهم، وليأت كلّ منهما ومعه رغيف خبز وإبريق نبيذ مُمتلئ. والآن أيها القبطان فلتُطلق سراح كورزبولد وجينسبين.»

عندما وقف هذان الاثنان وتمدّدا، جاءهما حاملا الخبز والنبيذ وقدماهما لهما، وبعد أن تناولاها، أعطى جريسِل كيساً من الذهب لكلّ منهما، والذي ربطاه بحزاميهما دون أن يتفوّه أيّ منهما بكلمة، بينما انتظرا جريسِل وإبرهارد ليرافقوهما إلى اليابسة.

قال كورزبولد متجهماً: «إننا نريد سيفينا.»
نظر إبرهارد إلى رئيسه ولكن الأخير هزّ رأسه نافياً.
وقال: «لقد أهاانا سيفيهما، وهما الآن تعود ملكيتهما للمارجريف هيرمان فون كاتزنلينبوجينشتاليك. أنزلهما إلى الشاطئ أيها النائب.»

كان ضوء النهار ساطعاً، وصعد جميع الرجال من المقصورة، ووقفوا في تجمّع صامت في مؤخرة السفينة. كان كورزبولد على الضفة تتصاعد رغبة من فمه من الغضب، وأخذ يُلوح بقبضته تجاههم وهو يزارّ غاضباً:
«جبنا! خنازير! حمقى! أغبياء! رعاديدي!»

لم يردّ عليه أحد من الرجال، ولكن دَوَّت ضحكة إبرهارد العالية عبر الغابة.
وقال: «لقد أعطيتنا ألقابك يا كورزبولد. ابعث لنا عنوانك وقتما يصبح لك عنوان!»
قال رولاند مخاطبًا القبطان: «أبحر. تحرّك باتجاه هذا الجانب من الجزيرة، وأحكم
وثاق السفينة فسنبقى هناك طوال اليوم. عيّن أحد الرجال للحراسة، وامنح الحارس
راحة كل ساعتين. لقد قضينا ليلةً مُثيرة وسننام حتى المساء.»
«سيدي، هل يُمكنني أولاً إزاحة تلك البالات وفئوس القتال والرماح والسيوف
العريضة حتى أُخْلِى سطح السفينة؟»
«يُمكنك فعل ذلك أيها القبطان عند غروب الشمس. أما بالنسبة للبالات فإنها تصنع
أريكة مريحة جدًّا وإنني أنوي الاستلقاء فوقها.»

الفصل الرابع عشر

سجين إيرنفيلس

كان في مشهد الجنود بينما يسرون معًا بخطى ثابتة بعض الإلهام؛ إذ كانوا في غاية الانضباط، يتوافق إيقاع خطواتهم مع إيقاع صليل أسلحتهم. خرج جنود رئيس أساقفة كولونيا من الغابة كأفعى كبيرة تخرج من بين الأعراش، قادمين اثنين اثنين نظرًا لضيق الممر. وكان من المقرر أن يمشي كل أربعة منهم متجاورين عند الوصول إلى طريق النهر، وقد لاقى موكبة التغيرات التي من شأنها مضاعفة العدد على هذا النحو، دون تغيير في الخطوات أو التسبب في أي خلل يُذكر، استحسانَ كبيرٍ أساقفة الجنوب.

نظر الجنود إلى كبار الأساقفة الثلاثة الواقفين معًا في الشرفة في ارتياح أمام جدران القلعة الرمادية، فارتسمت أمامهم لوحة خلافة من المودة والمحبة الأخوية. وأخرج الضباط الذين كانوا يمتطون أظهر الخيل سيوفهم من أغمادها صوب السماء، حين رأوا سيدهم ومعه رفيقه النبيلان. فردَّ رؤساء الأساقفة الثلاثة التحية في حركة رجل واحد. تهلَّل الجنود أكثر فأكثر حين شقَّت الأفعى طريقها المتعرجة أسفل جانب الجبل، وهم يسرون جماعة تلو الأخرى بجانب القلعة. ظل رؤساء الأساقفة واقفين في أماكنهم إلى حين اختفاء آخر جندي في طريق النهر متجهًا نحو كوبلنتز.

قال رئيس أساقفة ماينتس مخاطبًا رئيس أساقفة تريفيس: «هلا توصلني إلى سطح قلعتك؟» ثم سأل رئيس أساقفة كولونيا: «وهل سترافقنا؟»

اتفق رئيس أساقفة كولونيا ورئيس أساقفة تريفيس لأول مرة في الرأي، وهُرع الثاني ليقود الطريق، وبعد وقت وجيز، وقف الثلاثة أعلى الهضبة الحجرية العريضة ليروا مشهدًا بانوراميًا خلابًا حقًا لنهر الراين. حوَّلت شمس يوليو التي على وشك الغروب مياه نهر الراين إلى اللون القرمزي، وكانت نسمة المساء علية على هذا الارتفاع. وقف

رئيس أساقفة كولونيا مستنداً بيده إلى الحاجز، يتأمل هذا المشهد الرائع، في حين لم يعبأ رئيس أساقفة ماينتس به بسبب طبيعته العملية.

«ضيفك المزعج لديه طلب آخر، يا رئيس أساقفة تريفيس؛ ألا وهو أن تأمر برفع رايته أعلى هذه السارية.»

غادر رئيس أساقفة تريفيس في الحال لإصدار الأمر بتنفيذ هذا الطلب، فيما انقطع رئيس أساقفة كولونيا عن متابعة المشهد في ضجر.

وقال: «سيدي، هل طلبت رفع الراية؟»

فكان الرد: «نعم.»

«الراية التي ستدعو رجالك للتحرك من لان إلى ستولزينفيلس؟»

كرّر رئيس أساقفة ماينتس كلامه قائلاً: «نعم.»

«سيدي، لقد أوفيت بوعدتي قولاً وفعلًا. فجنودي يبتعدون الآن سلمياً، وسوف يصلون إلى ثكناتهم في وقتٍ ما من الغد. وعلى الرغم من أنني لم آخذ منك وعداً، فقد لمحت لي بوجود هدنة بيننا، وبأن جيشك لن يؤمر بالقيام بأي فعل من أي نوع، تمامًا مثل جيشي.»

«لقد ذكرت بإيجاز فهمك لاتفاقنا، رغم أنني لم أعلن عن جانبي منه. لقد قلت هدنة، أليس كذلك؟ أليس الأمر أكثر من ذلك؟ وددتُ أن تُثبت موافقتي على هذا المسمّى الذي اقترحته أنني متفق معك تمامًا في الرأي.»

«أنا لستُ سجينك إذن، أليس كذلك؟»

«بلى بالتأكيد؛ بل على العكس تمامًا من هذا الافتراض إنني أرجو منك أن تقبل ضيافتي. فهذه الراية التي أراها ترفرف الآن عاليًا تستدعي سفينة واحدة فقط، خالية من الجنود، ليس بها سوى القبطان وعشرة من رجاله المجدفين الأقوياء، الذين لو التفتُ لرأيتهم الآن يخرجون من مصب رافد لان. أقدم لك، ولكونتيسة فون ساين، قلعتي في مارتينسبورج والتي يُمكنك استخدامها لأي مدة تراها مناسبة. إنها مفروشة بأثاث فخم ومجهزة بشكل جيد ويرعاها مجموعة من الخدم الأقوياء الذين سيكونون طوع أمرك. أقترح أن تذهب إلى هناك في سفينتي بصحبة الكونتيسة وقريبها القس. لقد فهمتُ أنك أردتَ اصطحاب السيدة إلى سجنها المؤقت في فالتس. لقد كان هذا طلبها إن كنت تتذكّر.»

«أنا سأخذها إلى هناك.»

«أنا أعتد عليك تمامًا في هذا الشأن. فالمسافة لا تتعدّى ثلاثة عشر فرسخًا، ويمكن قطعها بكل سهولة في غضون يوم. وما إن تَصِلَا إلى الجانب الآخر من النهر، يمكنها أن

ترسل قريبها هذا أو أيَّ رسولٍ آخرٍ أهلٍ للثقة إلى قلعتهما؛ ومن ثم تستدعي السيدتين اللتين ستُخدمانها وتُشاركانها عزلتها.»

«هل تنوي يا سيدي أن يكون سجنها...؟»

رفع رئيس أساقفة ماينتس يده الرفيعة مُبدئاً استنكاره.

وقال: «أنا لم أستخدم كلمة قاسية كالسجن. فهذه العقوبة، إن راق لك هذا الوصف،

هي أقرب لكونها مُعتكفاً، يمنحها الفرصة اللازمة للتأمل وحسبما أمل للندم أيضاً.»

«لكن تصرفك هذا يا سيدي يبدو لي قاسياً أكثر من اللازم. كم من الوقت تنوي

احتجازها؟»

«يؤلني أن أسمع منك كلمة «قاسياً»؛ لأن المعاملة التي ستلتقاها ستكون في غاية

اللطف. ظننتُ أنك ستفهم أنني لم أجد أمامي خياراً آخر. في رأيي، ربما كان عليها أن

تُعبر عما يُرضيها دون عواقب وخيمة، لكنها استهزأت بأعلى مجلس في المنطقة، ولا يُمكن

التغاضي عن هذا الفعل مُطلقاً. أما بخصوص فترة تأديبها، فسوف تستمر حتى زواج

الإمبراطور الجديد، وبعد هذا الاحتفال ستكون لديها حرية الذهاب إلى حيث تريد. سأزور

فالتس بنفسي بعد أربعة أيام من الآن لكي أطمئن أن السيدة تحظى بكل سبل الراحة في

القلعة.»

«وربما لكي تتأكد أيضاً من أنها محتجزة هناك.»

توارت شفتا رئيس أساقفة ماينتس الرفيعتان خلف ابتسامة ساجرة.

وقال: «لست بحاجة للتأكد من هذا، ما دام سيد كولونيا قد قطع لي عهداً بأن يتحقق

من تنفيذ أمر المجلس بنفسه.»

وهنا انقطع الحديث بعودة رئيس أساقفة تريفيس. وكانت السفينة الكبيرة في

مُنْتَصَف طريقها عبر النهر بالفعل. فقد جرفها التيار السريع المندفِع لمسافة فيما وراء

قلعة ستولزنفيلس، بينما كان المجدِّفون، الذين كانوا خمسة على كل جانب، يبذلون كلَّ

ما بوسعهم لإعادتها إلى المياه الهادئة. وعبر السيد والسيدة والراهب إلى مصبِّ رافد لان،

وسرعان ما عادت السفينة لنقل الخيول والمرافقين.

وعندما ظهر وادي لان، قدَّم صورة للجمال البري الهادئ، وبدا أنه لم يعيش على

ظهره كائن حي من قبل. وقف كبير أساقفة كولونيا وظلَّ بيده على عينيه ليحميها من

أشعة الشمس التي كانت لا تزال قوية، ثم أخذ يُحدِّق أعلى النهر الصغير. فلم يجد أيَّ

مركب عائم على مرمى البصر. والتفت للقبطان.

وقال: «كم يَبْعُد الأسطول عن ماينتس؟»

«هل قلت أسطولاً يا سيدي؟»

«أجل؛ مائة سفينة أبحرت من ماينتس في جنح الظلام إما الليلة الماضية وإما الليلة التي سبقتها، لكي ترسو هنا في رافد لان.»

«سيدي، لا يُمكن عبور ولو مركباً واحداً مسافةً كهذه على هذا النحو وخلال هذا الوقت القصير؛ ومن ثمّ فمحاولة أسطول خوض هذه الرحلة في غير وضوح النهار ستكون مستحيلة. فلم تعبر أيّ سفينة نهر الراين منذ عدة أشهر، وإذا غامروا بذلك فإن رافد لان الصغير أكثر ضحالة من أن ترسو سفنهم به.»

«شكراً لك يا قبطان. يبدو أنني جاهل بتاريخ هذا المكان وجغرافيته. لو طلبت منك أنت ومُجدّفيك البواسل أن تأخذوني عبر الجزء الأسرع تياراً من النهر إلى قلعة كوبلنتز، فمتى سنصل إلى هذه المدينة؟»

«بأقصى سرعة يا سيدي، لكن لا يُمكنني خوض رحلة كهذه إلا بأمر من سيدي. فمثله لا تُخالف أوامره.»

قال رئيس أساقفة كولونيا بينما كان يجلس مرةً أخرى: «أُقدّر هذا تماماً»، وقد اختفت رغبته العرضية في استعادة قواته، التي كانت قد أثّرت عند رؤية رافد لان فارغاً، عندما أدرك كيف غلبه القبطان بدهائه.

عندما وصلت الخيول، عاد الأب أمبروز إلى ساين بناءً على طلب الكونتيسة، وأرسل الخادمتين اللتين كانت قد طلبتهما، وقد أنجز مهمته بنجاح لدرجة أنهم وصلوا إلى قلعة مارتينسبورج قبل حلول العاشرة مساءً ذلك اليوم. وفي ساعةٍ مبكّرةٍ من صباح اليوم التالي، بدأ الموكب الصغير رحلته عبر نهر الراين، يتقدّمه رئيس الأساقفة والكونتيسة؛ والفرسان الستة في المؤخّرة.

كانت السيدة تشعُر بحزن شديد؛ إذ كانت تتملّكها مشاعر الندم التي توقّع رئيس أساقفة ماينتس أن تنتابها نتيجة السجن. لقد كان من الواضح جداً أن رئيس أساقفة كولونيا يشعُر بخيبة أمل شديدة؛ إذ امتطى ظهر حصانه بجانبها في صمت ولم يُبادر بأيّ محاولة لفتح حديث معها. استراحا لعدة ساعات أثناء الظهيرة، ليصلا إلى كوب قبل غروب الشمس، وعندئذٍ رأت الكونتيسة سجنها ذا الأبراج ذات القمم المستدّقة، والذي كان أشبه بسفينة راسية في عرض النهر.

وفي كوب استقبلهما رجل مُلتحٍ ترتسم على وجهه ملامح التجهُّم، قدّم نفسه لكبير الأساقفة باسم فالتسجراف فون شتاليك.

وقال: «لقد فاجأتنا، يا أمير كولونيا. صحيح أن سيدي رئيس أساقفة ماينتس زارني منذ عدة أيام أثناء إبحاره في نهر الراين في سفينته ذات المجدفين العشرة، وقال لي إن هناك احتمالاً بعيداً أن يوضع سجين لوقت قصير تحت رعايتي. وقد حدث هذا عدة مرات من قبل؛ لأنّ قلعتي تضمّ بعض الزنازين المروّعة التي تمتد أسفل النهر، وهي زنازين لها مداخل سرية ليس من السهل العثور عليها إذا ما حاولَ أي شخص البحث عنها داخل القلعة. ومن الملائم في بعض الأحيان وُضع سجين الدولة خلف أسوارها عندما لا يجد رئيس الأساقفة مكاناً في قلعة إيرنفيلس الخاصة به؛ لذا لم أُعر الأمر اهتماماً كبيراً واكتفيتُ بقول إن السجين سيتلقّى الترحيب لدى وصوله. لقد أتى هذا الصباح أحد رجال رئيس الأساقفة من قلعة ستولزينفيلس، وقد ذهلت أنا وزوجتي حين علمت أن السجين سيكون هنا هذا المساء برُفقتك يا سيدي، وأن الذي سنستضيفه هنا هو سيدة. كما أنه كان من المقرر وضعها في أفضل أجنحة القلعة، ومعاملتها بمُنتهى الاحترام باعتبارها من أصحاب المقامات الرفيعة. لكن هذا الجناح ليس جاهزاً لاستقبال سيدة كهذه، فضلاً عن استضافة شخص ذي مقام رفيع مثلك يا سيدي.»

رد رئيس الأساقفة قائلاً: «لا تنشغل بي كثيراً. فأنا في النهاية جندي أيضاً والإقامة في غرفة بإحدى الحانات أمر مقبول جداً بالنسبة إليّ في بعض الأحيان.»

«أوه كلاً، يا صاحب السمو، هذا الأمر ليس مطروحاً من الأساس. فهناك قلعة جوتنفيلس، التي تُوجد أعلناء، وهي مريحة كأى قلعة مُطلّة على نهر الراين. كما أن صاحبها، كونت بالاتين، أميرٌ رفيق لك من الأمراء النخبين، وصديق مقرب جداً من سيدي رئيس أساقفة ماينتس، وقد علمتُ أنه يُصوّت مع سيدي متى احتاج للمساعدة.»

قال رئيس أساقفة كولونيا معلقاً: «هذا صحيح.»

«لقد أصدر سيدي أوامر بطلب كل ما أحتاجه لإقامة سيادتها من كونت بالاتين، إدراكاً منه لعدم إبلاغي بمجيئها بوقت كافٍ؛ لذا ذهبتُ ظهرًا لزيارته بالطبع دون أن أخبره بأي شيء عن سجناء الدولة، رجالاً كانوا أم نساءً. وما إن علم بزيارتك سيدي لهذا الحي، طلب منّي أن أعرض عليك وعلى كل رفاقك وأتباعك الاستضافة في قلعته طوال فترة تشريفك هنا.»

«هذا كرم بالغ من كونت بالاتين، ويسعدني قبول الإقامة والاستضافة هناك.»

«لقد كان من المفترض أن يكون هنا ليرحبَ بسموك، لكنني لم أستطع إخباره في أي ساعة ستأتي تحديداً، ولذلك انتظرتك بنفسي ويسعدني أن أرافقك إلى بوابات جوتنفيلس.»

قطع الحديث جلبه كبيرة أحدثتها مجموعة خيول راکضة، مندفعة بسرعة جنونية من أعلى التل، مستديرة في نهايته لتدخل الشارع الرئيسي في المدينة.

صاح السجان قائلاً: «ها! ها هو ذا كونت بالاتين بنفسه»، وهذا قدرنا أن نلتقي بالأمر الناخب الرابع للإمبراطورية، الذي بالإضافة إلى رؤساء الأساقفة الثلاثة، يُشكّل جبهة قوية جداً يمكنها انتخاب أي إمبراطور أو عزله متى شاءت.

كان فرسان كونت بالاتين يتألفون من خمسين رجلاً مدججاً بالسلاح، والضجة التي أحدثوها في المدينة أثارت أصداء تلك البلدة القديمة التي كانت تنتمي، هي والقلعة، إلى منطقة بالاتينات. أبدى النبيل القوي ترحيبه الحار برفيقه الأمير الناخب، واتجها معاً نحو قلعة جوتنفيلس.

أثناء تناول العشاء في تلك الليلة، قدّم كونت بالاتين استضافة كريمة. وبفعل كرمه البالغ بدأت كونتيسة فون ساين الجميلة تستعيد بهجتها التي فقدتها شيئاً فشيئاً، ونسيت أنها في طريقها إلى السجن. فهي رغم كل شيء شابة يافعة مريحة بطبيعتها وتُحِبُّ الصحبة الممتعة، لا سيما إن كانت صحبة هذين الأميرين الناخبين اللذين كانا يتمتّعان بخبرة كبيرة وزارا معظم بلاد العالم. كما نفّض رئيس الأساقفة بعض غبار الحزن عن كاهله أيضاً؛ بل كله في الواقع مع تداول أباريق النبيذ. وحين سُئل عن نبيذه المفضّل، قال إنه بالأُس ذاق عينة رائعة من نبيذ مدينة أوبرفيزل.

فردّ الكونت قائلاً: «إنها من منطقة مجاورة. فمدينة أوبرفيزل لا تبعد سوى مسافة قصيرة جداً بالأُسفل، على الجانب المقابل من النهر، لكننا نرى أن نبيذ كوب الخاص بنا على الأقل لا يقلُّ عنه كفاءة؛ بل إنه يفوقه أحياناً. يجب أن تُجرَّب بعضاً من أفضل النبيذ من كلا النوعين. لكن كيف تذوقت نبيذ مدينة أوبرفيزل ما دمت في الشمال بمدينة ستولزينفيلس؟»

«لأنني ببساطة كنت جريئاً جداً، معولاً على طبيعة صديقي رئيس أساقفة تريفيس الطبية، حتى إنني أوصيت بشراء النبيذ من مدينة أوبرفيزل.»

«أها! أنا شغوف لمعرفة السبب.»

«لأسباب تاريخية، لا تتعلّق بالذوق. فقد حلّت أميرة إنجليزية جميلة ضيفة على قلعة ستولزينفيلس منذ زمن بعيد، وقُدِّم لها هذا النبيذ.»

فقال الكونت: «في هذه الحالة، سأعود أنا أيضاً للتاريخ، وأطلب عدة كئوس من نبيذ كوب المعتق.» ثم قال مخاطباً هيلديجوندي: «حقاً يا سيدتي، كان يجب أن يوجد أحد المنتمين للأسرة الإمبراطورية هنا لمقابلتك بدلاً من عاشقين قديمين للنبيذ مثل سموه وأنا.»

دُهِلَت الفتاة حين ذكر الأسرة الإمبراطورية، مُستَحْضِرَةً في ذهنها كل الأحداث العاصفة التي وقعت بالأمس. لكنها، وبكل هدوء، ابتسمت لمضيفها المتحمس. تابع الكونت قائلاً: «لكن بالرغم من أننا لسنا من الأسرة الملكية الآن، فهي منزلة يحقُّ لنا نيلها، وبالفعل قد نُستدعى في أيِّ وقت لنيلها. هذا صحيح من خلال ما أسمع، أليس كذلك يا صاحب السمو؟»

رد رئيس الأساقفة في جدية شديدة قائلاً: «بلى..»

«حسنًا، كما كنت على وشك القول؛ فهذه القلعة كانت مملوكة لآل فالكنشتاين، وقد باعوها لبالانيت. وهناك شائعة أو خرافة أو حكاية تاريخية، سمَّها كما شئت، تؤكد أن أجمل امرأة وُلِدَت عند نهر الراين كانت الكونتيسة بيتريس من آل فالكنشتاين.» ثم أضاف مُبتسمًا لهيلديجوندي: «لكنني حين أشرب النخب الذي على وشك أن أقدمه، فسوف أؤكد يا سيدتي أن تلك الخرافة لم تُعد قائمة، وأنا مستعد للقتال فداءً لذلك الزعم. فقد كان من المعروف حينذاك أن إيرل كورنول الذي انتُخب ملكًا لألمانيا عام ١٢٥٧ التقى بيتريس في هذه القلعة. وقد رتب لهذا اللقاء الأمراء النخبون أنفسهم، الذين حاولوا، بوصفهم خطابًا أغبياء، إجبار كل منهما على الزواج من الآخر. لكن رفضت بيتريس الزواج من أجنبي.

لقد كانت كتب التاريخ غامضة بعض الشيء بشأن أمتع جزء في المفاوضات، لكنها كانت واضحة تمامًا فيما يتعلق بنتيجتها. فقد التقى الإيرل وبيتريس بطريقة ما، وسرعان ما أصبح مُغرماً بها. هذا هو الجزء الذي يَغْفُل عنه الكُتَّاب الرهبان القدامى. يجب أن أُخبرك أن الإيرل نجح فيما أخفق فيه الأمراء النخبون السبعة. فقد أصبحت بيتريس زوجة إيرل كورنول وملكة ألمانيا، وعاشا حياتهما في سعادة.»

صاح كونت بالاتين النبيل بينما كان يهم بالنهوض قائلاً: «لنشرب هذا النخب! نخب الذكرى العزيزة لعاشقي جوتنفيلس الملكيين!»

طرفت عينا رئيس الأساقفة بينما كان ينظر لهيلديجوندي عبر الطاولة.

وقال بينما يرفع إبريق نبيذه: «يبدو أن هذا وقت الخطبات الملكية.»

قالت هيلديجوندي: ««يبدو» هي الكلمة المناسبة أيها الوصي.»

ثم ارتشفت رشفة من نبيذ كوب المعتق.

وفي صباح اليوم التالي، استيقظت هيلديجوندي مُبكراً. وبرغم ما كان يدور برأسها من هموم، فقد نامت جيداً ثم استيقظت مع أصوات الطيور؛ إذ كان تأثير الشباب والصحة

الجيدة عليها عظيمًا. وفي آخر لحظات يَقطتها ليلاً قبل أن تخلد إلى النوم في الفراش الرائع بأفخم غرف القلعة، لامت نفسها بقسوة على فشلها الكارثي في اليوم السابق. فقد أسدى إليها رئيس أساقفة كولونيا نصيحة نافعة لم تُنصت إليها، ولا شك أن خيبة أمله تجاه النتيجة، التي حاولَ جاهداً أن يُخفيها في كرم منه، كانت بلا شك شديدة لأنه لم يُفصح عنها. وبما أنها كانت تفكر في لحظات الأسر القادمة، فقد كان من المتوقع أن تحلم بفالتس الكئيبة، ولكن رُوح الفتاة اليافعة سبحت في عالم العزلة الجميل في نونينويرث، حيث ستعيش تلك الأيام السعيدة الخوالي من جديد من دون الانشغال بصخب السياسة ووقع أقدام الجنود المسلّحين.

في الصباح قام البواب، بناءً على طلبها، بنزع الترابس والقضيب والسلسلة لكي يُسمح لها بالخروج في الهواء الطلق المنعش، وبالتجول حول القلعة، وصلت إلى شرفة واسعة كانت في واجهتها. كان ضبابٌ كثيف يمتد من الشاطئ إلى الشاطئ يُخفي مياه نهر الراين ويحجب جزئياً قرية كوب الصغيرة أسفل التل. كان الهواء نقياً ومُنعشاً للغاية في هذا المكان، وبدت كما لو كانت تنظر إلى مساحة واسعة من الثلج الناصع البياض. وفي أقصى أطراف كوب بدت العديد من القمم المُستدقة لأبراج سجنها المستقبلي، كأنها مسامير فراشٍ ما، يتخيّل المرء فوقه شهيداً عظيماً مُمرّقاً بسبب حكم رئيس أساقفة لا يعرف الرحمة.

بالتحديق في هذه القلعة الكابوس التي لا تظهر سوى قمم أبراجها المستدقة، اتخذت الفتاة قرارها الذي كانت قد توصّلت إليه الليلة الماضية وإن بنحوٍ ضبابي. فبعد إطلاق سراحها، يجب عليها الانعزال عن العالم، وارتداء حجاب الراهبات في الدير المقابل لتلّ دراخنفيلس، جزيرة مُتبادلة مقابل جزيرة أخرى، وسلام بدلاً من الاضطراب.

التقت الفتاة مجدداً بكونت بالاتين المرح ووصيها الأكثر رصانة على مائدة الإفطار، وقد أثنى الاثنان على نتائج نومها الجيد، وقد أعرب الأول عن ذلك بجرأة كبيرة فيما عبّر الثاني عن ذلك بمزيد من التحفظ الذي يُناسب رجل الدين. بدا رئيس الأساقفة عجوزاً مُرهقاً في ضوء الصباح، ولم يكن من الصعب التخمين بأنه لم يحظَ بنوم جيد. فزعت الفتاة حين رآته على تلك الهيئة، وعادت لتتهم نفسها مجدداً بعدم اللياقة والذوق، متمنية لو عبّر وصيها عن شعوره بخيبة الأمل بطريقة انتقامية أكثر، بأن يُكلّفها ببعض المهام الصعبة التي كانت ستنفذها طواعية.

كان الكونت المضيف يتوق إلى بقائهما في ضيافته ليلة أخرى على الأقل، فدعاهما إلى ذلك، وأبدى رئيس الأساقفة موافقته الضمنية.

قال رئيس أساقفة كولونيا: «إن لم تكن الكونتيسة متعبة بشدة، فأنا أقترح أن ترافقني في رحلة قصيرة إلى مكان ما أعلى النهر. وسنعود إلى هنا في المساء.»
صاحت هيلديجوندي قائلة: «سأكون سعيدة بذلك؛ إذ ذهب كل التعب بقضاء ليلة مريحة كهذه.»

تركهما الكونت الطيب لتجهيز أمتعتهما، وما هي إلا لحظات حتى امتطى الوصي والفتاة ظهرَي حصانَيْهما جنبًا إلى جنب ونزلا أسفل الانحدار الشديد باتجاه النهر. كان الضباب قد انقشع بالفعل إلا من بضعة خيوط هنا وهناك تنعكس على سطح المياه الرمادي، مُتتابة كما لو كانت مرسومة بفعل التيار؛ إذ كان الهواء ساكنًا، وواعدًا بيومٍ قاتئ. تقدّما في صمتٍ إلى أن أبعد مُنحني على نهر الراين كوب وسجّنها المشئوم عن الأنظار، وحينها كانت الفتاة أول من تحدّث.

فقال متسائلة: «أيها الوصي، هل كانت إساءتي شديدة بحيث لا يمكنك غفرانها لي؟»

ارتسمت على شفّتيه ابتسامة رقيقة وهو يُحدّق فيها بنظرات حانية.
وقال: «إنك لم تُسيئي إليّ قطُّ يا عزيزتي، لكنني حزين لما آلت إليه الأمور.»
«أنا أيضًا فكرتُ فيما جرى، ولم أَلَمْ سوى نفسي على معارضتهم الثائرة تلك. وسوف أخضع، دون تذمّر، لأي فترة سجن تُرضي رئيس أساقفة ماينتس، وإن أمكن، ترقّق قلبه. وبعد أن يطلق سراحِي، أرجو موافقتك على الانضمام إلى صفوف الأخوات في نونينويرث. وأريد أيضًا أن أقسم ثروتِي بالتساوي بينك وبين الدير.»
هزّ رئيس الأساقفة رأسه معارضًا.

وقال: «لا يُمكنني أن أقبل هذا التنازل.»
«ولمَ لا وقد قبل رئيس أساقفة كولونيا السابق مدينة لينتس من سالفتي ماتيلدا؟»
«كان المقصود أن يكون هذا قرضًا مؤقتًا.»

«حسنًا؛ صف تنازلي هذا بأنه مؤقت إن شئت، بحيث تحتفظ بما وهبتك إياه إلى أن أطلبه منك، على أن تستخدمه في الوقت الحالي كما تشاء.»

قال رئيس الأساقفة بنبرة حازمة: «هذا مُستحيل تمامًا.»
«هل هذا يعني أنك لن تسمح لي بعيش حياة الرهبنة؟»

«كلّا يا صغيرتي؛ بل يعني أنني لن أَرْضى بالسماح لك بهذا التخلي عن العالم قبل أن تعرفي أكثر عما تتخلين عنه.»

«أعرفه بالقدر الكافي.»

«هذا ما تظنين، لكنَّ خبرتك به أقلُّ من أن نتوقَّع وصولك لرأي سليم هذا الصباح. يجب أن أصرَّ على مرور عام على الأقل، ويُفضَّل عامان، على أن تقضيَ جزءاً من هذا الوقت في فرانكفورت وفي كولونيا. فأنا أتوقَّع حدوث تحسين كبير في الأوضاع في فرانكفورت عند تولي الإمبراطور الجديد العرش. وإن ظلَّ رأيك كما هو بعد عامين، فلن أعارض مرة أخرى.»

«لن أغيِّر رأيي أبداً.»

«ربما لا. فقد قيل لي إن عزم المرأة لا رجوع فيه؛ ومن ثمَّ فقليل من التأخير لن يضر. وهناك مسألة أخرى لا أستوعبها في الوقت نفسه. فقد أطلت التفكير مراراً وتكراراً فيها، وصرتُ على قناعة بوجود سوء فهم في نقطة ما، والذي ربما سيَنتهي بعد فوات الأوان. فأنا على أتمِّ الثقة أن الأب أمبروز لم يلتقِ الأمير رولاند في فرانكفورت.»

قالت الفتاة: «هل تشكُّ إذن في كلام الأب أمبروز؟» وسرعان ما تراجعت عن لهجة السخط التي بدت واضحة في صوتها؛ إذ كان التواضع سيكون ديدنها من الآن فصاعداً. «الأب أمبروز أفضل الرجال وأصدقهم قاطبة. ولا شك أنه رأى أحدهم يسرق أحد التجار في فرانكفورت. ولا شك أيضاً أنه حُبس وسط براميل النبيذ؛ لكني لا أصدِّق أن يكون هذا السارق وهذا السجان هو رولاند لأنِّي أعرفه جيِّداً، كما أن هذا مُحال عملياً؛ إذ إن الأمير رولاند نفسه كان سجيناً في ذلك الوقت، بل وإلى الآن في الواقع. ولا يمكن للأمير رولاند أن يخرج من إيرنفيلس دون صدور أمر من رئيس أساقفة ماينتس ورئيس أساقفة تريفيس ومنِّي أنا شخصياً. فأنا وحدي لا أملك السلطة التي تُمكنني من إطلاق سراحه، وكذلك رئيس أساقفة ماينتس لا يملك هذه السلطة برغم أنه مالك القلعة. لا بدَّ أن هناك وغداً يتجول بشوارع فرانكفورت مُدعياً أنه رولاند.»

«في هذه الحالة، يا سيدي، ما كان سيُنكر هويته عندما بادَّره بالكلام عند الجسر.» «ملحوظة ذكية جداً يا عزيزتي، لكنها لا تمحو الصعوبة التي أواجهها. فربما كانت هناك عدَّة أسباب تمنع هذا الوعد من أن يدين نفسه أمام أيِّ غريب يُباغته هكذا. لكن لا فائدة من الجدل في هذا الأمر؛ لأنِّي لن أقنعك كما أنك لن تقنعيَني. المهم الآن هو معرفة سوء الفهم وإزالته. فهل ستُساعديني في ذلك؟»

«بكل تأكيد، لو كان بإمكانني هذا، يا سيدي.»

«عظيم. يجب أن أخبرك أولاً أن فترة سجنك من المرجح أن تكون قصيرة جداً. ويجب أن تعرفي أيضاً أن التناغم المُفترَض وجوده في ستولزينفلز ليس سوى خُرافة في واقع الأمر؛ فقد تركتُ ورائي بذور الخلاف. اقترحتُ أن تكون ابنة أخي رئيس أساقفة تريفييس الكنيية التي قابلتها على مائدة الغداء التاريخية التي أقمناها، الإمبراطورة القادمة. وقد دعم رئيس أساقفة ماينتس نفسه هذا الترشيح، وقوبل بترحاب كبير من أخي رئيس أساقفة تريفييس.»

«إذن لأول مرة تُوافق أطراف المجلس على شيء بالإجماع، أليس كذلك؟ أظن أن اختيارك رائع.»

«لكن رئيس الأساقفة لا يتفق معك في هذا الطرح يا عزيزتي.»

«فلماذا دعم ترشيحك إذن؟»

«لأنه أذكى بكثير من رئيس أساقفة تريفييس، الذي كان من المُفترَض أن يكون هو الداعم الثاني بعد بضع دقائق.»

«لماذا يَعتقد سيد رئيس أساقفة ماينتس شيئاً ويتصرّف بغيره؟»

«لماذا يفعل ذلك دائماً؟ لا يُمكن لأحد أن يُخمن حقيقة ما يفكر به رئيس أساقفة ماينتس، إن كان الحكم عليه من خلال ما يقول. إذا أصبحت ابنة أخي رئيس أساقفة تريفييس الإمبراطورة، فسرعان ما سيُدرك عمُّها سلطته، وسوف يفقد رئيس أساقفة ماينتس قيادته. وإذا أمكن لرئيس أساقفة ماينتس اليوم أن يُقنعك بمنصب الإمبراطورة بنحوٍ سرّي، فسوف يسعده هذا كثيراً.»

«لكن ألن يَبحث عن شخص آخر؟»

«بالتأكيد. فهذا الاختيار يحتلُّ تفكيره الآن بقوة. ودعمه للترشيح لم يكن سوى خدعة لكسب الوقت، لكنه لو اقترح شخصاً آخر، فسأعارضه أنا ورئيس أساقفة تريفييس. أمله الوحيد في كبح طموح رئيس أساقفة تريفييس هو احتمالية حدوث شيء ما، يجعلك تُغيّرين رأيك بخصوص الأمير رولاند.»

عارضت الفتاة قائلة: «لقد نسيت، أيها الوصي، أن السيد رئيس أساقفة ماينتس قال إنه لن يسمح لي بالزواج من الأمير رولاند بعد الطريقة التي تحدثتُ وتصرفت بها.»

«قالها يا عزيزتي تحت تأثير غضبه العام تجاهك، لكن رئيس أساقفة ماينتس لا يسمح للغضب ولا لأي شعور آخر أن يقف أبداً عائثاً أمام مصالحه. فإذا كتبت له خطاب اعتذار تُعربين فيه عن ندمك على تحديك له وتبدين رغبتك في الإذعان لرغباته، فأنا واثق أنه سيُرحّب بذلك باعتباره حلاً مُواتياً للمأزق الذي وجد نفسه فيه.»

قالت الفتاة في أسف: «هل تُريدني أن أفعل هذا أيها الوصي؟»
«ليس قبل أن تقتنعي تمامًا ببراءة الأمير رولاند من التُّهم التي ألصقتُها به.»
«وكيف لي أن أتأكد من هذا؟»

«أوه، ها نحن أولاء الآن قد وصلنا للهدف من تلك الرحلة التي تبدو ظاهرياً بلا هدف. لديّ خبرة أكبر منك بهذا العالم الذي تسعين جاهدةً للتخلي عنه، وبالرغم من أنني رأيتُ الشر يَنْتَصِر لفترة من الوقت، فلم يتزعزع إيماني لحظةً بالعناية الإلهية المسيطرة على كل شيء، وما حدث الليلة الماضية جعلني أُمعن التفكير لدرجة أنني استغرقت في تأملاتي حتى طلع النهار.»

«أوه، أيها الوصي المسكين، أعلم أنك لم تَنعم بنوم هنيء، وكل هذا بسبب مخلوقة لا وزن لها مثلي أنا، ومخلوقة شريرة أيضاً؛ لأنني لم أر يد العناية الإلهية التي تراها أنت بهذا الوضوح.»

«بالتأكيد يا عزيزتي، لحظة تفكير ستُظهرها لك. تذكّري حين كنا على وشك الوصول إلى باب السجن، وتسلّمنا تأجيلاً مؤقتاً من قبل ذلك الفظ، الفالتسجراف. لم يكن الجناح الخاص بك جاهزاً بعد؛ ومن ثم رأينا أننا مُنحنا يوماً آخر من الحرية؛ يوماً من الحرية المطلقة. والذي كان أمراً خارج نطاق توقعاتنا. والآن يُمكننا عمل الكثير خلال هذا اليوم. إن إمبراطورية قد ضيّعت واكتُسبت خلال بضع ساعات. ومع تلك الهدية جاء الاكتشاف. لم يكن ذلك السكير الفالتسجراف ليبيدي لك أيّ اهتمام؛ فبالنسبة إليه السجين هو السجين؛ أي أن يُلقى في أي مكان، ويغلق عليه الباب، وانتهى الأمر، لكن ثمة خوف شديد قد بثّه فيه سيده. فقد انشغل رئيس أساقفة ماينتس براحتك، فأمر بإفراء أفضل أجنحة القلعة لك. إذن وبعد هذا كله، فإن سيادته لم يَشْعُر بأي ضغينة تجاهك، وأزعم أنه سيكون سعيداً بالتراجع عن أمر سجنك، غير أنه لم يكن ليعترف بهزيمته أبداً.»
«أوه، يا لك من حالم أيها الوصي! أنا واثقة أن نيافة رئيس أساقفة ماينتس لن يُسامحني أبداً.»

«نيافة رئيس أساقفة ماينتس يا عزيزتي في مأزق لا يُمكن لأحد سواك أن يخرج منه.»

«بل ستخرجه منه براعته.»
«ربما. لكني لا أعاباً به. أفكاري أنانية جداً في هذا الشأن. أتمنى لو انتشلتني من شكوكي هذه.»

«أتعني بشأن الأمير رولاند؟ سأفعل ما تأمرني به.»
«لن أصدر أي أمر، لكن سأسميه اقتراحًا.»
«ومع ذلك سيكون أمرًا.»

«لقد ابتعدنا كثيرًا عن سجنك، ونقترب الآن من سجن الأمير رولاند. أقترح أن أرافقك إلى باب قلعة السجن تلك. فأنا ممنوع بموجب اتفاقي مع الأمراء الناكبين الآخرين من رؤية الأمير رولاند أو التواصل معه بأي نحو. ومع ذلك فإن حارس القلعة يعرفني جيدًا ولن يرفض لي طلبًا، حتى وإن طلبت رؤية الشاب نفسه. ومن ثم فلن يتردد في إدخالك حين أطلب منه ذلك. ولكن لأبعد عني تهمة الدخول خلسةً إلى قلعة رجل آخر، فسأكتب الليلة خطابًا لرئيس أساقفة ماينتس أخبره فيه بما فعلت بالضبط ولماذا فعلته.»
«هل تقصد إذن أن عليّ مقابلة الأمير رولاند والتحدث إليه؟»
«أجل.»

صاحت الفتاة بينما اشرأب وجهها بالحمرة قائلة: «عزيزي الوصي، ماذا يُمكن أن أقول له بحق السماء؟ وكيف لي أن أبرّر له تطفلي؟»
«أظن أن السجين لا يُغضبه التطفل، لا سيما إن كان المتطفل ...» ونظر العجوز إليها مبتسمًا فكان وجهها يزداد حمرة أكثر فأكثر؛ وأضاف بعد أن رأى ارتباكها وخجلها قائلاً: «يُمكنك قول الكثير. قدّمي نفسك على أنك الفتاة التي أمير كولونيا وصّي عليها؛ وبيّني له أن وصيّك قد أسرّ لك بأنه سيكون الإمبراطور المستقبلي؛ واطلبي منه بعض الضمانات بعدم المساس بالممتلكات التي ورثتها عن أسلافك؛ أو يمكنك أن تُخبريه بقصة الأب أمبروز مع المقدمة نفسها، وهذا أفضل. أخبريه أن هذا أزعجك، اطلبي منه الحقيقة، واستمعي لما سيقوله عن نفسه، ثم اشكّريه وانصرفي. الأمر لا يتطلب حديثًا طويلًا، بالرغم من استعدادي لسماع طلبه بإطالة بقاءك. أنا واثق أن الحديث وجّهًا لوجه لمدة خمس دقائق فقط سيغير ما قاله الأب أمبروز في حقه تمامًا، وبضع كلمات بسيطة منه ستزيل على الأرجح الغموض بالكامل. وإذا كان هناك من ينتحل شخصيته في فرانكفورت فمن المرجح أنه يعرفه.»

سار الرفيقان معًا مسافة طويلة في صمت، ومالت رأس الفتاة لأسفل وتقطّب جبينها. وأخيرًا، وكأنما كان هذا بعد جهد كبير، أزالَت شكوكها ورفعت رأسها.
وقالت بنبرة حاسمة: «سأفعل هذا.»

تنفّس رئيس الأساقفة الصعداء. فقد علم حينها أنه أصبح الآن في أمان. سألت، وكأنها تريد التلميح إلى الانتهاء من الموضوع الذي تحدّثا فيه بمنتهى الجدية: «هل هذه أسمانسهاوزن التي نحن ذاهبان إليها؟»

«كلا، هذه هي قرية لورش، وتلك هي قلعة نوليتش أعلاها.»
قالت الفتاة بينما تتنهد في قلق: «أمل ألا تكون هناك أميرة إنجليزية على وشك الزواج من إمبراطور أو ألا يكون هناك رجل إنجليزي بصدد تقلّد منصب الإمبراطور ...»
قاطع رئيس الأساقفة هذا الأنين بضحكة من القلب، كانت هي الأولى له منذ عدة أيام.

فتابعت قائلة: «يبدو أن الإنجليز عرق مُتطفل. أتمنى لو يهتمون بشؤونهم فقط.»
قال رئيس الأساقفة: «نوليتش غير ملوثة، بالرغم من أنه في الأيام الخوالي جاء فارس مُتهوّر يمتطي صهوة حصانه وصعد إلى هنا لينقذ حبيبته، وأعتقد أنه عاد معها ثانية ولا يزال طريقه يسمّى بسلم الشيطان.»
«هل كان زواجهما بهذا القدر من السوء؟»

«كلا؛ بل أعتقد أنهما عاشا حياةً هنيئة للأبد؛ لكن الصعود كان مُنحدرًا للغاية لدرجة أنه كان من المفترض أن تُساعدهما جنيات الجبل في صعوده.»
«كم تبقى على أسمانسهاوزن؟»

«أقل من فرسخين. سوف نتوقّف هناك ونلتقط أنفاسنا. هل أنت متعبة؟»
«أوه، كلاً، على الإطلاق. أنا فقط أتمنى لو زالت تلك المحنة.»
«أنت فتاة شجاعة يا هيلديجوندي.»

«أنا أبعد ما أكون عن هذا أيها الوصي. لكن لا تخش أن أتراجع.»
بعد أن تناولا وجبة الظهيرة في أسمانسهاوزن، اقترحت الكونتيسة أن يتركا حصانَيهما في الإسطبل ويمشيا على أقدامهما مسافة الثلث فرسخ المتبقية على مدينة إيرنفيلس، فوافق الوصي على ذلك.

غير أنه واجه صعوبة مع الحارس أكبر مما كان يتصوّر. فقد رفض الرجل طلبه مُرتعداً، فلم يكن يجرؤ على السماح بزيارة أحد للسجين دون أمر مكتوب من سيّده. كان يُسعدّه أن يُسديّ جميلاً لرئيس أساقفة كولونيا، لكنه ليس سوى بائس فقير لا يملك من أمره شيئاً في تلك المسألة.

قال رئيس أساقفة كولونيا: «عظيم. لقد أتيت لتُؤي من عند سيدك، الذي يوجد الآن مع أخي رئيس أساقفة تريفييس في ستولزينفيلس. وإن أصررت على موقفك فيجب حينها أن أطلب منك مكاناً للإقامة إلى أن يحين الوقت ويتمكن الرسول السريع من استدعاء سيّدك إلى هنا. لكن هذه الرحلة قد تُزعجه كثيراً وإن حدث ذلك أخشى أن يُفسد هذا علاقتك به.»

«ربما يحدث هذا يا سيدي، ولكن يجب عليّ أن أقوم بواجبي.»
سأله رئيس الأساقفة بذبرة حادة: «هل أنت واثق من أنك قد أدّيت بالفعل واجبك في جميع الحالات؟»

بدا الشحوب على وجه الرجل.
وقال: «أنا لا أفهم ماذا تعني يا سيدي.»
«إذن سأخبرك بما أعنيه بسرعة. يُشاع أن الأمير رولاند شُوهِد وهو يتجول في شوارع فرانكفورت.»

«كيف ... كيف يُمكن أن يحدث هذا يا سيدي؟»
«هذا بالضبط ما أريد معرفته. أظن أن الأمير ليس موجوداً داخل سجنك.»
قال الرجل الذي تملكه الرعب الآن: «أؤكد لك يا سيدي أن سيادته موجود هنا في غرفته.»

«ممتاز؛ إذن أدخل هذه السيدة إليه. بالرغم من أنها لا تعرف الأمير، فإن أحد أقاربها يؤكد أنه التقى بسيادته في فرانكفورت. فقلتُ إن هذا مُستحيل لو أنك قمت بواجبك كما تدّعي. كلُّ ما تُريده السيدة أن تسأله عن تفسير لهذا الأمر، والخيار لك. هل سترافقها للداخل أم أرسل في طلب رئيسي الأساقفة الآخرين؟»

لم يكن هناك شيء مُريح في كلامه سوى عبارة أن السيدة لا تعرف الأمير. لكن لا تزال تلك مخاطرة كبيرة ومخيفة، لكن الحارس لم يتردد كثيراً. فالتقط مجموعة من المفاتيح، وطلب من الكونتيسة أن تتبعه. صعد السلم وفتح الباب وانزوى جانباً ليسمح للكونتيسة بالدخول.

كان هناك شخص أشعث يجلس مباعداً بين رجله على كرسي؛ ويضع ذراعيه على الطاولة، ورأسه مُطأطأ بينهما. وكانت بالقرب منه كأس ممتلئة بالكامل بالنيبذ، وإبريق نيبذ قد انسكب على الطاولة ولا يزال يقطر على الأرض قطرة، قطرة، قطرة.

رفع الشاب رأسه وقد أزعجه فتح الباب بهذه الطريقة العنيفة، وصوت التصادم الذي أحدثه حين صفّقه الأب بعرض الحائط الحجري مُحاولاً تحذيره، لكن حالة الشاب

لم تكن لتسمح له بالانتباه لهذا التحذير، ولا بفهم الإشارات التي كان والده يقوم بها من خلف ظهر الفتاة المرتعبة. فأمسك بالإبريق المنسكب بعنف وصاح بقوة:

«أحضِر لي المزيد من النبيذ، أيها العجوز...»

مشى الشاب على قدميه مُترنِّحًا، وألقى الإبريق بعيدًا، ثم انزلق بسبب النبيذ المسكوب ليسقط أرضًا مُطْلَقًا اللعنات على العالم.

تراجعت الفتاة المرتعبة وصاحت في السجناء قائلة:

«أخرجني من هنا! أغلق الباب بسرعة وسدّه بالأقفال!» فنَفَذَ السجناء الأمر بمنتهى السرعة.

وعندما خرجت هيلديجوندي للفناء لم يسألها الوصي أيَّ سؤال. فقد أفصح الرعب البادي على وجهها عن كل شيء.

قال الحارس المُرتعد: «معذرة يا سيدي، لكن فخامته سكران.»

«هل هذا ... هل هذا يحدث كثيرًا؟»

«للأسف، أجل يا سيدي.»

«يا له من فتًى مسكين! سوف تنتقل ذنوب الآباء إلى أبناء الجيلين الثالث والرابع.

سامحيني يا هيلديجوندي. هيا بنا نرحل وانسي الأمر برُمَّته.»

وفي الصباح التالي بدأت الكونتيسة فترة سجنها في فالتس.

الفصل الخامس عشر

التقاء الحبيين

لم يَسْتَيْقِظ رولاند إلا بعد نحو ساعة من سطوع الشمس على التلال الغربية. ووجد القبطان ينتظر استيقاظه بصبر، وبعدها بدأ هذا القبطان الحازم البارِع في تكليف طاقمه بربط البالات الممزَّقة، وإعادتها مرة أخرى لمكانها الأصلي في عنبر السفينة. وكان على وشك فعل الأمر نفسه مع الأسلحة التي استولوا عليها من فورستنبرج، لولا قدوم جريسِل إليه، وطلبه منه وضع الرماح وفئوس القتال والسيوف الطويلة في المقصورة.

أوماً رولاند برأسه إشارةً على موافقته، وقال:

«ربما تُفيدنا تلك الأدوات في حال تعرُّض السفينة لأي هجوم. إن سيوفنا أصبحت

خردة ولن تصمد إن تعرضنا لهجوم.»

عندما أغلقت كوات عنبر السفينة، وأصبح سطح السفينة خاليًا، قُدِّم العشاء. وبعد وقت قصير من الغروب، طلب رولاند من القبطان أن يُبحر على أن يبقى بمحاذاة الشاطئ الشرقي، ويمرَّ بين ما يُمكن تسميتها بقلعة فالتس البحرية وقرية كوب، مع إلزام طاقمه بأقصى درجات الصمت المُمكنة. تقع فالتس فوق صخرة في نهر الراين، على بُعد مسافة قصيرة من كوب أعلى النهر، بينما أعلى هذه القرية على التل الذي يوجد خلفها تقبع أبراجُ جوتنفيلس الحصينة المربعة.

سأل إبرهارد مخاطبًا رولاند: «ألا تنوي مهاجمة فالتسجرافينشتاين؟ إنها تشتهر بأنها أخطر معقل للصوف بين ماينتس وكولونيا.»

أجابه رولاند قائلاً: «نعم. في هذه الظروف لن نستطيع مهاجمة فالتس. لا بد يا إبرهارد أنك لاحظتَ خلال رحلتنا الأولى عبر الراين أنني لا أتعَمَّد اللجوء للقتال إن كان بوسعي تجنُّب أي صراع. وبالنسبة إلى فالتس، يستحيل فيها تنفيذ الخطة التي

أثبتت نجاحها مع القلاع الأربع التي زُرناها. إذا حاولنا دخول هذا الحصن المحاط بالماء خلسةً، فسيَنكشِف أمرنا بسبب تلك المعدات القتالية التي بحوزتنا على متن السفينة. لا يوجد غطاء نستتر خلفه؛ لذا سَنَتجاوز فالتس وكذلك جوتنفيلس؛ لأن الأخيرة ليست بقلعة لصوص وإنما تعود ملكيتها لكونت بالاتين، وهو رجلٌ نبيلٌ بحق، وليس لصًا. أما وجهتنا التالية فستكون شونبورج على الجانب الغربي من النهر، بالقرب من أوبرفيزل.»

عندما لاحت قلعة فالتس الباهرة في الأفق بهيئتها السداسية الأضلاع، وأركانها وبريجاتها العديدة البارزة، وفوق كل هذا برجها الخماسي الأضلاع، بنحو خافت في وسط نهر الراين، تحت النجوم المتلألئة، أمر القبطان رجاله بالاستلقاء على ظهر السفينة وفعل هو مثلهم. أما رولاند ورفاقه فكانوا يجلسون بالفعل في المقصورة، وكانت السفينة الضخمة تطفو فوق سطح الماء وكأنها غير مرئية بطلائها الأسود، ومرت في صمت كحلم في التيار السريع.

دون سابق إنذار باغتتهم الصدمة، وسقط جميع الرجال الموجودين فوق الخزانات في المقصورة أرضًا، وهم يُصدرون صيحات فزع لأنهم كانوا يدركون جيدًا أن هذا ليس سوى تمهيد لنفس الكوارث التي تعرَّضوا لها بالأمس. قفز رولاند إلى سطح المركب ورأى السفينة وهي تتأرجح بفعل التيار، الذي جرفها بالقرب من القلعة بشدة لدرجة أنه بدا للوهلة الأولى وكأنها اصطدمت بإحدى الصخور البعيدة. وأصبح الشكل المهيب لقلعة فالتس قابلاً فوقهم بقمم أبراجه الحادة المدببة التي تخترق عَنان السماء المزينة بالنجوم، وكأنه بناء عجيب كالذي يروونه في الكوابيس.

تمتم القبطان بلعنات باللغة الألمانية، وهو يأمر رجاله بإمساك المجاديف ومحاولة التحرك، لكن رولاند أدرك على الفور أنهم قريبون جدًا من الحافة الصخرية وليس أمامهم فرصة للنجاة. وأسرع إلى المقصورة.

«ليأخذ كلُّ رجل سيفه ويتبعني في صمت قَدْر الإمكان!»

صعد رولاند إلى ظهر السفينة مجددًا، وقال مخاطبًا القبطان:

«أخبر مَنْ يتولون أمر المجاديف بالسماح للسلسلة بسحب السفينة بمُحاذاة الشاطئ، ولكن عندما يظهر اللصوص تظاهروا بأنك تلوذ بالفرار، ولكن عليك الامتثال لأمرهم فورًا إن طالبوك بالاستسلام.»

أصبحت مقدمة القارب في مواجهة الصخرة الصلبة، عالقة بين السلسلة القوية والجرف المنخفض. كان رولاند أول الواثبين إلى الشاطئ وتبعه الباقيون بخفة. ومع كل

حركة للسفينة كان يرنُّ الجرس الموجود داخل القلعة، وأصبح بإمكانهم الآن سماع صوت حث الحراس على الحركة وصليل الأسلحة، على الرغم من أن باب قلعة فالتس الوحيد كان لا يزال مغلقًا. كان الباب يقف على ارتفاع ستُّ أقدام فوق الهضبة الصخرية، ولا يُمكن الدخول إليه أو الخروج منه إلا بواسطة سُلّم.

قاد رولاند رجاله إلى مكانٍ يصلح للاختباء قرب الجدار الغربي لفالتس، وكان ذلك في الوقت المناسب؛ إذ بينما كان يختلس النظر ورجاله مستندون بظهورهم إلى الجدار الخلفي، رأى وميض المشاعل من الباب الذي بات الآن مفتوحًا، ووضع الرجال سُلّمًا صلبًا بزاوية منحدرية بين العتبة والأرضية الصخرية تحتها. ولكن معظم الحراس لم يُطيقوا صبرًا لانتهاء تلك التجهيزات، وقفزوا بقوة من العتبة إلى الصخرة. ونزل البقية عبر السُلّم، واندفعوا جميعًا دون ترددٍّ باتجاه السفينة، التي أعلنت عن وجودها عندما ارتطم جانبها بالصخرة، ومن خلال سماع أوامر القبطان اليائسة وتسارع خطوات رجاله على متن السفينة.

وبعدها هبط ضابطان السُلّم بترؤ وتبعهما شخصٌ ما، تعرّف عليه رولاند على أنه سيد القلعة، الفالتسجراف هيرمان فون شتاليك الذي يُعدُّ أحد أقارب بارون فورستندبرج الضاحك، ويحمل نفس اسمه وهو لصٌ فظ مثله تمامًا.

بعد أن هبط الفالتسجراف درجات السُلّم، صاح مخاطبًا القبطان: «دع مقدمة السفينة واجعل تركيزك على مؤخرتها، اجعل سفينتك تلتفُّ بسرعة باتجاه الشاطئ.» أطلع القبطان الأمر، وأصبح القارب على الفور في الوضع الذي أراده النبيل. وبعدها ثارت ضجة كبيرة بعد أن هاجم الجنود، بكلمة من الفالتسجراف، السفينة وبدءوا في فتح كوات عنبر السفينة، وهي المهمة التي يجيدون القيام بها.

همس رولاند مخاطبًا نائبيه الواقفين خلفه اللذين بدورهما نقلًا الأمر إلى بقية الرجال في هدوء: «اتبعوني في صمتٍ قدر الإمكان.» ركض رولاند برشاقة وتسَلَّق السُلّم. لم تكن هناك حراسة لعدم وجود حاجة لذلك من قبل. كان جريسيل آخر الصاعدين، وبعدها سُحب السُلّم، وأغلق الباب الضخم وأُوصد بالأقفال والسلاسل.

وجد المُتسلِّلون مشاعلٌ معلّقة في كل مكان على طول الجدار، وبدا الفناء الخلاب، بشرفاته وسلاله الغريبة، في ظل هذا الضوء المرتعش، أكثر اتساعًا مما كان عليه بالفعل. شعر رولاند وهو يُحدِّق في الحدود الضيقة لهذا السياج بأنه سجين، رغم أنه كان في أمانٍ في هذه اللحظة. لقد حاول جاهدًا إحصاء عدد الرجال الذين تبعوا الفالتسجراف،

إلا أن اندفاعهم في تفتيش السفينة حال دون وصوله إلى تقدير دقيق، ولكنه كان يعلم أن عددهم يتجاوز ضعف عدد القوة التي كانت معه؛ لذا فقد كان يدرك أن قيادة تلك الفرقة غير المدربة في مواجهة هؤلاء المحاربين المخضرمين يُعد عملاً انتحاريًا.

أمر جريسيل أن يذهب لتفتيش القلعة وبرفقتة ستة رجال، وأن يحضروا إلى الفناء أيًا من يجدونه، وأن يعرفوا ما إذا كان هناك أي نافذة تُطل على الجهة الشرقية حيث رست السفينة. أما بقية رجاله فتجمعوا عند الباب تحت قيادة إبرهارد.

وقال: «أخشى يا إبرهارد أن يكون تفاخري حين ظننت بأن الحظ سيُحالفني الآن بعد أن حظيتُ بطاعة أتباعي سابقًا لأوانه. ها نحن أولاء الآن واقعون في فخ، وما لم نتمكن من الهروب بمعجزة، فأنا أعترف بأنني عاجز، في هذه اللحظة، عن تخيل كيف يمكننا أن نبحر ثانية بأمان.»

أجابه إبرهارد قائلاً: «إننا في وضع أفضل من الوضع الذي عليه الفالتسجراف ورجاله في الخارج؛ فلا شك أن هذا الحصن مُزوّد جيدًا بالمؤن، وهو حصن منيع، أما رجال الفالتسجراف المتهوّنون، هؤلاء الذين لم يسعهم البقاء في مأوى مريح وقتما كانت لديهم الفرصة، فأصبحوا بلا مأوى أو طعام. لقد بذلت بالتأكيد أقصى ما بوسعك في ظل هذه الظروف، ولا لوم عليك بالنظر إلى هذه الملابس؛ فأنت لست بساحر، ولم يكن بإمكانك التكهن بوجود سلسلة.»

«في الحقيقة يا إبرهارد إنني ألوم نفسي بشأن هذا الأمر بالخصوص؛ إذ تجاهلت المثال الجيد الذي ضربته عندما اكتشفت وجود السلسلة في فورستنبرج. هذا الفخ حيلة جديدة وبقدر علمي هي غير مسبقة في نهر الراين. كان يجدر بي تذكّر أن شتاليك هو ابن عم المارجريف الأحمر، ومن المُحتمل أنه أخبره بتلك الحيلة. وبالطبع هناك احتمال بأن يكون شتاليك نفسه هو صاحب فكرة السلسلة؛ فهو يبدو أكثر دهاءً وذكاءً مُقارَنةً بذلك الحيوان الضخم الضاحك القابع بعيدًا أعلى النهر. كان يجدر بي أن أطلب من القبطان أن يرسو بالسفينة في مواجهة الضفة الشرقية، ويرسل بعدها بعض الرجال في قارب صغير ليعلم ما إذا كان الطريق ممهّدًا للعبور أم لا. لا، يا إبرهارد، إنني ألوم نفسي على هذه الفوضى؛ فبسبب قلقي بشأن تجاوز قلعة فالتس، انتهى بي المطاف أنا ورجالي داخل أسوارها. سوف أتجول في هذا الفناء لبعض الوقت، وسأفكّر فيما يجب القيام به بعد ذلك. ولتذهب أنت برفقة الرجال إلى البوابة. ولا تسمح بأي حديث أو ضوضاء. أنصت بعناية وأبلغني إن سمعت أي شيء. فكما تعلم يا إبرهارد إن المشكلة

تكنم في أن الشيطان شتاليك مالك هذه القلعة، شأنه شأن ابن عمه التابع لرئيس أساقفة كولونيا، يُقسَم بالولاء لرئيس أساقفة ماينتس، وها أنا ذا بعدَ تدمير إقطاعية أحد رؤساء الأساقفة، محاصر في إقطاعية رئيس أساقفة آخر. وأخشى ألا يمرَّ اجتماع نياقتهم القادم معي بسلام كما حدث في المرة السابقة.»

صاح إبرهارد في دهشة قائلًا: «الاجتماع «القادم»؟ هل قابلت رؤساء الأساقفة من قبل؟»

شهق رولاند مُدركًا أن انغماسه في التفكير في موضوع معيَّن كاد أن يتسبب في كشفه لسره الهائل.

تابع إبرهارد حديثه قائلًا: «أجل تذكَّرت. لقد كان وجود رئيس الأساقفة في بون هو السبب في تركك لتلك المدينة في أثناء سفرك الأول عبر الراين.» أجابه رولاند بارتياح: «نعم.»

تابع إبرهارد مواساته لروланд فقال: «أرى أننا حتى لو لم نُغادر القلعة فعلى الأقل لن نستطيع الفالتسجراف اختراق هذا الحصن المنيع؛ ولهذا فإننا آمنون بالقدر الكافي.» رد عليه رئيسه: «الأمر ليس كذلك يا إبرهارد. تذكَّر أن السفينة بحوزة الفالتسجراف، ويُمكنه أن يصطحب قوّته بأكملها إلى كوب أو أي مكان آخر، ويستطيع العودة بإمدادات وفيرة وعتاد للحصار، يُمكنها الإطاحة بالبوابة مهما بذلنا من جهود لمنع ذلك. ولكن لنستجمع شجاعتنا ونبدّل ما بوسعنا. فلتذهب أنت الآن إلى البوابة. لا بد أن أحظى ببعض الوقت للتفكير قبل عودة جريسيل.»

كان رولاند يسير بمفرده وبرأس مُنحَن، ذهابًا وإيابًا عبر الفناء تحت ضوء المشاعل المرتعش. وسرعان ما توصَّل إلى حقيقة أنه لا يمكنه وضع أيّ خطة إلا بعد أن يأتيه جريسيل بتقرير حول تفاصيل القلعة.

وهتف بصوت عالٍ مخاطبًا نفسه: «حظِّي يُعاندني! حظي يعاندني!» كما لو أن صوته قد يقترح عليه طريقة لتجاوز هذه الصعاب.

أتاه صوت عذب وواضح من خلفه قائلًا: «الحظ يَنقلب دائمًا على اللص والمعتدي؛ وكيف يُمكن أن يكون الأمر بخلاف ذلك، عندما تكون نهاية هذه الرحلة هي الشنق على إحدى الأشجار؟»

توقَّف رولاند عن السير، واستدار على الفور باتجاه الصوت. ورأى بوضوح أن الشخص الواقف أمامه، والذي قد هبط للتو من السلم الذي خلفه، امرأة لا تتجاوز على

الأرجح الثمانية عشر من عمرها، ولكن لها عيان داكنتان تومضان بالتحدي واللتان كانتا تُحدّقان فيه دون خوف. تراجمت الخادمتان اللتان كانتا برفقتها في خوف، وبدا عليهما الذعر وكانتا على وشك أن يُغشى عليهما من الرعب.

صاح رولاند متجاهلاً كلماتها المهينة، ومأخوذاً للغاية ببهاء وجهها وهيئتها للحد الذي منعه من التفكير في أي شيء آخر، قائلاً: «سيدتي، كيف جئتِ إلى هنا؟» أجابته قائلة: «لقد أتيتُ إلى هنا لأنّ رفيقك الهمجي صعد لأعلى وطرق بابي وأمرني بفتح الباب، وهو ما لم أكن لأفعله، وتحديته أن يكسره إن كان يمتلك القوة لفعل ذلك. وما حدث أنه امتلك القوة لفعل ذلك واستخدمها بالفعل.»

«يؤسفني بشدة إزعاجك يا سيدتي. لقد أخطأ نائبي بسبب حماسه الزائد، وأرجو منك العفو عن تلك الإساءة.» ضحكت الفتاة.

«عجباً، يا سيدي، أنت أكثر القراصنة أدباً، لكن في واقع الأمر يبدو أن نائبك رجل فظ. فمن دون أيّ تحية أمرني بالذهاب إلى الفناء والمثول أمام رئيسه، وها أنا ذا قد امتثلت لأمره.»

«لم يخطر ببالي أن هناك نساء يسكنن وكر هذا اللص. يبحث نائبي عن الرجال المختبئين؛ لذا أرجو منك أن تصدقيني حين أؤكد لك بأنك لن تواجهي أي إزعاج آخر. أنتِ بالتأكيد لست وحدك في هذه القلعة، أليس كذلك؟»

«بلى، أنا لست وحدي. لقد اختبأت زوجة الفالتسجراف وحاشيتها في جزء آخر من القلعة، وعما قريب سيتجمعون هنا جميعاً بعد أن يأسرهم مرءوسوك الأشد غلظة، هذا ما لم تُظهر أبوابهم صلابةً أشد من التي أظهرها باب غرفتي، أو ما لم تنخلع أكتاف رجالك الغاضبين.»

«وكيف تخلفت عن صحبة سيادتها؟»

«لأنني أيها القرصان المتحضّر مجرد سجينة لا حيلة لي داخل هذا الحصن، فأنا مشاكسة رفضت طاعة أولي الأمر، الذين يملكون سلطة الوصاية علي. لهذا أنا سجينة في هذا الحصن الموحش الذي يليق بجردان الماء، ولهذا السبب أرحّب بك أيها القرصان الشاب حتى وإن كنتَ خارجاً عن القانون مُتلبساً بارتكاب جرم.»

«حسناً يا سيدة مُنتصف الليل الجميلة، يبدو أننا، نحن الاثنين، في وضع مُتشابه؛ فأنا أيضاً سجين في فالتسجرافينشتاين، وعندما أتيت كنت أفكر في خطة للهروب. ولهذا

التقاء الحبيبين

اطمئنِّي أيتها الفتاة المتمرّدة، فإن سيف قاطع الطريق هذا والمُتلبّس بجريمته في خدمتك تماماً»، وخلع المتحدث قُبْعته مرة أخرى ومال خلفها في شجاعة حتى لامست ريشة قبّعته بلاط الأرض وانحنى أمام الفتاة الشجاعة التي لم تكن تهابه.

الفصل السادس عشر

السيدة النبيلة تشقُّ صفوف القراصنة وتفتن رئيسهم

أطلَّ جريسيل من إحدى الشرفات ونادى قائده. وقال: «هناك عدد من النساء في الغرف الغربية للقلعة. لقد أوصدَن أبوابهنَّ، لكنهنَّ أخبرنني أن بداخل هذه الغرف فالتسجرافين فون شتاليك وغيرها من السيدات النبيلات بصحبة خادماتهن. ما الذي عليَّ فعله؟» أجابه رولاند قائلاً: «اجعل أحد الرجال يتولى حراسة هذا الممر يا جريسيل لتضمن أن هؤلاء السيدات لا يتواصلن مع أحد خارج القلعة.» أوضح جريسيل قائلاً: «لقد ظننتُ أنني لا يجدر بي اقتحامُ هذه الأبواب من دون الحصول على تعليمات محدَّدة منك بهذا المضمون.» «لقد فعلت الصواب. طمئن السيدات بأننا لن نُزعجهنَّ.» وهنا صاحت الفتاة الجميلة الواقفة في الفناء، وعيناها الداكنتان تلمعان في وهج المشاعل، قائلة: «ولكنك أزعجتني!» رد عليها جريسيل دون إبداء أي عاطفة أو تأثُّر بجمالها: «لقد نعتتنا هذه الإنسانة بجميع الألفاظ المهينة التي خطرت ببالها. فبحسب قولها فإننا حتالة الأرض.» ضحكت الفتاة بازدياء.

تابع جريسيل كلامه دون اكتراث: «ولكنني لم أكن لأخرجها من غرفتها إلا لقولها بوجود شرفة بها، في الجهة الشرقية للقلعة، وتطل على العمليات التي يجريها الفالتسجراف على السفينة، وقد أعلنت عزمها على تحذير شتاليك بأن القلعة تعج بالقراصنة، بمجرد

أن يصل صوتها إليهم ويعلو فوق الجلبة الموجودة في المنطقة التي ترسو فيها السفينة. لهذا اقتحمت الباب وأمرتها وخادمتيها بالهبوط إلى الفناء. وعندما فتشتُ غرفتها لم أجد الشرفة التي وصفتها، واكتشفت أنها لم يكن باستطاعتها التواصل مع الكونت؛ لذا أقترح عليك إعادتها لغرفتها مرة أخرى.»

ضحكت الفتاة من جديد، وصاحت قائلة:

«لم أقوَ على كسر الباب بنفسي؛ لذا دفعتُك أنت والحمقى الذين برفقتك على القيام بتلك المهمة. أنا سجين هنا؛ أسيرة مُكرهة على البقاء. إنك لن تُعيدني إلى زنزانتني، كما أُمِّل، أيها القائد، أليس كذلك؟»

«بلى، إن كنتِ حقاً أحد رفقاء السجن وليس أحد الأعداء.»

ولكن حذره جريسيل بقوله: «احذر، فلربما تخدعك أنت أيضاً.»

أجاب رولاند مُبتسماً للفتاة التي بادلته الابتسامة، قائلاً: «سوف أقبل المخاطرة وأفعل ذلك.» كانت لديها شخصية عنيدة، ولكنها بدت مُتأثرة بتلك المعاملة اللائقة.

سأل رولاند: «هل هناك أي خدَم من الرجال؟»

أجاب جريسيل: «ثلاثة فقط، وهم يتحركون بصعوبة بسبب تقدُّمهم في العمر، وهم أكثر خوفاً من النساء أنفسهن. ولكن أحد الخدَم مهم؛ فقد أخبرني بأنه حارس الخزانة. لقد انتزعت منه المفاتيح، ووجدت أن غرفة الخزانة الحصينة تمتلئ بأكياس الذهب. ستكون تلك أكبر غنيمة نحصدُها حتى الآن، باستثناء برميكي العملات الذهبية اللذين استولينا عليهما من ...»

صاح رولاند قائلاً: «صه، صه! لا تذكُر أيَّ أسماء. هل اكتشفت وجود أيٍّ مخرج آخر غير الباب الذي دخلنا منه؟»

«لا؛ ولكن توجد نافذة في الطرف الشمالي يُمكن لرجلٍ متوسط الحجم أن يعبر من خلالها. إلا أنها مرتفعة فوق الصخور، واستطعت تمييز وجود أسطول من القوارب الصغيرة تطفو فوق المياه الجارية.»

قال رولاند: «حسناً هذا مهم.»

تحدثت الفتاة قائلة: «للص الأكثر لُطفاً وبحوزته الذهب.»

ردَّ رولاند ما قالته وهو يبتسم مجدداً: «وبحوزته الذهب»، وأضاف قائلاً: «وبحوزته أيضاً سيدة ترغب في الهروب من فالتس، حسبما فهمتُ منها.»

وافقته الفتاة وقالت بمكر: «أنت محق. هل سأحصل على حصة من المال؟»

«أجل؛ إن انضممت لجماعتنا.»

هتفت الفتاة وهي تدّعي خيبة الأمل: «أوه! لقد ظننت أنك اتخذتني عضوًا بالفعل. وما الاسم الذي سأخاطب به سيدي الجديد، الذي يحصد ثروات هائلة للحد الذي يجعله لا يرغب في ذكر المبلغ أو المكان المحدد الذي أخذها منه؟»
«اسمي رولاند. ألا ترين إذن أنه من الإنصاف أن تُخبريني باسمك في المقابل؟»
«أصدقائي ينادونني بهيلدا.»

قال الشاب وهو ينظر إليها بإعجاب: «إذن، هيلدا، أرحّب بك بصفتك أحد نوابي.»
صاحت بسخط مُصطنع: «النائب الأول في واقع الأمر! سأكون نائبك الأول أو لا شيء.»

«حتى هذه اللحظة كان السيد جوزيف جريسيل، الذي لم يُعرفك بنفسه بطريقة رسمية، هو نائب الأول، ولكنني سأعزله من منصبه عن طيب خاطر، وأمنحك منصبه.»
نادت هيلدا على الرجل المتكئ على الشرفة. وسألته: «جوزيف، هل سمعت ذلك؟»
تجهم النائب المعزول ولكنه لم يردّ.

تحدّث رولاند إلى جريسيل قائلاً: «ضع حراسك في مواقعهم ثم اهبط إلى هنا.»
ظهر جريسيل في الفناء بعد وقت قليل، وتبعه أربعة رجال.
وقال: «لقد كلفت رجلين بأمر الحراسة.»
«فعلت الصواب. وماذا فعلت مع الخدم؟»

«أحكمت وثاقهم. لقد وجدت الكثير من الحبال في العلية.»
«لقد فعلت الصواب مرة أخرى. خذ رجالك الأربعة واحرسوا الباب. وأرسل لي إبراهيم.»

وقبل وصول إبراهيم، التفت رولاند إلى الفتاة.
وقال: «عودي إلى غرفتك، واطلبي من خادمتك أن تجمعاً أيًا ما ترغبين في أخذه معك.»

احتجّت هيلدا قائلة: «أفضل البقاء في مكاني؛ فأنا متلهفة لسماع خططك. أعترف أنني لا أعرف كيف بإمكانك الخروج من هذه القلعة بسلام.»
«آنسة هيلدا، إن أول واجبات النائب الأول هو الامتثال للأوامر.»
«وأنا أرفض ذلك، فماذا ستفعل؟»

«سأستدعي اثنين من رجالي، ليحملوك إلى غرفتك، وسأمُرهما بأن يحرسا على عدم مغادرتك لها ثانية.»

«وأبقى هنا بعد مغادرتك؟»

«أجل، بالتأكيد.»

«ولكنك ستأخذ الذهب.»

«بالتأكيد، فالذهب يُطيعني ويفعل ما أطلبه منه.»

ظلت الفتاة ثابتة في مكانها بضع لحظات، مُحَدِّقة في وجهه في تحدٍّ، وعلى الرغم من طيف الابتسامة الخفيفة المرتسمة على شفَتَيْهِ فقد أدركت على نحو فطن، ربما بحدسها الأنثوي، أنه يعني ما قاله. فأخفَضَت رأسها وبدأ الغيظ على ملامح وجهها الجميل، ثم تنهدت تنهيدة طويلة.

وقالت بهدوء شديد: «سأذهب إلى غرفتي.»

«سأزورك فوراً بعد أن أعطي بعض التعليمات لنائبي الثالث.»

أجابته بغطرسة، ولكن بنبرة هادئة مماثلة للنبرة التي خاطبها بها، فقالت: «لا تجهد نفسك. سأبقى سجيناً لدى الفالتسجراف فون شتاليك، الذي رغم أنه سارق مُحترِفٌ مثلك تماماً، فإنه يمتلك أخلاق رجل نبيل.»

وبقولها تلك الكلمات، انسحبت الفتاة ببطء وصعدت الدَّرج واختفت وتبعها خادمتاها.

وعندما حضر إبراهيم خاتبه رولاند قائلاً: «لقد اكتشف جريسيل شرفاً تطلُّ على الجهة الشمالية، يمكنك أن تهبط من خلالها بواسطة الجبال إلى الصخور بصحبة عددٍ من رجالك؛ فقد أخبرني أن هناك عليّةً مليئةً بالحبال. وهناك أسطول صغير من القوارب الصغيرة الراسية أسفل القلعة. لقد عاين الخزانة ووجدتها مليئةً بصرر العملات المعدنية. أنوي نقل تلك الصرر إلى أسطول القوارب. إننا لسنا بأمان هنا، فهناك على الأرجح مدخل سرِّي لهذه القلعة لا نعلم عنه شيئاً. هذا بالإضافة إلى وجود عدد من النسوة اللاتي لا يُمكننا استخدام القوة معهن ولا جعلهنَّ يتصوَّرنَ جوعاً. الحقيقة أنني أخشاهن أكثر من خشيتي الأشرار الذين في الخارج. هل اكتشف أيُّ من الرجال المسلحين أننا سحبنا السلم وأغلَقنا الباب؟»

«لا أظنُّ ذلك؛ لأنهم في هذه الحالة كانوا سيعودون من نهبهم بأقصى سرعة مثلاً فعل المارجريف الأحمر عندما رأى قلعته مُشتعلة. رأيي أنهم يؤدُّون مهمتهم في نهب السفينة على أكمل وجه.»

«إن كان الأمر كذلك فهذا يعني ضياع براميل الذهب الخاصة بنا، مما يزيد من ضرورة استيلائنا على كل كرويتسر يملُكُه صديقنا شتاليك. لهذا عليك استدعاء جميع

الرجال، وليبقَ واحد فقط لحراسة الباب. يمتلك جريسيل المفاتيح وسيقودك إلى مكان الخزانة. اجمع الصرر عند الشرفة الشمالية. وفي أثناء قيام رجالك بهذه المهمة، اصنع حبلًا متينًا حتى تتمكنوا من الهبوط جميعكم سريعًا إلى الصخور، بعد إنزال كل الصرر بلا شك. وبعد إتمام تلك المهمة فليبلغني جريسيل من الشرفة ولينزل مُصطحبًا معه مَنْ يتولى حراسة الباب. قسِّم الرجال والصرر على جميع القوارب باستثناء قارب واحد. سأتولى أنا مسئولية هذا القارب. اجعل جريسيل قائدًا لهذا الأسطول الصغير، واطلب منه الوصول بأسطوله إلى الشاطئ الشرقي، وليفعل ذلك بأكبر قدر ممكن من الهدوء، وليجدف بعدها في الماء الراكد حتى يبتعد عن فالتس مسافة ثلث فرسخ على الأقل. وهناك عليه انتظار قاربي الصغير. أما أنت فستنتظر بجوار قاربي حتى أنضم إليك. على الأرجح سيكون بصُحبتَي ثلاث نساء؛ لذا احتفظ بأكبر القوارب وأكثرها راحة.»

اندesh إبراهيمارد عند ذكر النساء، ولكنه لم يقل شيئًا.
ذهب رولاند بنفسه إلى الغرفة التي توجد بها السيدة الشابة، وطرق بابها، وحينئذٍ فُتح على الفور.

قال: «سيدتي هناك فرصة للهروب إن كنت تنوين الاستفادة منها.»
كانت الفتاة جالسة حين دخل غرفتها، ولكنها نهضت الآن وتحدثت بصوت مرتجف قليلًا.

«سيدي، لقد أخطأتُ بعصيانك بعدما عاملتني بلطفٍ شديد. ولهذا سأعاقب نفسي بالبقاء حيث أنا.»

«في هذه الحالة سيدتي فأنتِ تُعاقبينني أنا أيضًا؛ وفي واقع الأمر، أنا أستحق ذلك؛ فقد نسيت وقتها أنني أحدث سيدة. أرجو أن تمنحيني شرف مرافقتك، وسوف أوصلك بأمان إلى أيِّ مكان تودين الوصول إليه.»

«إنك شديد التهذيب يا سيدتي، ولكنني أخشى أن وجهتي التي أنشدها قد تأخذك إلى مكان بعيد، وربما لا يناسبك ذلك.»

«إنني أملك وقتي، ولا شيء سيُرضيني أكثر من ضمان سلامتك. أخبريني بوجهتك.»
«إنه دير نونينويرث، الواقع على جزيرة أكبر من هذه، بالقرب من رولاندسيك.»
«يسعدني أن أُقلَّك إلى هناك.»

«أشكر مرة أخرى. إنني أرغب في الانضمام للأخوات هناك.»
صاح رولاند مُتسائلًا بخيبة أمل: «أستصبحين راهبة؟»

«نعم، رغم أن وصيِّي يعارض قراري هذا.»
قال رولاند بتنهيدة: «للأسف أعترف أنني أوافقُه الرأي فيما يخص قرارك أن
تصبحي راهبة. ولكن يظلُّ السجن خيارًا شديد القسوة.»
فارتقت الفتاة جديتها، وابتسمت له.

«ولكنك اختبرت بعضًا من عنادي، واقتרכת عقابًا أشد قسوة من ذلك ...»
قاطعها رولاند قائلاً: «لقد نسيت أنني اعتذرتُ لك عن سلوكي غير المهذب. أتمنى
أن أنول الغفران الكامل في أثناء رحلتنا إلى نونينوِرت.»
«أوه، لقد سامحتُك بالفعل، وبصدرٍ رحب؛ فأنت تعلم أن الذنب كان ذنبي بالكامل.
سوف أنضمُّ إليكم في الفناء في الحال إن سمحت لي.»

«ممتاز. سأكون بالأسفل بعد أن أعطيت التعليمات النهائية لرجالي.»
وصل رولاند إلى الشرفة الشمالية، ورأى أن الأسطول قد غادر بالفعل. وكان بإمكانه
رؤية إبرهارد واقفًا مستندًا بيده على مقدمة القارب المتبقي؛ لذا سحب الحبل وفكَّه من
الحلقة التي علّق بها، وألقاه إلى نائبه.
وهمس قائلاً: «الحبل مفيد دائمًا، وسوف يحتر الفالتسجراف الطيب بشأن كيفية
خروجنا.»

في الفناء وجد ثلاث نساء في انتظاره. بهدوء سحب الأقفال الثقيلة، وفك السلاسل
القوية. وفتح الباب قليلًا، وأطل على مكان رسو السفينة، ورآه مُضيئًا بإضاءة ساطعة
بواسطة العديد من المشاعل التي حملها الخدم عاليًا.
كان الرجال المسلّحون مُستمعين للغاية، وأظهرت الكومة الكبيرة من البالات المتراسة
فوق الصخور، أنهم قرّروا عدم ترك ولو حزمة واحدة فوق السفينة. والحقيقة أن وقوفهم
في الضوء منعهم من رؤية خروج الأشخاص الأربعة من القلعة، حتى وإن كان أيُّ منهم
في مجال رؤيتهم.

فتح رولاند الباب على مصراعيه، ووضع السِّلْم بالضبط حيث كان في السابق، وساعد
النساء الثلاث على الهبوط، ثم قادهن حول الجانب الغربي للقلعة وسط الظلام وصولًا
إلى إبرهارد وقاربه. وضعوا المجاديف في الماء بحذر شديد، وظلّوا بعيدًا عن مجال ضوء
المشاعل.

وعندما غادروا ظلَّ القلعة، وأصبحوا في مجال رؤية المجموعة التي كانت تَسْرِق
السفينة، أصابهم الذهول بعض الشيء لسماعهم هتافًا مُدويًا.

السيدة النبيلة تشقُّ صفوف القراصنة وتفتن رئيسهم

قال إبرهارد: «أها، لقد اكتشفوا برميلى الذهب الخاصين بنا.»
أجابه رولاند: «هذا مُحتمَل جدًا.»

أضاف إبرهارد في مواصلة: «ولكن أعتقد رغم ذلك أننا أجرينا مقايضة جيدة. يبدو أن الأموال التي بداخل صُرر شتاليك تفوق أموالنا التي كانت داخل البرميلين الخاصين بنا.»

صاح رولاند وهو يُحدِّق أعلى النهر قائلاً: «بحق ملوك المجوس الثلاثة، إن السفينة تفلت من بين أيديهم. لقد نهبوها بالكامل وها هم يُقدِّمون لها تحية الوداع. من الواضح أن اللصوص لا يحملون أي ضغينة تجاه قبطاننا الشهير. أسمعهم يدعونه للزيارة مجددًا!!»

استمعوا إلى صليل السلسلة الكبيرة. لقد كان الأمر أسهل من ذلك الذي كان في فورستنبرج، مما أكَّد لروланд أن شتاليك هو مُبتكر هذه الحيلة. رأوا ستة رجال يسحبون حبلًا وغاص الجزء الأول من السلسلة تاركًا مجالًا للسفينة حتى تمر. ظهرت ظلال البحَّارة في ضوء المشاعل، والذين كانوا يُمسكون بمجاديفهم ويستعدون لغمرها في الماء بمجرد اجتياز السفينة للجزيرة الصخرية.

قال رولاند: «سنُجَدِّف بجانبهم قبل أن يبدءوا في التجديف»؛ وقد نودي على القبطان بلومنفيلس بصوت خفيض في النهر، مما أثار دهشته.

همس رولاند قائلاً: «اتجه نحو الضفة الشرقية، وراقب عددًا من القوارب الصغيرة الشبيهة بهذا القارب التي ستجدها أمامك.»

أبحرت السفينة بقوة أعلى النهر بالقرب من الشاطئ حتى التقت بالأسطول الصغير. حينئذٍ طلب رولاند من هيلدا البقاء في مكانها وجعل إبرهارد مسئولًا عن القارب، وقفز هو إلى السفينة، وطلب من جريسيل أن تصطفَّ القوارب بمحاذاة السفينة وأن يقذف بالكنز إلى ظهر السفينة.

«حسنًا، أخبرنا أيها القبطان، هل ترك لك سيد فالتس أي شيء على الإطلاق؟»

أجابه القبطان بقوله: «ولا حتى خرقه. السفينة فارغة تمامًا.»

«في هذه الحال، ليس أماننا سوى العودة سريعًا إلى فرانكفورت. أنا لستُ حزينًا على ضياع القماش، الذي دُفع ثمنه أضعافًا مضاعفة، لكنني أشعر بضغينة تجاه شتاليك لسرقته برميلى الذهب الخاصين بنا.»

أجاب القبطان بجدية: «أوه، بالحديث عن الذهب دُعني أخبرك أنني سمحت لنفسي بمخالفة خطتك في لورش.»

«أُئي خطة؟»

«لقد سكبتَ معاليك الذهب في برميلى النبيذ، لكنني سكبت النبيذ الأحمر الذي جلبناه من لورش في برميلى الذهب، وألقيت البرميلين الفارغين من السفينة. ربما تعلم أن الفالتسجراف يُنتج نبيذاً أبيض رائعاً في قلعة شتاليك، ويحتقر النبيذ الأحمر الذي تنتجه لورش وأسمانسهاوزن. لقد تذوّق النبيذ الذي لم يَسْتطِب مذاقه بعد أن سكبنا بداخله برميلى الذهب المتسخين، وبصقه وهو يُطلق اللعنات، وأخبرنا أنه يمكننا الاحتفاظُ به بكل سرور. ووعدني أيضاً أن يُرسل إليّ برميلاً من النبيذ الأبيض الجيد في فرانكفورت.»

«أيها القبطان، إنك أكثر الرجال ذكاءً رغم اتّسامك بالهدوء والتواضع.»

«في واقع الأمر، لم أفعل شيئاً سوى محاكاة براعة جانبك.»

«أياً كان الأمر، لقد أنقذت الذهب، وهذا الصنيع وحده سيَجْعَلُ رجلاً ثرياً، ولا بدّ

أن تقبل ثلث نصيبي من المال.»

بحلول هذا الوقت، كانت أكياس الأموال قد نُقلت إلى ظهر السفينة. وتبعها جريسيل الذي وقف مُستعدّاً لتلقي أوامر أخرى.

قال رولاند: «سننّجه جميعاً إلى فرانكفورت، محاولين البقاء قدر الإمكان بالقرب من هذا الجانب من النهر. وغير مسموح لأَيِّ رجل بالإبحار باتجاه الشاطئ حتى الوصول إلى العاصمة. هل نملك المؤن الكافية على متن السفينة لهذه الرحلة، أيها القبطان؟»

«أجل، جنابك.»

«ممتاز. فليُمسك جميع الرجال الموجودين بمجاديفهم، ودعونا نتجاوز فورستنبرج قبل الفجر. رجالي الذين لم تَسنح لهم الفرصة بإظهار براعتهم كمحاربين سيتولون مهمتهم في التجديف.» وتابع موجّها حديثه لجريسيل: «وأنت وإبرهارد استغلا الوقت في حصر الأموال وتقسيمها بالعدل. أما بالنسبة إلى البرميليّن، فسيُتلقى القبطان ثلث نصيبي، وسيكون له نصيبٌ في قسمة الذهب الذي حصلنا عليه الليلة. فببراعته أنقذ البرميلان. وأياً كان نصيبي حسب قسمتك، ضعه مع المال المخصّص للتاجر، السيد جوبل. والآن سأخذ أربعة أكياس وأربطها بحزامي للطوارئ.»

سأل جريسيل رولاند في قلق: «ألن تأتي معنا، يا رولاند؟»

«نعم. هناك أعمال طارئة تتطلّب وجودي بالجوار في بون، ولكنني سألتقي بكم في

قبو القيصر قبل انقضاء شهر.»

قال ذلك ثم صافح القبطان وجريسيل، وهبط إلى القارب الصغير وودّع إبرهارد.

كانت كلماته الأخيرة له: «حُثُّهم على الابتعاد عن أنظار فالتس وفورستنبرج قبل أن يُطلَّ الصباح، أما القوارب الصغيرة فأفلتتها وقدمها قربانَ سلام لنهر الراين.»

في الظلام سمح الأمير رولاند لقاربه الصغير بأن يطفو عبر النهر، واستخدم المجداف فقط لإبقائه جهة الشرق تجنباً لوجود أيِّ سلسلة. وجد نفسه مصحوباً بالقوارب الفارغة التي أفلتتها رجاله، وهو أسطول صامت كأنه طيف. بدا السرب الصغير كأنه ثابت في مكانه، أما قلعة فالتس المعتمدة بِقِمَم أبراجها المستدقة التي تخترق عَنان السماء فقد بدت كأنها سفينة ضخمة تبحر ببطء فوق نهر الراين. وعندما توارت القلعة عن الأنظار باتجاه الجنوب، بادر رولاند بالتحدُّث بصوت منخفض.

قال: «سيدتي، أخبري خادمتيك أن تُرتبِ الملابس الإضافية التي أحضرتها وتصنعا لك أريكةً يمكنك الاستلقاء والنوم عليها بقية الليل.»

ضحكت الفتاة وعلت ابتسامة رقيقة شففتها، وكان إيقاع ضحكاتها وسط المياه أشبه بالموسيقى لدرجة أن رولاند وجد نفسه مُتَحَسِّراً أن صوتاً لطيفاً كصوتها يجب أن يظل حبيساً بين جدران الدير التي لا تعرف قيمته، وأجابته قائلة: «أيها القبطان رولاند، أنا طوال حياتي لم أكن يقظة قطُ مثلما أنا الآن. لقد أصبحت الحياة بعض الشيء مُثيرة فجأة. أنا أشعر بلذة ذنب انتمائي إلى تشكيلٍ عصابي مُستتر. أتوسَّل إليك ألا تسلبني هذه المتعة وتطلب مني النوم.»

«في الصباح يا سيدتي لن تكون هناك فرصة للراحة. يجب أن نبتعد عن فالتسجراف شتاليك بأقصى ما يُمكننا. أتوقَّع منك قطع مسافة كبيرة وبسرعة على ظهر الخيول في الغد.»

«هل تنوي إذن التخلِّي عن هذا القارب؟»

«لا بد أن أفعل يا سيدتي. لقد كان النهر خاوياً فترةً طويلة لدرجة أن هذا الأسطول الصغير الذي لا يُمكنني تجاوزه، لكوني غير معتاد على التجديف، سيجذب الانتباه إلينا على ضفتي نهر الراين، وعندما يتبدَّد الظلام سيوقفنا أحدهم بالتأكيد. وسينكشف أمر القوارب وأنها ملك للفالتسجراف، وأنا أريد أن أقطع أيَّ صلة تربط بين مُستقبلي وما جرى في هذه الليلة.»

«فما الذي تقترحه إذن؟»

«بمجرَّد حلول الفجر سنصل إلى اليابسة، وسنُفِلت القارب مع البقية. هل بإمكانك

السير؟»

صاحت الفتاة بحماس: «أحبُّ المشي. لقد أشفقتُ على نفسي وأنا محاصرة داخل تلك الزنزانة الخالية من أي شرفة والمطلة على الصخور الحادة؛ أنا التي طفت التلال واستكشفت الوديان سيرًا على الأقدام وأنا أتنفّس نسمات الحرية ببهجة. ولهذا أتوسّل إليك أن تدعني مستيقظة لأذوق متعة مراقبة أفكارِي، أم إن ذلك يُعد عصيَانًا من جانب نائبك الأول؟ أنا لا أقصد ذلك وسأبكي في هدوء حتى أنام إذا أصررت.»

خاطبها رولاند وهو يضحك مُتخليًا عن الرسمية في حديثه قائلاً: «هيلدا أنا لست بمستبد كما تظنين. بالإضافة إلى ذلك، إن عملك في منصب النائب الأول لم يُعد ساريًا لأنّ رجالنا ذهبوا جميعًا جنوبًا بينما سافرنا نحن باتجاه الشمال.»

«إذن، هل يمكنني التحدّث معك؟»

«لا شيء سيُسعدني أكثر من ذلك. لقد اقترحت عليكِ النوم حرصًا على راحتك وليس لرغبتِي في ذلك.»

«أؤكد لك أنني نمتُ جيدًا في الجزء الأول من الليل؛ إذ لم يكن أمامي شيء آخر لأفعله، فأويتُ إلى الفراش مبكرًا، وغبت تمامًا عن الوعي حتى دق جرس الإنذار المُرّوع، الذي جعل القلعة بأكملها في حالة هياج.»

«لماذا سجنوك؟»

أجابته بتردّد: «لأنني ... لأنني اخترت حياة التدبُّن وهو ما عارضه وصيي. كان يظن أن معاشيتي لتجربة مشابهة لقسوة حياة الرهبنة قد تجعلني أقل تشبُّهًا بفكرة احتجاز نفسي داخل دير، والذي يوجد أيضًا مثل قلعة فالتس على جزيرة معزولة.»

«وهل أثبتت هذه الوسيلة فشلها؟»

«بالضبط. فالأخوات سيعاملونني جيدًا لأنني سأعقد ثروتي على ديرهن. وسيختلف ذلك كثيرًا عن السجن في فالتس.»

«هيلدا، أنا أشكُّ في ذلك. فالأسر يظل أسرًا أيًا كان مُسمّاه. أنا لا أفهم كيف يمكن لشخص مثلك يتحدّث للتو بهذا الحماس عن التلال والوديان والحرية، أن يتخذ خطوة لا رجعة فيها كالتي تقترحينها؛ خطوة من شأنها أن تسلبك كل هذه المسرات للأبد.»

ظلّت الفتاة صامته، وتابع هو حديثه بلهجة جادة:

«أرى أنك تُشبهينني في أحد الجوانب. إنك تحبين سماع حفيف الأشجار، وأنغام النهر المتدفق.»

همست كأنها تُخاطب نفسها: «نعم، أفعل.»

«الهواء الذي يهبُّ أعلى قمم الجبال يُلهمك، ولا يُمكنك النظر إلى التلال التي تلوح في الأفق دون تمنِّي استكشافها ومعرفة ما يخبئه الجانب الآخر.»
كان هناك ضوءٌ كافٍ سمح له برؤية الفتاة ورأسها تغوص بين يديها المبسوطتين.
«أنا أظن أنك لم تدريكي أبداً معنى أن تكوني محاصرة بقواعد الانضباط.»
رفعت رأسها سريعاً.

«هل تعتقد ذلك بسبب ما قلته في الفناء؟»
«لا، كان عقلي يُفكر في المستقبل وليس الماضي. ستثبت لك قسوة القواعد الصارمة أنها مزعجة بقدر انزعاج طائر الغابة الحر عند وضعه في قفص.»
قالت بتنهيده: «أخشى أنك على حق؛» ثم قالت بنفاد صبر: «أوه، إنك لا تفهم حقيقة الوضع، وأنا لا يمكنني الشرح! الدير ليس إلا ملاذاً بالنسبة إلي؛ فهو أقل الضررين بالنسبة إلي.»

«تحدّث عن أرضك. أين تقع أرضك؟»
سألته: «هل تعرف قلعة ساين؟»
كرّر قائلاً: «ساين؟ ساين؟ أين سمعت بهذا الاسم من قبل، ومن وقت قريب جداً؟ كنت أظن أنني أعرف كل قلعة على نهر الراين، لكنني لا أذكر قلعة ساين.»
ضحكت الفتاة.

«إن زرتها فلن تجد أبداً من زملاء مهنتك هناك أيها القرصان رولاند. إن القلعة لا تُطل على نهر الراين، وربما لهذا السبب، وليس لأمانة مالکها، فإنها بعيدة عن الوصمة التي أشرت إليها. إنها تبعد أكثر من نصف فرسخ عن هذا النهر وتقع أعلى وادي ساينباخ.»

«هكذا إذن، هذا يُفسّر جهلي بها. لم أر قلعة ساين من قبل، ولكنني سمعت عنها على ما يبدو. هل أنت مالكتها؟»
«أجل؛ لقد أخبرتك أنني ثرية.»
«أين تقع القلعة؟»

«جنوب كوبلنتز، على الجانب الشرقي من النهر.»
«إذن، لم لا تسمحين لي باصطحابك إلى هناك بدلاً من الدير؟»
«كنت سأفعل ذلك عن طيب خاطر إن كنت قد أحضرت معك السفينة المحملة برجالك المسلّحين، لكنني في قلعة ساين لا حيلة لي، وأدير حاشية من الخدم المسالمين الذين على الرغم من ولائهم لي، فهم عديمو النفع عندما يتعلّق الأمر بالدفاع عني.»

قال رولاند بنبرة تأملية: «لا يُمكنني تفسير الأمر، ولكن التفكير في أمر هذا الدير يزيد من استيائي أكثر فأكثر. لا شك أنك ستتحررين من سلطة وصيك، ولكنك هكذا تستبدلين بشخص تعرفينه شخصاً آخر لا تعرفينه، وهذا الآخر أحد بني جنسك.»

«هل تستهين إذن ببني جنسي؟»

«لا، لكنني لا أتخيل أن يكون هناك رجل يتعامل بفضاظة معك. من المؤكد أن أي رجل نبيل يحمل سيفاً إلى جانبه سيهبط في الحال للدفاع عنك.»

ضحكت الفتاة.

«أيها القبطان رولاند، إنك شاب صغير وأخشى أنك تنقصُ الخبرة رغم حماسك الثوري. ولكن هذه الليلة الصيفية الهادئة الجميلة بظلمتها الدافئة والبهية مناسبة للأفكار اللطيفة. كفى كلاماً عني. لتخبرني القليل عنك. هل أتيت بسفينتك مع اتجاه مجرى النهر أم عكسه؟»

«جننا مع التيار.»

«منذ متى وأنت تمتهن الإجرام؟ لا يبدو أنك مجرم متمرس.»

احتجَّ رولاند بجدية قائلاً: «صدقيني أنا لستُ كذلك، وأنا لا أعترف بأن مهنتي هي الإجرام.»

ضحكت الفتاة مرة أخرى وقالت: «أنا لستُ ساذجة بشدة كما تظن. أكاد أجزم بأنك وراء إشعال النار في قلعة فورستنبرج.»

تعجَّب رولاند في زعرٍ قائلاً: «ماذا! كيف علمت بدمارها؟»

صاحت الفتاة بابتهاج قائلة: «أرأيت؟ لا ينقصُك سوى الاعتراف. لقد انزعجت بشدة كما لو أنني قلت: «إنني أعتقلك باسم الإمبراطور.»»

سألها الشاب بجدية: «من أخبرك بأمر احتراق قلعة فورستنبرج؟»

«صباح أمس أتى قارب طويل ورفيع حاملاً ما لا يقل عن اثني عشر رجلاً يجدفون في النهر ويتحرك قاربهم عبر النهر بسرعة الريح. لم يتوقف القارب في فالتس، ولكن الرجل الواقف في مؤخرة القارب ألقى التحية على سيد القلعة، وقال له إن فورستنبرج حُرقت على يد الخارجين عن القانون من هونسروك. كان في طريقه إلى بون لإبلاغ رئيس أساقفة كولونيا، وحمل إليه أيضاً خبراً يخص فخامة الإمبراطور، نبأً عن وفاته.»

التقط رولاند أنفاسه في رعب، وتجاوز تصاعد أنفاسه قائلاً: «توفي! لقد توفي الإمبراطور! هل يُمكن أن يكون ذلك صحيحاً؟!»

قالت الفتاة بلا اكتراث: «لا يهمُّ إن كان هذا صحيحًا أم لا. فلا بد أنه مات وهو مخمور، وقد علمت أنهم سيختارون ابنه السكَّير مكانه.»

بعد أن أفاق رولاند من ذهوله بعد سماع كلماتها، خاطبها بخشونة قائلاً: «سيدتي، لا بدَّ أن أخبرك أن نجل الإمبراطور ليس سكَّيرًا، وفي واقع الأمر لا يكاد يمسُّ النبيذ على الإطلاق، لكونه أشدَّ المعارضين لإساءة استخدامه. كيف يُمكن لشخص منصف، وحسبما أعتقد، أمين، ترديد تلك الافتراءات التي لا أساس لها من الصحة؟»

«هل أنت أحد أنصاره؟»

«أنا من فرانكفورت، وقد رأيتُ الأمير، وتأكَّدي أنني أقول الحقيقة.»

أجابته الفتاة برفق: «حسنًا لن نتشاجر، نحن الاثنين، بسبب سموه. أوافق على تصحيحك لما قلته، ولن أقول شيئًا ضده مرةً أخرى. على أي حال لن يشكِّل ذلك فارقًا كبيرًا. لقد رحل إمبراطور ووقع الاختيار على آخر ليحل محله، وسيكون بلا حيلة كسلفه. فالأساقفة هم من يحكمون.»

«يبدو أنك على دراية جيدة بأمور السياسة يا سيدتي.»

مالت الفتاة باتجاهه.

«لا تُناديني بـ «سيدتي» يا رولاند أرجوك. أعتزُّ أن الشائعات دفعتني للتحامل على الشاب، ولكنني وعدتُ بالآأأحدث عنه باستهزاء مرةً أخرى. أتمنى أن يتبدد الحجاب الذي يفرضه هذا الظلام لأتمكَّن من رؤية وجهك ومُشاهدة ملامحك الغاضبة. لقد خاب أمني فيك يا رولاند، أتعلم ذلك؟ لقد تحدَّثت بلهجة رقيقة في الفناء لدرجة أنني ظننتُ أن الغضب لا يعرف لك طريقًا.»

قال رولاند بفضافة: «أنا لستُ غاضبًا؛ كلُّ ما هنالك أنني أكره الإشاعات الخبيثة.»

«وأنا أيضًا، أنا أيضًا كذلك! لقد تحدَّثت من دون تفكير. سأركع أمام الإمبراطور

الجديد وأطلب منه العفو، إن كان هذا ما تريد.»

ظلَّ رولاند صامتًا، وطفًا بهم القارب فترة عبر النهر، وغمست هي أصابعها في الماء مما أحدث تموجات صغيرة معاكسة، وكانت تنظر إليه بين الحين والآخر. كان الظلام يزول بنحو ملحوظ. وبدا بإمكان المرء شم نسمات الصباح في الهواء. ومن وقت لآخر كان هناك طائر يغرَّد في الغابة على نحوٍ حالم، وكأنه نصف مستيقظ. وكانت الفتاتان المستلقيتان في مقدمة القارب مستغرقتين في النوم.

التقط رولاند المجدف، وبضربة واحدة قوية كاسحة أدار مقدمة القارب باتجاه اليايسة. أصبح الآن بإمكانها رؤية ملامح وجهه المتجهّم، وسرّها ما رأيته، إلا أن ملاحظتها التالية لم تعكس ذلك.

أخرجت يدها من الماء، واعتدلت في جلستها بفخر قائلة:

«لن أعتذر لك مرة أخرى، وأنا أكره أميرك البريء.»

«أنا لم أطلب منك الاعتذار يا سيدتي، ولا شأن لي بحبك أو كرهك للأمير، ويمكنني القول بأن ذلك لا يهمه أيضًا.»

صاحت في سخط: «ألا يمكنك أن تسمح لامرأة بالفوز عليك في الحديث ولو مرة؟» انبسطت ملامح رولاند، وعادت ابتسامته إلى شفثيه بينما ظلّ صامتًا، وبهذا منحها الامتياز الذي بدت تتوق لنيله. استلقت هيلدا في مقدمة القارب بين خادمتيها النائمتين، ويدها متشابكتان خلف رأسها وعيناها مغمضتان. ازداد الضوء شيئًا فشيئًا، ودفع رولاند القارب بمجدافه بقوة نحو الشاطئ، ووصل به بمحاذاة الضفة الضحلة أخيرًا. قفز على الأرض التي يغطيها العشب، ممسكًا المجدف بيد والقارب باليد الأخرى ليرسو بمن معه.

قال: «إننا الآن على بُعد مسافة قصيرة شمال سانت جوارسهاوزن، حيث أمل أن أشتري خيولًا. هل تتفضّلين بالنزول؟»

قالت الفتاة بهدوء دون أن تتحرّك أو تفتح عينيها:

«أرجوك ألقِ المجدف إلى القارب مرةً أخرى. سوف أجدّف بهذا القارب إلى نونينويرث، فهو أكثر راحة من امتطاء حصان.»

سقط المجدف في أرضية القارب الصغير مُحدثًا صوتًا عاليًا. انحنى رولاند، وقبل أن تعرف هيلدا ما ينوي فعله، حملها بين ذراعيه، ورفعها إلى الشاطئ، ووضعها بعناية على العشب.

وصاح في الخادمتين اللتين استيقظتا لتوهما: «هيا، اخرجنا من هذا القارب دون مزيد من التأخير»، وقد أطاعته بسرعة.

صعد إلى القارب، وألقى مُتعلقاتهن على المرج، وأدار المقدمة باتجاه الغرب، وقفز إلى الشاطئ، وركل القارب ليدفعه كالسهم بعيدًا في النهر.

كانت هيلدا الآن تقف على قدميها، وهي تشعر بسخط ولكن من دون أن تتحدّث. هتف رولاند بابتهاج: «هيا بنا فالإفطار يُنادينا»؛ ولكنه عندما رآها ثابتة في مكانها تجهم مرة أخرى.

وخاطبها قائلاً: «سيدتي، في الحقيقة يزعجني أن فظاظتي تصيبك بالإحباط. ولكن للوقت أهمية قصوى حتى نبتعد عن فالتس قدر الإمكان. إن كنتِ تظنّين أن امتلاكك ثروةً وقلعةً يمنحك حق الاستهزاء برجل بسيطٍ وعادي، فإن نظرتك للأمور قاصرة. أنا لا أبه بقلعتك أو ثروتك. ربما تكونين سيدة نبيلة، وهو شيء لا أعلم إن كان صحيحاً أم لا، ولكن حتى هذا لا يُثير إعجابي. يجب ألا نقفَ هنا مثل طفلين مشاكسين. سأتولّى توصيلكِ إلى حانة الدُر في سانت جوارسهاوزن، والتي أعلم من خبرتي أنك ستلتقين فيها رعايةً كبيرة. سأشتري بعد ذلك أربعة خيول، وسأعود إلى الحانة بعد تناولك الإفطار. سأضع ثلاثة من هذه الخيول تحت تصرفك، وسأكون أنا والحصان الرابع تحت تصرّفك أيضاً، إن كنت ستتنازلين وتنتفعين بنا. وإن لم تفعلي، فسأطلب منك قبولَ ما تحتاجينه من أموال لرحلتك، حتى تتمكني من السفر شمالاً من دون مُضايقات، بينما أسير في طريقي في الاتجاه الآخر.»

سألت: «كيف يمكنني أن أعيد لك المال إذا كنت لا أعرف من أنت وماذا تعمل؟»
«سأرسل في طلبها، سواء إلى قلعتكِ في ساين أو دير نونينويرث. لست بحاجة لأن تكوني مدينة لي.»

صاحت الفتاة وهي تنتحب: «لكنني بالفعل مدينة لك؛ بدين لا يمكنني سداذه.»
«هذا صحيح، لكنكِ يُمكنك سداذه.»
«كيف؟»

«بالمجيء معي، وسأقنعك بسهولة كما فعلتِ أنتِ مع وصيك الذي فرض عليك الأثر.»

تمتّمت قائلة: «أنا مُغفلةٌ جاحدة. بالطبع طريقك هو الطريق الصحيح، وسأكون لا حول لي ولا قوة تماماً من دونك.»

صاح رولاند بحماس: «أرأيتِ لقد سدّدتِ أكثر مما قد تدينين به.»
بعد تناول الإفطار في سانت جوارسهاوزن وشراء الخيول، ساروا على طول الطريق الوعر الممتد على طول الضفة اليمنى لنهر الراين. كان رولاند وهيلدا يمتطيان حصانيهما ويسيران جنباً إلى جنب، أما الخادمتان فكانتا خلفهما على بُعد مسافة منهما. ظلّ الشاب متجهماً في صمت، والفتاة التي أساءت فهم أفكاره ظلت صامته هي الأخرى، بعينين حزينتين، ولم تلحظ أيّاً من المناظر الجميلة التي مرّوا بها. وكان رولاند يُلقي بطرف عينه نظرة إليها بين الحين والآخر، ويّزيد حزنه وهو يتذكّر العهد الذي قطعه، من دون ترو، لرهوس الأساقفة الثلاثة فيما يخص زواجه.

خرجت عن صمتها أخيراً وقالت: «لقد أدركت أنني أسأت إليك أكثر مما أتخيل». طمأنها قائلاً: «لا، لا. هناك فقط فكرة ثقيلة تراودني ولا أستطيع إزاحتها من فكري.»

«هل لي أن أعرف ما هي؟»
«أنا لا أجرؤ على إخبارك، يا هيلدا. لقد كنتُ أحمق. إنني واقع بين اختيارين؛ أن أضطرَّ إلى عدم الوفاء بوعدي والعيش بعارٍ ما فعلته، أو أن أحفظ وعدي وأعيش حزيناً للأبد. ماذا كنت ستفعلين إن كنتِ مكاني؟»
فأجابته على الفور: «لا بد أن أفي بالوعد الذي قطعته، إلا إذا كان من قطعته لهم سيغفون عني.»

هزَّ رولاند رأسه نائفاً.
وقال بكآبة: «لن يغفوا عني.»
سارا من جديد في صمت، راضيين بقرب أحدهما من الآخر، على الرغم من تقلُّب حال الشاب بين الابتهاج واليأس. لقد كان في مجمله يوماً صيفياً طويلاً مليئاً بالتعاسة العذبة لكلِّ منهما.

كان أحد الأسباب وراء اختيار رولاند للضفة الشرقية لنهر الراين هو تجنب مدينة كوبلنتز الرئيسية، والاستجواب الحتمي الذي سيتعرضون له، ومروا بهذه المدينة في وقتٍ متأخر من العصر دون عائق وكانت على الضفة المقابلة.

قالت: «سترتاح هذه الليلة في قلعتي في ساين، ثم نظراً لضيق الوقت، يجب أن تعود غداً. إننا لم نواجه أيَّ مضايقة حتى في هذا الطريق الوعر، وأنا سأشق طريقَي وحدي دون خوف إلى نونينويرث؛ لأنني أعلم أنك تتوق للرجوع إلى فرانكفورت مرة أخرى.»
«أقسم لك يا هيلدا أنه لولا حرصي على الوفاء بالوعد الذي قطعته ما كنت سأعود إلى فرانكفورت أبداً، وكنت سأصبح أسعد إنسان.»

«هل الوعد الذي قطعته متعلق بفرانكفورت؟»
قال باقتضاب: «الوعد الذي قطعته يخص امرأة.»
قالت مُتَنَهِّدة: «أها، إذن عليك الوفاء بوعدك»، وهكذا عادا إلى الصمت والتعاسة من جديد.

لقد تحدّثت عن مدى أمان الطريق الذي قطعوه، ولكن بعد انعطافهما شمال فالاندار اكتشفا سريعا أن طريق الراين ليس آمناً أبداً.

كلاهما كبج جماح حصانه وكأن نفس الدافع يحركهما، ولكن تراجعهما الآن كان سيعني ببساطة تعرُّضهما للمطاردة. شاهدا رجلاً نبيلًا، مُمتطيًا حصانه الأبيض الجميل الذي فوقه سرج لامع بالزخارف الفضية والذهبية، ومرتديًا ملابس مثل تلك التي يرتديها الجنرال في أوقات السُّلم.

تبَّعه موكب حراسة مُكوَّن من أربعين فارسًا، جميعهم يرتدون زيًّا حربيًّا كاملاً، وخلفهم حشد مُمتد كالثعبان العملاق بطول طريق الراين من الرجال الذين يسرون على الأقدام، وهو جيش قوامه ثلاثة آلاف رجلٍ على الأقل، وكانت أطراف رماحهم تومض وكأنها شعلة نار عندما تسقط عليها أشعة شمس المغيب. وبين الحين والآخر على طول هذه المسيرة كانت ترفرف أعلام حريرية، وتعرَّف رولاند على الشعار الذي كان في المقدمة. وهتف في زعر قائلاً: «يا إلهي! رئيس أساقفة كولونيا!»

أطلقت الفتاة صيحة دُعر صغيرة، وحادت بحصانها واقتربت أكثر من مرافقها. وتصاعدت أنفاسها قائلة: «وصيي! وصيي! سيأسرونني من جديد.» رآهم اثنان من الفرسان وهما متصلبان في مكانهما كالجلمود، فانفصلا عن بقية الفرسان وركضا نحوهما.

هتف قائدهما قائلاً: «أفسح الطريق أيها الأحمقان! ابتعدا إلى جانب الطريق أو إلى النهر بعيداً عن طريق قداسة رئيس الأساقفة.» رغم ذلك ظلَّ رولاند ثابتاً في مكانه، وتجراً حتى على إظهار امتعاضه أمام الضابطین. وأمرهما بلهجة متعالية: «تنحيا» «أنتما» جانباً، ولا تتجرأ على اعتراض الطريق بيني وبين رئيس الأساقفة.»

كان الفارس يعلم أنه لا يوجد عاقل يجرؤ على استخدام مثل هذه اللهجة في وجود رئيس الأساقفة، إلا إن كان أعلى أهل الأرض سلطة. نظر رئيس الأساقفة المبجل ليرى سبب هذا التوقف، وهذه الكلمات الغاضبة.

اندھش فخامته في بداية الأمر، وبعدها علت الابتسامة شفتيه المتجهمتين عندما نظر إلى رولاند وعرفه. تراجع الفارسان المتهوران. ولم يُبادل رولاند الابتسامة. ومد يده وأمسك بيد الفتاة.

وهمس قائلاً: «الآن، بحق ملوك المجوس الثلاثة، أنا لن أفي بالوعد الذي قطعته.» نظرت إليه هيلدا وهي مذعورة من اندفاعه ومتألمة من قبضته القوية.

علا صوتٌ مُفاجئٌ، وقطَعَ هذا التوتر. توقَّف رئيس الأساقفة عن الحركة، وسمعوا صوتًا يقول: «قف! قف! قف!» على طول مسيرة الرجال، الذين توقَّفت أقدامهم عن إثارة غبار الطريق. كان الصوت المفاجئ هو صوت الضحكة العالية للنبيل المبجل أمير الكنيسة.

وصاح قائلًا: «سامحني يا صاحب السمو، لكنني أضحك عندما أفكّر في ملامح الحزن على وجهي أخويّ، رئيسي أساقفة تريفييس وماينتس، عندما يعلمان مدى حرصك على حفظ كلمتك معهما. أقسم لك بالصليب، أيها الأمير رولاند، أننا رغم رغبتنا في زواجك منها، لم يخطر ببالنا أنك قد تَقْتَحِم قلعة فالتس لتفوز بها. أوه، يا عزيزي، يا للأسف، إن الأمر يتقدَّم بنا! يبدو أن اندفاع الشباب يتفوّق على حكمة أعظم ثلاثة رؤساء أساقفة خارج روما. وبالنظر إلى وجهك المشرق (والذي لطالما رأيت أنه جميل) إنك يا هيلديجوندي لوريتا بريسيلّا أجنيّس، يا كونتيسة فون ساين، لا تتجهين شمالًا إلى نونينويرث. لطالما أصررت أن سالهوف في فرانكفورت صرّح أكثر بهجة من أي دير للراهبات على طول نهر الراين، ولكنك لم ترمقيني أبدًا بنظرة الثقة هذه التي أراك تنظرين بها إلى إمبراطورك المستقبلي.»

صاحت الفتاة قائلة: «لقد تمنّيت، يا سيدي ووصيي، أن أقابلك في الوقت المناسب لتحويل مسارك إلى قلعتي في ساين.»

«أيّتها الكونتيسة العزيزة، أشكرك على دعوتك. يُمكن لرجالي الذهاب إلى معسكرهم في قلعة مارتينسبورج، لدى أخي في ماينتس، وأنا سأعود معك إلى قلعة ساين بكل سرور.» وأضاف رئيس الأساقفة خافضًا صوته: «في واقع الأمر، سأشعر بأمان أكبر هناك أكثر من استمتاعي بدعوة الاستضافة التي كنت أنوي قبولها.»

سألت السيدة ضاحكة، وهي تعدّل مسار الحوار والأسلوب بما يلائم الموقف الجديد الذي أدركته أسرع من مُرافقها، الذي أخذ ينقل نظره بين الكونتيسة ورئيس الأساقفة: «ألم يُفاجئك لقائي؟»

لوح رئيس الأساقفة بيديه نافيًا.

«لا يُفاجئني أيُّ مما قد تفعّله، منذ لقائك مع رؤساء الأساقفة. أنا في طريقي إلى فرانكفورت.» وبعدها قال مخاطبًا رولاند بجدية أكبر: «هل علمت بوفاة والدك؟»

«لم أعلم بالأمر إلا صباح هذا اليوم، أيها الأمير. وسأعود إلى فرانكفورت بعدما أتأكّد من أن هذه السيدة النبيلة في مكان آمن.»

السيدة النبيلة تشقُّ صفوف القراصنة وتفتن رئيسهم

«أها، أيتها الكونتيسة لن ينقصك الأمان بعد الآن! ولكن أُن تريح بال شيخ كبير
وتعترفي بأنني كنت على حق؟»
نظرت الكونتيسة إلى رولاند بابتسامة.
وقالت: «أجل يا وصيي العزيز. لقد كنت مُحقًا.»

الفصل السابع عشر

«للإمبراطورة، لا للإمبراطورية»

استدار رئيس الأساقفة بحصانه متَّجهاً شمالاً حتى تجاوز قوَّاته، التي اصطَفَّت في صف طويل لتحيته، وتبعته الكونتيسة وروланд. ورافقه حتى نهاية الصفوف قائد قواته، الذي تلقَّى منه التعليمات النهائية بشأن المسيرة.

«لن تُخيم الليلة في قلعة مارتينسبورج كما كنتُ أنوي؛ بل على بُعد فرسخ أو اثنين أعلى رافد لان. وفي الغد صباحاً واصل مسيرتك على طول رافد لان وصولاً إلى ليمبورج، وهناك انتظر وصولي. سنَدْخل فرانكفورت من البوابة الشمالية بدلاً من البوابة الغربية.» ظلَّ رئيس الأساقفة ساكناً فوق حصانه بضع دقائق، يُراقب القوات المغادرة، ثم دعا رولاند ليقف عن يمينه وهيلديجوندي عن يساره، وبعدها انطلق ثلاثتهم في رحلتهم القصيرة إلى ساين.

بدأ رئيس الأساقفة بالحديث مُخاطباً رولاند قائلاً: «جلالتك، إنني أشعر ببعض الحيرة. أعتقد أنكما تدينان لي ببعض التفسيرات. إنني أمتطي حصاني وأسير بين اثنين من السُجناء الهاربين، وها أنا ذا أرتحل بعيداً عن سجنَيْهما الحصينَيْن، لا إليهما. كان من الواجب عليّ فور مُقابلتك وضعك تحت حراسة كافية، واقتياد كلِّ منكما إلى وجهته منفرداً، أحكما إلى فالْتس والآخر إلى إيرنفيلس. وبعد إتمامي لهذه المهمة كان يجدر بي إطلاع زميليّ على الواقعة، ولكن ها أنا ذا أرتكب جُرمًا وأُعاون سجينين على الهروب.»

تحدَّث رولاند قائلاً: «أيها الأمير، إنني مُقتنع تماماً أن احتجازي لم يكن قانونياً؛ ولهذا فإنني لا أعتذر عن إبطاله. ولكن قبل الشروع في إبداء أي تفسيرات، أريد استيضاح السبب وراء احتجاز سيدة ساين. هل أنا مُحقٌّ في تخميني بأن وضعها مماثل لوضعي وأن رؤساء الأساقفة الثلاثة هم مَنْ أمروا بوضعها رهن الاحتجاز؟»

«أجل، يا صاحب السمو.»

«وبأيّ تهمة؟»

«الخيانة العظمى.»

«ضد من؟»

لم يردّ رئيس الأساقفة، وسادت لحظة من الصمت.

استأنف الأمير حديثه قائلاً: «لم يكن هناك داعٍ لطرح سؤال كهذا؛ فمعلوم أن الخيانة

العظمى تهمة تتعلّق بحاكم البلاد فقط. فكيف تعدّت سعادتها على سلطة الإمبراطور؟»

«لقد نسيت جلالك بأن هناك أيضًا ما يُسمّى بالخيانة العظمى ضد الدولة.»

«أولاً يحظى النبلاء بامتياز فيما يخص هذا الأمر؟»

«لا يُمكنهم ذلك؛ فالدولة تعلو على أيّ فرد.»

«سأحرص على تذكّر ذلك يا أمير كولونيا. أعتقد أنك على حق، وآمل أن يتحقق ذلك.»

وأضاف وهو يضحك قليلاً: «في أثناء حبسي الانفرادي، درست حال الدولة، وتوصّلت إلى

استنتاج مفاده أن أكبر الخونة في بلادنا هم رؤساء الأساقفة الثلاثة؛ فهم يدعّون لأنفسهم

سلطة لا تنبغي إلا لإمبراطور البلاد، ولا يستخدمون هذه السلطة لقمع دعاة الخيانة

الآخرين؛ بارونات نهر الراين.»

«ماذا تريد أن نفعل بهم؟»

«يجب أن ننزعوا أسلحتهم. ويجب أن تُطالبوهم برد ثرواتهم المكتسبة بطرق غير

مشروعة. ويجب أن تفتحوا نهر الراين أمام التجارة الشريفة.»

«هذه كلمات يسهل قولها ويصعب تنفيذها. فإذا نزعنا السلاح من القلاع، لا سيما

قلاع الضفة اليسرى، فسيقع ظلم كبير ربما يؤدي إلى فناء العديد من العائلات النبيلة.

وهذا لأن غابات أمانيا تعجّ بالمتهورين الخارجين عن القانون، ممن لا يحفظون حرمة

الحياة ولا الممتلكات. حتى أنا لم أسلم من نهبهم لي مؤخراً. ففي وضح النهار هجمت

فرقة من هؤلاء الأشرار على قلعة راينستاين التي يُفترض أنها حصينة، ولم يكن هناك

سبيل لمقاومتهم، وأساءوا معاملة البارون هوجو فون هوهينفيلس على نحوٍ مخزٍ، وقيدّوه

بلا حراك وكادوا يخنقونه بالحبال القوية، وبعدها سلبه الأوغاد كلّ ما يمتلكه من أموال.

وفي منتصف الليلة البعد التالية هبطوا إلى فورستنبرج وهي إحدى إقطاعياتي، ولم يكتفوا

بالسرقة بل تسبّبوا بجحيم مُستعرٍ للمارجريف؛ فقد أحرقوا ودمروا قلعته بالكامل.»

«سيدي إن الجحيم المستعر والمارجريف الأحمر يُناسب كلُّ منهما الآخر. إنها العدالة الإلهية هي مَنْ جمعت الاثنين معاً». رفع الشاب سيفه عاليًا وهو يهزُّ قبضته مُلوِّحًا باتجاه السماء. وأضاف: «هذه اليد هي التي حملت المشعل الذي أحرق فورستنبرج. إن المسؤولين عن الاستيلاء على القلعة وإحراقها ليسوا إلا ثلاثة من صانعي السيوف من فرانكفورت ممَّن لم يشهدوا قط هونسروك ولا مجرميها.»

كبح رئيس الأساقفة جماح حصانه، ورمق الشاب المتحمَّس في دهشة.

«هل «أنت» مَنْ أحرق فورستنبرج؟»

«أجل؛ بكل تأكيد يا سيدي. ولكنِّي سأعيد بناءها من أجلك، أما المارجريف الأحمر فسوف أشنِّقه، كما فعل سلفي رودولف في سلفه.»

بدت تعابير وجه رئيس الأساقفة توحى بالحدة والصرامة.

«سيدي، يُؤسفني أن أسمعك تتحدَّث هكذا، وتعتدِّ سلامتك على حقيقة عدم تصديقي لأيِّ كلمة مما تقول. ورغم ذلك فإن كلماتك الجامحة تلك تثير استيائي. وأرجو منك أن تتذكَّر أن اختيار الإمبراطور لم يتمَّ بعد، وأنني على الأرجح سأعيد النظر في قراري. ومع ذلك فإنني، كما قلت، لا أصدِّق كلمة واحدة من قصتك السخيفة.»

صاحت الكونتيسة بحماس: «أنا على يقين من صدقِ كلِّ حرف فيها، ويا له من فخر وجود مثل هذا العقلِ الجسور واليدِ المُدعِّنة له، اللذين استطاعا التخلُّص من قاتلٍ ولصٍّ في آن واحد!»

تلاشى التوتر الذي أحدثته هذا الكشف المذهل بضحكة أطلقها رئيس الأساقفة. «عزيزتي هيلديجوندي، إنك تَغفلين عن حقيقة أسلافك. ويسعني القول بأنه لا توجد امرأة من نسل عائلة ساين يُمكنُها التفوه بمثل هذا القول في حين أن الإمبراطور رودولف ساق كونت فون ساين إلى المشنقة. فهل سيكون لك قولٌ آخر إذا طُلب منك إعادة الملايين التي جمعها هنري الثالث وخلفاؤه من نسل ساين؛ فكل هذه الأموال المتراكمة أتت عن طريق عمليات السلب الوحشية التي لا تَحْتَلِف في شيء عن نهج المارجريف الأحمر؟»

ردت الكونتيسة بكبرياء: «سيدي، لم تكن بحاجة لطرح هذا السؤال؛ فأنت تعرف إجابته مسبقًا. سأُسَلِّم كل تالر تحت تصرفي إلى الأمير رولاند ليستفيد منه في نهضة هذه البلاد.»

ضحك رئيس الأساقفة من جديد.

«أنا أعلم ذلك بالتأكيد يا عزيزتي، ولم يجدُر بي التفوه بما قلته. وأظن أنك لن تسمح لي بالتصويت ضد جلالته في الانتخابات القادمة.»
«بالطبع يجب أن تمنحه صوتك بكل حماس؛ فأنت تعلم من صميم قلبك أنه الرجل الذي تحتاجه ألمانيا.»

صاح رئيس الأساقفة قائلاً: «يا لهذا التغيير الهائل! عجباً يا عزيزتي، ما بال التُّهم التي أصررت على توجيهها إلى جلالته، والتي تفوق التهم التي اعترف بها بنفسه؛ كيف أصبح الآن منقذاً لألمانيا بينما كان في السابق...؟ آه، حسناً، يجب ألا ألعب دور مروج الإشاعات.»

صاحت الفتاة قائلة: «أيها الأمير رولاند، لقد قال قريبي، الأب أمبروز، إنه قابلتك في فرانكفورت، ولكنني الآن أظنه كان مخطئاً.»
«أوه، لا؛ لقد قابلت الأب الصالح على الجسر.»

صاح رئيس الأساقفة: «أرأيت؟ فما قولك في هذا، يا سيدتي؟»
ارتبكت لسماعها هذا الاعتراف، ولكنها ردت على سيادته بسرعة بقولها:
«إنك أنت من قلت باستحالة وقوع ذلك؛ لأنه كان رهن السجن المشدّد في إيرنفيلس.»
وتابعت حديثها مخاطبة الأمير: «أكّد الأب أمبروز أنك كنت رفيقاً لسُكاري ومشاعبين في قبو نبيذ حقير في فرانكفورت.»

«هذا صحيح تماماً؛ كنتُ بصحبة عشرين منهم.»
زادت حيرة الفتاة أكثر فأكثر.
«هل سجنَت الأب أمبروز؟»

«أجل في أحقر قبو للنبيذ، ولكن ليوم أو اثنين فحسب. آسفٌ جدّاً يا سيدتي، ولكن كان ذلك لا مفرّ منه لضرورة الحرب. لقد كان يتدخّل في أمور لا يعلم عنها شيئاً ولم يكن هناك وقتٌ للشرح. إنه رجل مسالم وحتى إن شرحت له أسبابي، ما كان ليُوافقني على ما نويت فعله.»

تابعت الفتاة قائلة: «لقد قال إنه رآك تسرق صرةً من الذهب من أحد التجار.»
صاح الأمير قائلاً: «هذا ليس صحيحاً!»
«عزيزتي هيلديجوندي، ماذا تعني سرقة صرة ذهب من أحد التجار بينما اعترف بسرقة الذهب من القلعة بأكملها؟»

احتجّ الأمير قائلاً: «أنا لم أسرق أي تاجر. كيف للأب أمبروز أن يدّعي هذا القول؟»

«لقد صعد درجًا خارجيًا في فارجاسه، وعبر النوافذ المضيئة على الجانب المقابل استطاع رؤيتك وأنت توجّه طرف سيفك إلى عنق التاجر الأعزل وأخذت منه صرة من الذهب.»

أراح رولاند رأسه للخلف وضحك بفرح بعد أن كان عابسًا وتبدو عليه ملامح الغضب.

وقال: «حسنًا، هذه لم تكن سوى مزحة.»

والآن، تبدّلت ملامح الفتاة ليرتسم عليها العبوس.

«لقد أُعجبتُ بك عندما انتزعت الكنز المسروق من براثن البارونات السارقين والمارجريف الذين كانوا تحت حماية عشرات من الرجال المسلحين، بهدف كسر شوكتهم وغوث التجارة، ولكنّ قولك بأن سلبَ تاجرٍ لا حيلةَ له مجردَ مزحة...»

حرص الأمير على تصحيح الأمر لها، ولم يكن واعيًا بأثر عبارته الرقيقة التي تسبّبت في تورّد خدّي مُستمعته خجلًا، فقال لها: «لا، لا، يا عزيزتي إنك لا تفهمين الأمر. كان، ولا يزال، التاجر شريكِي؛ فالسيد جوبل رجل نزيه، كاد أن يتعرّض للشنق نيابةً عني حين أسرني رؤساء الأساقفة الثلاثة هؤلاء. وقد طلبت منه ألف تالر فأصرّ على معرفة خططي الخاصة بفتح نهر الراين، وأصرّ على عدم إعطائي الأموال حتى اضطررتُ مُكرهًا إلى الاعتراف إليه بأنني نجل الإمبراطور. ولكنه لم يستطع تصديق الأمر واشترط إحضاري وثيقة مرور موقّعة من جانب الإمبراطور وموثّقة بختم الإمبراطورية العظيم. وقد حصلتُ على هذه الوثيقة بمخاطرة كبيرة بنفسِي وبمساعدة والدتي. وها هي ذي.»

ووضع يده داخل صدريته وأخرج الوثيقة المقصودة وسلّمها للسيدة التي مع ذلك لم تفتحها ولكنها ظلّت تحدّق فيه.

«أزعجتني عدم ثقته بي؛ ما كان ينبغي أن أفعل ذلك؛ فقد كان يتصرّف وفقًا للطبيعة الحذرة التي يتّسم بها التجار. وأنا نادم الآن على تصرّفي الصبياني الذي دفعني لتوجيه سيفي نحو عنقه ومطالبة بالمال الذي حصلت عليه. إلا أنني لم أأخذ سوى نصف الأموال فقط لأنّ والدتي أعطتني الخمسمائة تالر الأخرى. أوه، لا؛ أنا بالطبع لم أسرق صديقي جوبل؛ كلُّ ما في الأمر أنني حاولت تلقينه درسًا مفادُه أن غياب الثقة أمرٌ خطير.»

إن كان بإمكان الرجل العجوز أن يتّهامس مع الشابة بشأن ما سمعاهما الاثنان، لعلم أنهما يتشاركان الاعتقاد نفسه، وهو أن الأمير الشاب يتحدث بصراحة بالغة، وأن ما

قاله لم يكن مَوْضِعًا للشك ولو لحظة. صحيح أن الرجل العجوز شعر بأن حديث الشاب جاء غير مبالٍ بالعواقب، ولكن هذا من ناحية أخرى كان في حد ذاته ميزة؛ لأنه تذكّر بأن الأمير كان حذرًا بالقدر الكافي عندما استجوبه رؤساء الأساقفة الثلاثة.

قال رئيس أساقفة كولونيا بابتسامة: «لطالما قرأت قصصًا مثيرة للشفقة حول السجناء الذين يعيشون في عزلة شديدة وينحتون أسماءهم مرارًا وتكرارًا فوق جدران السجن القاسية كقلوب سجنائهم، ولكن يبدو لي أن جلالتك استمتعتَ بوقتكَ خلال فترة اعتقالك القاسية. هل لي أن أطلب من جلالتك المزيد من التوضيح بشأن الشاب السكير الذي يَستمتع الآن استمتاعًا جمًّا في ضيافة قلعة إيرنفيلس؟»
وها قد حان الآن دور رئيس الأساقفة لإبهار الأمير.

«إذن فقد كشفتَ حيلتي، أليس كذلك؟»

«الكشف» كلمة غير ملائمة. ولكن «الاشتباه» هو الكلمة الأقرب للحقيقة. لقد تغلبت على سجنائك ووضعت شخصًا آخر سجينًا مكانك.»

«أجل؛ إنه شابٌ أدين له ببعض الفضل، وبيننا حساب لا بد من تسويته. إنه ابن الحارس الذي يظنُّ أننا، نحن الاثنين، بين برائته؛ يُفِرط هاينريش في تناول الخمر كما لو كان مدمنًا للخمر أو بارونًا، ولكنني سأخلصه من تلك العادة قبل أن تصبح عادة راسخة.»

«هل أنا مُحقٌّ في زعمي بأنك لم تحصل على حريتك إلا بعد مقابلتك للأمرء الناهخين الثلاثة؟»

«أوه، باركك الرب، كلاً! ولكنني استعدت حريتي قبل ذلك بشهور. وفي الحقيقة أن بديلي أصبح بالفعل عديم النفع منذ ذلك الحين. ربما يكون هاينريش حلَّ محلي وقت الضرورة، ولكن هذا لأنك لم تَرَنِي أنت ولا زملاؤك. لقد خبَّأته في مكان أمين منذ ذلك الحين لأنني لا يمكنني السماح له بالخروج حتى تنتهي إجراءات انتخاب الإمبراطور.»

«فهمت. احتياطات في غاية الحكمة. حسنًا جلالتك، لن أتفوّه بشيء مما أخبرني به، بل إنني أعدك بأن صوتي ما زال لك إن أطعت أوامرني لحين تنصيبك إمبراطورًا. أرى أن الأمور لن تمرَّ بسلام معك كما كنا نتوقَّع، ولكن هذا الأمر يتعلق برئيسي أساقفة ماينتس وتريفيس أكثر من تعلُّقه بي؛ فأنا لا أطمح في الحكم بالوكالة. والآن، يا سيدة ساين هل تتذكَّرين إطلاعي لك على بعض المعلومات بشأن فكر رئيس أساقفة ماينتس عندما ارتحلنا جنوبًا ذلك اليوم من قلعة جوتنفيلس؟ ربما تذكِّرين ما قلته لك بشأن ورطته.

كما أنني أظنه مُعجباً بكِ على الرغم من صدِّك له، ولكن لا عجب في ذلك فجميعنا نكُنُّ
لِـ التقدير، كباراً وصغاراً. أنا أيضاً أحمل وثيقة مرور آمن، شأني شأن الأمير رولاند،
ولكنني أرى أن جلالته وضع سلامته بين يديك.»

ابتسم الرجل العجوز، ووجدت هيلديجوندي أنها لا تزال ممسكة بالوثيقة التي
أعطاه رولاند إياها. وللحظة كانت في حيرة من أمرها ثم ابتسمت وأعادتها إليه، ولكن
الأمير هزَّ رأسه رافضاً. تابع رئيس الأساقفة حديثه قائلاً:

«لقد أرسل إليَّ رئيس أساقفة ماينتس إبراء الذمة الخاص بك في ورقة مكتوبة تحمل
توقيعه هو ورئيس أساقفة تريفييس. وطلب منِّي إرفاق توقيعي وتحريرك وأنا في طريقي
إلى فرانكفورت، وهذا ما نويتُ فعله لولا أن أوقفني هذا الشاب المتهور. بالمناسبة كيف
التقيت جلالتك بكونتييسة فون ساين في فالتس؟»

بادرت هيلديجوندي بالحديث قبل أن ينطق رولاند فقالت: «سنخبرك عن ذلك لاحقاً
أيها الوصي. والآن ما التعليمات التي أصدرها السيد رئيس أساقفة ماينتس بشأنني؟»
«لقد طلب منِّي إحضارك إلى قصري في فرانكفورت، وأعرب بوضوح عن أمله في
تغيُّر رأيك.»

ردَّت الكونتييسة على الفور من جديد: «يُمكنك أن تؤكِّد له أنني غيَّرت رأيي بالفعل،
ولكن دعونا نتجاوز كل هذه التفاصيل في الوقت الحالي. هل سأذهب بعدها معك إلى
العاصمة؟»

«أجل، صباح الغد.»

«وهل سأملكُ هناك حتى حفل التنصيب؟»

«بالتأكيد، إن كنتِ ترغبين في ذلك. لكن ألم تلحظي تغيُّر خطة أخي رئيس أساقفة
ماينتس؛ فأنت تعلمين أنه لم يكن ينوي إطلاق سراحك إلا بعد انتهاء هذا الحدث؟»
أجابت الكونتييسة بتلهف: «أجل، أجل. هذا واضح تماماً، ولكنني لا أرغب في مناقشة
الأمر في اللحظة الراهنة.»

«عظيم! لقد نويتُ دخول فرانكفورت من الجهة الغربية، ولكنني غيَّرت مسار قواتي
بعد أن تفاجأتُ بلقائك، وأمرتهم بالسير باتجاه رافد لان وصولاً إلى ليمبورج حيث
سننضمُّ إليهم مساء الغد، وبعدها سنتبع طريق الأب أمبروز حتى نصل إلى العاصمة.»

«حسناً سيكون ذلك مُمتعاً للغاية. أتمنَّى أن ترافقنا أيها الأمير رولاند، فهل توافق؟»

أجاب الشاب بثقة: «بالطبع.»

قال رئيس الأساقفة بهدوء: «لا..»

«ولم لا؟»

«لأنني قلت لا..»

اعتدل الشاب الذي يُوشك أن يصير إمبراطورًا في جلسته في كبرياء، وأطبق شفثيه في عزم وإصرار.

«هل نسيتَ الوعد الذي قطعتَه سموكَ بهذه السرعة؟»

سأل رولاند بوجه عابس: «أي وعد؟»

«بالنظر إلى صمتي حول مسيرتك المشينة الأخيرة بما انطوت عليه من إحراق وذبح واستعباد لهاينريش، فقد وعدتَ بالامتثال لأمرِي حتى تصبح إمبراطورًا.»

«كنتُ عازمًا على الانصياع لجميع طلباتك المعقولة، ولكنني أرغب بشدة في مرافقة الكونتيسة من قلعتها إلى العاصمة، كما أنني لم أزرَ ليمبورج مطلقًا أو أسلك هذا الطريق إلى فرانكفورت من قبل.»

أجاب رئيس الأساقفة بنبرة جافة: «إنها مدينة عتيقة ساحرة، ويُمكنك زيارتها في أي وقت في رحلة لن تستغرق أكثر من يوم واحد. أنا من سيرافق الكونتيسة إلى هناك، وسأسعى جاهدًا للترفيه عنها بمحادثة ممتعة ومثمرة خلال الرحلة.»

واصل الأمير عبوسه، ولكنه عضَّ إحدى شفثيه وامتنع عن إصدار أي تعبير غاضب. احتجت الفتاة قائلة: «ولكن ألن يكون دخول مدينة فرانكفورت في حماية جيشك أكثر أمانًا لسموه؟»

ضحك رئيس الأساقفة قليلًا.

«عزيزتي هيلديجوندي، إن وجود الأمير رولاند يجعلك تتجاهلين الاختلاف الكبير في وضع كلٍّ منكما، ولكن من المؤكد أن تفكيرك في الأمر قليلًا سيمنحك نظرة حقيقية للأمور. إنك امرأة حرة وأنا أحمل بين يديَّ صكَّ استعادتك لحريتك. فلا تنخدعي إذن بما رأيته عندما رفع سموه قبضته عاليًا نحو السماء متحديًا المقادير الإلهية. فالأمر ليس كذلك. إنك لا تَرين القيود التي تُكبِّل كاحليه ومعصميه. ليس رولاند إلا سجينًا، وعليه أن يعود فورًا خلف قضبان سجنه. جلالتك، ها هي ذي قلعة ساين المهيبه ماثلة أمامنا، وهناك يُمكنك الاستراحة واستعادة قواك في الوقت الحالي، ويمكنك الحصول على فرس جديد نشط، يُمكنك امتطائه طوال الليل حتى تتمكّن من الوصول إلى بوابات إيرنفيلس غدًا في الصباح الباكر. وبمجرد وصولك، عليك تحية هاينريش عاشق النبيذ بعيدًا عن الأذى بإيداعه في أعرق قبو، ولتُصبح سجينًا مكانه. من المقرر أن يرافقك رؤساء الأساقفة

الثلاثة بأنفسهم إلى فرانكفورت على متن سفينة رئيس أساقفة ماينتس، وسترسو بك عند الدَّرَج المائي للقصر الإمبراطوري. وإن انكشف أنني أمضيتُ ولو ساعة واحدة برفقتك، فإن فرص وصولك للعرش ستكون في خطر شديد.»

صاحت الفتاة قائلة: «من المؤكَّد أنه لا داعي لهذه العجلة. يُمكنه الانطلاق غدًا إلى وجهته بينما نذهب نحن في الاتجاه الآخر. لقد أمضى طوال الليلة الماضية مُرتحلًا، وقضى أغلب الليلة مجدَّدًا بقرابٍ يحمل أربعة أشخاص، ومنذ وضع النهار تقريبًا وهو يمتطي حصانه، والآن يُعدُّ تكليفه القيام برحلة على ظهر الخيل طوال الليل أمرًا يجاوز طاقة أيِّ بشر.»

علت ابتسامةٌ جدية على وجه رئيس الأساقفة بعد أن لاحظ قلقها. وقال: «بسبب ضياع مسمار، فُقدت الحدود، وأنت تعلمين باقي هذا التحذير. وإن كان الأمير رولاند يَجْرؤُ على المخاطرة بالإمبراطورية في سبيل قضاء ليلة من الراحة، فإنني أسحب اعتراضِي.»

استدار الأمير بحصانه فجأةً، وقاده بخفة إلى جانب الفتاة ووضع يده على يديها. وصاح قائلاً: «أنا في انتظار قرارك أيتها الكونتيسة! امنحيني قرارك. وسأكون طوع أمرك دائماً!»

تمتم رئيس الأساقفة قائلاً: «أوه، يا لتهور الشباب!» تطلعت الفتاة إلى الشاب، فالتقط أنفاسه واشتدت قبضته على يدها وهو يحدِّق في أعماق عينيها اللامعتين.

وتنهدت قائلة: «لا بد أن تذهب.»

«نعم، للأسف!»

وتركته يرفع يدها ليقبلها، ثم استدار بحصانه مرة أخرى.

وسأله رئيس الأساقفة: «هل ستُطيع أمري؟»

«أجل يا سيدي، سأمتثل لأمرِك.»

وأخرج سيفه، الذي صنعه بنفسه، من غمده سريعًا ووجَّهه نحو شمس المغيب، ورفع مقبضه إلى جبهته موجِّهاً التحية لرئيس الأساقفة.

وقال: «إلى اللقاء في إيرنفيلس يا سيدي.»

«لا تذهب هكذا. فلتأتِ إلى القلعة لتستريح ولو ساعة على الأقل.»

أدار الشاب سيفه ممسكاً بنصله وطبع قُبلة على المقبض وكأنه صليب.
وقال: «الحمد لله أنني استطعت الحفاظ على العهد الذي قطعته.»
ثم نظر للفتاة، وأضاف: «للإمبراطورة، لا للإمبراطورية!»
ركل رولاند حصانه وانطلق، وبدا السيف وكأنه يسقط في غمده من تلقاء نفسه.

الفصل الثامن عشر

صانع السيوف في ورطة

وصل الوريث المنتظر للعرش بهدوء شديد إلى فرانكفورت على متن سفينة رئيس الأساقفة، التي رست عند الدّرج المائي للقصر الإمبراطوري، بعد حلول الليل. جرت مراسم تشييع جثمان الإمبراطور الراحل وكأنها مُناسبةٌ خاصة. كان من المتوقّع حدوث اضطرابات عنيفة؛ لذا جرى تأمين مسار الموكب بحشدٍ من قوات الأساقفة الثلاثة على كلا جانبي المسافة القصيرة الفاصلة بين القصر والكاتدرائية. ثبت أن هذه التدابير كانت بلا داعي. فالمواطنون البائسون لم يهتموا بأمر حاكمهم الاسمي الذي رحل، وأظهروا كراهيتهم للحكام الفعليين، رؤساء الأساقفة، فمكثوا في منازلهم بينما كان جنودهم يملئون الشوارع. كان وضع العاصمة غير مسبوق. فقد عانت من مجاعة مالية وليس مجاعة غذائية. تضورت فرانكفورت جوعاً وسط وفرة الموارد. فالأرض لم تشهد خصوبة أكبر من التي شهدتها ذلك العام، والخريف القادم كان يُبشّر بحصادٍ كان سيملاً مخازن الحبوب ويفيض، ورغم ذلك لم يجلب أحد طعاماً إلى فرانكفورت؛ لأن العامة لم يكن بحوزتهم أي أموال للشراء. اعتمد أهل البلد على حرفتي التجارة والصناعة بنحوٍ أساسي، ومع انهيار التجارة شُرِدَ الآلاف من أشغالهم، ومع التوقّف السريع للصناعة تضاعف أعداد هؤلاء الغوغاء المفلسين.

تضائل عدد سكان المدينة بعد الإخماد العنيف لرؤساء الأساقفة للاحتجاجات غير المجدية التي اندلعت في وقتٍ سابق من العام، بسبب مطالبة العامة بقوت يومهم، واكتظّت المنطقة التي حولها بالمشردين الهائمين الذين كانوا واثقين بأنهم سيَجِدُون شيئاً يأكلونه على الأقل، ولكن نظراً لنشأتهم في المدينة لم يَصْلُحوا للاشتغال بحرفة الزراعة، فانضموا تدريجياً إلى فرق وعصابات للنهب وشكّلوا تهديداً كبيراً للمقاطعات التي اجتازوها. بالطبع انتشرت الشائعات حول وقوف تلك الفرق الجامحة وراء عمليات السطو التي

جرت في بعض القلاع الواقعة على نهر الراين، وحرقت فورستنبرج؛ ومن ثمَّ ساد شعور بالقلق في الإمبراطورية بأكملها، وبدأ حكامها من أكبرهم لأصغرهم في التنبؤ بحلول كارثة على الأغنياء شأنهم شأن الفقراء المساكين، حال استمرار الوضع على ما هو عليه. وأثبت العمل الخيري، المتقطع وغير المنظم، أنه عاجز تمامًا عن مواجهة الكارثة التي حلت بالعاصمة.

في الليلة الثالثة من عودة رولاند إلى فرانكفورت وبعدما حل الظلام، تسلل إلى الشوارع المظلمة في حذرٍ حتى تأكد من عدم وجود من يتعقبه، وبعدها ذهب باتجاه القصر الذي يملكه رئيس أساقفة كولونيا.

في البداية رفض حارس البوابة إدخاله وأخبره رولاند بأن لديه موعدًا مع سيادته؛ لأنه لم يرغب في الكشف عن هويته. ولثقته بأن هذا التابع لا يستطيع القراءة، أظهر له وثيقة المرور الآمن وطلب منه أن يُعطِيها لسيادته وأن ينقل له رسالة مفادها أن حامل هذه الوثيقة في انتظار سعادته. عندما لاحظ الخادم المرتاب أن الوثيقة تحمل ختم الإمبراطورية العظيم، اصطحب رولاند على الفور إلى غرفة بالطابق الأرضي، ثم غادر ومعه الوثيقة ليعثر على سيده.

عاد رئيس الأساقفة معه وفي يده الوثيقة التي تحمل الختم الإمبراطوري، وبدت ملامح العبوس على جبينه. وعندما انصرف خادمه وأغلق الباب قال رئيس الأساقفة: «يا صاحب السمو، إن تصرفك بهذا النحو محفوف بالمخاطر.»

«لماذا يا سيدي؟»

«لأنك على يقين بأن هناك من يتبعك.»

سأله الشاب: «وما أهمية ذلك؟ فلا أحد يعرفني في فرانكفورت.»

خاطبه رئيس الأساقفة بحزم قائلاً: «أيها الأمير رولاند، من الحكمة ألا تفعل ما يثير شكوك رئيس أساقفة ماينتس حتى ينقضي فعلياً اختيارك إمبراطورًا. يخضع هذا القصر للرقابة ليلاً ونهارًا، وكل من يدخله أو يغادره يخضع للملاحظة. ويُمكنني الجزم بأنه في غضون خمس عشرة دقيقة سيعلم رئيس أساقفة ماينتس بأمر زيارتك لي.»

«عزيزي رئيس الأساقفة، لن يُمكنهم ملاحظة رجل مجهول الهوية. لقد راوَدني القلق بالفعل مما يدور في فرانكفورت، ولهذا تأكدت من عدم وجود من يتبعني.»

«إن لم يتبعك أحدهم عند قدومك، فلا شك أنه سيُوجد من يتبعك في أثناء عودتك.»

«في هذه الحالة يا سيدي سيتعقبني الجواسيس إلى منزل التاجر النزيه السيد جوبل

في فارجاسه.»

«سيلازمونك كظلك عندما تغادر منزله.»
«حينئذ سأكافئهم على مثابرتهم بمحطة نهائية ممتعة؛ ما أعنيه هو قبو الشراب الذي في راينجولد.»
«تأكد يا صاحب السمو أنهم في النهاية سيتبعونك حتى تصل إلى القصر الإمبراطوري.»
«مرة أخرى يا سيدي أؤكد لك أن ذلك لن يحدث. سأقودهم عبر الجسر إلى حي الحرفيين في زاكسينهاوزن، وإن استمرت مراقبتهم لي فعليهم قضاء الليلة هناك لأنني سأدخل غرفتي المتواضعة هناك وسأخلد للنوم.»
«لقد رئيس الأساقفة المستاء بقوله: «أرى أنك خططت لكل شيء جيدًا.» ضحك الشاب.

«أتوقع أن أعيش حياة مليئة بالإثارة يا سيدي، فمن عادتي التفكير في كل شيء قبل القيام بأي فعل، ولاحظت أن ذلك يبدو مُحيرًا للأمرء الناهبين. الحقيقة أن ثلاثتكم ماكرون للغاية ويخشى كل منكم الآخر بشدة؛ لذا فأنتم دائمًا في حالة تأهب حتى لا يباغتك أي أمر، إلا أن أفعالي المباشرة تُطيح بكل المؤامرات. أؤكد لك الآن أنك عاجز عن تخمين سبب مجيئي إلى هنا الليلة.»
«بالعكس، أنا أعرف السبب جيدًا.»
«حقًا؟ أنا مندهش. ما السبب إذن؟»
«لقد أتيت لرؤية كونتيسة فون ساين.»

«هذا صحيح، هل السيدة بالداخل؟ عجبًا، لا بد أنها بالداخل بالطبع. لقد تذكرت الآن أنها كانت سترافقك إلى فرانكفورت وبطبيعة الحال ستكون ضيفتك.»
«إنها ضيفتي يا صاحب السمو، وأحد أسباب عدم تمكنك من رؤيتها أنها في هذه اللحظة تتحدث مع كونت بالاتين الذي وصل للتو من جوتنفيلس. فقد شرفت أنا والكونتيسة بضيافته لنا داخل حصنه منذ وقت ليس ببعيد؛ لذا فقد دعوته ليحل ضيفًا عليّ حتى انتهاء مراسم التنصيب.»

«سيدي، يؤسفني انقطاع ضيافتك بوصول إمبراطورك المنتظر. لماذا لا تُعرفني بكونت بالاتين؟»

«تعارُف كهذا يجب ألا يحدث إلا في حضور بقية الأمرء الناهبين. يمكنك تخيل مدى قلقي تجاه وقوع أي أمر قد يهدد خططك المستقبلية. إننا يا صاحب السمو في مواجهة

لحظة حرجة. يُشير التاريخ إلى وجود أكثر من مرشح كادوا أن يصلوا للعرش ولكنهم استُبعدوا في اللحظة الأخيرة. وأنا صديق شديد الإخلاص لك ولا أود المخاطرة لينتهي بك الأمر بمثل هذه النتيجة.»

«إذن هل تظنُّ أنه ليس من الحكمة أن ألتقي الكونتيسة قبل انتهاء عملية الانتخاب؟»
«أنا لا أرى أنه ليس من الحكمة وحسب، يا صاحب السمو، بل إنني أيضًا أنوي منع أي لقاء بينكما.»

ضحك الشاب مرة أخرى.

«الحمد لله إذن أنني لم آت لهذا الغرض وإلا لأصابتني خيبة أمل كبيرة.»
«إذن، ما الغرض الذي أتى بك إلى هنا، يا صاحب السمو؟»

«سيدي، لم يُعد القصر الإمبراطوري ملكًا لأمي. وإذا استمرت إقامتي أنا وهي به، فسيبدو الأمر وكأننا نعدُّ انتخابي إمبراطورًا أمرًا مُسلَّمًا به، وأنا أرى أن ذلك ليس عدلًا في حق الأمراء الناهخين السبعة، فلا بد أن يكون اختيارهم غير مرهون بأي مَلَح من ملامح التأثير. لذا أرجو منك يا سيدي أن تشمل والدتي بضيافتك. لقد تحدّثت معها في هذا الأمر ويُسعدُها أن تكون ضيفتك، وأنا متأكد أنها ستكون سعيدة لترك هذا القصر الكئيب.»
«يُشرفني، يا صاحب السمو، أن أحظى بهذه الفرصة التي منحتني إياها. سأنتظر الإمبراطورة غدًا لتستقبلني في أي وقت يحلو لجلالتها.»

«هذا لطف بالغ منك. لقد اقترحتُ عليها اختيار الوقت المناسب، ووقع الاختيار على وقت الظهيرة.»

انحنى رئيس الأساقفة في امتنان عميق. نهض الشاب ومد يده مُصافحًا رئيس الأساقفة الذي صافحه هو الآخر بود. نظر الأمير مباشرة إلى مضيفه، وظن الأخير أنه لمح بريقًا في عين الأمير وهو يخبره بلهجة حاسمة:

«غدًا سأخبر رئيس أساقفة ماينتس بأن الإمبراطورة اختارت قصرك لتُقيم به لحين انتهاء مراسم التنصيب، وسأسأل سيادته أن يطلب منك السماح لي بزيارة قصرك يومًا لرؤية والدتي.»

انحنى رئيس أساقفة كولونيا مجددًا ولم يُظهر المزيد من الاحتجاج، وبدا رولاند مُستعدًا لاحتجاجه ولكنه لم يحدث؛ ولذا تابع الأمير قائلاً:

«ها هو ذا عنواني في زاكسينهاوزن، إن أردت أن تبعث لي أي رسالة عاجلة، وأرجو منك أن تأمر حارس بوابة قصرك بالألا يعترض طريقي عندما أطلب التحدُّث مع سيادتك»

مرةً أخرى. أتمنّى لك ليلة طيبة. وأشكرك يا سيدي على لطفك»، واختفى الشاب المغمم بالحوية على الفور قبل أن يتمكن رئيس الأساقفة البطيء التفكير من استحضار الكلمات المناسبة ليرد بها.

لم ينضمّ رئيس أساقفة كولونيا لضيوفه على الفور، بل وقف في حيرة من أمره، وتمتم في نفسه قائلاً:

«إن كان صديقي رئيس أساقفة ماينتس يظنّ أن الشاب سيكون طوع أمره كالعجين في يده، فهو مخطئ تماماً. أمل ألا يدفعه رولاند لاستخدام قبضته الحديدية في القريب العاجل. أتساءل ما الدافع وراء تأخير رئيس أساقفة ماينتس للانتخابات؟ هل لأنه بالفعل ليس واثقاً في اختياره، أم أن الأمر متعلق بالزوجة؟»

في هذه الأثناء، أوصد الباب الأمامي لقصر رئيس الأساقفة، وسار رولاند عبر الميدان غير عابئ بمن يتبعونه أو غافل عنهم، ولم يلتفت يميناً ولا يساراً. وشق طريقه سريعاً إلى فارجاسه قاطعاً هذا الطريق وصولاً إلى منزل السيد جوبل حيث طرق الباب وسُمح له بالدخول. دخل إلى الغرفة التي ودّع فيها التاجر، ووجد السيد جوبل جالساً إلى طاولته وكأنه لم يُغادرها قط. حيّاً التاجر الشاب بصيحة بهجة.

«حسنًا، رأيّت يا سيد جوبل أنني مُهرَّب ناجح؟ فما هي ذي بالات بضائعك كلها قابعة في قلعة فالنيس، وأنا واثق أن السفينة عادت إليك بأمان ومعها الأموال.»

«هذا ما حدث بالفعل، يا صاحب السمو.»

«هل أحصيتُم العملات؟»

«أجل، وبلغت مبلغاً هائلاً، يكاد لا يُمكن تصديقه، وقد دوّنته هنا حتى آخر ستيفر.»

«تلك أخبار رائعة. هل أتت أيّ مطالبات بشأن تقسيمها؟»

«لا، يا صاحب السمو.»

«والآن يا سيد جوبل لقد قررتُ أن تذهب بجميع الأموال، التي هي في الواقع ممتلكات مسروقة، لإطعام فقراء فرانكفورت. إذا اشترينا طعاماً بحكمة، فكم المدة التي سينجح هذا الكنز في دفع الجوع بعيداً عن أعتاب فرانكفورت؟»

«هذا الأمر سيتطلّب بعض الحسابات، يا صاحب السمو.»

«شهرًا؟»

«بالتأكيد.»

«أو ربما شهرين؟»

«هذا أمر مُحتمَل، ولكنني أأتاجر في الأقمشة لا في الطعام، ولهذا لا يمكنني حسم الأمر دون إجراء الحسابات والأخذ بمشورة الخبراء في هذا الشأن.»

«عظيم يا سيد جوبل؛ جَهِّز حساباتك في أسرع وقت ممكن. واجتمع بعصبة التجار الخاصة بك واسأل أفرادها ...» ثم قطع رولاند حديثه فجأة وقال: «بالمناسبة أعطني ورقة مكتوبًا فيها عدد العملات التي أرسلتها إليك.»

فعل التاجر النزيه ذلك، واتَّسعت عينا رولاند من الدهشة برؤية المبلغ الإجمالي. ثم وضع الورقة في المحفظة التي كان يحملها.

ثم شرع التاجر بالحديث قائلاً: «لقد كنتُ على الأرجح على وشك اقتراح تعيين لجنة.» «أجل؛ لجنة صغيرة العدد ولكنها تتمتع بالكفاءة وستكون أنت رئيسها وأمين صندوقها. لكن عليك أولاً أن تطلب من التجار المساهمة، من ثرواتهم المعروفة، بمبلغ مساوٍ لمقدار الذهب الذي سلبته من البارونات.»

بدا التاجر مُحَبَّبًا وعلت وجهه ملامح الحزن.
«يا صاحب السمو إن الأحوال لا تُسر منذ وقت طويل، ولا أحد منا يجني أيَّ أموال

...

أشار الأمير بيده، وتوقَّف التاجر عن متابعة شكواه.

وقال: «إن استطعتُ تجريد البارونات من ثرواتهم، فلن أهدِر وقتي بالحديث عن تجريد التجار من أموالهم. ستُقدِّم هذه المساهمة باسم رؤساء الأساقفة الثلاثة الذين بطشت أيديهم بكم بعد أعمال التمرد الأخيرة. يمتلك رؤساء الأساقفة في فرانكفورت الآن قواتٍ قوامها تسعة آلاف جندي. وفي حال منحهم الإذن، سيكون بإمكانهم جمع ثلاثة أضعاف المبلغ في غضون ساعات قليلة؛ لذا بصفتك رئيساً للجنة عليك اتخاذ القرار؛ فهذا الأمر لا يعنيني: هل سيكون هذا الصندوق نتاج مساهمة طوعية أم ضريبة يجمعها الجنود؟ ولتعلن في جميع أنحاء فرانكفورت انتهاء المجاعة في المدينة بفضل كرم رؤساء الأساقفة الثلاثة.»

«يا صاحب السمو، مع كامل احترامي، ولكن اسمح لي إنه لمن الظلم أن نساومهم بالمال ولا ينسب إلينا هذا الفضل.»

«أجل يا سيد جوبل، إننا نعيش في عالم ظالم للغاية، وهذا ما يراه بلا شك العديد من الجياع حين يجدون أن بضع مئات منكم يمتلكون ثروات هائلة بينما هم مفلسون. ورغم ذلك، هناك أيام هانئة في انتظارنا جميعاً. حسناً لنأمل أن تكون الأموال التي أرسلتها لك

كافية؛ ومن ثمَّ يمكننا إعادة مساهمات التجار إليهم مرة أخرى، هذا إن كان صندوق الإغاثة يُدار بأمانة. لذا استعدَّ للعمل بنشاط مبكرًا من الغد. لقد أمضيتُم عطلة طويلة أيها التجار. أعتقد أن نهر الراين سيُفتَح قبل انقضاء أسابيع قليلة، وبعدها يُمكنكم مباشرة جني الأموال، ولكن واجبنا الأول هو إطعام الجياع. طابت ليلتك، يا سيد جوبل.» ترك رولاند التاجر في حالة ذهول مثلما كان حال رئيس الأساقفة. ومن جديد خرج واتجه مباشرة إلى قبو النبيذ في راينجولد. وفور وصوله إلى الدَّرج سمع حديثًا صاحبًا يقطعُه بين الحين والآخر صوتُ ضحكات. توقَّف لحظة قبل أن ينزل الدَّرج. كان واضحًا أن الرِّفاق يستمتعون بأوقاتهم، وتمتم رولاند مناجيًا نفسه بلهجة يشوبها الحزن:

«إنني عنصر الإزعاج في تلك المجموعة. يبدو أنهم ينسجمون معًا أشد انسجام عندما يكونون بمفردهم. حسنًا، لا يُهمُّ ذلك على أي حال. إنهم سيتخلَّصون مني قريبًا!» عندما هبط رولاند الدَّرج استقبله مالك الحانة بسعادة.

وقال مخاطبًا إياه: «لقد اشتقتُ إليك يا سيد رولاند، ويمكنك أن تتخيَّل مدى الأسف الذي يشعر به أفراد العصابة لغيابك.»

«نعم؛ يُمكنني سماعهم يتحسَّرون على مصيرهم.» ضحك صاحب الحانة.

«كم عدد الموجودين منهم هنا الليلة؟»

«إنهم كاملو العدد يا سيد رولاند.»

«حقًا؟ وهل كورزبولد وجينسين أيضًا في الداخل؟»

«أجل إنهما بالداخل، وأنا أعرف أنه بفضلك لن يكون هناك أيُّ عجز مالي.»

«في الواقع الشكر الجزيل لك أيها المضيف المجل؛ فقد دعمتنا فترة طويلة جدًّا عندما كنا مُفلسين. لن ننسى لك ذلك أبدًا»، وهكذا ترك رولاند صاحب القبو المبتهج بعد أن قدَّم له تحية شبه عسكرية، وبعدها دفع وفتح باب غرفة المأدبة التي يوجد بها أفراد عصابة الحدادين. وخيَّم الصمت فورًا فوق رءوس الجمع.

قال الأمير وهو ينزع قُبْعته ويلفُّ كتفيه ليُزيح عباءته: «طاب مساؤكم أيها السادة.» علت على الفور صيحات التهليل، وتقدَّم جريسيل، الذي كان يشغل المقعد الموجود على رأس الطاولة، إلى الأمام وأخذ قبعة رولاند وعباءته وعلَّقهما. وبعدها حاول توجيه قائده ليجلس على المقعد الشرقي.

إلا أنَّ رولاند رفض ذلك ووضع يده على كتف مرافقه بود، قائلاً: «لا، لا يا نائبَي العزيز، إن هذا المقعد يخصُّ رجلًا أفضل منِّي ولن أجرؤ على تنحيته أبدًا.»

نهض البقية، باستثناء كورزبولد وجينسبين، وعلّت أصواتهم مطالبين رولاند باتخاذ هذا المقعد. هز رولاند رأسه بابتسامة ورفع يده مشيرًا إليهم بالصمت.
وقال: «استريحوا في مقاعدكم أيها الرفاق؛ وأنت يا جريسيل إن كنت تودّ مني إعطاء أوامر فإنني أملك بالجلوس في مقعدك دون مزيد من الاحتجاج.»
أطاعه جريسيل على مضض واضح.

«الحقيقة أيها الإخوة أنني لن أبقى هنا سوى لحظات. لم آت هنا إلا للاستمتاع برشفة من النبيذ بصُحبتكم، ولأُقَدِّم لكم عرضًا سيجعلني في غضون خمس دقائق أكثر شخص مكروه بين جدران هذه الغرفة؛ لذلك كان من الحكمة رفضي الجلوس على المقعد الذي سأطرد منه فورًا.»

أمسك أحد أفراد العصابة بإبريق النبيذ وسكب كوبًا من النبيذ وحمله إلى رولاند، الذي بدوره وجّه التحية لرفاقه وشربه.
«جريسيل أنت لم تقسّم الأموال، أليس كذلك؟»

«نعم يا رولاند. لقد أعطينا كل رجل منهم خمسمائة تالر ليكونوا في أفضل حال ممكن. ثم أخفينا بقية الذهب بين قاع القارب وألواح الداخلية. واجتهدت أنا وإبرهارد إلى حدّ كبير في تفسير أوامرك، وتصورنا أنك ترغب في وصولنا نحن والكنز بأمان إلى فرانكفورت.»

صدّق رولاند على كلامه قائلًا: «هذا صحيح.»
«وعندما حل الصباح سرعان ما أدركنا الجلبة التي ثارت في أرجاء البلاد بأكملها إثر تدمير فورستنبرج ونهب زونيك. كان الريف كله في حالة اضطراب، فلا أحد يعلم أين ستقع الغارة التالية. وحتى الآن لا يعلم المنهوبون سوى حقيقة واحدة؛ ألا وهي ظهور سفينة سوداء طويلة أمام قلاعهم مع تعرّضها للهجوم من الجهة الخلفية. أدركنا أنه لن يمكننا التحرك أعلى النهر إلا بحلول الظلام؛ لذا خشية تعرّضنا للتفتيش، أخفينا الكنز في مكان غير محتمل التفتيش فيه، وكنا نهارًا نتوقّف في منطقة نائية من النهر، ونجذب طوال الليل. ولم نغامر بالإبحار في وضوح النهار إلا بعد أن وصلنا رافد ماين. واتفقنا بالإجماع على إيداع المال بحوزة السيد جوبل لحين عودتك.»

علّق رولاند قائلًا: «أحسنتم صنعًا جميعًا. لقد عدتُ للتو من زيارة السيد جوبل، وذهلت حين أخبرني بالمبلغ الذي جنيناه بالفعل. والآن، أطلب منكم تقديم تضحية كبيرة. إن هذه المدينة تتصورُ جوعًا. فإن أنفقنا هذا المال في سبيل إغايتها، سيُساهم تجار

فرانكفورت بمبلغ مُساوٍ. لا أعلم المدة التي يمكن لفرانكفورت أن تصمدها في وجود هذا المبلغ؛ ستة أشهر على الأرجح. سأعلم القول الفصل غدًا.» بهذه الكلمات أوجز رولاند خطته الإغاثية التي قوبلت بالصمت.

تحدّث كورزبولد.

وقال: «هل لي بمعرفة قيمة إجمالي المبلغ؟»

تذمّر جريسيل من سؤاله قائلاً: «هذا أمر ليس من شأنك؛» ثم التفت إلى رولاند الذي لم يتخذ مقعدًا بعد، وقال له: «أوافقك الرأي فيما يخص نصيبي من الأموال.» وأضاف إبرهارد قائلاً: «وأنا أوافق؛» وتابع بقيةً الجالسين على جانبي الطاولة الحديثَ مُعلنين موافقتهم، حتى وافق الثمانية عشر رجلًا. نهض كورزبولد وهو يبتسم.

«أنا لا أعرف السبب، أيها الزعيم السابق، وراء إثارتك لجوٍّ من الجدل منذ لحظة انضمامك إلى صفوفنا ووجودك.»

«الغريب في الأمر يا سيد كورزبولد أنني خطرت لي الفكرة نفسها عندما استمعت إلى صخبك المرح قبل دخولي. ولكن اسمح لي أن أضيف بأن هذه هي زيارتي الأخيرة للعُصبة، ولن أفسد انسجامكم هذا مرة أخرى، وأتمنى أن يرضيك ذلك.» صاح إبرهارد، وهو ينهض مبتسمًا، قائلاً: «إنك لا تفسد أيَّ انسجام بيننا. لقد كانت الموافقة فعليًا بالإجماع؛ لقد كان هناك إجماع فيما بيننا في الواقع نحن من يملك نصيبًا في الكنز الهائل. أعتقد أن السيد كورزبولد يُطالب بنصيبه في غنيمة راينستاین، ما لم يكن قد صُوِّدَ بسبب ما قام به.»

تابع كورزبولد قائلاً: «إن حتى إبرهارد الودود يتحدّث بلهجة لاذعة، رغم أن كلماته لا تحمل أيَّ لوم، أما صديقي جريسيل فقد أصبح فظًا بشدة.» قال رولاند: «لست بحاجة إلى إيضاح فكرتك أكثر من ذلك يا سيد كورزبولد. فإنني قد استقلت.»

أكمل كورزبولد حديثه قائلاً: «أردت فقط أن أوضح أن نهوضي لم يكن إلا بغرض الإشارة بأن لي نصيبًا بسيطًا في شيء؛ أعني الممتلكات المسروقة، وكما تعلم، الشرف بين اللصوص. هل نصيبي في هذين الأمرين محل نزاع؟»

أجابه الرئيس سريعًا: «لا.»

اختتم كورزبولد حديثه قائلاً: «عظيم، نظراً لتكريمكم بالسماح لي بالحديث في حضور قائدنا السابق المهيّب، وأدّ القول بأنه أيّاً كان مقدار نصيبي فإنني أهبه بكل سرور، بل وبهجة، إلى فقراء فرانكفورت.»

اختتم كورزبولد حديثه بتلك الكلمات وجلس، وفي البداية علا صخب الضحكات وتلاها تصفيق حار. نهض جينسين وقال بإيجاز:

«وأنا سأفعل مثلاً فعل كورزبولد.»

قال رولاند: «والآن أريد عددًا من المتطوعين الذين سينطلقون في جميع أنحاء البلاد بدءًا من الغد في الصباح الباكر، وأنت يا جريسيل بصفتك القائد ستُحدّد المسارات التي سيسلكونها. على كل رجل منهم التوغّل قدر الإمكان على طول الطرق الرئيسية، وليطلب من المزارعين إحضار أي شيء يصلح طعامًا ويُمكّنهم بيعه. وأخبروهم أن مبلغًا هائلًا من المال قد جُمع وأن محتويات عرباتهم ستُشترى بالكامل فور دخولها المدينة. ولن يضطّروا للانتظار لتحصيل أموالهم. الدفع فوري وكل شيء صالح للأكل سيُشترى على الفور. أما أنت يا جريسيل فأوكلك بالمهمة الأصعب. عليك التوغّل في الغابة جنوب رافد ماين، وإبلاغ الحطّابين وصنّاع الفحم بضرورة إحضار المواد اللازمة لإشعال نيران مواقد الطهي. والآن، مَنْ سيتطوع منكم؟»

نهض جميع الرجال. وشكرهم رولاند. وقال: «سأفصح لكم الآن عن سرّ، وستعلمون أنني فكّرتُ في مصلحتكم عندما أُطِعتُ عليه. لقد حظيت بشرف لقاء أكثر من حاكم لهذه الإمبراطورية منذ التقيتكم.»

صاح أحدهم مُتسائلًا: «هل أخبروك مَنْ سيكون الإمبراطور الجديد؟»

«هذا أمرٌ لا يعلمه سوى الأمراء النخبين. ولكن إليكم ما كنتُ بصدد قوله. ستنشئ الحكومة ورشًا للمصنوعات الحديدية على نطاق واسع لم يشهد العالم مثيلاً لها من قبل. وأنا واثق أننا على أعتاب العصر الحديدي، وقد بذلتُ قصارى جهدي لغرس هذا الاعتقاد في نفوس الآخرين، ونظرًا لمعرفتي بمهاراتكم فيُشرفني أن أعرض على كلّ منكم تولي مسؤولية الإشراف على إحدى هذه الورش، وستتقاضون مقابلًا سخياً لم يُعطَ لأحد من قبل في ألمانيا بأكملها. وأنا مُوقن أيضًا بأن الإمبراطور الجديد سيمنح لقبًا لكلّ مَنْ يرغب منكم في نيل هذا الشرف لئلا تُثار أيُّ تساؤلات حول أحقيتكم في حمل السيف. جريسيل عليك تلقّي التقارير التي سيأتي بها العاملون في فرق الطعام الاستطلاعية الخاصة بنا، ويُسعدني أن أعرف ما توصلتم إليه، هذا إن لم تجد مشقة في زيارتي في غرفتي القديمة

بزاكسينهاوزن في أي ساعة بعد التاسعة مساءً. والآن أتمنى لكم ليلة طيبة، وبالتوفيق لكم جميعاً.»

عبر رولاند الجسر ووصل إلى غرفته على الجانب الآخر. تلقت حوله عدة مرات ليطمئن أنه لا يوجد من يتلصص عليه، وضحك على المخاوف التي راودت رئيس الأساقفة. دخل إلى غرفته وأضاء المصباح، وخلع عباءته وألقاها على السرير ثم فك حزام سيفه وعلقه هو والسيوف على مشجب، ووضع عباءته فوقهما. وأصابه الذهول حين سمع طرقاً قوياً على الباب، ووقف مندهشاً لحظة حتى تكرر مع التحذير الصارم التالي:

«افتح الباب باسم رئيس الأساقفة!»

تقدم الشاب وسحب المزلاج وفتح الباب. وتخطى عتبة الباب ضابط وخلفه اثنان من الجنود، وبإشارة جانبية من رأس الضابط أغلق أحد الجنديين الباب وأوصده. انتاب رولاند للحظة شعوراً بالسخط إثر هذا الاقتحام الوقح، وبعدها تذكر أنه جريئاً وأن أمثاله لا بد أن يتسموا بالخنوع والإذعان.

«لقد زرت القصر الإمبراطوري الليلة. فماذا كنت تفعل هناك؟»

«كنت أحاول الحصول على إذن بالدخول يا سيدي.»

«لأي غرض؟»

قال رولاند وهو يحاول التفكير في فكرة للدفاع عن نفسه: «كنت أتمنى ... كنت أتمنى مقابلة أحد الضباط من ذوي الرتب؛ ضابط مثلك يا سيدي، لكن لم يحالفني الحظ ولم أنجح في مهمتي. لم أستطع تخطي أفراد الحراسة دون تصريح، وهو ما لم أكن أحمله معي آنذاك، لكنني أمل الحصول عليه غداً.»

«أسألك مرة أخرى، لأي غرض؟»

«لغرض يجعلني أشعر بالسعادة لمقابلتك يا صاحب السعادة.»

«أنا لست بصاحب سعادة. ولتدخل في صلب الموضوع! أخبرني لأي غرض ذهبت.»

«لأعرض على الضابط سيفاً فائق الجودة، والذي لن يهزم حامله أبداً ما دام يملك

قدراً من المهارة في استخدامه.»

«هل تقصد إخباري بأنك ذهبت إلى القصر الملكي بغرض بيع سيف مُستعمل؟»

«بالطبع، لا، أيها الأمير.»

«كفاك توزيع ألقاب كما يحلو لك. نادني بالملازم.»

«حسناً يا سيدي الملازم، كنت أمل الحصول على أمر بصنع مائة أو ربما ألف قطعة

من هذا السلاح.»

«وإلى أين اتجهت بعد مغادرة القصر؟»
«ذهبت إلى مكان إقامة أمير الكنيسة العظيم هذا، رئيس أساقفة كولونيا.»
«فهمت! ولم تنجح في رؤية سيادته، أليس كذلك؟»
«عذرًا أيها الملازم، ولكنني قابلته. إن سيادته مهتم بشدة بكل من الأسلحة والدروع.»
«هل منحك أمرًا بصنع السيوف؟»

«لا أيها الملازم؛ فقد بدا رجلًا شديد الحذر. لقد طلب مني زيارته في كولونيا أو مقابلة رئيس قواته الموجود الآن في فرانكفورت، إن لم أستطع زيارته. أنت تعلم أيها الملازم أن وجود رؤساء الأساقفة الثلاثة برفقة جيوشهم يُعد فرصة عظيمة لي وأمل الاستفادة منها.»

نظر إليه الضابط وبدأ متحيرًا.

«وأين ذهبت بعد ذلك؟»

«ذهبت إلى منزل أحد التجار في فارجاسه.»

«حسنًا قصتك هذه لن تُفلح! فالتجار لا يُسمح لهم بحمل السيوف.»

«أجل أيها الملازم، ولكن التاجر في بعض الأحيان يُمكنه توفير رأس المال الذي يتيح للعامل الماهر قبول عقد كبير. وإن كنت سأقابل رئيس قوات معاليه غداً وطلب مني صنع ألفي سيف على سبيل المثال، فليس بحوزتي المال الكافي لشراء المعدن اللازم، ولن أستطيع طلب الدفع حتى أسلم الأسلحة.»

«وهل وافق التاجر على تمويلك؟»

«كان هو الآخر شخصًا حذرًا أيها الملازم. فقد طالبني بالاطلاع على العقد أولاً

ومعرفة المسئول عن السداد.»

عَلَّق الضابط قائلاً: «رجل حكيم، وأفترض أنك عُدت بعدها إلى هنا محبطًا، أليس كذلك؟»

«نعم أيها الملازم؛ لقد كان يومًا حارًا، كما أنني قطعت مسافة طويلة. غادرت منزل التاجر وذهبت إلى حانة راينجولد؛ حيث احتسيت كوبًا من النبيذ مع رفاقي، وهم مجموعة من الرجال الذين شكّلوا ما يُطلقون عليه اسم عصبة الحدادين. شربت كوبًا من النبيذ برفقتهم وبعدها أتيت مباشرة إلى هنا؛ حيث وصلت قبل لحظات قليلة فقط.»

زادَت حيرة الضابط أكثر فأكثر. فعلى الرغم من الأسلوب الخاضع لهذا الشاب، فإن اللغة التي كان يتحدث بها لم تكن لغة جرّفيّ، ولكن تلك بالتأكيد كانت غرفته الخاصة، وقد قال الحقيقة كاملةً عن جولته وكأنه شخص لا يخشى شيئًا.

وقف الملازم محدقًا في الأرض بعض الوقت، صامتًا شأنه شأن الجنديين الواقفين خلفه. وفجأة نظر لأعلى.

«أرني السيوف. وسأخبرك بمكان صناعته!»

إنه لمخطئ لو ظنَّه سيتدبّر. هتف رولاند بابتهاج وأزاح العباءة جانبًا وانتزع السيوف بخفة وقذفه لأعلى وأمسك به من نصله، ثم انحني قليلًا وسلّمه إلى الضابط الذي لوّح به في الهواء، وثنى النصل بين السبابة والإبهام، وبعدها وجّهه قرب المصباح وفحصه بعين خبير.

«إنه سلاح جيد يا صديقي. أين صنّع؟ أنا لم أر مثله قط.»

«لقد صنّعه بيدي هاتين هنا في فرانكفورت. بالطبع ذهبُ أولًا لأولئك الذين لا يعرفون شيئًا عن الأمر، ولكن إن تمكنتُ من مقابلة معالي رئيس أساقفة ماينتس فإن ضباطه سيعجبون بالسيوف حين يرونه، وأتمنى أن يكون حظي الليلة قد قاد لي أحد ضباط رئيس أساقفة ماينتس، بمجيئك إلى باب غرفتي.»

نظر إليه الملازم وابتسم للمرة الأولى. وأعاد إليه السيوف وأشار إلى تابعيه بفتح الباب، وامتلثا لأمره وغادرا، ثم قال الضابط:

«أتمنى لك ليلة طيبة. لقد كانت إجاباتك مُرضية، ولكنني أرى أنك لست مجرد جريٍّ وإنما تاجر سيوف بارع.»

أجابه رولاند قائلاً: «أيها الملازم لا تُجاملني.» ثم رفع سيفه ليوجّه له تحية عسكرية. وأضاف: «أنا لستُ بتاجر وإنما صانع سيوف.»

الفصل التاسع عشر

تبادل الوعد بالزواج في الحديقة

في صباح اليوم التالي، أرسل الأمير رولاند خطابًا إلى رئيس أساقفة ماينتس يخبره فيه بأن الإمبراطورة قد ارتحلت إلى قصر صديقها القديم، رئيس أساقفة كولونيا، مُبدئًا أسباب هذا الانتقال وتركه للقصر الإمبراطوري، وطالبًا السماح له بزيارة أمه كلَّ يوم. فعاد الرسول بالرد بسرعة، والذي كان فحواه الثناء على سموِّ دوافعه في مُغادرة القصر الإمبراطوري، لكنه أضاف أنه بالنسبة إلى رؤساء الأساقفة الثلاثة، فإن قلعة سالهوف لا تزال تحت تصرفهم؛ بالطبع لم تكن تحركات الأمير رولاند مقبَّدة على الإطلاق، ومرة أخرى، كان رؤساء الأساقفة الثلاثة يرون أنه يملك حرية زيارة أي شخص شاء في أي وقت شاء.

أثناء انتظاره عودة الرسول، زار رولاند السيد جوبل وأخبره بانتشار عشرين مبعوثًا في جميع الأنحاء من فرانكفورت ليُخبروا المزارعين بأن سوقًا جديدة جرى افتتاحها في المدينة، وفي المقابل علم ما فعله التاجر بالفعل لتعزيز الإجراءات التنظيمية الضرورية. صاح رولاند، وكأنما تذكَّر فجأة، قائلاً: «أوه، بالمناسبة يا سيد جوبل، اكتب وثيقة ووقّعها بهذا المضمون: «أعدُّ السيد رولاند، صانع السيوف بمدينة زاكسينهاوزن، بأن أمدّه برأس المال اللازم لتنفيذ عقده مع نيافة رئيس أساقفة كولونيا.»»

فكتب التاجر الوثيقة دون أن يُبدِّي أي اعتراض ثم وقّعها وسلّمها للأمير. «لو زارك أيُّ من رجال رئيس أساقفة ماينتس بنحوٍ مفاجئٍ يا سيد جوبل، وسألك بعض الأسئلة عني، فاحرص على إخفاء وضعي الحقيقي، وأجبه بأني رجل أمين وصانع سيوف ماهر حريص على إحياء صناعة الحديد، ولهذا السبب، ونظرًا لحرصك على رفاهية فرانكفورت، فأنت تُغامر بمبلغ من المال.»

وفيما بعد الظهيرة ذهب رولاند إلى قصر كولونيا ودخل في شجاعة ودون أيِّ محاولة لإضفاء طابع السرية، ولم يُبدِ الحارس هذه المرة أيَّ معارضة لدخوله. فعلم أن الإمبراطورة قد غلبها التعب فأوت إلى غرفتها ولا ينبغي أن يزعجها أحد؛ وأن رئيس الأساقفة كان يتشاور مع كونت بالاتين، بينما كانت كونتيسة فون ساين تتمشَّى في الحديقة. مرَّ رولاند عبر القصر مسرعًا، وخرج إلى فناءه الخلفي، وهو فناء يعج بالأغصان الظليلة المبهجة، وذو مساحة كبيرة على نحوٍ مذهل، ومحاط بجدار حجري شاهق متين بشدة لدرجةٍ تجعله يقاوم أي حصار بنجاح.

رأى رولاند الفتاة تتجولَّ ببطء شديد في واحد من أكثر الممرات انعزالًا، والذي كان مفروشًا بالحصى وتكتنفه ظلال أوراق الشجر الوارفة المتشابكة من فوقه، مما جعله ممرًا أخضر هادئًا يناسب التمشية. كانت الفتاة خافضة رأسها قليلًا وغارقة في التفكير، ووجهها الجميل مُثيرًا للشفقة من شدة القلق، وأدرك الشاب الذي أخذته الشفقة بها أنها ما زالت سجينًا بكلِّ معاني الكلمة، وبلا رفيقٍ إلا من بعض الأشخاص الموقَّرين. لم يكن بإمكانها، بل لم تحاول، إخفاء مشاعر البهجة التي اعترتها حين رآته، فمدَّت كلتا يديها لتسلَّم عليه وانقشع الحزن من وجهها كما لو كان بفعل السحر.

قالت بنبرةٍ فيها بعض الدلال: «لقد كنتُ أفكِّر فيك!»

فقال: «ظننتُ أن أفكارك حزينة»، وضحك فشاركته الضحك.

«لا شيء يدعو للحزن سوى أنني لا أستطيع رؤيتك ولا معرفة أي شيء عنك.»

«هل علمتِ أنني أتيت إلى هنا البارحة؟»

«كلا. لمَ لمَ تطلُب رؤيتي؟»

«علمت أنك تُضيفين كونت بالاتين.»

«أها، نعم. إنه رجل عجوز ومَرَح. وكلما مرَّ الوقت أحببته أكثر وأكثر. لقد حللتُ أنا

ووصيي ضيفين عنده في جونتيفيلس قبل أن أدخل سجن بفالتس البحري مباشرة.»

«نعم أخبرني وصيِّك بذلك.»

أخذ الاثنان يتمشيان الآن معًا جنبًا إلى جنب في هذا الممر المنعزل المحاط بالأشجار الكثيفة، والذي لا يكاد يتسع سوى لاثنتين، ويمتد في خط مستقيم من الحائط إلى الحائط بطول الأرض بالكامل، عند أبعد نقطة من القصر.

سألته: «هل أصابك أيُّ مكروه؟ تنتابني هواجس سيئة.»

«كلا؛ بل أعيش حياة عادية جدًّا، تكاد تخلو من الأحداث.»

«لكن عجبًا، لماذا أجّل رئيس أساقفة ماينتس عملية الانتخاب؟»
«لم أكن أعلم أنه فعل ذلك.»

«أوه، وصيي يشعر ببالغ القلق لهذا الأمر. فهذا التأجيل في اعتقادي لم يحدث قط من قبل. الدولة بلا قائد.»

«وهل تحدّث وصيك إلى رئيس أساقفة ماينتس في هذا الشأن؟»
«نعم؛ وقد قُوبِل بأدب وبرود. يُريد رئيس أساقفة ماينتس أن يُجرى الانتخاب في اجتماع سرّي بالكامل للأمرء النّخبين السبعة، الذين ثلاثة منهم لم يصلوا بعد. لكن وصيي يقول إنهم لن يصلوا أبدًا، وهم لا يبدو أن أيّ اهتمام بالشئون الإمبراطورية. وأشار إلى رئيس أساقفة ماينتس بوجود نخبة مجلس الأمرء النّخبين في فرانكفورت بالفعل، لكن سيادته والمُسيطر على منطقة أعلى نهر الراين يرى أنهم يجب ألا يفرضوا شخصًا عليهم، وكل هذا في رأي وصيي مجرد محاولة لإخفاء مخطط يُدبره رئيس أساقفة ماينتس.»

تأمّل الأمير رولاند تلك الكلمات بضع لحظات، ثم قال وكأنما ينفض عن رأسه غبار شكوكه:

«لم يخطر ببال أحد رؤساء الأساقفة أن أحدهم ربما يقول الحق. فهناك انعدام للثقة فيما بينهم لدرجة أنهم يَنْقُضون أيّ تصرّف مُشترك؛ الأمر الذي أدّى إلى الحالة المزرية التي وصلت لها هذه المدينة التي تُعدّ عاصمة واحدة من أكثر الدول ازدهارًا على وجه الأرض. لكن من وجهة نظري أن كل شخص منهم على حدة هو شخص مُستقيم وأهل للثقة. لناخذ مثالًا على ذلك. وصيُّك أصيب ليلة أمس بذعر شديد لجراّتي في زيارته. وقال إنه يجب ألا آتي مرة أخرى، ورفض أن يأذن لي برويتك؛ ولم يقل لك أيّ شيء بخصوص حديثي معه، ولقد كان على يقين بأن هناك مَنْ يتبعني من رجال رئيس أساقفة ماينتس، ولم يكن بإمكانه أن يفهم أن وجودي هنا لا ينطوي على عواقب من أي نوع.»
«إذن لماذا أنت هنا الآن؟»

«لقد أتيتُ من أجل السبب التالي. فقد طلبتُ من وصيك أن يدعو أُمّي لتكون ضيفته. ألم تقابلها بعد؟»

«نعم؛ فقد أخبروني أن الإمبراطورة لا يُمكنها استقبال أحد لشدة تعبها. ومن المفترض أن ألتقيها الليلة على مائدة العشاء.»

«حسنًا، لقد كتبتُ هذا الصباح خطابًا لرئيس أساقفة ماينتس أخبره فيه بلقائي بوصيك، وسبب اللقاء ونتائجه. فجاءني الرد الفوري.» أخرج رولاند الخطاب واستطرد قائلاً: «فقط اقرئيه وانظري هل لاحظت فيه شيئًا مريبًا.»

أخذت الفتاة تقرأ الخطاب بتمعن.

وقالت: «هذا خطاب صادق بالقدر الكافي في ظاهره.»

«في ظاهره، نعم؛ لكن لم لا يكون صادقًا في باطنه أيضًا؟ إنه قبول صريح لطلب صريح. في اعتقادي لو تعامل رؤساء الأساقفة جميعًا معًا بصراحة وأريحية لجنّبوا أنفسهم الكثير من العناء.»

ردت الفتاة في هدوء شديد: «ربما.»

«أنتِ لستِ مقتنعة، أليس كذلك؟»

«لا أستطيع تكوين رأي محدد في هذا الشأن.» ثم نظرت إليه بسرعة. واستأنفت

كلامها قائلة: «هل تبعك أحد ليلة أمس؟»

قال رولاند بينما ارتسمت على وجهه ابتسامة خفيفة: «أوه، على ما يبدو لا، بحسب ما أرى، لكنها كانت ليلة مُظلمة جدًّا.» ثم حكى لها الأحداث التي تلت عودته إلى غرفته، بينما كانت تُعيره مسامعها باهتمام بالغ. واختتم حديثه قائلاً: «لم ينكر الملائم أنه كان في خدمة رئيس أساقفة ماينتس عندما ألحقتُ لذلك، لكنه في المقابل لم يعترف بذلك. بالطبع أنا أعرف من ملابسه إلى أيّ طرفٍ ينتمي. لقد استجوبني بغلظة عسكرية، ولكن بمهارة ولطفٍ شديد، بالرغم من أنني ادعيت كوني جُرَفيًا.»

قالت في دهشة: «أنت حُرْفِيٌّ؟! هل تظن أنه صدّق ذلك؟»

«أرى أنك تُشكِّكين في قدراتي التمثيلية، لكن عندما يزورني مرة أخرى سأقدّم له دليلًا موثقًا على حالتي، بل وسوف آخذه إلى ورشتي.»

صاحت الفتاة في ذهول قائلة: «وهل تملك ورشة بالفعل؟»

«أنا؟ عجبًا، أنا شريك مع رجلٍ يُدعى جريسِل ونحن الاثنان نملك الورشة معًا. إنه شخص غليظ أخرق كما تظنين، لكنّه مع ذلك يُمكنه بمطرقة الدقيقة أن يصنع لك من الحديد دبوس زينة أفضل مما ترتدينه الآن.»

«هل تقصد جوزيف؟»

رد رولاند في دهشة: «أجل. ماذا تعرفين عنه؟»

«أنسيَتَ بهذه السرعة؟ لقد كانت كتفاه القويتان هما اللتين كسرتا باب غرفتي في بفالنتس، وقد أخبرتني بنفسك أن اسمه جوزيف جريسيل. هل كان كل هؤلاء اللصوص الذين كانوا معك حرفيين أمعاء؟»

«أجل جميعهم.»

«إذن يجب أن تكون أنت ذلك الشرير الذي جعل هؤلاء الحرفيين الشرفاء يضلُّون الطريق؟»

ضحك رولاند بشدة.

وقال: «نعم هذا صحيح. هل سقطتُ من نظرك؟»

«كلا؛ أنت المنقذ في نظري. كما أنني أنتمي لِعرق من الأشرار، ولا شك أنني في هذا الصدد سأكون أكثر تسامحاً من الآخرين تجاه شرِّك.»

توقَّف الشاب عن المشي، وأمسك بيديها ثانية، وهو الأمر الذي سمحت له به دون مقاومة.

وقال بنبذة جادة: «هيلدا، لقد كان وصيُّك يعتقد أن رئيس أساقفة ماينتس قد لان وسوف يتراجع عن معارضته زواجنا. فهل قال رئيس أساقفة ماينتس شيئاً يدعم هذا الاعتقاد؟»

«كلا.»

«هل فتح وصيك هذا الموضوع معه؟»

«أجل؛ لكن موقف سيادة رئيس أساقفة ماينتس لم يكن واضحاً على الإطلاق. أنا شخصياً أرى أن وصيي مُخطئ في ظنه. فقد تمتع رئيس أساقفة تريفييس بأن ماينتس لا يغفر أبداً. أنا واثقة أنني أسأت إليه بنحوٍ لا يقبل العفو. إنه يتمنى أن تكون إمبراطورة المستقبل شخصية لطيفة تُؤثِّر على زوجها تبعاً لأهوائه ورغباته، لكني، كما تفاخرت أكثر من مرة، أنتمي لنسل عائلة ساين.»

«هيلدا، هل ستتزوجيني بصرف النظر عن رأي رؤساء الأساقفة؟»

«رولاند، هل ستتخلَّى عن العرش لأجلي؟»

«نعم؛ وألف نعم!»

«لقد قلتَ من قبل «لِلإمبراطورة؛ لا لِلإمبراطورية»، لكن إن لم أصبح الإمبراطورة،

فهل ستظل لهفتك للزواج مني كما هي؟»

«نعم.»

«إذن «أنا» أيضًا أقول نعم!»
فاتحضنها بين ذراعيه وحلّقًا معًا في سماء أول قُبلة بينهما، وشعرا بنشوة الذوبان معًا. لكنها ابتعدت عنه فجأة.

وهمست قائلة: «هناك شخص قادم.»
قال رولاند في لهفة: «لا شيء يهم الآن. لا يوجد اليوم في هذا العالم إلا أنا وأنت.»
وضعت هيلديجوندي يديها على وجنتيها وكأنما تخفي لونهما الفاضح ودفئهما.
قال رولاند: «يبدو أنك ستتزوجين رجلًا فقيرًا.»
ابتسمت ابتسامة مهزوزة وكزّرت كلامه قائلة: «لا شيء يهم الآن. يقال إنني أغنى امرأة في ألمانيا. سأبني لك ورشة حدادة وأكون ضمن تلاميذك. وسوف نُكُتّب على الباب «السيد رولاند وزوجته؛ صانعا السيوف.»»
ظهر رجلان عند نهاية الممر، ووقفوا في سكون؛ فكان أحدهما مقطّب الجبين، بينما ارتسمت على شفتي الآخر ابتسامة.

همست الكونتيسة واعتري وجهها زعر لم تستطع يداها إخفاءه: «أوه، رئيس الأساقفة وكونت بالاتين!»

تقدّم سيادته إلى الأمام ثم تبعه الكونت المبتسم على مهل.
قال رئيس أساقفة كولونيا: «أيها الأمير رولاند، لم أتوقّع هذا بعد اجتماعنا ليلة أمس.»

«لست أدري لماذا، يا سيدي، في حين أنني قلت عند المغادرة «أخبر حارس البوابة بأن يسمح لي بالدخول دون اعتراض.» وهذا بالتأكيد يعكس نيتي لزيارة القصر.»
«سموّك تعلم أنك بالنسبة إليّ موضع ترحيب شديد، وستظل هكذا دائمًا، لكن في ظل الوضع الراهن هناك آخرون يجب أخذهم في الاعتبار.»
قاطعه رولاند.

وقال: «اقرأ هذا الخطاب، يا سيدي، وستعرف أنني هنا بموافقة كاملة من أمير الكنيسة الكريم هذا، أمير ماينتس.»

تفحّص رئيس أساقفة كولونيا الخطاب مقطّبًا جبينه.
وقال: «إنك يا صاحب السمو شجاع جدًّا، وإن سمحت لي، مكرّر بعض الشيء.»
«سموّي ليس مكرّرًا على الإطلاق، كلُّ ما في الأمر أنني أتعامل مع أيّ موقف بمجرد حدوثه.»

قالت الكونتيسة رافعة رأسها في فخر: «أيها الأمير رولاند، هل لي أن أقدم لك صديقي، والشخص الذي يكاد يكون جاري، كونت بالاتين الراين؟»
تمتم رئيس الأساقفة بينما اعتراه الخجل والارتباك: «آه معذرة»، لكن الكونت المرح أزال عنه كل الحرج بتحيته الحارة.
«أيها الأمير رولاند، أنا سعيد جداً بالشرف الذي منحتني سيادتها إياه.»
«وأنا أيضاً يا سيدي في غاية السعادة بقاء كونت بالاتين من جديد.»
صاح الكونت مُندهشاً: «من جديد؟ لو كنا قد التقينا من قبل، سموك، فما كنت بالتأكيد سأنسى هذا الشرف.»
ضحك الأمير.

وقال: «لكن هذا حقيقي بالفعل. هناك يا سيدي الكونت من هو مُسمًى على اسمي في قلعتك الحصينة جوتنفيلس؛ إنه يمنح منصباً شرفاً أكثر مما أفعل أنا.»
أرجع كونت بالاتين رأسه للوراء، وتردد صدًى ضحكات مدوية في أرجاء الحديقة.
وصاح قائلاً: «أنت تقصد فرسي الأسود، الأمير رولاند! إنه حصان نبيل حقاً. كيف عرفته؟ إذا كنت جلاتك تهتم بالخيول، فاسمح لي أن أهديه لك.»
«إطلاقاً، سيدي الكونت. أنت مُولع به للغاية، ولطالما شعرتُ تجاهك بعاطفةٍ لحبك لهذا الحيوان، الذي يفوق بالكاد حبي له بالتأكيد. لقد أمسكت بلجامه وأمسكت بركاب سرجه أثناء ركوبك إياه.»
تساءل الكونت مندهشاً: «كيف ذلك؟»

«لقد اعتنيت بالأمير رولاند قرابة الشهر، وكنت أتلقي أجراً كبيراً، وما أقدره أكثر هو ثناؤك؛ لأنك رأيت أنني مولع بالأحصنة مثلك تماماً.»

«يا إلهي! هل أنت ذاك الشاب الذي أتى على نحوٍ غامض واختفى دون إنذار؟»
قال الأمير ضاحكاً: «أجل. أنا أعرف جوتنفيلس تقريباً كما تعرفها أنت. فقد كنت أدرس فنون الحرب وطرق التحصين. وقد توقفت بعدة أماكن مختلفة عند جميع قلاع نهر الراين الشهيرة تقريباً، وهذه المعرفة أسفرت مؤخراً عن ...»

صاح رئيس الأساقفة متوسلاً: «يا صاحب السمو، يا صاحب السمو! أرجو أن تتذكر أن كونت بالاتين أحد أمراء الإمبراطورية الناهخين، وكما أخبرتك الليلة الماضية، نحن أمام أزمة حقيقية. وإلى أن تنتهي تلك الأزمة ستزيد من قلقي الكبير بالفعل إن صدر من جانبك أي تصرف يفنقر إلى التحفظ.»

صاح الكونت قائلاً: «بحق ملوك المجوس الثلاثة، إن هذا الشاب، إن جاز لي أن أتجرأ بتسميته هكذا، ربطني به بروابط أقوى من الدروع المسلسلة. وسأصوت له رغم أنف المتردين.»

قال رئيس الأساقفة بابتسامة استعطاف: «لقد كان سموه يستمع إلى الأساطير الشرقية التي جلبها أسلافنا من الحروب الصليبية، وأخشى أن تكون قد ملأت رأسه بالأوهام.»

قال الشاب: «في الواقع، لقد أسأت الظن بي يا رئيس الأساقفة؛ فأنا الشخص الأكثر عملية في الإمبراطورية بأكملها. لقد قاطعت تفاخري أمام سيادتها بشأن أعمال اليدوية. كان عليّ أن أخبرك أنني جرتي قدير وصانع سيوف.» ثم أضاف، مستلاً سيفه ومُعطيًا إياه لرئيس أساقفة كولونيا: «ما رأيك في هذا يا سيدي؟» فقال بينما كان يوازنه في يده: «سيف ممتاز حقًا.»

«عظيم، يا سيدي، لقد صنعته وضبطته دون مساعدة. وأرجو أن تدخل إلى قصرك من جديد وتُصير أمرًا بصناعة ألف سلاح مثله.»

«إذا كنت جلالتك ترغب حقًا في أن أفعل ذلك، وإن لم يكن هناك سخرية خفية في طلبك هذا أنا أغبى من أن أفهمها، فينبغي أن تُرافقني إلى غرفة المكتب وتُملّي عليّ الوثيقة التي أنا بصدد كتابتها. وسوف أنتظرك إلى أن تُودّع الكونتيسة.»

تبادل هو والفتاة نظرات التفاهم فيما بينهما، ثم رفع رولاند يدها لشفتيه يُقبّلها، وبالرغم من أن الناظرين رأوا التحية اللطيفة هذه، فإنهما لم يفتننا إلى الضغطة الرقيقة التي باحت من خلالها أصابعها بأسرارها لشفتيه.

قال الأمير: «سيدتي، سيُسعدني وسيكون من واجبي أن أزور أُمّي في الغد. فهل لي أن أتوق إلى شرف تقديمك لها؟»

قالت الكونتيسة ببساطة: «أشكرك»، وفي عينيها نظرة رجاء لوصيها. فتنهد الرجل الطيب ثم شقَّ طريقه إلى داخل القصر.

الفصل العشرون

لغز الغابة

غادر رولاند القصر وعلى وجهه ترتسم أمارات نشوة لم يَعهدْها من قبل، لكن ما لبث أن كبت هذا الشعور حين رأى مُلازم ليلة البارحة واقفًا وسط الميدان. أراد في البداية تجنُّبه، لكنه وبنحو غريزي التفت إليه وسار نحوه مباشرة، وعلى ما يبدو أن هذا أربك مبعوث ماينتس الشجاع.

بادره رولاند وكأنه في غاية سعادته لرؤيته قائلاً: «مساء الخير يا سيدي. هل تسمح لي بالحديث معك؟»

رد الملازم ردًا مُقتضبًا قائلاً: «بخصوص ماذا؟»

«إن ورشة الحدادة الخاصة بي، التي كانت مظلمة وباردة لأيام طوال، قريبًا ستُنار وتعود دافئة من جديد. ما رأيك في هذا؟» وناول الملازم الأمر الذي صدر له بصناعة ألف سيف، فرأى الملازم أن هذا الأمر شيء جدير بالاهتمام في مجال التسليح سيقدِّره رئيسه. «لم تُخبرني بالأمس عن التاجر الذي كنت تتمنى أن يمُول مشروعك.»

كزَّر رولاند كلمته بعينين لامعتين قائلاً: «أتمنى؟ إنه أكثر من مجرَّد تمنٍّ، سيدي الملازم. إنه يُدعى جوبل، وهو واحد من أغنى وأمهر تجار فرانكفورت. يا إلهي، لقد صنعت ثروتِي! اقرأ هذا، إنه مكتوب بخطِّ يده. وقد حصلتُ منه عليه قبل وقت الظهيرة، لمجرد أنني قلت له إنني واثق من صدور أمرٍ من سيادة رئيس الأساقفة.»

قال الملازم في فتور، بينما يعيد له الوثيقتين: «هذا في واقع الأمر أمرٌ تحسَد كثيرًا عليه.»

«نعم، ولكني ما زلت في البداية. فإذا أسديت لي معروفًا بتمهيد الطريق لي لدى سيادة رئيس أساقفة ماينتس، فسوف أقوم في المقابل ب...»

«سحقاً لك أيها الوجد الوضعي المُحب للمال! هل تظنُّ أنني، أنا الضابط، سأهين نفسي بمشاركة بائع متجول!»

وأدار الملازم ظهره له وغادر. فواصل رولاند طريقه مُطأطئاً رأسه، وكأنما أصيب بصدمة لما سمع. وبالقرب من الجسر، رأى مجموعة من الناس يلتفون حول عربة فارغة، يقف بجوارها رجل بملابس رثة يُطلق اللعنات بقوة.

ظن للوهلة الأولى أن حادثاً قد وقع، لكن أغلب الناس كانوا يضحكون بصوتٍ عالٍ؛ لذا وقف بعيداً عن بؤرة الأحداث وسأل عن أسباب عن هذا الاضطراب.

قال أحدهم: «إنه ليس سوى مُزارع أحمق، أتى من الريف بحمولة خضراوات. وإن الدخول إلى عرين الأسد دون سلاح أأمن من الدخول إلى فرانكفورت مُحَمَّلاً بطعام والناس يتضوُّرون جوعاً. لقد نهبوا ما معه حتى آخر ثمرة.»

شقَّ رولاند طريقه وسط الجموع وربَّت على كتف الرجل المذعور.

وقال: «ما ثمن حمولتك؟»

«أخبرني كذاب أشر هذا الصباح بافتتاح سوق في فرانكفورت وبوجود الكثير من المال. وما إن دخلت المدينة حتى نُهب منِّي كلُّ ما كان معي.»

«نعم، نعم، أعرف هذا كله. الآن سؤالي هو: كم ثمن بضاعتك؟»

«ثمنها؟ كنت أتوقَّع الحصول على ثلاثين تالراً، والآن ...»

قاطعهُ الأمير قائلاً: «ثلاثين تالراً. ها هي ذي أموالك. اذهب وأخبر جيرانك بوجود دفع فوري مُقابل كلِّ ما يمكنهم إحضاره من طعام.»

هدأ الرجل وكأنما أُلقي عليه دلو من الماء. وأخذ يعدُّ النقود بعناية فائقة، حتى إنه كان يَحْتَبِر كل عملة بين أسنانه ثم ركب عربته دون أن يتفوَّه بكلمة شكر، ورحل ليُصيب الحشد الغفير بخيبة الأمل. أما رولاند فقد ذهب متجهاً مباشرة إلى منزل السيد جوبل والغضب يتملَّكه، فوجد ذلك العجوز المسالم جالساً إلى طاولته.

صاح رولاند قائلاً: «آلاف اللعنات على كَسَلِك! أين لجنتك وأين المبعوثون المخوَّلون بتنفيذ مخطط الإغاثة الذي أمرت به؟»

صاح الرجل مُندهشاً: «لجنة؟ مبعوثون؟ لم يكن هناك أي وقت لذلك!»

«أي وقت أيها الأحمق غليظ الرأس! سأعلِّقك على بابك الأمامي. لقد كان لديَّ وقت لإرسال رجالي إلى أنحاء البلاد؛ ووقتٌ لأحد المزارعين ليأتي راكباً عربةً مُحَمَّلة بالثمار، ووقتٌ لكي يُسَرِّق ها هنا على مرأى ومسمع منك! وأنت أيها الملعون تجلس هنا، وتملاً

بطنك وتَصيح ليس هناك وقت! لو لم أَدفع إليه أمواله لعاد إلى بلدته ناشراً أننا كُلُّنا لصوص في فرانكفورت. والآن اسمعني جيداً. لقد أشهرتُ سيفي بوجهك ذات مرة مازحاً. وإذا أشهرته للمرة الثانية فسوف أجعله يخترق جسدك الكسول هذا. إن لم يتوفَّر مُشترٍ عند كلِّ بوابة في فرانكفورت في غضون ساعتين لكي يشتري ما تحمله كل عربة محملة بالثمار ويدفع لصاحبها الثمن، وكذلك إن لم تأتِ بعدد من المرشدين ليدلُّوا المزارعين على المكان الذي يوصلون فيه ثمارهم، فسوف أسلِّم مدينتك للجنود وأمرُ بنهب منازل جميع التجار التي تقع بين أسوارها.

قال التاجر لاهتأً، وهو يرتعد بينما ينهض على قدميه: «حسنًا سأنفِّذ الأمر؛ سأنفِّذ الأمر؛ سأنفِّذ الأمر!» وأخذ يُردِّدها كاللبغاء بينما بتخبط من الذعر. قال الأمير محاولاً تهدئته: «أنت مَدِين لي بثلاثين تالراً؛ أول ما دُفع من صندوق الإغاثة. فأعطني إياها.»

سَلَّم السيد جوبل الأمير المال بيديَّين مُرتعشتين دون أن يرى أيَّ قدرٍ من المزاح في الأمر، فأخذها الأمير ودسَّها في محفظته.

كان الظلام قد حلَّ حين وصل في النهاية إلى غرفته في زاكسينهاوزن، وهناك وجد جوزيف جريسِل ينتظرُه في مكانٍ شبه مظلم وتبدو عليه كآبة بالغة. قال الزائر: «أدخلني مالك العقار.»

«عظيم! لم أتوقَّع عودتك بهذه السرعة. هل عاد الآخرون؟»
«لا أدري. لقد أتيتُ إلى هنا مباشرة. وأحمل أخباراً سيئة للغاية، يا رولاند، عن كارثة وشيكة الحدوث في فرانكفورت.»
«كارثة أكبر مما تشهده الآن؟»

«حرب أهلية، وإطلاق نار، وسفك دماء. أغلق الباب يا رولاند؛ فأنا مُنْهَك ولا أريد أحداً أن يسترق السمع.»

استجاب الأمير لطلبه وأغلق الباب، ثم اتجه نحو خزانة وأخرج منها إبريقاً كبيراً من النبيذ وكوباً صغيراً، ووضعهما على طاولة صغيرة أمام جريسِل، ثم ألقى بنفسه على الكرسي الوحيد ذي الذراعين الموجود في الغرفة. فملاً جريسِل الكوب بالنبيذ وشربه في شربة واحدة دون أن يلتقط أنفاسه. ثم انهمك مباشرة في سرد قصته.

«كنت قد توغلْتُ في الغابة مسافةً أقل من نصف فرسخ حين أوقفني رجل مسلَّح ظهر لي فجأة من خلف شجرة. وكان يرتدي الزي الرسمي لرجال رئيس أساقفة ماينتس،

وأعلن أنني سأُسَجِّن. فرحت أشرح له مهمتي هنا، لكن دون جدوى. سألني إذا ما كنتُ سأذهب معه في هدوء أو سأضطُرُّه لاستدعاء المساعدة. وبما أنني كنت قليل الحيلة، قلت له إنني سأذهب معه في هدوء. لكنه مع ذلك كَبَّلَ رسغي خلف ظهري ثم عصب عيني بقطعة قماش. بعدها سَحَبَنِي من ذراعي، وقادني عبر الغابة لمسافة لا يُمكنني حسابها. لكن أظن أننا مشينا مدة لا تزيد عن عشر دقائق. بعدها توقَّفنا وكانت هناك مُحادثات هامسة، ثم ساد صمْتُ بضَعِ دقائق، ثم عادت المحادثات من جديد ولم أسمع سوى جزءٍ منها. فلم يكن القائد الذي يجب أن أمثُل أمامه مُستعدًّا بعدُ لاستقبالي. فكان عليه أن يُودعني داخل خيمة وينصَّب عليَّ حارسًا.

جرى تنفيذ هذا. فطلبتُ فكَّ الحبل الذي جرح رسغي، لكنه بدلًا من ذلك ربط كاحليَّ معًا فجلست هناك على الأرض مُستندًا إلى عمود في الجزء الخلفي من الخيمة. وهنا تركني مرافقي وسمعته يُعطي الأوامر لمن بالخارج بالحراسة المشدَّدة، لكن دون أدنى تواصلٍ معي.

استنتجتُ حينها أن الخيمة التي أشغلها تقع خلف خيمة القائد؛ لأنني بعد مرور بعض الوقت سمعت أصواتًا وبدا لي أنها أصوات رجلَيْن من أصحاب السلطة. كانا قد اتجها نحو الجزء الخلفي من خيمتهما وكأنَّهما كانا يُريدان التحدث حديثًا سرِّيًا معًا، وكان صوتهما خافتًا لكن كان بإمكانني أن أسمعهما بوضوح تام؛ إذ لم يكن يفصلني عنهما سوى مجرد قطعة قماش. فكان ما علمته هو الآتي. كانت توجد قوة قوامها سبعة آلاف جندي مختبئة في الغابة، على بُعد مسافة نصف ساعة من المشي السريع من البوابة الجنوبية. وهؤلاء الجنود ينتمون إلى رئيس أساقفة ماينتس الذي يقود ثلاثة آلاف جندي آخرين داخل أسوار فرانكفورت. كان رئيس أساقفة ماينتس يتحكم في البوابة الجنوبية، بينما كان رئيس أساقفة تريفيس يتحكَّم في البوابة الغربية، أما رئيس أساقفة كولونيا فكان يتحكَّم في البوابة الشمالية. يمكنك أن تتخيل في الحال ماذا يعني ذلك. بإمكان رئيس أساقفة ماينتس أن ينشر جنوده في فرانكفورت، لنقل، عند مُنتَصَف الليل، وفي الصباح سيكون لديه عشرة آلاف جندي مقارنةً بثلاثة آلاف جندي لدى كلٍّ من رئيسي أساقفة تريفيس وكولونيا. وهذا يعني حربًا أهلية والإطاحة الكاملة برئيسي أساقفة الشمال.»

قال رولاند معلقًا: «أرى أنك تأخذ الأمر بجدية أكثر من اللازم. لا شك أن رئيس أساقفة ماينتس رجل حاذق يأخذ كل احتياطاته حتى يتحقق له ما يريد. والسبب في عدم اندلاع حرب أهلية هو الآتي. لقد علمتُ من مصدرٍ له شأن عظيم أن رئيس أساقفة

ماينتس له مكانة كبيرة في المجلس الانتخابي. فهو ليس بحاجة لإخضاع رئيسي أساقفة كولونيا وتريفيس بالقوة؛ لأنه بالفعل متفوق عليهما بذكائه في تدبير المكائد. إنه قائد بالفطرة وكل طريقه تحكمها الدبلوماسية لا القوة. وأستطيع القول إنه لو تطلب الأمر لوجدته يضرب بسرعة وبقوة، لكن الأمر لا يستدعي. أنا واثق جدًا من معلوماتي، وأعلم أن رؤساء الأساقفة الثلاثة معًا ومعهم كونت بالاتين الراين، متفوقون جميعًا على انتخاب الأمير رولاند، إمبراطورًا لألمانيا.»

قال جريسيل: «نعم، سمعتُ تلك الشائعة، وهي تتردد بوجه عام في أرجاء فرانكفورت. لكن الشائعات كالمعتاد تكون كاذبة.»

ابتسم الأمير لرفيقه المتشائم؛ إذ كان ذلك الرفيق يتحدث إلى الرجل العالم ببواطن الأمور؛ ومع ذلك كان يُنصت في صبر؛ لأنه بالطبع لم يكن ليظهر حقيقته لمساعدته الكئيب الذي واصل روايته قائلاً:

«تحدث الرجلان عن الأمير السيئ الحظ الذي لا يزال، في اعتقادي، سجيناً في إيرنفيلس.»

وهنا انفجر رولاند بالضحك.

وقال: «عزيزي جريسيل، أنت مُخطئ تماماً. فالأمير لم يكن سجيناً بمعنى الكلمة يوماً، وهو الآن في فرانكفورت يتصرف بحرية ويفعل ما يشاء مثلي تماماً.»

رد جريسيل قائلاً: «للأسف، أنت لم تدرك بعد مدى جدية الموقف، لكنني لم آت بعد إلى الجزء المحوري منه، بالرغم من أنني ظننتُ أن حقيقة وجود سبعة آلاف جندي يُهاجمون فرانكفورت ستفاجئك.»

قال رولاند: «لقد فاجأتني بالفعل يا جريسيل»، وتذكر عدم ثقة الكونتيسة ووصيها في رئيس أساقفة ماينتس، وكذلك الحراسة الشديدة التي يفرضها سيادته على فرانكفورت، كما اتضح من خلال زيارة أحد الضباط له في هذا المكان. فقال بمزيد من الرصانة: «واصل حديثك يا جريسيل. لن أقاطعك مرة أخرى.»

«لقد علمت أنه وقع الاختيار على الأمير رولاند بالفعل، لكن ثمة تعقيدات حدثت لم أفهمها تماماً. وهذه التعقيدات مُرتبطة بامرأة أو امرأتين؛ كلاتهما تُعارض رئيس أساقفة ماينتس بنفس القدر. وكان من المُفترض أن تتزوج إحداهما الإمبراطور الجديد، لكن بدلاً من أن يحدث ذلك، قرّر رئيس أساقفة ماينتس انتخاب شخص آخر بخلاف الأمير رولاند، والسبب هو خشيتُه من أن تكون إحدى السيدتين تحت تأثير رئيس أساقفة كولونيا بالكامل إن وقع عليها الاختيار، فيما ستقع الأخرى تحت إمرة رئيس أساقفة

تريفيس. ومن ثمّ فسيادته الماكر أراد يخدع كلا الأميرين الناهخين. فطلب من رئيس أساقفة كولونيا إحضار السيدة التي تحت إمرته إلى فرانكفورت؛ لذا فإنه يتوهم أن رئيس أساقفة ماينتس ليس لديه مشكلة معها. وكذلك طلب من رئيس أساقفة تريفيس إحضار السيدة التي تحت إمرته والتي هي قريبته إلى فرانكفورت أيضاً، وصدّق تريفيس أن هذا القائد يدعمها.

والحق أن رئيس أساقفة ماينتس لن يُرشح أيّاً منهما، لكنه قرّر أن يُعلن للمجلس الانتخابي في اللحظة الأخيرة ترشيحه لكارل دوق هيس، وهو رجل في منتصف العمر مُتزوِّج بالفعل ويخضع تماماً لسيطرة نيافة رئيس أساقفة ماينتس.

«معذرة يا جريس، يجب أن أقاطعك هنا برغم وعدي لك. فما تقوله يبدو في غاية الذكاء ولكن لا يمكن تنفيذه. فقد تعهّد رئيس أساقفة كولونيا وكونت بالاتين ورئيس أساقفة تريفيس بالفعل بالتصويت للأمير رولاند، وكذلك رئيس أساقفة ماينتس نفسه، وكونه يُعبّر وجهته في اللحظة الأخيرة فإنه بذلك يحنث بوعده ويخون زملاءه. كما أنه لا يمكنه التخلي عن صوت واحد، وأرى أن رئيس أساقفة كولونيا سيصوّت للأمير رولاند بكلّ ما أوتي من قوة. وأرى أن الحال كذلك بالنسبة إلى كونت بالاتين. أما رئيس أساقفة تريفيس فهو بالطبع دائم التردّد والشك، لكنك تعلم أن تصويت رئيس أساقفة كولونيا السلبي سيجعل رئيس أساقفة ماينتس قليل الحيلة ويجعل الانتخاب مُستحيلاً.»

«لا شك أن ما تقوله صحيح، وأنت الآن قد وضعت يدك على النقطة المهمة. لماذا أجلت عملية الانتخاب في سابقة لم تحدث من قبل؟»

رد رولاند: «هذا ما لا أعرفه.»

«إذن سأخبرك أنا. لقد أرسل رئيس أساقفة ماينتس أوامر صارمة للأمراء الناهخين الثلاثة الآخرين الذين قيل عنهم إنهم لا يعتنون بالشئون الإمبراطورية، ولا يبالون بشخص الإمبراطور القادم. غير أنه لا يوجد من بين هؤلاء الأمراء الناهخين الثلاثة من يجرؤ على مناطحة رجل قوي كرئيس أساقفة ماينتس. فإذا كان بإمكان رئيس الأساقفة أن يؤثّر على زميليه المكافئين له اسمياً في المنصب، واللذين لكلّ منهما جيش، ففي رأيك كيف يُمكن للنبلاء الثلاثة الصغار هؤلاء الذين ليس لديهم جنود تحت إمرتهم رفض أيّ طلب له والذي يصدّر بطريقة أنيقة لا شك، لكن يكمن خلفه تهديد قويّ لهم؟»

تمتم رولاند: «صحيح، معك حق.»

«لقد وصل اثنان من هؤلاء النبلاء بالفعل، وجرت استضافتهم من قبل رئيس أساقفة ماينتس. ويتوقّع وصول الثالث إلى هنا في غضون ثلاثة أيام؛ أو أربعة على الأكثر.

وحينها سوف يقيم رئيس أساقفة ماينتس المجلس الانتخابي على الفور وقد يندهش كونت بالاتين ومعه رئيسا الأساقفة الآخرين حين يجدون لأول مرة في التاريخ الأمراء الناهخين السبعة كلهم حاضرين في قاعة الانتخاب. وسوف يطلب رئيس أساقفة ماينتس من رئيس أساقفة كولونيا تقديم ترشيحه، وسيطرح اسم الأمير رولاند. وأي تصويت سيُجرى حينئذٍ لن يكون في صالح الأمير. وبعدها سيرفع رئيس أساقفة ماينتس يده ليرشح الدوق كارل، الذي ستنتخبه الأغلبية. ومن ثم ستحدث ضجة واتهامات بسوء النية لكن تذكر أن رئيسي أساقفة كولونيا وتريفيس سيكونان متفاجئين تمامًا بما يحدث. ولا يمكنهما التواصل مع قائدي جيشيهما؛ إذ إن القوات التي يصل عددها إلى ثلاثة آلاف التي نشرها رئيس أساقفة ماينتس بالفعل في أنحاء فرانكفورت ستُحاصر بهدوء مجلس المدينة الذي توجد به قاعة الانتخابات، كما أن رجال ماينتس السبعة آلاف القادمين من الغابة سيُنتشرون عبر البوابة الجنوبية في المدينة، ويذهبون مباشرة إلى مبنى مجلس المدينة، الذي يُسمى رومر. أما الدوق كارل الذي يعرفه العامة في فرانكفورت، فسيظهر في شرفة القاعة الإمبراطورية وقد أعلن كونه الإمبراطور الجديد.»

«أها، سامحني يا جريسيل على شكّي. الأمر اتضح الآن وضوح الشمس. لكن مع ذلك لن تحدث حرب أهلية. فسوف يجمع رئيسا أساقفة كولونيا وتريفيس جنودهما ويعودان من حيث جاء، ليتجرّعا كأس الهزيمة مرةً أخرى على يد رجل يفوقهما معًا ذكاءً وخسة. إنهما ليسا سوى طفلين صغيرين بين يديه.»

تساءل جريسيل: «هل لديك أي اقتراح؟»

«كلا؛ لا يوجد ما يمكن القيام به. فكما تعرف، إن الأمير الشاب ليس له أتباع. إنه ليس معروفًا على الإطلاق في فرانكفورت. واسمه لا يثير أي حماس، وبوجه عام هذا يبدو لي شيئًا جيدًا للغاية. أما الدوق كارل فهو شخص معروف وأرى أنه سيكون إمبراطورًا جيدًا جدًا.»

«أنت تقصد يا رولاند أن رئيس أساقفة ماينتس سيكون حاكمًا جيدًا جدًا لأنه سيكون الإمبراطور الحقيقي؟»

«حسنًا، يا جوزيف، في النهاية هناك الكثير الذي يمكن قوله في صالح ماينتس. إنه رجل يعرف ما يريد، بل والأهم أنه يحصل عليه، وهذا، في النهاية، هو أهم ما في الحياة. فإن استطاع أحدهم أن يؤثر على رئيس الأساقفة لدرجة تجعله يستغل مواهبه الفذة في منفعة البلاد، بدلًا من التفكير في نفسه فقط، فما أعظمه من انتصار! بحق ملوك المجوس الثلاثة، إنني أود أن أفعلها! فأنا مُعجب به. وإذا وجدت فرصة وكان بإمكانني أن أقنعه

بالانضمام إلينا في إغاثة فرانكفورت، وفي فتح نهر الراين أمام التجارة، فسوف نلقن هؤلاء التجار الصعاليك درسًا في التنظيم.»

قام جريسيل من كرسيه وسكب كوبًا آخر من الإبريق وشربه عن آخره.
وقال: «يجب أن أنصرف الآن وأقابل المجموعة. فأنا لم أكل شيئًا طوال اليوم وأشعر بجوع شديد كذب شارد في البرية.»
«أوه، بالمناسبة، كيف هربت؟»

«لم أهرب. لقد قادتوني معصوب العينين إلى خيمة، وأزالوا عني العصابة وهناك سألني رجل بملابس عادية عن غرضي من دخول الغابة. فأخبرته بالحقيقة كاملة، وشرحت له ما نحاول فعله في فرانكفورت. يُمكنني القول إنني بدوتُ صادقًا وغبيًا نوعًا ما. سألني متى انطلقتَ ومن أي اتجاه أتيت؛ لكنه كان يسألني بقدر كبير من اللامبالاة؛ وأراد أن يعرف ما إذا كنتُ قد التقيت بعدة أشخاص، وأخبرته بمنتهى الصدق أنني لم أقابل سوى الرجل الذي فهمت أنه حُرَّاج؛ أو حارس بحسب افتراضي.»

قال: «يوجد عدد منا يصطاد الخنازير البرية، ونحن لا نرغب في أن نُعكر صفو حياة الحيوانات في هذه الغابة. نحن لن نمكث هنا أكثر من أسبوع واحد، لكنني أنصحك أن تبحث عن مكان آخر يُمكن أن تجد فيه الأخشاب التي تحتاج إليها.»

سألني أخيرًا عما إذا كان هناك أشخاص في فرانكفورت قد علموا بقدومي إلى الغابة، وأجبت أن مجموعة من عشرين رجلًا تعرف وأنا جميعًا كنا بصدد الاجتماع الليلة في حانة راينجولد للإبلاغ عما قمنا به. توقَّف قليلًا عند هذه العبارة، وأعتقد أنه توصَّل لاستنتاج مفاده أنني لو لم أرجع إلى فرانكفورت، فقد تنطلق هذه المجموعة في الصباح للبحث عني؛ فمن المعروف جيدًا أن الغابة خطيرة لوجود الخنازير البرية. ولذلك، وكأنَّ هذا لم يكن له أيُّ تأثير، عصب عيني من جديد واعتذر بنحو خاص على فعل هذا، قائلاً إنه لم يكن هناك أيُّ داعٍ في المقام الأول، لكن نظرًا لأن الحارس قد فعل هذا، فلم يكن يرغب في توجيه اللوم إليه ضمنيًا.

فأجبت بأن هذا الأمر لا يهم، لكنني كنت أرغب في أن يُصدر أمرًا بتحرير رسغي وهذا ما حدث بالضبط.

علَّق رولاند قائلاً: «يجب أن أقول إن رئيس أساقفة ماينتس لديه ضباط جيدون. فقد كان الضابط الذي حقَّق معك رجلًا حكيماً.»

رد جريسيل: «نعم، ولكنني أخبرته بقصتي هنا في فرانكفورت.»

لغز الغابة

«لا فرق في ذلك؛ لأنه، كما قلت من قبل، ليس بإمكاننا أن نفعل شيئاً. لكن الشيء الجيد أن الرجل الذي حَقَّقَ معك لم يُخَمَّنْ ما سمعته خلسةً في الخيمة الأخرى. فقد تركك ترحل ظناً منه أنك لم ترَ أو تسمع أي شيء؛ ومن ثم تجنَّبَ القيام بعملية تفتيش جماعية غداً.»

الفصل الحادي والعشرون

زواج سري

طوبى لمن لا ينتظر شيئاً؛ فهو لن يتجرّع كأس الخذلان أبداً. مشى رولاند مع جريسيل عبر الجسر وعبر الشوارع إلى أن وصلا إلى مدخل راينجولد فتوقفا عنده. وقال: «لن أنزل معك. فقد منحنتني الكثير لأفكر فيه، ولست في حالة مزاجية تسمح لي باجتماعٍ مَرَح. في الواقع، أخشى أن أثبُط روح الحماس عند الفتیان. وأصل عملك الناجح غداً وأبلغني ما توصلت إليه في غرفتي.»

وعندئذٍ ودّع رولاند جريسيل وتمنّى له قضاء ليلة سعيدة ومضى. أخذ يمشي ببطء شديد إلى أن وصل إلى الجسر، وهناك أسند ذراعيه إلى السور، ونظر إلى المياه الداكنة. فصعق حين أدرك كيف أنه لا يهتم كثيراً بأمر التخلي عن الإمبراطورية، وتذكر بشيء من البهجة حديثه الأخير مع هيلديجوندي في الحديقة، وتأكيدها أنها لا تطمح مطلقاً في أن تصبح السيدة الأولى في المنطقة ما دام سيعيشان هما الاثنان حياتهما معاً.

أيقظته أجراس فرانكفورت التي تعلن عن حلول الساعة العاشرة من أوهامه، وحولت أفكاره من غيابات الأحلام السعيدة والرومانسية إلى عالم الواقع. فقد كانت الدقائق الثمينة تتفلّت من رأسه بسرعة كما تنساب قطرات الماء تحت قدميه. ولم تكن هناك جدوى كبيرة من إطعام سكان فرانكفورت ما داموا سيتعرضون حتماً للحرق والذبح.

لقد تملّكه شعور بالفزع حين تذكر خيانة رئيس أساقفة ماينتس بدم بارد، برغبته في فرض أهوال الحرب الأهلية على مدينة منكوبة بالفعل ما دام هذا يخدم أغراضه الأنانية ويحقّقها.

وقال في نفسه: «لكن حتماً هذا الرجل بداخله خير. وددت لو عرفتُ ماضيه. فربما كان عليه أن يُحارب في كل خطوة يخطوها في هذا العالم. وربما هُزم بالخديعة؛ وجرى

التغلب عليه بالغش حتى مات الإيمان بداخله. فقد كنتُ على وشك فقد إيماني لو أنني حين التقيت برئيس أساقفة ماينتس لم أستشعر في الوقت نفسه فضائل رئيس أساقفة كولونيا، وصدّق كنت بالأتين الشديد. ما أروع هذا العالم، لو أزيل منه خداع أشباه كورزبولد وجينسبين واستبدل به الوفاء الشديد لأمثال جريسيل وإبرهاردا! هكذا يوازن الخير الشر، وبعد ذلك ... وبعد ذلك، كم تضيء السماء الأرض بنظرة ملائكية من امرأة صالحة. فليهدني الله! فليهدني الله! وليخمد بداخلي كلّ مشاعر الغضب والقسوة.»

وعبر الجسر بسرعة باتجاه زاكسينهاوزن، متجاوزاً غرفته في زاوية الشارع، ثم تابع إلى أن وصل إلى دير البندكت، الذي يفتح مُصلاه الصغير ليل نهار لكي يُصلي فيه من تواجهه مشكلة أو يشعر بالحزن، والذي لا يسكنه سوى واحد من الإخوة الكبار الذي عند الحاجة يقدم النصيحة أو التشجيع أو المواساة الروحية. دخل الأمير إلى هناك خالعا قبعته في صمت يمشي على أطراف أصابعه ثم جثا على ركبتيه أمام المذبح، داعيا الله بقلب مخلص أن يمنحه الهداية وأن يلهم عبده رئيس أساقفة ماينتس الصواب، وأن يوجّه أفكاره نحو سبل السلام وإغاثة تلك المدينة التعيسة.

وحين همّ بالوقوف على قدميه كان حملٌ قد وقع عن كاهله، وعاد مرحُ الشباب ليزيح عنه الكأبة التي تملكته لبعض الوقت لدى سماعه خبر الجيش الذي يهدّد بالسيطرة على مدينة فرانكفورت. لقد كانت خططه صادقة، وأساليبه تهدف إلى الإصلاح، وقد أصبح الطريق أمامه واضحا الآن. وعندئذٍ اقترب منه الراهب المسئول الذي كان راكعا في زاوية مظلمة بالقرب من الباب وقاطعه.

وقال: «هل ستنكر جلالتك نفسك في الكنيسة كما فعلت عند الجسر؟»

فتوقّف رولاند. ولم يتمكّن من التعرف على ذلك الأب وسط الظلام.

«كلا، أيها الأب أمبروز وأنا أفعل الآن ما كان عليّ فعله حينها. أصلي لنيل بركتك في

المغامرة التي أقدم عليها.»

«لقد أعطيتها طوعا يا بُني، لعلّي أستطيع التكفير بعض الشيء عن نسياني لكلمات الكتاب المقدس: «لا تدينوا لِكَيَّ لا تُدانوا». وأنا للأسف أسأت الظن بك، بناءً على ما سمعته من رئيس الأساقفة وإحدى قريباتي. أرجو أن تغفر لي.»

«سأسامحك، أيها الأب أمبروز، إذا قدّمت الكفارة كاملة وليس جزءا منها. فقد ثبت

أن عواقب الخطأ الذي ارتكبته وخيمة وبعيدة المدى. وأقل ما في هذه العواقب أنها كلّفتني منصب الإمبراطور.»

تأوّه الرجل الصالح وقال: «أوه، إنها غلطتي، إنها غلطتي! لا توجد كفارة يمكن أن تعوّض تلك الكارثة.»

«أنت تلوم نفسك أكثر من اللازم أيها الأب الصالح. فالكفارة التي سأفرضها ستجعلني مدينًا لك بشدة. والآن لكي نَنطَلِق من أبسط هذه النتائج ونصل إلى أعظمها، بالنسبة إليّ، فإن زواجي من قريبتك التي شغفتني حبًّا أصبح على المحك. فمن خلال قناعتها بأني كنتُ لصًّا، تحدّث رئيس أساقفة ماينتس فأمر بسجنها، والآن قرّر سيادته أن يكون دوق هيس العظيم كارل هو الإمبراطور. ومن ثم نصل إلى أهم نتيجة أسفرت عنها غلطتك. فقد ينشب بين قوات رئيس أساقفة ماينتس العاتية وقوات رئيسي أساقفة كولونيا وتريفيس غير الكافيتين صراعٌ يتسبّب في إراقة الدماء وسط شوارع فرانكفورت.»

تأوّه الرجل التقي في حسرة.

فقال رولاند: «لديّ خطة ستمنع حدوث ذلك. بعد غد، سأتخلّى عن أيّ مطالبة بالعرش؛ لكن بما أنني أناني مثل الآخرين، فسأرفض التخلي عن مطالبتني بالسيدة التي اختارها رؤساء الأساقفة أنفسهم لي زوجة، ولن أسمح بترك المسألة لتحكّم الظروف أكثر من ذلك. لقد اعترفت قريبتك ظهر اليوم بحبّها لي وبتجاهلها التام لأي منصب قد أشغله في هذه المنطقة. والآن، أيها الأب أمبروز، سأسألك عدة أسئلة. هل يتوافق مع تعاليم الكنيسة أن تُقام مراسم زواج هنا في هذا المصلّى الصغير؟»

«أجل.»

«هل أنت مُخَوَّل بأداء هذه المراسم؟»

«نعم.»

«وهل يُمكن إقامة هذه المراسم غدًا؟»

«نعم.»

«هل ستتعهّد إذن بالقيام بالأمور التمهيدية اللازمة التي أجهلها تمامًا، وتخبرني في أي ساعة يُمكنني أنا والكونتيسة الحضور إلى هنا؟»

«لكن رئيس أساقفة كولونيا هو وصي سيادتها. فهلا تأتيني بموافقتة؟»

«أوه، أيها الأب، هنا تكمن المشكلة. لا شك لديّ أن رئيس الأساقفة هو أقل الرجال طموحًا، لكنه في أمر زواج صانع سيوف ممّن تخضع لوصايته، أخشى أنه سيَرفض العرض الذي سأقدّمه للزواج منها والذي كان سيقبله بكل سرور لو قدّمه إمبراطور.»

أخفض الراهب رأسه وأخذ يتأمل هذا الطرح. ثم قال أخيرًا:

«ولم لا تطلب موافقة سيدي رئيس الأساقفة؟»

«أنا لا أجزؤ على هذا. أمور كثيرة في خطر. فقد تنفّى إلى أيّ قلعة في ألمانيا. وتذكّر أن رئيس أساقفة كولونيا رَضَخ لسجنها بالفعل، ولم يأتِ بي لبابِ سجنها سوى تلك السلسلة الحديدية في سجن الفالتسجراف، هل قلت السلسلة الحديدية؟ بل كانت يد الله التي جمعتني بها، والآن، وبمعاونة الرب الذي يُرشدني، لن يحول كلُّ رؤساء أساقفة المسيحية دون هذا الزواج ولو اجتمعوا على ذلك. كلّاً، أيها الأب أمبروز، قم بكل أشكال الكفارات التي لا طائل منها. وستجد أنها لن تُجدي نفعًا في التكفير عن الخطأ الذي ارتكبته. والآن ليلة سعيدة لقداستك!»

واتّجه الشاب نحو الباب.

فناداه صوت القس الخافت: «يا بني، ألم تكن جاثيًا الآن على ركبتيك تدعو الله أن يرفع عنك الغضب؟»

فاستدار رولاند.

وقال: «إنها غلطتي، كما قلت الآن لتوك. سامحني أيها الأب أمبروز. فقد استغللتُ غلطتك بطريقةٍ مُجحفة لإكراهك. وقد كنتَ على صواب في سردِ ما رأيته عيناك هنا في فرانكفورت، وبالرغم من أن الاستنتاج الذي جرى التوصلُ إليه كان غلطتي، فلست الملام في ذلك. فأنا أدرك مخاوفك، لكنني مع ذلك أزعَم أنني أملك موافقة رئيس الأساقفة بالفعل، والتي لم يسحبها يومًا.»

«أيها الأمير رولاند، إذا أحضرت كونتييسة فون ساين غدًا عصرًا، عندما تعلن الأجراس عن حلول الساعة الثالثة، فسأزوجكما، وسأقبلُ أية عقوبة تُفرض عليّ بصدر رحب. أخشى أن رداء الراهب لم يمحُ الاندفاع الشديد الذي يتصف به آل ساين. فربما أخفاه فقط في حالتي تلك. والآن، أتمنى ليلة سعيدة لك ولتحلَّ عليك بركات السماء أنت ومَن ستكون زوجتك.»

ذهب رولاند مباشرة من المصلى إلى غرفته الخاصة التي نام فيها نومةً من حسم أمره. إلا أنه لم يكن نومًا خاليًا من الأحلام؛ إذ إنه طوال الليلة بدا وكأنه يسمع جلبة الجيوش المسلّحة تجوب فرانكفورت الغارقة في سباتها، وقد كان هذا الصوت مستمرًا دون توقُّف حتى إنه استيقظ أخيرًا ولا يزال الصوت مستمرًا. فنهض في هلعٍ وفتح شيش نافذته، فذهل حين رأى الشمس قد أشرقت بالفعل فيما كان الصوت الذي أزعجه ناتجًا

عن جلبة موكب من الخيول الثقيلة الحركة، التي تجرُّ عرباتٍ محمَّلة بالمنتجات الزراعية فوق الطُّرق المعبَّدة بالأحجار.

وحين ارتدى ملابسه وأنهى فطوره، كتبَ خطابًا إلى رئيس أساقفة ماينتس يقول فيه:

سيدي رئيس الأساقفة، هناك بعض المقترحات المهمة التي أودُّ طرحها على الأمراء النخبين، ونظرًا لأنني لا ينبغي عليَّ التواصل معهم بنحوٍ مُنفرد، فأرجو منك أن تعقد اجتماعًا في الغد، في قاعة الانتخاب، في وقت الظهيرة. وربما يحق لي أن أضيف، إلى معلوماتك، أنه بالرغم من أن المقترح الأبرز يتعلَّق بإغاثة فرانكفورت، فإن المقترحات الصغيرة التي سأطرحها سيكون لها تأثير في تذليل العقبات التي تعترض طريقك في الوقت الحالي، وأزعم أن ما سأقوله سيلقى قبولًا شديدًا لديك.

لقد كان من الضروري جدًّا أن يصل هذا الخطاب إلى رئيس الأساقفة في أسرع وقت ممكن حتى إن رولاند كان هو الرسول، وقد أوصل الخطاب بنفسه إلى قصر رئيس الأساقفة. وبينما كان يهْمُ بالذهاب، إذ أفزعته يدٌ توضع على كتفه وتقلُّها يوحى بأنها عملية اعتقال لا تحية ودودة. فالتفت بسرعة ورأى الملازم الذي عامله بنحوٍ فظٍّ في الميدان. إلا أنه لم تكن هناك أيُّ بوادر سيئة على وجه الضابط.

«أما زلت تُشهر سيفك في أوجه الناس؟»

«نعم، أيها الملازم وبلا أي ضرر يُذكر. تلك معركة غير دموية أخوضها. أنا أثني على صنعه، وأترك للعظماء أمثالك، يا سيدي، أمر إثبات جودته.»

«أنت شابٌّ مُفعم بالحيوية، ونحن رجال ماينتس تُعجبنا الكفاءة، سواء أظهرها حربي أم نبيل. هل الخطاب الذي سلمته للتو كان موجَّهًا لسيادته؟»

«أجل أيها الملازم.»

«لن تكون له فائدة تُذكر.»

«يؤسفني أن أسمع منك هذا يا سيدي.»

«خذ نصيحتي، ولا تبذل أيَّ مجهود لمقابلة رئيس الأساقفة إلى أن تنتهي عملية الانتخاب. أرى أنك شابٌّ عاقل ورصين، وأعترف أنني مُعجب بك. فأنت الرجل الوحيد في فرانكفورت الذي أخبرني بالحقيقة كاملة بلا تردد، ولم أفق بعدُ من دهشتي. والآن،

عندما تعود إلى غرفتك المتواضعة في زاكسينهاوزن، فلا تُحاول الوصول إليها صاعداً
السلالم في خطوة واحدة؟»

«بالتأكيد، أيها الملازم.»

«عظيم جداً. بعد تحديد الإمبراطور، تعالَ إليَّ. وسوف أُقدِّم لك لرئيسي وإذا أعجبه
السلح الذي تصنعه، فسوف تتقدَّم خطوة لأعلى، ومن ثم ستظل تصعد إلى أن تصل إلى
ضابط يُمكنه إصدار أمر مدهش من أجلك.»

«أشكر أيها الملازم، وأتمنّى أن أستفيد من معروفك في وقت لاحق.»

رَبَّت الملازم على كتفِهِ وتمنى له التوفيق. وبينما كان رولاند يشق طريقه عبر الناس،
قال لنفسه في حسرة:

«أشعر بالندم لتخليّ عن منصب الإمبراطور، إن لم يكن فقط من أجل الشباب
الطيبين من أمثال هذا.»

تحولت فرانكفورت وكأنّها حرّك سحر عصاه فوقها. فقد كانت الشوارع تضج
بالبشر. وعربات المزارعين من كل نوع زادت المشهد عبثية، فيما شعر رولاند بالأسى
وعبس وجهه حين لاحظ مدى سوء تنظيم الاستعدادات من أجل التعامل مع التدفّق
المفاجئ للطعام، لكنه كان يرى أيضاً أن رجال رئيس أساقفة ماينتس كانت لهم يد
في تنظيم الأمور، وكانوا سرعان ما يتدخلون للتخلص من الفوضى. أما الزبي الرسمي
لرجال تريفيس وكولونيا فقلّمًا كان يُرى في المكان، في حين كان جنود ماينتس الهادئون
والحازمون في الوقت نفسه مُنتشّرين في كل مكان يأمرّون بعودة مَنْ حصلوا على الطعام
بالفعل إلى منازلهم، لكي يُفسّحوا الطريق لمن لم يحصل بعدُ على الطعام.

وفي النهاية، وصل رولاند إلى قصر كولونيا، عبر ميدانٍ يعجُّ بالناس. وهناك وجد أمّه
والكونتيسة، جالستين في غرفةٍ نوافذها تُطلُّ على الميدان، تراقبان المشهد المثير أمامهما.
وبعد أن حيّا أمّه، وجّه التحية إلى الفتاة مصحوبة بضغطة خفيفة على يدها.

سألت الإمبراطورة: «ما سبب كل هذا الصخب؟»

رَبَّت رولاند على صدره.

وقال: «أنا السبب يا أمي»، وروى لهما حكاية لجنة الإغاثة، وإذا كان التقدير يحمل
بين طياته المكافأة، فقد كانت مكافأته تكمن في معرفته أن كلتا السيدتين اتفقتا على كونه
أروع الرجال.

وتابع رولاند: «لكن في الحقيقة يا أمي، الفضل في هذا يرجع إليك. فقد كانت بداية هذا كله في الواقع هديتك لي المتمثلة في الخمسمائة تالر، عندما أُتيْتُ إليك لأطلب مساعدتك في الحصول على تلك الوثيقة التي ما زلت أحملها، ولولا وجود أموالك وهذه الوثيقة ما كان لهذا أن يحدث أبدًا. فكما تَرين، لقد كُنْتُ وفاضت كالخمسَة أرغفة والسْمكتين المذكورة في الكتاب المقدس، وهكذا أطعمت الكثيرين.»

ابتسمت جلالتها ونهضت.

وقالت بينما كانت تقبلُه: «أوه، يا رولاند، أنت دائماً تَنسب لأمك فضلًا أكثر من الذي تستحقه. لقد انفطر قلبي حينها لأنني كنتُ مُعِدِمة.» ثم غادرت الغرفة مدعية الشعور بالتعب.

صاح الشاب قائلاً: «هيلدا، عندما أناقش معك أيَّ أمر يصير هذا الأمر حقيقة. بالأمس اتفقنا على أن عرش الإمبراطور لم يكن مدعاة للحسد كأني كرسي بجوار مدفأة المنزل. واليوم أقترح ضمان الكرسي المجاور للموقد، وغداً سأَتخلَّى بكامل إرادتي عن العرش الإمبراطوري.»

أطلقت الفتاة صيحةً تعجُّب بدت وكأنها موافقة ومستاءة في آنٍ واحد، لكنها لم تنبس ببنت شفة، وأخذت تُحدق فيه عن كثب وهو يغدو في الغرفة ويروح، وتستمع إليه باهتمام وحماس. أخذ رولاند يذرع الغرفة جيئةً وذهاباً ويبدو عليه الحماس، ثم فصَّل الموقف بنحوٍ واضح للغاية كما عرفه من جريسِل.

«والآن، كما تَرين، يا عزيزتي إن أيَّ معارضة لرئيس أساقفة ماينتس تعني نشوب صراع، وبفرض انتصار أصدقائنا في هذا الصراع، فإنَّ هذا الانتصار نادرًا ما يكون أقل كارثية من الهزيمة. لقد اتخذت قرارِي في الحال، والذي دَعَّمه معرفتي برأيك في هذا الموضوع، بأنني لن أكون سببًا في أيِّ صراع مدني وإن كان هذا من أجل كل ممالك العالم.»

ردَّت الفتاة في أول كلمات لها: «يا له من قرار نبيل وحكيم!»

وقف الشاب أمامها وأخذ يروي لها بنبهة هادئة ما حدث وما قيل له في كنيسة الإخوة البندكت. كانت تنظر إليه بوجهٍ مُفَعَّم بالبهجة أثناء الجزء الأول من روايته، وكانت شمس ابتسامتها تشرق بين الحين والآخر على جوانب ثغرها؛ إذ كانت تتلمَّس رأي قريبها في تكرار حبيبها للكلمات، لكن حين تطرَّق الأمر لمسألة الزواج، شخصت ببصرها إلى الأرض ولم تجرؤ على رفعه مرة أخرى.

ثم قال في النهاية: «حسنًا يا هيلدا، هل تملكين شجاعة الذهاب معي، دونما رفيق أو وليٍّ أمر، إلى الكنيسة عصرًا في الساعة الثالثة؟»

نهضت ببطء، ولا تزال عيناها في الأرض، ثم وضعت يديها على كتفيه، ثم طوّقت بهما عنقه واضعة خدّها مُلامسًا لخدّه.

وقالت هامسة: «الذهاب إلى أيِّ مكان معك لا يحتاج إلى شجاعة يا رولاند. أحتاج إلى استجماع شجاعتي فقط حين أفكر مُرتعدة في الافتراق عنك.»

ومر بضع دقائق قبل استئناف الحديث.

سأل رولاند متأخرًا بعد أن تذكّر مُضيفه: «أين رئيس الأساقفة؟»

«خرج مع كونت بالاتين منذ نحو ساعة. أظن أنهما منزعجان قليلًا من هذه الجلبة غير المعتادة، ويَربغان في معرفة معناها. هل تريد الحديث مع وصيي؟»

«ليس قبل أن تُخبريني برغبتك في أن أفعل.»

«أنا لا أريد إلا ما تُريد، يا رولاند.»

«أنا سعيد لعدم وجود سيادته يا هيلدا. لنذهب إلى الحديقة يا هيلدا ونبحث عن مخرج هادئ إذا استطعنا.»

عُثرا على باب متين في الحائط من جهة الخلف، يكاد يُخفيه تكاثف الشجيرات حوله. كانت الأقفال قوية وصدئة، لكن براعة رولاند تغلّبت عليها، واستطاع أن يفتح الباب بنحو جزئي. وكان الباب مطلقًا على زقاق ضيق أمامه حائط آخر مرتفع. فنظر رولاند إلى بداية الممر ونهايته، فعلم أنه مهجور تمامًا.

فقال بينما يُغلق الباب مرة أخرى، لكن دون إعادة الأقفال إلى الوضع الذي كانت عليه: «هذا سينجح بامتياز.» ثم أخذ يديها بين يديه.

وقال: «أنت أغلى الفتيات وأنبلهن وأجملهن! يجب أن أترك الآن. انتظريني هنا في تمام الواحدة والنصف. وسوف أخرج من هذا الباب؛ إذ من الضروري أن أعرف بالضبط أين يلتقي هذا الزقاق بالشارع الرئيسي. وسوف يكون من المرح جدًا أن تبقي هنا واقفة ويبحث الأب أمبروز عنّا في الكنيسة، بينما أبحث أنا عن الزقاق عن كُتب ولم أجده.»

وقبل الموعد المحدّد بقليل، حافظ الشاب المتلهّف على مواعده وعندما ظهرت الكونتيسة في الموعد المنتظر بالضبط، فتح لها الباب، ثم أغلقه من خلفها وخرجًا معًا متجهين إلى مدينة فرانكفورت. وكان رولاند يشعر بسعادة غامرة حتى إنه بالكاد كان يَمنع نفسه من الرقص بجانبها.

وقال: «أود أن أمسك يدك وأُورجحها بين يديّ وأُريك معالم المدينة كما لو كنا شابَّين ينتميان إليها».

قالت الكونتيسة: «أنا فتاة ريفية، أرجوك ألا تنسَ هذا. فأنا لا أعلم شيئاً عن فرانكفورت ولا أيّ مدينة كبرى غيرها في الحقيقة».

«أنا سعيد بهذا؛ لأن هناك الكثير الذي يجب أن تريه في فرانكفورت. وسوف نذهب إلى الكاتدرائية؛ ذلك المبنى الأحمر الجميل، الذي تُميّزه الروعة والضخامة، والذي كان من المفترض أن نتزوَّج فيه ونُقيم حفلًا كبيرًا عديم الفائدة لو أنني توجَّت إمبراطورًا. لكنني على ثقة بأن الكنيسة البسيطة التي تقع في بلدة العمال زاكسينهاوزن ستُناسب صانع السيوف وعروسه أكثر».

وصَلَ الآن الشابان إلى الشارع المزدهم، الذي بدأ أكثر ازدهامًا من أيّ وقت مضى. وفي طريقهما للكاتدرائية، اشتد الزحام أكثر فأكثر حتى إن التقدُّم خطوات بات صعبًا. بدا التدفُّق متجهًا نحو اتجاه واحد، وجرفهما معه. أمسكت هيلديجوندي بذراع الشاب، وتشبَّثت به بشدة.

صاح رولاند، بينما كانت تتعالى الهاتفات لتصل إلى عَنان السماء: «إنهم يجرفوننا معهم شئنا أم أبينا نحو عدوِّنا القديم، كبير أساقفة ماينتس. ها هو ذا قصره المواجه للميدان. وثمة شيء يحدث أشبه بالمظاهرة. كم يبدو القصر ساكنًا وكئيبيًا، فهو مُغلَق الأبواب والنوافذ وكأنه منزل أموات! إنه يذكّرني بمالكة بطريقةٍ ما. فقد تصوَّرتَه يسكن في منزل تُخيم عليه الكآبة مثل هذا».

قالت الفتاة متسائلة: «هل تعتقد أننا مُعرَّضان لأي خطر؟ فالناس يبدون هادرين للغاية».

«كلا، لا يوجد أيّ خطر على الإطلاق. فهذه الحشود في أفضل حالاتها المزاجية. أنصتي لهتافاتهم المليئة بالحماس! لقد حصل الناس على الطعام؛ وهذا هو سبب الهاتف».

«أهذا هو سبب الهاتف؟ يبدو أنه احتفاء بكبير الأساقفة! استمع إليهم: «يحيا ماينتس! بارك الله في ماينتس!» لا يُوجد تذمُّر في هذا الهاتف».

ومع هذا فقد اتخذ نيافة كبير أساقفة ماينتس كل احتياطاته. فقد كانت أبواب ونوافذ القصر محكمة الغلق، وفي الجهة الأمامية للمبنى كان يصطف صفان من الجنود تحت القيادة الصامتة لضباطهم. كانوا واقفين أمام كاتدرائية بلا حراك وفي سكون تام وكأن على رؤوسهم الطير. استمرَّت الهاتفات بلا انقطاع. ثم فجأة، وكأن القصر المشثوم

فُتِحَ إحدى عينيه، فُتِحَ مصراع إحدى النوافذ الكبيرة المطلة على الرواق فوق الباب. وبعدها فُتِحَتِ النافذة تماماً. فتوقَّفتِ الهتافات، وفي وسط الصمت الذي خيم على المكان، خرج من قلب الظلام عجوز يكسوه الوقار، يرتدي رداء عمله الرسمي الطويل، وفوق رأسه الذكي قبعة رئيس الأساقفة الأنيقة. وبعد صمت دام للحظات علت الهتافات من جديد حتى بلغت غنان السماء، لكن العجوز لم يحرك ساكناً ولم يبدُ على وجهه الشاحب أيُّ تأثُّر.

همس رولاند أثناء فترة هدوء مؤقتة قائلاً: «بحق ملوك المجوس الثلاثة، يا له من رجل! القوة مُتجسدة فيه، لكنني أزعَم أن تلك هي المرة الأولى التي يلمس فيها شعبيته. أنا سعيد برؤية هذا المشهد، الشعب مع سيده. ما أسرع إدراك الناس لمن هو حاكم ألمانيا الحقيقي! وددتُ لو كان صديقي!»

رفع رئيس الأساقفة ببطء يديه المفتوحتين عالياً بضع لحظات ليمنح الجماهير بركته. فخدمت الهتافات من جديد وانحنت الرؤوس، ثم غادر رئيس الأساقفة المكان. وأغلقت أياض خفية النوافذ، وبعد لحظات أوصدت مصاريعها. بدأت الجموع تتشتت، ووجد الرفيқан الطريق يفسح أمامهما شيئاً فشيئاً.

دخلا معاً الكاتدرائية الحمراء الخالية وجلسا جاثين في إحدى زواياها المنعزلة. وبعد بضع دقائق تذكَّر رولاند أن الساعة دقت الثانية بينما كانا يُحدِّقان في رئيس الأساقفة. فلمس يد رفيقته برفق. وقاما وسارا ببُطء عبر الكنيسة العظيمة.

قال هامساً: «هنا يُتَوَجَّحُ الإمبراطور. دائماً ما يتزعَم رئيس أساقفة ماينتس هذه المراسم؛ ومن ثمَّ ففي النهاية هناك بعض المبررات لهذه الزعامة التي يدعيها لنفسه.»

سار الرفيқан مرة أخرى إلى الخارج ومشيا إلى فارجاسه، ثم إلى الجسر؛ حيث توقَّفت الكونتيسة تعبيراً عن بهجتها لجمال المدينة المطلة على الماء، التي تمجدها الشمس الغربية. وبعد أن عبرا النهر ونزلا إلى بروكنستراس بزاكسينهاوزن، قال رولاند:

«بالإشارة إلى مَنْ هم ليسوا بأباطرة، تلك هي غرفتي التي في الزاوية؛ حيث كنت أعيش حين كان من المفترض أن أكون في السجن.»

قالت الفتاة: «هل كنتَ تصنع السيوف هناك؟»

«كلا؛ توجد ورشتي أنا وجريسيل بعيداً على طول الشارع الجانبي هذا. إنها ورشة مُتواضعة لا أهمية لها، لكن هنا على الجانب الآخر، يوجد صرح مهم. إن هذا المبنى المنخفض هو دير البندكت، وهذا هو مُصلاه الصغير.»

زواج سري

لم تُبدِ الكونتيسة أيَّ تعليق، لكنها وقفت تحدّق في الكنيسة بضع لحظات إلى أن قطعت أفكارها الأصوات الرصينة لجريس أعلن عن حلول الساعة الثالثة. صعد رولاند والفتاة الدّرج وفتح الباب وأمسك به حتى دخلت ثم نزع قَبَعته وتبعها.

الفصل الثاني والعشرون

فليحيَ جلالة الإمبراطور والإمبراطورة!

لم يكن الرجل الأكثر شعورًا بالقلق في فرانكفورت بأكملها واحدًا من السادة العظماء الذين كانوا يحكمون الإمبراطورية، أو التجار الذين يُتاجرون فيها، أو العامة الذين تضرّروا جوعًا أثناء انقطاع حركة التجارة. لقد كان ذلك الرجل هو السيد دورنبرج، مدير رومر؛ أي المسئول عن مبنى مجلس المدينة، وهو رجل نحيل، كثير التدقيق، يرى نفسه شخصًا ذا مكانة عظيمة، يتملّق مَنْ هم أعلى منه شأنًا، ويحتقر مَنْ هم دونه. لقد كان القادة الذين عمل هذا المسئول البسيط تحت إمرتهم مُتغطرسين وغير عقلانيين. فكانوا لا يُفصّحون له عن نواياهم بنحوٍ كامل، ولكنهم كانوا يسحقونه بلا هوادة وكأنه حشرة، إن أخفق في أداء واجبه تجاههم بدقة.

يا لدورنبرج البائس! ففي كل صباح كان يتوقّع انعقاد المجلس الانتخابي، ولكن كانت تصيبه خيبة الأمل في المساء. لقد اقتضت مهمّته الأولى تجهيز الطاولة الموجودة في تلك الغرفة الكبيرة، القاعة الإمبراطورية، وإعداد مأدبة عليها ليتناولها الإمبراطور الجديد والأمراء السبعة النخبين الذين انتخبوهم. وكان من واجبه أيضًا تجهيز خزّانين كبيرين من النبيذ، أحدهما يحتوي على النبيذ ذي اللون الياقوتي الذي يُعصر في أسمانسهاوزن، والآخر على النبيذ الذي له لون القش، والذي اشتهرت به هوخهايم. وكان هذان الخزانان يتصلان عبر أنبوبين بنافورة بسيطة غير مُركّشة توجد أمام مقر مجلس المدينة في الميدان المسمّى رومربيرج. وعندما تجري عملية الانتخاب، كان السيد دورنبرج سيوقف تدفّق المياه من النافورة، ويفتح صنبور تدفّق النبيذ، وهكذا لمدة ساعة ونصف كان سيتدفّق نبيذ أسمانسهاوزن الأحمر الفاخر من الفوّهة الشمالية ونبيذ هوخهايم الأبيض الرائع من

الفوهة الجنوبية. إنَّ النبذ لا يفسد ويبقى فترة طويلة، أما العشاء فلا؛ لذا كان دورنبرج البائس يُعدُّ المأدبة تلو الأخرى ولكن دون أن يمَسَّها أحد.

في النهاية، ظن السيد دورنبرج أنه يوشك أن يُكافأ على يقظته. فقد ظهر شاب وشابة مُبتهجان، يبدو أنهما عاشقان، على الدَّرَج العريض المتعرِّج جهة الممر المؤدي إلى البابين العظيمين للقاعة الإمبراطورية، وأخذ الشاب يطرق على لوحِي باب المبنى القويين بمقبض سيفه. وفتح السيد دورنبرج الباب بنفسه وقال بخطرسة:

«رومر مُغلق، ولن يَفُتَح أبوابه للغرباء إلا بعد انتهاء عملية الانتخاب.»

«ورغم ذلك سندخل. أنا الأمير رولاند وقد أُتيْتُ للقاء هيئة المجلس الانتخابي التي ستُنعقد ظهراً في قاعة الانتخاب المجاورة. وأنت يا رئيس رومر ستُخبر أعضاء المجلس المبجلين بحضوري، وستقوم باستدعائي لمقابلتهم عندما يأمرؤك بذلك.»

انحنى السيد دورنبرج بشدة حتى كاد رأسه يلامس الأرضية اللامعة، وانطلق ليفتح البابين وتراجع للخلف وقد ازداد انحناءه وهو يُناشدهما بالدخول. أغلق دورنبرج النشيط البابين لأنَّ الأمراء الناهخين سيصلون إلى قاعة الانتخاب من طريقٍ خاص لا يسلكه أحد سواهم، وأحضر مقعدين ووضعهما في الواجهة إلى جوار النوافذ، ومرة أخرى خاطر بالسقوط على أنفه وهو ينحني أمام زائريه المبجلين طالباً منهما الجلوس على المقعدين حيث يُمكنهما تسلية نفسيهما بمُشاهدة الحشد الهائل الذي اكتظ به روميربرج من أوله لآخره؛ إذ كانت فرانكفورت بأكملها على علم بأن عملية الانتخاب وشيكة، وبعد المأدبة، وبعدما يبدأ النبذ في التدفُّق في النافورة، كان سيظهر الإمبراطور الجديد مُعلنًا عن نفسه أمام شعبه بعدما يغادر القاعة الإمبراطورية ويُطلُّ من الشرفة التي أمامها.

«هل تَشْعُرِينَ بالخلج تجاه مقابلة هذا الجمع العظيم؟ تذكري أنك تملكين على الأقل صديقَيْن صالحَيْن من بينهم.»

وضعت الفتاة يدها في يده، ونظرت إليه بحنان.

وقالت: «أنا لا أخشى شيئاً يا رولاند وأنت معي.»

«لولا وصيك لما طلبت منك تكبُّد هذه المشقة. ستكون دهشته صادقة وغير مُفتعلة عندما نعلن عن زواجنا، وهكذا لن يستطيع حتى رئيس أساقفة ماينتس المرتاب أن يتهمه بالتواطؤ فيما فعلناه. لا شك أن قوة موقعي تكمن في تنفيذي للطلب الرسمي لرؤساء الأساقفة الثلاثة؛ ذلك الطلب الذي لم يُعارض أبداً.»

وقبل أن تتمكَّن من الرد عليه دَقَّت الساعة معلنةً حلول الثانية عشرة. دخل السيد دورنبرج المهذَّب من قاعة الانتخاب واقترب منهما بهدوء.

وقال: «جلالتك، معالي الأمراء الناخبين يطلبون منك الحضور إلى قاعة الانتخاب.»
«كم عددهم، يا مدير رومر؟»

«أربعة، يا صاحب السمو؛ رؤساء الأساقفة الثلاثة وكونت بالاتين.»
تنفّس رولاند بارتياح وقال: «حسنًا»، بعدما تبيّن له أن رئيس أساقفة ماينتس لم يستدعِ الشخص البديل الذي سيّنتخبه إمبراطورًا، وتأكّد له الآن أن الأمير الناخب السابع لم يصل. ونظر إلى زوجته نظرة تشجيع وتوجّه ليلتقي بالحضور.
كان السيد دورنبرج قلقًا بشأن النتيجة، وأظهر ميلًا لإغلاق الباب والبقاء بالداخل، ولكن رئيس أساقفة ماينتس أصدر له إشارة حاسمة دفعت الرجل الطيب إلى البقاء في الخارج.

افتتح رئيس أساقفة ماينتس إجراءات الجلسة.
قال: «بالأمس تلقّيتُ رسالة من جلالتك تطلب فيها منّي عقد هذا المجلس. وأنا شأني شأن زملائي لا علم لي بما تودُّ طرحه علينا. ولهذا أعلن لك أننا مستعدون للإنصات لما ستقوله.»

بدأ الأمير حديثه بهدوء شديد قائلاً: «أشرك يا سيدي رئيس أساقفة ماينتس. عندما تشرفت بلقاء ثلاثكم لأول مرة في قلعة إيرنفيلس، وقّعت على وثائق محدّدة، وتوصّلت معكم إلى اتفاقات شفوية أخرى. أنا ما زلت شخصًا يفتقر إلى الخبرة، ولكنني في ذلك الوقت، ورغم مرور أيام قليلة نسيًا، لم أكن إلا صبيًا، يثق في حسن نوايا العالم أجمع، ولا يعلم شيئًا عن خداعه. ومنذ ذلك الحين وأنا أجتاز تجارب مريرة وأتعلم دروسًا قاسية، ولكن أيًّا من ذلك لم يُنبّط من عزمي؛ ففي حين قابلت رجلًا ماكِرًا ومُخادعًا، قابلت رجلين جديرين بالثقة.»

رد عليه رئيس أساقفة ماينتس، بتهذيب، قائلاً: «عذرًا، أنا لم أكن أعلم أن خطابك المُقترح سيكون عظة. إن كنت تهدف إلى إلقاء محاضرة عن الأخلاق فأرجو منك ألا تنسى أن قاعة الانتخاب هذه ليست إلا مكانًا لإدارة الأعمال، وما تقوله يُناسب أكثر مصلي كنسيًا أو حتى كنيسة وليس غرفة الانتخاب الخاصة بالإمبراطورية.»

قال رولاند بتواضع: «أعتذر يا سيدي إن لم تحظَ مقدّمتي بقبولك. أوّكد لك أنني كنت أطمح إلى عكس ذلك تمامًا. كان غرضي أن أوضح لكم سبب التغيّر الذي حدث لي، ولهذا ...»

«يؤسفني مقاطعتك من جديد، ولكن أيًا كان سبب تغْيُرِكَ فهذا لا يهم كثيرًا أحدًا سواك. لقد بدأت حديثك بتوجيه اتهامات غامضة بالخداع والمكر وما إلى ذلك، تجاه شخص أو أشخاص مجهولين. هل لي أن أطلب منك أن تكون محددًا؟»
«هل سيادتكَ تطلّب منّي أن أذكر أسماء؟»

بدأت علامات الانزعاج على رئيس أساقفة كولونيا، وبدأ رئيس أساقفة تريفيس في حيرة من أمره وهو ينقل نظره بين زميليه، أما كونت بالاتين فكان جالسًا ويتابع باهتمام، مُستندًا بمرفقيه إلى الطاولة وذقنه الكبير يستند إلى يديه الضخمتين.

قال رئيس أساقفة ماينتس بهدوء تام وكأنه لا يشعر بأي ارتباك: «إنك يا صاحب السمو خيرٌ من يُقرَّر هل ينبغي ذكر أسماء أم لا. ولكن عليك إدراك أن تلميحاتك بالمؤامرة والخداع تجعلنا بالتأكيد نتوصّل لاستنتاجات محدّدة. وحيث إنك لم تُتَحِّ لك الفرصة لمقابلة أتباعك خلال الفترة التي تتحدّث عنها؛ من ثمّ فإن تلك الاستنتاجات تدفعنا للاستدلال بأنك تتحدّث عن أحد الأشخاص الثلاثة الذين قابلتهم. لذا أنصحك بالتوقّف عن أسلوب التلميح الذي تستخدمه أو شرح مقصدك بوضوح.»

«أودُ بشدة أن أُنحني أمام سيادتكَ تعبيرًا عن تحيّي لقرارك الذي يتميز بالحكمة التي تصاحب كل كلمة تنطق بها نيافتك. لهذا سأذكر أسماء الرجال الصالحين والطالحين.»

نظر رئيس أساقفة ماينتس إلى الشاب في ذهول، ولكنه اكتفى بقوله:

«تابع، يا سيدي، طريقك المحفوف بالمخاطر.»

«إنني أتولّى رئاسة جماعة من القراصنة. عندما غادر هؤلاء الرّفاق فرانكفورت تحت قيادتي بدأ أنا جميعًا على وفاق. تألّفت جماعتي بالكامل من الحدادين، وهم مجموعة من الرفاق الشباب الذين في حالة بدنية وذهنية ممتازة، ولكن قبل يوم واحد من الانطلاق في رحلتنا وجدّ نفسي في مواجهة تمرد. كان قائد هذا التمرد رجلًا يدعى كورزبولد، وهو رجل حقير خائن حكمتُ عليه بالموت. أما الرجلان اللذان وقفّا إلى جانبي فهما جريسيل وإبرهارد، لذلك قلتُ إنني عندما واجهت شريرًا واحدًا قابلتُ رجلين جديرين بالثقة.»
سأله رئيس أساقفة ماينتس: «متى حدث ذلك؟ وماذا كان غرض مهمة القرصنة تلك؟»

صاح رئيس أساقفة كولونيا، بعد أن عجز عن تمالك نفسه وهو يرى المصير الكارثي الذي سيؤول إليه الأمير بسبب اعترافه، قائلًا: «يا إلهي، أيُّ جنون أصابك؟! ألا تلاحظ أثر تلك الاعترافات المقلقة؟»

ابتسم الأمير وأجاب أولاً عن السؤال الأخير.

«إنه اعتراف صادق يا سيدي لما يُمكن اعتباره تصرفاً غير شريف. إنها أمور لا بد لك من الإحاطة بها قبل الجلوس لانتخاب إمبراطور.»

وتابع حديثه وهو يلتفت باتجاه رئيس المجلس قائلاً: «إنك تسألني عن توقيت حدوث ذلك يا رئيس أساقفة ماينتس. فقد وقع عندما كنت تظنُّ أنني سجينك في إيرنفيلس. فإنك لم تحتجِزني هناك ولا ليوم واحد. فلقد استمتعت خلال هذه الفترة بالتجول في البلاد. ونجحت في إجراء فحص متأنٍّ لدفاعات كل قلعة تقريباً على نهر الراين، بداية من مدينة بون وانتهاءً بمدينة ماينتس. لقد سألتني عن غرض مهمتنا تلك، أليس كذلك؟ دعني أخبرك أن غرضها كان سلب الكنوز المسروقة داخل قلاع اللصوص، وصادف أن نتج عن ذلك دمار قلعة فورستبرج بعد أن التهمتها النيران. وانتهت رحلة النهب في فالتس؛ حيث سلبتُ الفالتسجراف ثروته وحرَّرت كونتيسة فون ساين التي كانت مسجونة بنحو غير قانوني بين جدران ذلك الحصن.»

صاح كونت بالاتين وهو يضرب بقبضته على الطاولة وكأنها مطرقة ثقيلة، قائلاً: «بحق ملوك المجوس الثلاثة، إنك لرجلٌ بحق، وأنا أفتخر لأنني سأحظى بشرف التصويت لك.»

تحدث رئيس أساقفة تريفييس للمرة الأولى قائلاً: «أُتفق مع أخي رئيس أساقفة كولونيا في أن هذا الشاب لا يُدرك تمامًا الحجم الحقيقي للعواقب الحتمية لكلماته المروعة. بالطبع أنا وسيدي رئيس أساقفة ماينتس كنا سَنمنحه صوتينا، ولكنَّ صوتينا سيُعطيان على مضضٍ لمن اعترف بأنه لصٌ ومُخربٌ.»

أشار إليهما رئيس أساقفة ماينتس قائلاً: «لا تتسرَّعا أيها السيدان. فلسنا هنا للإدلاء بأصواتنا. لقد أعلنت منذ قليل عن عدم اهتمامي بقصتك، وها أنا ذا أعلن تراجعِي عن ذلك. وبعد سماعك أوافقك الرأي على أن الكونتيسة سُجنت ظلمًا. فهي كانت دقيقة في تقديرها لشخصيتك.»

«أنا لا أوافقك الرأي في ذلك يا سيدي؛ فأنا لا أعُدُّ نفسي لصًا أو مُخربًا أو سارقًا أو قرصانًا. بل أزعِم أنني الشخص الذي استردَّ تلك الممتلكات المسروقة. وعلى الرغم من أن إراقة الدماء تُعد إحدى السمات المميزة للعمل الذي أدَيْته، فإنني لم أُرِقْ أيَّ دماء. ولم يكن الحرق إلا حدثًا عارضًا اضطررت إليه بعد وقوع ثمانية عشر رجلًا من رجالي في أسرِ المارجريف الأحمر وأمره لرجاله بشنقهم. لقد شتَّت انتباهه عن تنفيذ هذا الإعدام

بتنفيذ أول فكرة خطرت ببالي وهي إحراق قلعة. سيدي، لقد وعدت في رسالتي بالأمس أن أزيل بعض العقبات من طريقك. ولهذا فأنا أزيل إحداها بقولي إن أحد أهداف هذا المجلس هو إعلاني التخلي عن حكم الإمبراطورية، وعليه أشكر سيدي الكونت على الشرف الذي مَنَحني إياه، وأطمئن سيدي رئيس أساقفة تريفيس بتأكيدي له أن تخليّهُ عني لن يصيبني بالذعر. والآن يا سيد ماينتس هل ستُنصت جيداً لاقتراحي؟»

رد رئيس الأساقفة بلهجة يشوبها اللطف: «أيها الأمير رولاند، أنا لم أستمع من قبل لراو يقصّ حكاية مُفعمة بالحياة مثلك. تابع حكايتك أرجوكم.»

«عندما انطلقت عاصبتنا من فرانكفورت، ظننا أننا سننقسم الذهب فيما بيننا بالتساوي. ولكنني تعلمت من التمرد الذي واجهته استخدام فنون الدبلوماسية التي أحقرها. كنت أُمَل أن أحظى بسلطة عليهم لإقناعهم بالموافقة على التخلي عن هذه الثروة لصالح فرانكفورت. يُسعدني القول بأنني حققتُ مرادي، وشاهدتُ بالأمس واليوم النتائج التي أثمرت عنها جهودي، وهي إغاثة مدينة أهلها يتضورون جوعاً. أنا لم أفعل شيئاً سوى انتزاع الثروة من السارقين لصالح أولئك الذين تعرّضوا للسرقة. وبمعرفة حقيقة المشاعر المتأججة التي تحرّض أهل هذه المدينة ضد سيادتكم، فقد جعلت أتباعي يعلنون أن الفضل في هذه الإغاثة يرجع إلى رؤساء الأساقفة.»

سيدي رئيس أساقفة ماينتس، إنني عندما رأيْتُ بالأمس تطلُّ من شرفتك الخاصة، أدركت أنك أكثر شخصية قوية ومبجّلة رأيَتها في حياتي، وعندما سمعت التهاتفات الرنانة ترحيباً بكم، حينها فقط أدركت ما لم أدركه من قبل، وهي عبقرية فخامتكم، ولعنتُ حظي التّعس الذي حرَمني من صداقتك. فما الذي لا يُمكننا تحقيقه للوطن معاً؟ أنا بشبابي وطاقتي تحت وصاية حكمتك وخبرتك. لقد تذوّقتُ هناك، ربما للمرة الأولى في حياتك، كأس الشعبية المسكرة، ولكنها لم تؤثر فيك أكثر من تأثير شربك لكأس نبيذ من نافورة رومبريرج.

والآن، أيها السادة، إليكم ما أطلبه منكم، وسيُتضح لكم إلى أيّ مدى كنتُ سأعتمد عليكم لو وقع عليّ الاختيار لشغل المنصب الذي عرضتموه عليّ في البداية. أطلب من سيادتكم يا رئيس أساقفة تريفيس سحب قواتك التي قوامها ثلاثة آلاف جندي إلى الجانب الآخر من نهر الراين.»

صاح رئيس أساقفة تريفيس مندهشاً من هذا الاقتراح السخيف قائلاً: «أنا لن أفعل شيئاً كهذا.»

تابع رولاند حديثه دون اكتراث:

«وأطلب منك يا رئيس أساقفة كولونيا السيرَ بقواتك إلى أسمانسهاوزن.»
صاح رئيس أساقفة كولونيا الغاضب قائلاً: «أنت حقاً تتثرثر كالصبي الذي أشرت إليه قبل قليل. فأنت لا تملك أيَّ فهم لفنون الحكم.»

لاحظت ابتسامة خفيفة على الشفتين الرفيعتين لرئيس أساقفة ماينتس، عندما لاحظ إخفاق زميليه في إخفاء خوفهما من تركه يتمتع بالسلطة الكاملة في فرانكفورت. فالاقتراح الساذج الذي أغضب أخويه لم يتسبب إلا في إسعاد رئيس أساقفة ماينتس. فالعبيثية التي أظهرها هذا الشاب كانت شيئاً رائعاً. ابتسم رولاند في تعاطف وهو ينظر إليه، ولكن كلماته التالية نزعت أيَّ تعبير يوحي بالسعادة من وجه رئيس أساقفة ماينتس.

«أتمنى أن أنجح في كسب موافقتك يا سيدي. أنا أدرك بالطبع أنني لا أمتلك أيَّ صفة لدى هذا المجلس بعد رفضي للشرف الذي كنتم تنوون منحي إياه. أطلب منك تجنيد سبعة آلاف جندي في هذه المدينة»، ثم صمت قليلاً وأضاف: «السبعة آلاف جندي لن يَخْرُجوا من المدينة يا سيدي.»

لمح رولاند نظرة خوف في عيني رئيس الأساقفة، ولكنه أخفاها سريعاً، ولكن كانت نبرة سيادته ثابتة كعهده دائماً، حين سأله:
«ماذا تقصد بقولك ذلك؟»

«أقصد أن مدينة ماينتس أقرب إلى فرانكفورت من كولونيا أو تريفيس.»
«لا يمكن إنكار تلك المعلومة الجغرافية. ولكن ماذا سأفعل بعشرة آلاف رجل بمجرد وجودهم هنا؟»

«سيدي، إنني معجب بالانضباط الصارم الذي يتمتع به رجالك، وفي تقديري أن عبقرية التنظيم التي يتمتعون بها يستمدونها من تلك الخاصة بضباطك، والذين بدورهم، حسبما أعتقد، يستمدونها من عبقريتك التنظيمية. فأنا أفضل من يعلم حالة الارتباك التي جلبتها جهود الإغاثة هذه على المدينة. وأقترح أن يقسم ضباطك الأكفاء هذه المدينة إلى أقاليم ويعلنوا الأحكام العرفية، ويُقدِّموا لكل مواطن حصص الطعام وكأن كل رجل وامرأة وطفل ينتمون لأفراد جيشك. وفي غضون ذلك يجب إعفاء التجار من تلك المهمة لأنهم أثبتوا أنهم ليسوا أهلاً لها، وليركِّزوا جهودهم على التجارة. ففي أفضل الأحوال لا بد أن تكون تلك الجهود الإغاثية مؤقتة. المهمة الأساسية التي لا غنى عنها الآن هي فتح نهر الراين. سيتولى التجار تحميل كل السفن التي ترسو فوق النهر بالبضائع، وسيرافق جيشا

تريفيس وكولونيا هذا الأسطول إلى المدينة الأخيرة بأمان. وفي أثناء عبورهما سيقدمان إنذارًا للملاك كل قلعة يأمرانهم فيه بالمشاركة بالأموال التي يملكونها للمساهمة في المزيد من جهود الإغاثة لفرانكفورت حتى تنتعش التجارة من جديد، وسيؤكدان على كلٍّ منهم أنه حال اعتدائه على تلك التجارة ستُصادَر قلعته وسيكون مصيره السجن أو الشنق.»

«أرى أنها خطة جيدة يا صاحب السمو، وأنا أؤيدها عن طيب خاطر إن ضمنت لي دعم زميلي، اللذين أرى أنهما رفضاها بالفعل للأسف.»

نظر سيادته إلى كلٍّ منهما، لكن لم يرجع أيٌّ منهما عن قراره.

تابع رئيس أساقفة ماينتس قائلًا: «أيها الأمير رولاند، يبدو أننا وصلنا إلى طريق مسدود، وأخشى أن سبب ذلك هو عدم ثقة أيِّ إنسان في أخيه الإنسان، وهو ما كنت تأسف له قبل قليل. ولكنني أعترف بأنني سعيد جدًا بأسلوب تفكيرك الذي اتضح في أثناء حديثك معنا، والآن بعد أن دفعتنا نوايانا الطيبة المتبادلة إلى طريق مسدود، أُرغب في معرفة المقترحات الأخرى التي تحرص على تقديمها.»

«بكل سرور يا سيدي. أنا أقترح أن تشرعوا على الفور في إجراءات انتخاب الإمبراطور؛ لأن التأخير في اختياره قد تسبَّب بالفعل في قلق وتوتر يهدِّد سلام هذا الوطن.»

«أها، الكلام أسهل من الفعل، يا صاحب السمو. فبعد استبعادك للشخص الذي أجمعنا عليه سابقًا، أرى أنه يجب عليك على الأقل اقتراح بديل.»

«مرة أخرى يسعدني ذلك يا سيدي. يجب عليكم اختيار رجلٍ هادئٍ ومُعتدلٍ، وإن أمكن، شخص معروف جيدًا لدى مواطني فرانكفورت ويحظى بتقدير الجميع في كل مكان. ويجب أن يكون رجلًا في منتصف العمر ...» بدأت عينا رئيس أساقفة ماينتس تضيق من جديد وشفثاه تطبقان. فأردف رولاند قائلًا: «وإن كانت لديه خبرة في شئون الحكم فسيكون ذلك أفضل. والشخص المتزوِّج بالفعل سيكون أفضل من الأعزب، وهكذا لن تُثار أيُّ اعتراضات تخصُّ المرأة التي سيتزوجها؛ فأنا لست بحاجة لتذكيركم بالاعتراضات التي أثَّرت في حالتي. يجب اختيار رجل ذي عقل راجح، لن يُجازف بالعبث بالمثل العليا للشعب الألماني، مثلما قد يفعل شابُّ أصغر وأقل اتزانًا. ولا شك أنه يجب أن يكون أحد أبناء الكنيسة الصالحين ...»

صاح رئيس أساقفة ماينتس بصرامة قائلًا: «حسبك! حسبك! إننا مرة أخرى بصدد نموذج أخلاقيٍّ يستحيل تجسيده. هل هناك شخص كهذا في ذهنك أو أنك تمنحنا فقط مشورة مثالية؟»

قال رولاند: «على الرغم من تشاؤمي، فأنا ما زلت أحسن الظن بأبناء وطني وأومن بأن الكثيرين منهم تَنطَبِقُ عليهم هذه الأوصاف. ولا يسعني تقديم أيِّ توصية لمن هم أفضل مِنِّي في الحُكم على الآخرين، ولكن كمثال فقط، يُمكنني ذكر كارل دوق هيس العظيم؛ فهو يَسْتوفي جميع الشروط التي ذكرتها».

أخذ الرجل العجوز الجالس في مقعده والشاب الواقف يُحَدِّقُ كُلُّ منهما في الآخر باهتمام شديد، لفترة بدا في أنظار مراقبيهما أنه كان يسودها التوتر والإثارة. عرف رئيس أساقفة ماينتس على الفور أنَّ الأمير قد علم بنواياه، ولكنه كان يَجْهَل كيف علم بذلك، وبأن جلالته هو الشخص الوحيد الذي يعلم سبب تأجيل الانتخابات، إلا أن الأمير نقل هذه المعلومات مُباشرة إلى أكثر شخص معنيٍّ بالأمر من بين الحضور، والذي أرادهم أن يظلُّوا على جهلهم بما يدور، دون أدنى تلميح بالوضع الفعلي للأمر.

تأكَّد إلى حد كبير الانطباع الأول الإيجابي الذي شكَّله رئيس الأساقفة عن رولاند في إيرنفيلس خلال هذا الاجتماع. وحتى أكثر الرجال صرامة يتأثَّر بنحوٍ أو بآخر بالإطراء، إلا أن رولاند في إطاره نجح في توضيح صدقه في هذا الثناء.

تحدَّث رئيس أساقفة ماينتس أخيراً قائلاً: «فلنفترض أننا انتخبنا الدوق العظيم كارل إمبراطوراً. فماذا بعد؟»

«لا داعي للسؤال يا سيدي، ستنسحب قوات الجيش الثلاث المتنازعة التي تحتل فرانكفورت حالياً، وسينتقل خط الخطر إلى الجانب الأيمن.»
حينئذٍ طرح رئيس أساقفة ماينتس السؤال الذي كان يراه مُهمًّا. وحاول من جديد دفع الشاب للإفصاح بوضوح عما يعرفه بالفعل.

«هل لسموِّك أن تَمَنِّحنا سبباً يجعلك تخشى الخطر من وجود القوات التي يقودها ثلاثة رجال ودودون مثلي أنا وزميلي؟»

«ما أخشاه هو اضطرار أيِّ منكم لاستخدام سُلطته مُكرهاً، ويُمكنني تفسير مخاوفي بنحوٍ أفضل من خلال الاستشهاد بحادثٍ أشرت إليه بالفعل. لم يكن لديَّ أيُّ نية لحرق قلعة فورستنبرج، ولكنني اضطررتُ لذلك فجأةً. لقد كنت مسئولاً عن سلامة رجالي. ولم أتردَّد لحظة واحدة في إحراق القلعة. لا مجال للشك في النوايا الطيبة لمعالي رؤساء الأساقفة الثلاثة، ولكن في أيِّ لحظة قد يؤدي شجار في الشارع بين جنود، لنقل رئيسي أساقفة كولونيا وتريفيس، إلى اندلاع أزمةٍ لا يُمكن قمعها إلا بإراقة الدماء. هل اتضحت لك وجهة نظري؟»

«أجل يا صاحب السمو، اتضح، ووجهة نظرك معقولة. إنني سأمنح كامل ثقتي لإمبراطورنا القادم بحيث سأسحب قواتي طوعية من فرانكفورت على الفور. علاوة على ذلك، سأفتح نهر الراين بأن أرسل على ضفتيه الإنذار الذي اقترحته، ليس بدعم من جيشي وإنما باسم رئيس أساقفة ماينتس، وسأكون مهتمًا بمعرفة أي بارونات نهر الراين سيتجروا على الاستهزاء بهذا الاسم. هل ستقبل مساعدتي أيها الأمير رولاند؟»

«أقبلها يا سيدي بامتنان عميق، وأعلم أنها ستثبت نفعها.»

نهض سيادته واقفًا في مكانه.

«لقد قلت بأن هذا ليس مجلسًا انتخابيًا. ها أنا ذا أقف لأعلن أنني كنت مخطئًا. لقد اجتمعنا، نحن الأمراء النخبين، هنا ونحن نشكل أغلبية المجلس. لذا أقترح عليكم انتخاب الأمير رولاند، نجل إمبراطورنا الراحل.»

صاح رولاند رافعًا يده معترضًا: «سيدي، انتظر، أنت لا تعرف كل شيء بعد.»

هتف رئيس الأساقفة منزعجًا: «لئلهمني الله الصبر! إننا لسنا بكهنة اعتراف. فلا تخبرنا الآن بأنك ارتكبت جريمة قتل!»

«لا، يا سيدي، ولكن لا بد أن تعلم أنني تزوجت السيدة هيلديجوندي، كونتيسة فون ساين، التي رفضت سيادتكم بالفعل أن تصبح إمبراطورة.»

«حسنًا، إن وافقت على السيدة، فلا بأس. أظن أنك اتخذت قرارًا ممتازًا.»

حان الآن دور رئيس أساقفة كولونيا المذهول ليهب واقفًا.

«ما يقوله سموه مستحيل. كانت سيدة ساين في رعايتي منذ دخولها فرانكفورت، وأقسم بأنها لم تغادر قصري أبدًا!»

«لقد تزوجنا بالأمس في الساعة الثالثة، في كنيسة الآباء البندكت، وبحضور أربعة منهم. لقد غادرنا قصر، يا سيدي، من باب في سور حديقتك بالقرب من المنزل الصيفي، وزوجتي موجودة في الغرفة المجاورة لتلتمس عفوك.»

سقط رئيس أساقفة كولونيا في مقعده ومرر يده فوق جبينه وبدا حائرًا. وبدا أن الوضع يروق لرئيس أساقفة ماينتس.

«تمنييت لو لم تبج سموك بهذه المعلومة حتى أتأكد من أن أخي رئيس أساقفة تريفيس سيصوت معي كما وعدني. أخي رئيس أساقفة تريفيس، لقد سمعت اقتراحي. هل يمكنني الاعتماد على موافقتك؟»

لقد انهارت كل خطط رئيس أساقفة تريفيس فجأة، لدرجة أنه لم يستطيع فعل أي شيء في مواجهة نظرة رئيس أساقفة ماينتس الملحة سوى التلعثم معلنًا إذعانه له.

فليحيَ جلالة الإمبراطور والإمبراطورة!

وقال بصوتٍ لا يكاد يُسمع: «أمنح صوتي للأمر.»

«وأنت يا معالي رئيس أساقفة كولونيا؟»

فأجاب بفضافة قائلاً: «أوافق.»

«وكونت بالاتين؟»

رد الأخير بصوتٍ مُدوّ: «أوافق. إنه خيار يحظى بموافقتي التامة، وأنا أتحدث الآن عن الإمبراطورة والإمبراطور معاً.»

صاح رئيس أساقفة ماينتس مُنادياً: «دورنبرج!»

فُتحت الأبواب على الفور وظهر رئيس رومر الخاضع.

«هل المأدبة جاهزة؟»

«جاهزة وفي انتظار وضعها على الطاولة يا سيدي.»

«ونبيذا النافورة؟»

«لا يَنقص سوى فتح الصنبور يا سيدي.»

«أعدَّ المأدبة، وافتح الصنبور؛ وبما أن الإمبراطور الجديد غير معروف للعامة، فلتأمر الرسل بالانطلاق في البلاد ومعهم الأبواق ليُعلنوا انتخاب رولاند أمير فرانكفورت إمبراطوراً.»

«سمعاً وطاعة، يا سيدي.»

قادهم رئيس أساقفة ماينتس متجهاً إلى القاعة الإمبراطورية الكبرى، ونهضت الإمبراطورة الجديدة من مقعدها ووقفت في مكانها، وكان وجهها الأبيض الشاحب يُشبه الزي الذي ترتديه. تقدَّم إليها رئيس أساقفة ماينتس وانحنى برأسه الأشيب فوق يديها التي أمسكها بين يديه.

وأعطاهما أول تلميحٍ بما آلت إليه الأمور، فقد قال بنبرة جادة: «جلالة الإمبراطورة،

أهنئك على زواجك، فقد هنأْتُ زوجك بالفعل.»

قالت بنبرة مترددة: «سيدي رئيس الأساقفة، لا يُمكنك أن تلومني على طاعتي لك.»

«أعتقد أن أوامري البائسة كانت ستُصبح في مهبِّ الريح لولا العون الذي قدَّمه لي

جلالته.»

وتوارت التحيات التي قدَّمها الباقون وسط هتافات الحشود الهائلة التي ملأت رومبيرج. بدأ النبيذ الأحمر والأبيض في التدفق، وعلم العامة بما حدث. وفي الفترات الفاصلة بين صخب الأبواق، سمعوا أن أمير مدينتهم انتُخب إمبراطوراً، فتوجَّهت أنظار

الجميع إلى رومر، وعلت الصيحات التي تهتف باسم الإمبراطور الصادرة من الجميع.
شعر الحشود بأن عهدًا جديدًا قد أشرق.
قال رئيس أساقفة ماينتس: «أظنُّ أنه حتى يومنا هذا لم يظهر من تلك الشرفة
إلا الإمبراطور، ولكنني أقترح اليوم أمرًا لم يسبق له مثيل. دع الإمبراطور والإمبراطورة
يظهرا أمام العامة.»
أشار إلى السيد دورنبرج، وفتَح الأخير النوافذ الطويلة، ثم أمسك رولاند بيد زوجته
وخرجا إلى الشرفة.

